حيدر حيدر

وليمة لأعشاب البحر

«نشيد الموت»

رواية



وليمة لأعشاب البحر

(نشيد الموت)

* حيدر حيدر
* وليمة لأعشاب البحر
* جميع الحقوق محفوظة للدار
* الطبعة السادسة 1998
* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحـــــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

حيدر حيدر

وليمة لأعشاب البحر

(نشيد الموت)

رواية

«وأنا الصياد الذي لايرتاح ابداً .
الصياد الذي لا وطن له .
والتي أقصدها ماتزال تطير أمامي ؛
وأنا سأتبعها ،
مع أنها قادتني إلى ماوراء الجبال ،
عبر بحار بلا شموس ،
داخل الليل والموت» .

«هرمان ملفيل»

الخريف

وكان صباحاً مضيئاً .

في سماء صاحية ، النوارس وهي تخفق بدت كأنما تعلن عن غبطتها بذلك الطيران الابيض الواهن . وفوق الأعشاب وأوراق الدغل ، كان الندى يتلألأ تحت شمس خريفية .

ـ انظر . انظر هو ذا البحر !

قالت الفتاة ذلك ، ثم أسرعت خطاها باتجاه الشاطىء الصخري ؛ وعلى نحو تلقائي خلعت حذاءها ثم اندفعت كالفقمة حافية صوب البحر .

ـ انتبهي . الأشواك ستدميك .

ولم تلتفت . سبقته خافقة بذراعيها كجناحي طائر في فضاء أبيض . السرعة والريح رفعتا تنورتها الخضراء فبدا كالرخام فخذاها الناصعان المكتنزان . جرى الرجل ملوِّحاً في الريح حقيبة الطعام . كانت الفتاة تتباطأ هابطة المنحدر بين أجم الدغل القصير وكتل الصخور الرمادية .

فجأة اختفت .

على حافة المنحدر الغضاري ظهر البحر . بدا جليلاً بأبهَة ملكية ، شرساً وهو يصدم الصخور ثم يتطاير زبداً متناثراً ، ثم ينحسر كطفل وادع .

ـ آسيا . آسيا . ناداها بصوت مبتهج .

تردد الصدى بين ممرات الصخور وأفق البحر .

خمَّن أنها مختبئة في مكان ما ، وانتظر ظهورها المباغت . تقدم متعثراً فوق الحصى والشوك . الحقيبة مدلاة فوق ظهره وفي عينيه وهج

الشمس . كان يغنّي ويصفر عابراً الشّعب المتعرج ، المؤدي إلى مكانهما القديم . المكان الذي سمَّياه فيما مضى : سرير البحر .

ـ إذا لم تظهري فهناك امرأة أخرى على الشاطىء .

إذ وصل الكهف المعشب ، المطل على البحر ، قذف بالحقيبة على التراب المندى .

تعرى واستلقى فوق الغضار المعشب .

كان وجهه يستقبل لفح الأشعة . خارج الجفنين المطبقين راح بياض الأشعة يتحول إلى احمرار طيفي . داخل مدار الطيف الملوَّن ، ابتدأت الأشياء تقبل وتنسحب بلمعان غريب ساحر .

* * *

يحسّ الرجل بأنه مطارد ، وأن شخصاً ما يتعقبه . رجل لا يعرف ملامحه بدقة . كان ينتظر المفاجأة في المنعطف القادم . وكانت هناك منعطفات كثيرة في هذه المدينة المتوحشة التي فقدت أمانها .

إنه يخطو مسرعاً . متوجساً أبداً . متأهباً أبداً . كان الخوف يسري هناك في الفقرات التي ستتلقى الضربة من يد تتأهب لتطعنه من الخلف .

وتلمست يده المدية في الجيب الخلفي . لا بد أن الفقرات كانت ترتعش وهو يقترب من المنعطف المظلم . أحسّ بالمقبض الأملس ورأس النصل . كانت الموسى في وضع يتيح انتضاءها بسرعة في أية لحظة .

وتذكر بأن الفتاة سألته يوماً : أين تعلمت الطعن بالسكين ؟

فقال مبتسماً : في المدرسة .

وضحكت باستغراب : في المدرسة ! لابد أنها كانت مدرسة حربية ! وقال : لا . كان ذلك تدريباً شخصياً زمن المراهقة . اللوح الأسود في صدر القاعة ، كان مسرح التدريب . يقف على مسافة أمتار منه ، يلوح بالمدية ثم يقذفها فتهتز السَّبُّورة إذ تتلقى الطعنة . كان ينتشي بينما الطلاب مأخوذون بهذه البراعة لفتى شقي يكره المدرسة والكتب والمدرسين . وهو يشرح الموقف كانت الفتاة تغرق في الضحك . وسألته إن كان قد طعن شخصاً في حياته ، فقال بأن ذلك حدث مرة لأمر تافه .

ـ وهل مات ؟ سألت فزعة .

ـ لا . الانسان لايموت بضربة موسى طائشة . جرح طفيف ضُمِّد في

المستشفى ثم خرج الفتى على الأثر . كان يروي الحدث بنبرة اعتزاز مشوبة بخجل مراهق .

قالت الفتاة : ها . كنت مشاغباً إذن !

ورد الرجل : لا . بل كنت خائفاً آنذاك .

* * *

كانت مدينة جميلة ، مطوَّقة بالبحر والغابات . لكنها كأي مدينة عربية كانت موحشة ، محكومة بالإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحقد والجهل والقسوة والقتل .

مدينة تكره الغرباء .

ورغم جوارها للبحر والغابات فهي تبدو حزينة . إن الحب ينمو داخلها نمو النباتات بين شقوق الصخر ، مهدداً بالموت متى حاول الوقوف تحت الشمس .

تلك هي بونه المضيئة . مدينة الحزن والبحر والخوف والحب والذاكرة .

* * *

جاء صوتها من البحر . سمعه وهو داخل المدار الراقص في سماء الطيوف الوردية . كانت تناديه ليأتي . ظهرت هناك بيضاء ، سعيدة كأميرة فوق الصخور ، بينما الماء يقطر كحبيبات الماس من جسدها المتوهج تحت الشمس . لوحَّت بذراعيها ثم مدت لسانها مداعبة . صرخت : هيا ياحلُوف تعال . ! ثم هوت نحو الأعماق . وهي تطفو لاح جسدها وشعرها وثوب البحر الملون تحت شفافية الماء . وردة عائمة يضيئها البحر والشمس . هكذا بدت هناك في عمق اللجّ الأخضر . كانت الفتاة والرجل والبحر الآن ، بعيدين عن المدينة . في تلك المساحة من العراء ، أبتدآ يمرحان كطفلين خارج قوس الحصار .

* * *

ورأى رجلا طويلا يشبه الشامبانزي يعترض طريقهما ، كان الوقت نهاراً خريفياً . واجتاحته دفقة توجس . توقفت الفتاة مرتبكة . في عينيها لمعان خوف . أدركت للتوّ أن معركة ستحدث . وبدا الرجل الذي يرافقها في وضع طبيعي صامت . كانت المطواة في الجيب الخلفي . وفكر الرجل

الغريب : ياللقذارة !

وسألها الشامبانزي : من يكون هذا ؟ وأشار بوجهه الكالح نحو الرجل الغريب . وردّت الفتاة : إنه صديقي ! قالت ذلك بثقة وتحدٍّ وهي تدخل معه في حوار برقي بلغة محلية خاصة .

وسمع الشامبانزي يقول ممتعضاً : ولكنه غريب . مالذي يفعله هنا ؟

وتنفس الغريب بصعوبة .

قالت الفتاة بنزق : لكن أنت ماشأنك ؟ إنه معي وكفى . وانبثق من منعطف قريب ، فتى أكرت الشعر ، يشبه الخنزير ، صاح وهو يقترب : اسمعي . من قال لك أن ذلك مسموح ! أنت امرأة منا والغرباء لاحقوق لهم هنا .

أصابع الغريب كانت تمسك الآن مقبض المطواة . شعر بأنه يكاد يختنق كانت المسألة تنضح تفاهة وقذارة وغيظاً . غَضِبة صاحت الفتاة : لو كان فرنسياً لما اعترضتماه ! أي كلوشار !

أصابعه مرت فوق المقبض وعلى مهل ضغط المكبس . بتؤدة كان يحرر المدية من رتاجها . الآن هو في وضع القتال . عندما نطقت كلمة «كلوشار» اتجهت نحو صديقها . أمسكت ذراعه واندفعا شاقين الطوق العدائي .

قال الشامبانزي : هاو الشريفات لايصاحبن الغرباء . فهمت !

وقال الآخر : نعرف جيداً من تكونين . ومدّ لسانه بحركة بذيئة .

الفتاة التفتت . رفعت رأسها ثم مدته قاذفة بصقة مدوّية غطتهما .

سأل الغريب صديقته وهما يبتعدان : أما كان ينبغي أن تحدث معركة ؟

قالت الفتاة : لا . لم يكونا أكثر من خنزيري شوارع !

* * *

ـ يالك من كسول يخشى البحر !

وهوت في مركز الطيف الوردي نقطة من مياه ماس البحر فانطفأ الطيف ، وراحت النقط تتقاطر منحدرة فوق سفح الجسد النضِر .

فتحت حقيبة الطعام والبيرة ، فامتدت مائدة صغيرة فوق صحف

قديمة . كانت الشمس وردة مشتعلة في سمتها السماوي ، والنوارس تعبر الفضاء في موازاتهما . أشار إلى الطيور البيض بعينين مبهورتين . وقالت الفتاة : أترغب أن تكون نورساً ؟

بأصابعه مسح على عضلات ساقيها الباردتين الناصعتين . كانت الآن أمامه ، ناهضة كفقمة مولودة من زبد البحر .

وسألته بماذا يفكر الآن . وقال : أشتهيك . وصاحت : احشم أيها الفاسق !

امتعض ساخراً . نهض أمسك رسغها ووخزه : نحن الآن في المطهر . لسنا في مسجد الله أو كنيسته . هذه برارينا ونحن هنا آلهة هذه البراري . تناولت زجاجة بيرة وفتحتها .

ـ افتح الراديو .

ـ نخبك . خطف الزجاجة من يدها وطوّقها . تحتهما امتد حقل من العشب والزهر الثلجي المتناثر . الأفق البحري كان شاحباً ، موحشاً ، وجديداً ، يدوي بالأصداء . في تلك اللحظة تراءى العالم غريباً ، مبهجاً ، حافلا بالغموض . كان هذا يصطدم بطيف قديم . طيف عبَر ذات مساء في ذاكرة السفر قبل أن يطأ هذه الأرض الجميلة المتوحشة .

ـ 2 ـ

كفجر أفريقي مشمس ، هكذا تبدو آسيا .

تقول وهي تعانق مهدي جواد : لماذا لانذهب إلى البحر ! هما الآن داخل غرفة ضيقة غرفة مغلقة ذات نافذة واحدة ستارتها بيضاء . من هذه الغرفة يمكن سماع دوّي البحر .

ـ أيهّما أحبُ اليك : الغابة أم البحر ؟

ـ في الغابة لنا ظلّ شجرة وفي البحر صخرة . هذا هو وطننا في هذه المملكة الواسعة . منذ زمن لاتذكر بدايته نفتهما المدينة ، فاستولت عليهما حالة قنوط .

وفي مساءات الخريف الأفريقي العاصف ، يغسل المطرُ الغابات والصخور وجدران المنازل ، وإذ يتوقف المطر تهجع المدينة تحت صمتها المقفر . الرجل والفتاة سجينان داخل الغرفة الضيقة وداخل جسديهما . يتوقان للاغتسال بماء المطر المنهمر . يسمعان بصمت صوت

البحر عميقاً ، عميقاً . ثم يهمد الصوت . تسأل الفتاة التي تحب البحر : ترى ما الذي يحدث الآن للبجع الأبيض العاشق في فجوات الصخر !

تقول ذلك بغتة تحت شجرة اسى . بعد آن تغلق عينيها العصفوريتين ثم تنام كحمامة بيضاء داخل ليل الحجرة القانط . في سن الطفولة الاولى للحب عشقا الشواطىء والعشب . يسافران نحو التلال وكطفلين يجمعان شعاع الشمس ومحار البحر . نصال العشب المبتلة تلسع أقدامهما ووجهيهما . إنهما يتواريان هناك في عمق الدغل بعيداً عن البشر . رائحة آسيا ورائحة العشب توحدهما بالأرض الممتدة لساناً صخرياً في جوف البحر . بعد الأيام الاولى من الطفولة ، تسأل الفتاة التي نما حبها : لماذا ينمو الأطفال بحيث لا يعودون يطالون الندى ومحار البحر ؟ غمامة وردية تنهمر مطراً دافئاً فيتبلل الوجهان . تحت جسديهما ترتعش قشرة الأرض . نورس مقبل يُغَيِّر اتجاهه بقوة الريح الصادمة . موجة بحر تندفع فتزيل آثار الأقدام ، ومن عمق الظلام السحيق يرتفع صدى نحيب .

ـ ولكن لماذا لايرغبون بالغرباءهنا ؟ يسأل مهدي جواد في الايام الاولى للصدمة . وتدهش آسيا الاخضر : تسألني ! ثم تصمت .

ـ لعلّها الغريزة . تقول .

ويستفهم عن سياق الكلمة . تضحك : غريزة الحفاظ على النوع . يقهقه مهدي بكل جسده : وهل الغرباء يهددون بالانقراض ؟

ـ بلى . ربما !

ـ بلى ! من أي نوع غير بشري نحن إذن ؟

ـ نوع مختلف عنهم .

ـ أي نوع . أعني كيف يروننا ؟

ـ عناصر غريبة عن الجسم أو عن القبيلة إذا شئت .

قال مهدي : نوع من الغزاة ! وضغط على الكلمات . لقد أدرك أنه ارتكب خطأ لفظياً .

وقالت آسيا بتقطيب : ليس بهذا المعنى تماماً . إنهم يخشون كل قادم من وراء الحدود . لقد جرح المستعمر الروح والجسد . واستطردت : فيما مضى تجرعنا آلاما حادة أنتم لم تذوقوا مرارتها . من أقصى الجزائر إلى أقصاها لا يوجد بيت بلا جرح . الجراح لم تندمل بعد ولا بد أن تفهم ذلك . في وجهها لاح حزن جارح بينما كان جسدها يرتعش

كغابة تنوء بأصداء القتلى .

نفخ مهدي جواد زفيراً مضغوطاً . حصد حفنة من عشب ، ضغطها براحتيه ثم نثرها باتجاه الشاطىء .

الأصيل الآن يسيل فوق البحر ، وفي الجو انتشر الصقيع . القشعريرة نتأت حبيبات برونزية فوق جلد آسيا المحروق .

ـ انظر . ومدت ذراعها العارية .

قبّل اللحم الراعش . كان هناك طعم الشمس والملح والزمن الحزين . وراحت الفتاة ترتعش : برد الجو . هل نعود ؟

ونهضت . قامتها وصباها ارتفعا باسقين كشجرة دردار نبتت الآن على أبواب البحر .

ـ 3 ـ

الوصول إلى المدينة في الأيام الأولى كان ذهولاً . بدت الأشياء كأنها تتفتح في غابة عذراء . كل شيء ظهر غريباً ، وغامضاً وساحراً . المنازل البيضاء وسطوح القرميد . مقاهي الأرصفة ولغة الناس . تلك الوجوه الشديدة السمرة ، الشاحبة . ثم هذا النبض الحي للفتوة الأفريقية وهي تنطلق بكل عنفوانها الغاضب . لابد أنهم يلتهمون الحياة التي كانت محرَّمة عليهم فيما مضى . لم يكن يدري إن كان سعيداً في تلك اللحظة . كان ناجياًمن العاصفة ، لكنه كان محطماً ، وطافياً كزورق قذفه الموج بعيداً . المقهى الرصيفي يغص بالناس . كان مطلا على ساحة مشجرة . وفي أوراق الشجر تموجت ريح رخاء .

في الساحة الأهليلجية تناثر شرقيون ومغاربة وفرنسيون ، لكنه لم يكن يعرف أحداً . كانوا يشربون البيرة والقهوة والشاي الأخضر ويثرثرون بلهجات مختلفة . ولأنه لايعرف اللغة المحلية طلب بالفرنسية قهوة سوداء .

عندما خرج من العراق لم يكن حزيناً . فقط أحسّ بانقباض غامض وهو يغادر .

ورأى الفجر رمادياً فوق دجلة . كانت الأشعة الأولى للشمس تشع كالماس فوق الماء . وبعيداً عن شط العرب اتجه طائر أبيض يهيم وحيداً باتجاه البحر .

للمرة الاولى ينفصل مهدي جواد عن بيت القبيلة .

الوداع الطقوسي للطفل الذي يقطع حبل السرة ويغادر الرحم في تلك الليلة . أخت في لون المرارة وشقهة النحيب ، ترفع القرآن بيد وباليد الاخرى صحناً من الطحين . على الكتاب المطهر يضع راحة كفه ثم يعبر بخشية وجلال منحنياً بقامته ورأسه تحت قوس الطحين . تمتمات وأدعية تنطلق من أعماق السلالة التي تودع طفلها . أقسم بهذا المقدس وبهذه النعمة أن أكون وفياً وألا أنسى في الغربة البعيدة رائحة البيت والارض والخبز وصلوات الأجداد والحليب والدم وصرخة الحسين وهو يُذبح بسيف الشِّمر . ويقول له صوت غريب ، قوي ، صلب ، يَنْهر الدمع : كن شجاعاً ولا تُطِل الغياب . انتبه لنفسك في بلاد الغرباء . ويتلو عليه همساً : قل لن يصيبكم إلا ماكتب الله لكم . وكما يحدث في حفل تراجيدي غامر بالرهبة والجنون والحب تنطلق الزغردات مع النحيب . أصوات الأمهات والعمَّات والأخوات والصديقات النادبات في احتفال خروج مهدي جواد مع أصدقائه الهاربين تلك الليلة التي امحق قمرها ثم انغمر صداها في عمق الليل الغارق في مهرجان من الفزع ورائحة القتل العميم .

من نافذة السيارة الخاصة رأى السهوب القاحلة . فكر بأن هذا الانفصال ربما كان ضرورياً لاستنشاق هواء غير ملوَّث .

عندما اقترب من مستنقعات الأهوار دهم مهدي دوار . طيوف من الضوء والنار والدم والاصوات ، هجمت السيارة تخترق المستنقعات . قصب البردي والغَرَبْ هادىء . مهدي جواد اجتاحه حزن جارح .

هنا ماتوا .

كان يفرّ الآن من أرض الجحيم . جواز سفره مزوَّر ، ورأسه ملىء بشظايا حلم تبدد ، وبالأصوات :

زمانك انتهى بين فراراتك واختباءاتك في أوكار بغداد والبصرة والعمارة والحلة والناصرية ، وبين مقبرة الهور التي كفّنت أطفالها بطحالب الماء .

ومن البصرة إلى بونه ، بدت الرحلة طيران حمامة بيضاء ، داخل حلم غامض فوق خريطة بلون الدم والهزيمة

أخيراً ، هو ذا مهدي جواد ينجو بجلده من طقوس المذبحة .

* * *

الغرفة التي سكنها وسط المدينة كانت شبه عارية . احتوت سريراً قديماً وخزانة حائط وكرسيين من خشب ، وطاولة .

كان قد أمضى أكثر من شهرين في فنادق الدرجة الرابعة . ينام في التاسعة وينهض في السابعة . إدارة الفندق لم تكن تسمح بالتأخر ليلا ، وكان على الغرباء الانصياع للأوامر والقوانين دونما مناقشة .

يوم انتقاله إلى غرفته الجديدة أحس بفرح رغم إرشادات الحاج محمد الذي زار بيت الله ثلاث مرات : لاضوضاء . ممنوع السهر الطويل . لاخمرة . احذر إدخال النساء . نحن قوم شرفاء لانؤجر إلا الشرفاء . أنتم شيوخ جئتم من أرض الانبياء والرسل لتعليم أطفالنا القرآن وتقوى الله والسير على الصراط المستقيم .

كان الحاج يتحدث بلغة فصحى . ثم بانسياب تلقائي راح يسرد حياته الخاصة .

علاقاته بكبار التجار والمحافظ وبقية المسؤولين في بونه عرج بعدها على التقوى والأمر بالمعروف والأشعة النورانية القادمة من الحجاز ومكة ، وغبطته الصوفية بزيارة قبر النبي «صلعم» .

مهدي جواد غفا على ترنيمات الشيخ المأخوذ بوهج دينه العظيم الذي امتد إلى المشارق والمغارب مطهراً الأرض من أرجاسها وخطاياها الجسيمة . عندما استيقظ كان الحاج قد خرج مع رسله وتقواه .

قال وهو ينهض متجهاً نحو الشرفة : لا بد أن بلاد المسلمين نسخة طبق الأصل ، وجفيع مدن العرب تحمل اسماً حركياً للسيدة المقدسة : مكة المكرمة .

* * *

لقاء الغروب كان غريباً . بغتة تلك الفتاة . أمام بوابة ثانوية القديس اوغسطين : مساء الخير . قالتها بالفرنسية . صديقتي تلميذة عندك وهي التي حدثتني عنك . شجعتني أن أعرض عليك إعطائي درساً في العربية . واه . ياللصدمة المباغتة ! قال شيء في أعماقه . ارتباكه ظهر في رجفة عينيه واهتزاز الحقيبة التي كان يحضنها كتلميذ هو الآخر . ولم يكن هناك وقت لاستيعاب الصدمة العذبة : ولكن أين ؟

ـ في بيتنا . قالت الفتاة الطويلة الصلبة البيضاء ذات الشعر المذهَّب .

ـ ذلك ممكن ؟

ـ ولماذا ؟ قالتها بالفرنسية .

ـ لا . لا لشيء . كنت أعتقد أن في الأمر صعوبة ما .

عفوية هذه الطفلة وانبثاقها المفاجيء كزهرة عباد شمس ، أوحيا إليه أنها ربما كانت غريبة عن المدينة . لابد أنها ليست عربية وتعيش وحيدة مع أمها أو جدتها الفرنسية .

حوارهما كان قصيراً ، ملجلجاً . وهي تهم بالمغادرة قالت : في بيتنا أو بيتك لافرق . صديقتي ترشدك ، وإذا شئت آتيك .

بصعوبة لغوية شرحت الأمر ، وبصعوبة خارقة حاول أن يستوعب ما حدث .

ومن المدرسة إلى ساحة المدينة تموجت صورة الفتاة طيفاً أو ضربة شمس . أتكون هي تلك التي هجس بها وهماً قبل أن يغادر . الحدس الذي ينسجه خيال الشوق إلى امرأة تنتظرك في مكان ما من العالم . امرأة الحلم والصدمة التي تباغتك كجنية بحر ذات غسق ، تأخذك فتبحران في لجة الليل والقمر والعواصف والموت .

ولكن كيف حدث ذلك أيها الرجل الملعون ! أيها اللاشيء العائم والفائض عن حاجة العالم . هذه اليقظة وهذا الشيء الصلب !

كانوا في المدرسة والمدينة يحكون أموراً غريبة ، وفزعة ، وكئيبة عن المدينة والبشر .أساتذة الشرق الذين سبقوه وعرفوا المدينة أكثر .كن حذراً . المدينة شرسة وفظة . لاتتأخر ليلاً . البونيون لايحبون الغرباء . ولأتفه سبب يسرقونك أو يذبحونك . أوهام الثورة انتهت وهؤلاء الأفارقة متوحشون . مغلقون كالحجارة . بلد زميِّت يحكمه الدين والشرطة وعصابات آخر الليل التي تغتصب وتقتل من أجل دينار .

هكذا تحدثوا باستعلاء ولؤم واحتقار . كذلك ثرثروا عن المال والنساء المومسات وعمليات التهريب ، وفي غمرة سذاجته وجهله لأسرار المدينة استبدلوا منه بعض الدولارات على نحو خادع .

في الأيام الأولى كان خائفاً وغريباً ومذهولا ، داخل المدينة الخارجة حديثاً من ليل الاستعمار الطويل . المدينة التي تحولت إلى مصيدة وسوق لأنبياء الشرق والتعريب القادمين من مطالع الشمس المحمّدية .

- 4 -

عندما التقيا صاح مهيار الباهلي : الله بالخير . ياللشيطان أأنت هنا ؟ لم يخبروني . أية كواكب إبليسية قذفت بك إلى هذه الأصقاع ؟

بهذه الطريقة الاحتفالية تعانقا . لقد قدم المدينة بعد شهرين من افتتاح المدارس .

إثر العناق الحار قال مهدي جواد بابتهاج تهريجي : ها قد التقينا أخيراً لِنُطَعِّم المغرب بلوثة الماركسية . أنتم في الأيديولوجيا والفلسفة ونحن في اللغة .

في المقهى بدا مهيار مبتهجاً . كان مسحوراً لأنه هنا .

وهو يرشف القهوة ويدخن ، تلمع عيناه بوسض حادّ يقول : نحن الآن في الأرض المقدسة . هذه هي الأرض التي فاجأ العرب أنفسهم فيها بالثورة .

ثورة المليون شهيد يارجل . عندما هبطت من الطائرة ركعت فوق أرض المطار ولثمت التراب .

ويضحك مهدي : باهي . مازلت على حماستك القديمة . ولكن قل لي : وأنت تقبل التراب هل تأكدت من أن رائحة الدم لم تكن عطنة ؟

- دعك من هذا اللمز . دعك . سنزور يوماً أضرحة الثوار ومواقع المعارك . أقول لك : جزائر الثورة منارة مشعة في ليل هذا الذلّ العربي . ثم يضيف : أنا فرح كطفل افتقد أمه ثم لقيها بعد غياب . تصوًر أنني في قلب أصداء الثورة . أولا عيَّنوني في معهد أبناء الشهداء . ثانياً وجدت بيتاً لدى أرملة عاشت في الجبال مع الثوار . كانت مع طاهر الزبيري بالذات .

أردف مهدي جواد ساخراً : ثالثاً . لاكتمال طهارتك الثورية أرى أن تتزوج من هذه الأرملة المناضلة . هكذا تحقق حلم الوحدة الثوري .

من نافذة مقهى «المغرب» يظهر القسم الغربي من ساحة المدينة . هناك لمعت الشمس فوق المقاعد الحجرية وبين الأوراق ، ممددة كهرة بيضاء .

يندفع مهيار بالأسئلة : وضع العراقيين . البعثات العربية . المجتمع الجزائري . الثقافة . لايترك فسحة طويلة للأجوبة . أحياناً يجيب نفسه . إنه يشرح الخلاف داخل الثورة وصراع السلطة الذي أطاح

ببن بيللا . يلوح معجباً بهذا الثوري المطاح به غدراً : بن بيللا أبو الاشتراكية . أنا أرى فيه كاسترو العرب . أعني كنت أتوسَّم تحوله نحو الماركسية . بومدين هذا لا يوثق به . عسكري ، إقليمي . رأس إسلامي وجناح أفريقي أما قلبه فجزائري . وفي المناسبات يلبس بزة عربية . أنا أتحدث طبعاً عن السلطة . أما الشعب فمعجزة . لقد هزم حلف الاطلسي يارجل . تصوَّر !

وهو يتحدث ، تشيل عيناه نحو الأعلى مواكبا خيوله الجامحة بين دخان سجائره . مهدي جواد يقول في سره : كعادته هاهو ذا صاحبنا يحلّق .

- لم تزايلك أشعة القديسين . أنا خائف على حماستك أن تخمد .

- علينا أن نكون هكذا في هذه الأزمنة .

- ولكن لماذا تطرح الأمور كلها مرة واحدة ؟ لديك وقت طويل لترى بوضوح أكثر .الثورة والبشر هنا أكثر تعقيداً مما تتصور .الناس في المعركة شيء وما بعدها شيء آخر . تمهل قليلاً ياأخي !

- ينبغي أن نبحث عن كيفية الاتصال بالثوريين . أنا أعرف أن حزب الطليعة الممنوع يعمل سراً هنا !

قال مهدي جواد : يبدو أن رأسك مليء بذكريات ونوايا حسنة . بعد وقت ليس بالقصير ستقول كما قال البير كامو : معهم أنا مجهول ولأخرج من غربتي أذهب لأحدق في البحر .

- لا . ليس الأمر هكذا . كامو كان محايداً لأنه فرنسي .

- لكن الذين تحلم بهم تحولوا إلى مايشبه المستحاثات التي تحجَّرت . الإرهاب حجَّرهم . هنا البشر كتيمون كجبل من جرانيت . فيما بعد تقرأ الذعر في الوجوه . قبلك حاولت اختراق الصلب . محال .

- لماذا ؟

- وجفون لايثقون بأحد بعد شتاتهم . الثورة دخلت عصر الحيض وأصدقاؤك الوهميون في باريس وأوروبا الآن .

- أوروبا ! ماالذي يفعلونه هناك ؟

- يبدو أنهم نقلوا مشروع ثورتهم إلى باريس . أقاموا هناك نوعاً من «رابطة العادلين أو المنفيين» إسوة بشيوعيي القرن التاسع عشر بعد فشل الثورة الالمانية وقدوم بسمارك .

ـ غريب !

لما فاه بعبارة : ولكن المعركة هنا ! بدا معتكراً كسماء غائمة . أشعل سيجارة من أخرى وطلب أيضاً قهوة سوداء . وتنهَّد .

رغب مهدي جواد أن يقول بأن عصر الهروب تشرق شمسه من الشرق والغرب .

لكن مهيار الباهلي قطب حاجبيه وقال باحتفالية : اوه . ياله من أمر محزن !

ـ 5 ـ

وكان رجلاً مصاباً بلوثة الحروب . مثقف مسحور ببلانكي ومجد الكومونة والإغارة على سانتا كلارا . السلاح . السلاح . من يملكه يملك كلمة الله على الارض . حفنة من الرجال الصلاب الشجعان تضع التاريخ على قدميه . هكذا بدأ محمد ثم علي بن محمد في سواد البصرة ثم أبو طاهر القرمطي وتشي غيفارا ثم مهيار الباهلي . وكان بصراوياً من سلالة الفرات الأوسط والباهليين القدامى والحسين بن علي . السلالة التي حملت دمها على كفها وكفَنَها الأبيض فوق جسدها وسارت إلى حتفها فلم ينتصر سوى موتها . ويوم خاض مع خالد أحمد زكي ومجموعة الأهوار حرب العصابات الخاسرة ، كان يتوهم أنه يواصل ميراث الخسارات الدامية والأمثولات التي تتراكم لتشكل ذات صباح أو مساء الصرخة التي تختزنها القرون القديمة لتدوي في القرن العشرين أو الثلاثين أو الخمسين ، هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية لشعوب قُهرت واستُذِلَت ثم ما لبثت أن دُفنت تحت السطوة الوحشية للخلفاء والأمراء الخُلَعاء والجنرالات الدمى والأحزاب المستذلَة والراكعة .

هكذا كان يحلم أو يتوهم وهو يقاتل ويُسجن ويتحدث . مهيار الباهلي الرجل النحيل ، الصلب ، المأخوذ بمطاردات تاريخية ورؤى تشبه رؤى القديسين أو المجانين ، في العصر الذي لم يكن عصره ، لحظة كان الصيادون يرون بدقة لامتناهية طيور رأسه الخضراء والبيضاء فيطلقون عليها بلا رحمة لتتساقط مضرجة بدمائها فوق البحيرات وفوق العشب ، لكنه يظل مطبقاً عينيه أبداً ليستولد طيوراً جديدة بأجنحة قوية يطلقها في الظلمة العربية الدامسة . طيور تخفق ، وهي تعرف أنها ستموت الآن أو في الفجر القادم ، وهو لا يستطيع أن يرتاح أو يتوقف عن الحلم ـ الموت

الذي اتشحه مدركاً في السر العميق أن قلوبهم معه وسيوفهم عليه إذ ناخ عليهم الدهر ـ السيف ، الدهر ـ المال ، الدهر ـ الفزع ، فهووا فريسة دهر السلطة الدموية التي تقول كونوا كما أريد أن تكونوا فكانوا ، بلا قيامة إلى يوم البعث والنشور .

* * *

الدرس التمهيدي بدأ في بيت آسيا الاخضر . ذلك البيت ـ المسرح لكل أحداث بونه وتجليات الزمن المضاء والمعتم .

منذ الوهلة الأولى بدأ إحباط اللغة . فتاة تلفظ العربية وتكتبها كالأطفال . وفكر مهدي بهذه الورطة اللعينة وهو يحاول تعليمها بداية النطق الصائب والقواعد الأولى للكتابة .

كان خطها رديئاً وغير مقروء . وهو يحاول تصويب الخط لمح أصابعها المصقولة والطويلة .

مرتبكة ، لكن إصرارها كان واضحاً . وإذ سألته إن كان هناك من أمل قال بعناد : بلى . لفظها بالفرنسية . وسألته إن كان يعرف الفرنسية فقال : أعرف مفردات قليلة . وقالت : حسن هذا سيساعدني كثيراً . ثم أردفت ببحة خجلى : أنا حزينة لأنني أجهل لغتي . أنت تعرف أنهم نفونا عنها منذ الطفولة .

ـ أعرف .

في فسحة الاستراحة بدأ حوارهما حول الحالة اللغوية وصعوبة التفاهم بين العرب المشارقة والجزائريين . وسألها إن كانت تقرأ أدباً باللغة الفرنسية ، فقالت بأنها قرأت «الغريب» لكامو ورواية مالك حداد «سأهديك غزالة» كما قرأت الأحمر والأسود لستاندال والشرط الانساني لمالرو . سألته إن كانوا مترجمين للعربية ، وعندما قال بأن مالك حداد يشعر بأن الفرنسية منفاه قالت : إنها منفانا جميعاً نحن العرب الجزائريين .

واستطردت مدهوشة : هل قرأت مالك حداد ؟

وقال : مترجماً إلى العربية !

على هامش الدرس الخاص ، كانت الفتاة تطرح أسئلة عامة ، ذكية حيناً وطفولية حيناً آخر . أسئلة تتراوح بين الشخصي والعام بين العقل والفطرة . سيول من الأسئلة الغريبة :

مالفرق بين العرب والإسلام ؟ هل الأنبياء مرسلون حقاً من الآلهة أم خرجوا من الأرض ؟ كيف كلّم الله موسى ، وهل عرج محمد فعلا إلى السماء كما تقول كتب الدين ؟ وإذا ماصعد الإنسان إلى القمر مالذي يبقى من الأديان والآلهة ؟ أنت لماذا أتيت إلى بونه ؟ مالذي تحب وماذا تكره في حياتك ؟ مارأيك بتحرر المرأة ؟ هل تهوى المغامرة في الحياة ؟

معلوماتها عن الشرق والعرب كانت ساذجة ، مشوَشة .

هل حقاً تريد أن تفهم وهي تسأل أم أنها تتسلى بالوقت ؟

في الأيام الأولى لم يأخذ أسئلتها بجدية . كان يجيب باقتضاب وأحياناً بلا مبالاة . وأحياناً بتواطؤ .

عندما سألت بإلحاح إن كان للعرب حضارة كالأوروبيين ، سألها : مالذي كانوا يقولونه لكم قبل الاستقلال .

ـ فرنسا أمَ الحضارة والحرية .

ـ ولكن أي فرنسا منهما . ماسّو أم فولتير ؟

باغتتها المفارقة .

وقال مهدي جواد بأنهم لم يكونوا عادلين على مايبدو . لابدّ أنهم حدثوكم كثيراً عن حماسة البدو وتاريخ الرعاة والفتوحات الهمجية . هكذا كانوا يسممون عقولكم . وهكذا نسوا في غمرة انتصاراتهم ماذا صدَّروا للعرب . غير أننا نعرف جيداً أنه لا بودلير ولا روسّو ولا مالرو هم الذين قدموا إلى هنا .

كانت الفتاة تستمع وهي تخط على الورق خطوطاً وإشارات .

ورأى مارسمت . الشكل كان يشبه زورقاً أو سمكة . وبدأت على نحو تلقائي تطوق الشكل بدوائر لولبية كالنابض . وسألها مهدي جواد ماذا ترسم فقالت : الجزائر .

ـ 6 ـ

وهما الناجيان أو الهاربان على ماتقول اللوائح الشخصية والمسافة عن البلد الذي وقع تحت وطاة الزمن العسكري .

الوطن إذن ! آه . ياللشقاء .

ولكن من الذي أوصل هذا البائس إلى مضائقه المسدودة فوضعه لقمة سائغة بين أنياب ابن أبي ضبيعة الكلبي سليل هرمونات القتل

والتناسل والبكتيريا القومية ؟

وفي بونه الساحات والمقاهي والشوارع وشواطىء البحر ، كان التأنيب العميق ينحو إلى التبرئة . فالهجوم على المحور الرئيسي كان يشير إلى قيادة الحزب اليمينية والمتواطئة والتي راهنت على انقلاب 14 تموز والزعيم الأوحد والتطور اللارأسمالي .

غير أن الأمر كان يتجاوز ذلك . وعلى مدى عام كانت محصلة الحوار أكثر خطورة ، وأعمق دلالة من هذا الذي طفا أخيراً على السطح ، فأطاح بحزب كان يحرك مئات الآلاف في اللحظات الحرجة ، والذي تأبّى ، أكثر من مرة خلال النزوع الأخلاقي للسياسة ، أن يستولي على السلطة ! اوه ياللكلمة الرؤوفة والساخرة !

أبداً . بل بقسوة : هو الجبن وشلل الإرادة الذاتية والخط الأعرج . ويوم كان الانقسام على أشده والحزب يعبر شتاته : موته أو حياته ، كان الباهلي مع رهان السلاح وكان مهدي جواد يدعو للتنسيق بين حرب المدن والأرياف .

لكن كل شيء كان يبدو وكأنه يأتي بعد فوات الأوان ، ذلك أن اللحظات التي يُختطف فيها التاريخ لصالح القوى الجديرة بالحياة كانت قد مضت إلى غير رجعة .

وفي ذلك الزمن لم يكن الرهان على إدراة بوصلة الوقت ، إنما كان رهاناً على إنقاذ مايمكن إنقاذه في برهة انفلات المبادرة ودخول شمس العراق تحت الخسوف الرمادي ، حيث لن يعرف لا الحزب ولا الرب متى ستشرق الشمس من جديد .

من أجل ذلك حدث ما حدث ، من الانقسام إلى انتفاضات النزع ثم الهروب للحفاظ على بذرة النوع والبقاء .

وفي تلك الحقبة لم تكن هناك خرائط براءات أو مساومات . انقسم الناس داخل الحزب وخارجه ، فاستشاط الثوريون واتّهموا القيادة بالتخاذل والتواطؤ ، وعلا الحديث عن الانشقاق وراح الخط التاريخي للرهان على البورجوازية الديمقراطية يُقْصَف بالتهم والخيانات والانخذال .

وفي تلك الآونة كان رأس الحزب هو المطلوب . رأس يوحنا المعمدان الذي تريده سالومي عاهرة القيصر .

* * *

ويوم كانوا ينشقّون ويصرخون ويتهمون ويذهبون إلى الموت المحقق ، كان الجنرال الكلي القدرة يوطد سلطته من خلال حلفه التاريخي مع العسكر وأعوان رأس المال ورجال الدين والتقطير الشوفيني للسم القومي : هاي . هتلر ، هاي كريم ، هاي عارف ، وسائر الهايات التي ستأتي وتصرخ بصوت طاغ :

الله ـ الأسرة ـ العشيرة ـ الطائفة ـ الملك . أنا الله على الأرض . أنا الشعب . ويومذاك ستصدر الأوامر في كل أرجاء البلاد : من دخل بيت الجنرال أب الشعب جميعه فهو آمن ، ومن دخل بيته الخاص وانزوى فهو آمن . أما من دخل بيت الحزب فالوطن في حلّ من دمه المهدور .

ومن يومها ابتدأ شهيق وزفير الدم الذي سيستمر إلى يوم الدينونة .

ـ 7 ـ

ـ أنت لم تقاس من الجراح كما قاسينا . في كل بيت لايزال الدم ينزف .

مزج طفولي ناضج . يتدفق بإضاءة شمس تخترق سحاباً كثيفاً . هكذا يبدو الوجه السرّي لفتاة لاتتقن اللغة على مايبدو ، لكنها تحسّ نبض الحياة وما جرى لقومها خارج نطاق اللغة .

وفي الأعماق يبدو أن موت الأب ترك ندبة . شعور شفاف بفقدان الأمن وفقدان الثقة بالحماية .

سي العربي كان الملاذ والمثال ، وكان الوطن . بعد أن استشهد في معارك حرب التحرير ، فقدت الطفلة دفّة التوازن مع العالم .

إن جرحها يشتعل إذ ينطلق الحديث عن الحرب والثورة . عن الوجه العفوي ، العاري كسهب ، تنحسر أشعة الطفولة . ترتد موجات البحر نحو أعماقها عائدة إلى مركز الإعصار الأول .

ذات فجر دموي هوى المثال مرة واحدة ، فتصدع بيت سي لخضر ، ومنذ تلك اللحظة هجرته طيور الغبطة .

الآن يعرف مهدي جواد اتجاه الريح . لكنه عاجز عن إيقاف دفق الألم .

إنه يقول للفتاة المفجوعة شيئاً عن الألم الجماعي . شيء غامض تكتنفه سدود عصية على الهدم . وهو يتحدث يشعر بالحاجة إلى تفاصيل

ووقائع . غير أن هذا ولسبب ما ، يبدو سخيفاً وخارجاً عن نطاق الدرس .

مملكة الجراح أكثر اتساعاً وعمقاً مما تتصورين . يقول أو يهجس لنفسه .

الدرس هو المهم في هذه اللحظة . وهذه الفتاة لا بد أن تنجح . على هامش هذا النهر تجري مياه كثيرة . أنهار وبحار عصف بها المدَ والجزر في أزمنة مضت .

وفي غرفة مهدي جواد وبيت آسيا لخضر ، كان الدرس الخاص يسير في مجراه . وفي مجرى الدرس كانت تتنامى بينهما صداقة خاصة .

برعم يتفتح في جو عاصف ، كان ينمو بهدوء وتصميم وتوجس .

ـ أشعر بتحسُن . فيما مضى كانت العربية وعرة . الآن أحبها .

ـ حسن .

وسألت بغتة : عندما أستطيع الحديث جيداً بالعربية هل سأتغيَّر ؟

ـ ماذا تعنين بالتغيُّر ؟

ـ هل أصبح عربية التفكير ؟ عفواً . ماقصدت هذا . عنيت : هل أصير بصيرة أعرف نفسي والآخرين جيداً ؟

بصعوبة أوضحت فكرتها التي ظلت غامضة .

قال مهدي : مؤكد . النطق لايكفي . عندما تعتادين التفكير بالعربية يمكن أن يحدث تغيُّر في إدراك بعض المسائل الخاصة .

ـ الحق أقول لك : أنا لم أفهم ماذا عنيت تماماً !

وأدركت الفتاة عبر محاكمة سريعة أنها لم تحسن التعبير عن فكرتها .

أحسَّت بالمسافة . شيء ما في مكان بعيد كان يفصلها عما تبغي . بدا الأمر جارحاً على نحو ما .

وقالت الفتاة : لا أدري لماذا أشعر بأنني منقسمة .

وداهم مهدي جواد إحساس جارف بالألم .

وتساءل في غمرة المدّ والجزر كيف قسمهم الغزاة وكيف عزلوهم عن سياق نموّهم .

نهضت حالة انكسار . مرآة علاها صدأ . كل منهما كان يرى سطح الآخر . وكانا راغبين في النفاذ إلى ماوراء السطوح .

ووراء جدار اللغة تراءى آخر مستتر : الزمن الشبيه بصاعقة تشق الصخر إلى نصفين .

كان هذا الوشم الغريب ، القابض للقلب ، يكسف البصيرة ويحجب المدى ، مكثفاً في لحظة مريرة ، الوضع الشخصي لرجل وامرأة يعبران غربة تاريخية عارضة .

* * *

في المساء سجل مهدي جواد يومياته : «هنا لا أحسن التفكير كما ينبغي . اختلاط غريب في الأشياء . يبدو أنني أعيش حالة عوم فوق سطح المدينة . ولكنني مسحور بهذا الغموض الكامن خلف سذاجة الأشياء . أفريقيا لغز أخاذ ، مخاتل كامرأة ، وبونه ساحرة وشرسة ببحرها وشجرها الناهض ، وبهذا الدفق الشمسي للطقس والبشر .

أن تكون حراً ، ليس هذا كافياً للسير فوق خط مستقيم . إن خطوط الآخرين تبدو منكسرة أو منحنية ، والمنفى هو السير على خط آخر للحفاظ على التوازن . لماذا هذه الغربة اللعينة في خضاب الدم !

ينبغي التأكد ، دونما اندفاع مع أمواج الرغبة ، فيما إذا كانت آسيا لخضر تشكل ميلا في حركة اتجاه البوصلة .

* * *

الطرقات على الباب كانت عنيفة غروب ذلك اليوم . توجست آسيا . سألت بعينيها وظلال وجهها . همس مهدي : ربما كان مهيار . هل نفتح ؟ ورفعت الفتاة رأسها نفيا . بعد صمت قصير توالت الدقات أكثر عنفاً . بينهما اعتُقِلت الكلمات . بدأ التوجُس يتحول إلى وحش يداهم . بين الغضب والخوف قال مهدي : لنفتح الباب ! وضعت الفتاة كفها على فمه : اصمت !

وتواجهت العيون . زوايا حادة ولامعة بدأت تتخاطف .

كان هناك ضوء لامع في العيون يتكسر ويخبو . وأحسّ مهدي جواد مرة أخرى بان هنالك شيئاً قذراً يرتدي قناع الخطر .

وقال لنفسه : أفّ . يالبلاد العرب المليئة بكل أصناف الكلاب !

الآن هم خلف الباب . ومرّ العراق كسهم مُراش بالنار .

وقال وهو يضغط أسنانه : لو تحت قبضتك صندوق من القنابل اليدوية .

وللمرة الاولى امتدت راحة كفه نحو صدر آسيا تجس نبضها . خفقان القلب يكاد يثب فوق الثوب . كان النبض يرتفع ليملأ الغرفة داخل صمت يرتعش . ورأى وجهها الشبيه بزهرة عبَّاد شمس . وجه مخطوف بالفزع .

وارتفع الطرق متواتراً ، عنيفاً كطلقات . وتوجعت آسيا : اوه . إنه البوليس . ياللفضيحة !

كانا يجلسان على كرسيين متجاورين وأمامهما الكتب والدفاتر والأقلام . ولأنهما تباطآ في فتح الباب راح الباب يرتجّ كأنما يُخلع .

هوذا الطفل يفاجأ لأول مرة في حالة متلبسة . بدت آسيا لخضر كأنما تنازع تحت طعنات خنجر . لون وجهها تحوَّل إلى بياض ، وببطء كان الدم يسحب منه .

وهي تهوي براسها فوق كتف مهدي تراءت كمن يغوص داخل قبر .

ـ آي . يايومّا ! وشهقت .

وبحركة اندفاعية تخلص من كفها المتشبثة بذراعه . وثب عن الكرسي فصار أمام الباب . صرخ بصوت وحشي مزق الصمت والخوف : مَنْ ؟

وهو يحل رتاج الباب بعنف مضطرب كانت المدية في يده : البوليس هو البوليس دائماً . ماعاد هناك مايخسر . كان يرتد إلى زمن آخر .

على العتبة فوجىء بوجه الحاج محمد . لحيته المزروعة بالبياض كانت ترتجف ووجهه الأصفر ينضح حقداً : أف . ياللخراء أهو أنت ! ؟

ـ لماذا لم تفتح ؟

ـ لماذا لم تتكلم ؟

ـ مالذي تفعلينه هنا ؟ وجهه الكلبي كان يمتد فوق كتف مهدي نحو آسيا .

ـ اسمع . اسمع . خطفه وعبر به العتبة وقذف به إلى الخارج وهمّ يغلق الباب :

ـ تكلم معي . إنها تلميذتي وهذه غرفتي ونحن لانفعل منكراً .

فهمت ؟

ـ تلميذتك ! هاه . هاه . اسمع ياشيخ أنا لست غبياً . أعرف مثل هذه الخدائع . كما اعرف هذا النوع من الطفلات .

كان الباب مواربا وكانت آسيا تسمع . فجأة قدمت . اقتربت من الحاج وجذبته نحو الداخل . هزته بكتفه : حلِّ عينيك جيداً . أنا لست منهن . هذا أستاذي وهو يأتي الينا كواحد من أهل البيت . إذا كان رأسك مليئاً بالأخماج والميكروبات فنحن أناس أنقياء وشرفاء . إسأل عن عائلة سي العربي لخضر إذا كنت لاتعرفها . بونه تعرف من نحن . فهمت ؟

الحاج محمد المليء كرشه بنور الله وتقواه هزّ رأسه ساخراً :

أنا أعرفكِ . يومياً أراك معهم في ساحة المدينة . هيه . طفلات آخر زمان . بنات الشيطان . أعوذ بالله . سترك يارب !

صدمت آسيا . لكأنما مسَّها تيار كهربائي فعلا صوتها : أنت حاج تقول أنك زرت الكعبة وبيت النبي ثم تكذب . ألا تخجل ! ؟

وبحنق صاح الحاج : هذه الثرثرة لا تفيدك . هيا . هيا معي إلى البوليس لنرى هناك من الصادق ومن الكاذب . أنت ياشيخ ابقَ هنا . أما هذه الأبليسة فتأتي معي .

ـ لا . لن نتحرك من هنا . اذهب وحدك واحضر البوليس .

كان الغروب يتمطى داخل الغرفة بظلاله الصفراء . تحت هذه الظلال انعقدت محكمة الرجل الذي شعر بانثلام دينه .

بدا الحاج محمد مُهاناً . لقد دُنِّس بيته بتجاور امرأة مع رجل غير متزوجين بشريعة الرسول . هدر رعد صوته المنتقم :

اسمع . على الغرباء ألاّ يرفعوا أصواتهم في بلادنا . ذلك أفضل لهم . فهمت ! أنتم هنا للنور لا للنار . يزّينا خَماج من أعداء الله .

الجملة الأخيرة حملت تهديداً . وفي أعماق الرجل الغريب المدعو مهدي جواد ، تحرك شعور غامض . إحساس بالعري والوحشة وفقدان الأمن .

غثيان اختلط برغبة عاصفة في الصراخ والطعن : أن يقتل هذا الخنزير ويقذف به من الطابق الرابع .

وقال بهدوء ساخن : امهلني إلى الغد وسأخرج من غرفتك .

ـ بلى . بلى . عليك أن تخرج حالا وإلاّ خرجت بالسيف . أفهمت ؟

أمسك مهدي بذراع آسيا : هيّا إلى بيتكم .

اضطرب الحاج . بربر صوته كلمات محلية مختلطة .

- هل تريد أن تذهب معنا لنشرح الأمر هناك ؟

كان الوقت متأخراً . ومن البيوت خرج الجيران يستطلعون الفضيحة .

الحاج محمد زائر مهد رسول الله وعاشق كعبته ، بدا بائساً تحت ذلك الغروب الكابي . كان مرتبكاً يتعثر باختلاطات عقله وأسئلة الجيران الذين خرجوا ، وبالدمدمات الأخلاقية التي يطلقها ذهنه الملتاث بالأموال والصلوات والكبت الجنسي .

- 8 -

فلّة بو عنّاب .

يقول مهيار مارأيك أن تتعرف عليها ! ثم يضيف :

امرأة غريبة . مزيج مستهترة مع مناضلة خائبة . امرأة حرة .

ويسأله مهدي جواد : عمن تتحدث ؟ فيقول مهيار : عن المرأة التي أسكن عندها يارجل . هل نسيت ؟

- لا . ولكن ماالمناسبة ؟

- إنسانة مبهمة . عاشت حياة مثيرة وغنية خلال الحرب . قضت فترة مع قيادة الجيل إلى جانب الزبيري . وقد حدثتها عنك .

- وكالعادة نفختني كبالون .

- بالون مثقوب .

تعلو ضحكتهما وهما يعبران ساحة بونه الظليلة .

يعَلق مهدي جواد وهو يثب كذكر الماعز نحو أوراق الشجر : مهيار . يخيَل إليّ أن ماسيبقى من هذه المدينة : هذه الساحة . إنها هنا في القلب . واحة مقدسة هل تراها مثلي ؟

يضحك مهيار الباهلي غامزاً بعينه : معلوم عيني . مفهوم . المرفأ الآسيوي .

- أبداً . بل تذكرني بحدائق شط العرب وشجر البصرة .

بيت فلّة بو عناب في الطابق الأول من شارع عبّان رمضان . تفتح

الباب امرأة نحيلة . في وجهها قسوة وشحوب . صدر ضامر : أهلاً . أهلاً . مهدي جواد . هل أنا مخطئة يامهيار ؟

ـ هو بعينه . ذئب ليالي بونه المتوحد .

ـ لا . لا يامهيار أنت تظلمه . بل قُل عاشقها العامري !

هكذا بلا مقدمات ، تهدم هذه المرأة الجدران بمثل هذه الفجاءة .

يجتازان ممرا طويلا . تقودهما المرأة نحو صالون واسع . بلاط نظيف تغطيه البسط وبعض الطنافس القديمة . ديوان مغطى بشرشف زهري . مدفأة الجدارٍ عليها مزهرية وضع فيها ورد اصطناعي علاه غبار . على الجدار علّق سيفان صغيران تحتهما طبق نحاسي مغربي أصفر . الجدار المقابل تزينه سجادة حائط . لوحة صيد تقليدية لنمور مذعورة يطلق عليها النار بدو فوق جياد رامحة .

أعلى الديوان صورة داخل إطار لمقاتلين بينهم امرأة بثياب القتال .

ـ هذا أنتِ ؟

تبتسم بمرارة مستترة : أيام العزّ .

كانوا واقفين .

ـ تفضلوا ارتاحوا . تسأل : مارأيك ياسي مهدي ؟

نظر اليها سائلاً .

ـ بالبيت طبعاً !

ـ جميل وهادىء . أنت محظوظة على مايبدو .

ـ هذا ماورثته من الثورة . حصيلة عمر ضاع في الريح ياخويا يا مهدي .

كانت الآن تجلس فوق البساط الأرضي . ساقاها التفتّا فبرز أعلى فخذها الأيمن . فخذ أسمر منساب . إنها تتصرف بحرية بعيدة عن الإثارة .

قالت وهي تشعل سيجارة : شاي أخضر أم عراقي ؟

تظارف مهيار : جائعون . جائعون . ياست الفلّ .

فلّة تدخن بعصبية . تسال مهدي : منذ عامين أنت هنا . لماذا لم نركَ ؟

وعلق مهيار : غارق في بحيرات العشق .

ضحكت فلة . ظهر فكها العلوي البارز فبدا وجهها كريهاً .

ـ ما كان هناك وقت . قصدت مناسبة .

ـ أنا أعرف كل المشرقيين . خاصة العراقيين . هل مايقال عنك صحيح ؟

ـ ماذا ؟

ـ أنك منطو . ثم رفعت ذراعيها باسطة راحة كفيها مشيرة إلى العجرفة .

ـ من يقول ؟

ـ جماعتك .

وقال مهدي جواد : آ . الموبوؤون ! أنا محايد . عنيت لست اجتماعياً جداً .

وعلقت فلّة : غريب ! لماذا العرب ينهشون لحوم بعضهم بعضاً على هذا النحو المقرف . أتعرف ! لقد تحدثت بهذا لمهيار . تصور أنني فتحت لهم بيتي على مصراعيه . نتحدث . نسمع الموسيقى . أحياناً يأتون ومعهم صديقاتهم . نشرب ونرقص . ولكنني لم أنج منهم . فضحوني في المدينة . أشاعوا عني : مستهترة وإباحية وصاحبة بانسيون للقوادة . إنني أعرف مدينتي وناسها . عقول صغيرة كعقول الضفادع لايرون أبعد من أفخاذهم ومعدهم . ومع ذلك لاأبالي . أنا امرأة حرة عشت في أوروبا وفي بلاد عربية متحررة . غريب . هؤلاء الشرقيون المتنورون أكثر منا لماذا يتصرفون بمثل هذه الخسة ؟ يا إلهي كم نحن مخدوعون بهؤلاء الصغار !

كانت تثرثر بشكل عاصف ومجروح . لابد أنها تناولت شيئاً من النبيذ قبل قدومهما . سألها مهيار إن كان عليه أن يخرج ليأتي بالخمر .

ـ لا . يوجد مايكفي .

نهض مهيار ليحضر المائدة . وسألتهما إن كانا يشربان القهوة أولا . جاء صوت الباهلي من المطبخ : ها . فلّة دوختينا بسيرة الشاي والقهوة . هذا المعتزل الجاثي قربك سكير محترف . في الصباح يتناول قهوة بالنبيذ ومن الظهيرة إلى الظهيرة القادمة يظل مخموراً .

وصاح مهدي : لا . لا . أبداً . فلّة أرجوك لاتصدقي هذا المأفون . هو رجل اتهامي . أنا انسان صالح يخشى الخطيئة والآخرة .

ابتهجت فلّة بو عنّاب . بشبق فتحت عينيها السوداوين وفمها الشهواني : واضح . واضح هذا في عينيك . أنا أعرف جيداً تقوى العراقيين .

ـ عندما تحتاجنا نادِنا ياسي مهيار . صرخت من الصالون .

واستطردت هامسة : ولكن اسمع . مهيار ليس منهم على مايبدو ألا توافقني ؟ يظهر لي بتقواه وكأنه ولد في صومعة . أشك أنه شرقي وسليل الصحارى الحارة . قالت عبارتها الملغومة عن مهيار وهي تسحق بعصبية سيكارتها .

وقال مهدي : مهيار من العتبات المقدسة . نَجَفي . هل تعرفين هذا ؟

ـ نجفي ! ماذا يعني ذلك ؟

ـ هؤلاء ربع عاشوراء . من شدة التكفير والندم والتجريح فقدوا حرارة الجنس . ياللصرخة التي علت من المطبخ !

ضحكا عالياً أكثر . وقال مهيار . أشمّ رائحة وشاية . شنو عيني هل بدأت النميمة ؟

صاحت فلة : فضحناكَ يانَجَفي . ياعاشورائي .

ـ قابل . قابل مايقوله المعتزل . هذا البصراوي اللعين مؤسسة دسّ ونميمة . انتبهي . عيني .

جاءت فلّة بكأسيَ نبيذ أحمر من البار الصغير . قدمت لمهدي كأساً ثم رفعت كأسها . نخبك . هو يغسل الخضار والفواكه أما نحن فنتجلى . وشربا : أنا أرى تشابهاً بين طبيعتينا . يخيل إليّ أنك رجل حرّ من الداخل ! فجأة قالت عبارتها الأخيرة بدهشة طفل .

كانت تتحدث بلغة فصحى وبلهجة شرقية . استوضحها فقالت بأنها عاشت زمناً في مصر وذهبت إلى دمشق وحلب مع وفد النساء الجزائريات : كنا نمثل جبهة التحرير إبّان الحرب . لم نذهب إلى العراق . كان مايزال رجعياً قبل ثورة الـ 58.

ـ وكيف ترين العراق الآن ؟

ـ أفضل مما كان قبل الثورة . نحن نكره الاستعمار . أي نظام وطني يأتي بعد التحرير أفضل رغم سيئاته .

ها قد بدأت تتحرك في أرجاء البيت . كقطة تثب من الممر إلى

المطبخ فالصالون . تطلق كلمات وصيحات . بدينامية مدهشة تتحرك وكانها في سن العشرين . فلَة بو عنّاب على أبواب الأربعين ، لكن حركاتها المصطنعة تبدو مع ذلك متقنة كراقصة باليه . وهي تثب وتغني لحناً مصرياً ترتفع تنورتها الزرقاء . فقط تلك المسافة من الركبة حتى الحوض تبدو المثيرة . اسمرار مصقول وشهي . ماتبقى يبدو مجوفاً ، هشاً كفزاعة حقل .

وهي تملأ الكأسين تغمز بعينيها : أنت مغتبط يافندم ؟ يومىء موافقاً . إنها تتحدث بلهجة مصرية غالبة . بعد وقت يكتشف أنها مزيج لهجات وحركات وأخيلة جامحة .

ـ رغبت أن أبقى في مصر . القاهرة أم الدنيا . أنا عشقت المصريين عبادة . ناس طيبون للغاية .

ترفع ذراعيها باستعراض : هناك تعلمت الرقص وهويت التمثيل . صديقاتي وأصدقائي هناك عرفوني على منتج سينمائي .

ـ منتج أم مخرج ؟

ـ لا منتج . هو قدمني للمخرج .

رشاقتها وهذا الهزال في الوجه الغضاري المتشح بكآبته . في مكان ما من هذه المرأة شرخ تحاول ستره . وهي تضحك باستهتار بادٍ تقول : لماذا تندهش ؟ أنا لم أكن هكذا . كنت جميلة ورشيقة كزهرة . لذلك سموني باسم الوردة . كان هذا قبل خمسة عشر عاماً . هل بامكانك أن تتصورني وأنا في الخامسة والعشرين ؟

ـ هل قلت أنك ذهبت إلى مصر في وفد نساء جبهة التحرير ؟

ـ بلى . بلى . ومالو ؟ ياشيخ هناك أوقات للعمل وأوقات للحياة . هل أنت طهراني كأخينا مهيار ؟

ـ لا . ولكن . . . أعتقد أنني لم أفهم عليك جيداً .

ـ كان هناك اقتراح أن يبقى قسم من الوفد ممثلاً دائماً للثورة . أنا كنت مع من سيبقى .

ـ مانوع الفيلم الذي كنت ستمثلين فيه ؟

ـ عن الثورة الجزائرية طبعاً .

مهيار نادى من المطبخ : هيا . هيا . جهَّزتُ الخضار والكؤوس . صاحت فلّة ضاحكة : ايه . لاتنسَ الحساء .

وأضافت : كل مساء لابد أن يتناول بورمة حساء . هذا القسّ .

ـ لنعاونه .

ونهضا إلى المطبخ .

ـ آه . ياعزيزي مهيار أنت لاتعرف إشعال الغاز ومع ذلك تتنطع لتحضير المائدة . مهدي لماذا لاتزوجه ليكتمل ؟

ـ أزوجه ! وهل أنا عرّابه !

وغمزت فلة : يبدو انه متيَّم بالثورة الجزائرية . لكنه يخشى الأفريقيات .

ـ ماالذي تخشاه فيهن ياسي مهيار ؟

ـ لبؤات . ورثن من الغابة شراستها .

تقول فلَة مستفَزَّة وهي تجهز مقلاة اللحم : لبؤات ياقديس ! والحرارة والجلد الطري هذا تنساه . هاه . نحكي واللا . . .

ـ حرارة وطراوة الافعى .

ترشقه بحفنة ماء فيرتبك . طفل بوغت في لحظة غفلة . تعرو فلَة حالة هرج فاحش . تأخذ جرعة نبيذ من كأسها : اللبؤة تبحث عن ليثها . نحن الأفريقيات ننتشي بالقوة . هنا المرأة لاتخون إلا الرجل الذي لايروي أرضه جيداً . ها . ها .

مع ضحكتها الفاسقة تمد يداً تحت المائدة وتجس مابين فخذي مهدي . يتصاعد الدم فتتخطى الرغبة لوحة الدمامة . امرأة من نار تحت عصف النبيذ الناري .

انجلت الغمرة في هذا الحضور الأولي . قال الصحو العقلاني للشهوة المجنونة : كن عاقلا أيها الشيطان وابتعد الليلة قليلا .

وإذا تأوّدت فلَة وهدلت شفتيها ثم فتحت ساقيها تحت المائدة ، انتعظ اللعين خارقاً قماش الشرف والحضرة المتزنة : هيا . اهدأ أيها الأرقط الذي لا يستحي!

ينهض مهدي جواد إلى المطبخ متذرعاً بالفواكه انعطافاً عن الفضيحة . فلَة بو عنّاب الثرثارة ، المظللة بالشهوات المقدسة ، تضع اسطوانة راقصة وتبدأ الرقص طائرة في فضاء صحو .

- 9 -

برنامج الدروس يومان في الاسبوع . خلال ساعة أو أكثر ينتهي الدرس . مهدي جواد يبذل جهوداً مكثفة في المراحل الأولى ، خلالها تبدو آسيا لخضر بذكائها الفطري الحادّ ، نموذج الطالبة الجادة .

كانت مصرة على المناقشات العامة بعد الدرس ، شعور سري خاص نما بينهما غبّ حادثة الغرفة . كل منهما انتابه شعور غامض حول إثم كانا بريئين منه .

ماالذي يفعله رجل وامرأة إذا ماانفردا في غرفة مغلقة ؟

دود رأس الحاج محمد وجراثيم سلالته ، كانت تشير نحو الفاحشة .

غير إن آسيا لخضر المولودة في كهوف جبال بونه الوعرة ، الطفلة التي تدمّت بمآسي حرب التحرير ، كانت تحلم بشموس مضيئة وبشر أنقياء وعالم صحي في عصر الاستقلال المزدهر .

إنها تسأل بغرابة عن الفساد القائم . فساد النفوس . لابد أن الحرب لم تغير شيئاً . هل يشعر العرب بالندم على مافعلوه ؟ هل يخافون التحول إذا ما خرجوا إلى سطح البحر فيعودون إلى نقطة الصفر ليحتموا بأصداف الماضي ؟

ثم تسأل إن كان عرب المشرق أكثر صحة !

يبتسم مدرس اللغة فيقول : كلهم عرب . كلهم ماض وأمواج حنين إليه .

ـ لا . لا أصدق . لا بد أنكم معاصرون أكثر . صدمتكم كانت أخفّ . بين الفرنسية والعربية تحاول أن تعبر . لكنها لم تكن تعرف أنها تقترب من طبقة النار .

ـ هذه مسألة معقدة . لكل بلد استثناءات .

تقول آسيا : نحن نعيش عقدة الذنب أمام الأوروبي . الاستعمار نعم . غير أن في دمنا بلازما فاسدة . إنها مستمرة على مايبدو وهذا هو المحزن .

ـ ليس تماماً . القدر التاريخي فكرة فاسدة هي الاخرى . هذه الطفلة الغريبة . لماذا تحاول أن تفتح أبواب الرصد المغلقة بأختام الجن . إنها تتقدم بعفوية نحو الممرات السرية . وهذا الرجل الملتبس مايزال

كامناً خلف مصراع غامض . آسيا الأخضر لاتعرف منه غير القناع ، وهذا الرجل لا يعدو كونه صَدَفة فارغة إلا من الأصداء طرحها البحر . حملته الريح ذات غسق لعين فوصل شواطىء بونه البعيدة وهو حطام .

وما كان يودّ أن يقول شيئاً عما مضى ، ولا عما يحدث تحت سماوات البدو . لقد قيلت الأشياء بشكلها الفاجعي والكاريكاتوري ، وانتهى زمن ما في تلك البلاد النائية .

السماء . السماء . غبراء ورمادية تحت هذا الغسق .

هاهما يجلسان متحاذيين في صالون البيت . زند آسيا سائب فوق مائدة مستطيلة . إنها تنجز ماتبقى من وظيفة الدرس .

بحياد يراقب الوجه الطفولي ثم ينحدر نحو مجرى الصدر . يستغرق وهو يقرأ خطوط خرائط الوجه والأنف والعنق : هذا الرأس الروماني المنحوت !

ترفع رأسها وتسأل سؤالاً حول الوظيفة . تحت المنضدة تتصادم القدمان : عفواً . هل انتهيت ؟ يتناول الكراس ليبدأ التصحيح . خطها خربشة طفل ابتدائي . أخطاء النحو والإعراب قليلة . هل المنهج العلمي هو الذي أكسبها هذا الميل المتقدم في قواعد اللغة !

ـ باهي . أنا مغتبط . أعتقد أنك ستنجحين هذا العام .

ـ واثق ؟ سألته بفرح .

ـ بلى . إنما أكدي لنفسك دائماً أنك تحبين العربية . هذا الإيحاء مهمَ

ـ بدأت أحب العربية حقاً كما بدأت أدرك أنها لغتي وأرغب أن نتحاور بها معاً .

لقد قالت آسيا شيئاً قابضاً حول عبارة مالك حداد عن منفى اللغة . كانت تتحدث عن الاستعمار الثقافي الأقسى والأضرى من السياسي والاقتصادي : غرسوا في ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة وفاتحين . استعمروا اسبانيا وصقلية ووصلوا إلى بواتييه . كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ من الانجيل والتوراة واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم ، وهذا سبب تخلف العرب في العلوم والحضارة الحديثة .

ـ هذا طبيعي . قال ذلك وهو يهز رأسه . واستطرد : إنهم منطقيون

ومنسجمون مع غاياتهم . الاستعمار في النهاية ليس العنف فقط إنما التزوير والاستلاب والقطيعة مع الأنا الجماعي .

قرع الباب بهدوء . دخلت لالا فضيلة الأم . حيَّت ثم رحبت ببشاشة وديعة : هل أستطيع الجلوس قليلاً ؟

ـ أهلا . الدرس انتهى . قال المدرس .

بدت لالا فضيلة امرأة طويلة ، ممتلئة ، تخطت الأربعين . نضارة وجهها كانت ترسم امرأة في الثلاثين . عن سريرة في صفاء الينابيع هكذا أعلنت ابتسامتها الطفولية .

سألت عن دروس آسيا وتقدمها . ثم تشعَّب حديثها حول البيت والمتاعب والجيران والناس الذين تغيَّروا عما كانوا عليه في الأزمنة الماضية . كانت تتدفق بعذوبة مفعمة بمرارة ودهشة : في الأيام القديمة كان العباد أفضل . كانوا يحبون بعضهم البعض أكثر . الآن لا أحد يحبّ إلا نفسه . في الماضي كان العبد يقطع اللقمة عن نفسه ليطعمها لجاره المحتاج أقول لك ياأستاذ ورأس النبي أيام الثورة والحرب كانت الاشتراكية موجودة . ما في بيتي وبيتك للجميع . لا أحد يملك شيئاً . المؤونة والمواشي والطعام والأرض كانت للمجاهدين والشعب . الناس كانوا قلب واحد وذراع واحد وصوت واحد . الاستعمار والغريب جمَّعنا . ماانتهت الحرب حتى عاد الانقسام . أنت ترى بعينيك الآن كيف يموت الانسان جوعاً في الطريق ولا من يبالي به .

كانت تتحدث بأسف عن الفساد والأنانية والغيرة والحقد والاستغلال والكذب الذي استشرى زمن الاستقلال .

بانسياب مطر كانت كلماتها العفوية تسيل . ترامت على وجهها ظلال أسى . أسى جارح ولكنه صادق عن زمن مشرق ولّى وزمن قاتم جاء فحوَّل الناس . من حالة الحب والتضحية والتعاون ، إلى حالة غريبة من الحقد والكراهية والأنانية وألوهية المال .

وسألها مهدي جواد إن كانت آسيا قد أخبرتها عن حادثة الحاج محمد ، فأجابت بامتعاض : بلى . بلى . ذلك الحلوف . هذا دليل على ماكنت أقول . آسيا تتهمني دائماً بالمبالغة . أقول لها : يابنتي البشر فسدوا وانقسموا حتى صار الواحد عدو الآخر وعدو نفسه . ماعادوا كما كانوا أيام حرب التحرير . ماكادت الحرب تتوقف ويأتي الفَرَج حتى ظهرت كل الشياطين والعفاريت المخبأة في الرؤوس والصدور . كم هو محزن أن يصلوا إلى هذا الوضع ! الأعداء يشمتون بنا الآن ويقولون :

شوفوا الجزائريين بعدنا كيف فسدوا . الحق أقول لك ياولدي : أنا لا أفهم ماذا حدث ولماذا . كيف كانت الحرب تؤاخيهم في الحياة والممات ضد أعدائهم والآن يتحولون وحوشاً يمزقون لحوم بعضهم بعضاً . قل لي : هل ينبغي أن يكون هناك دائماً عدو حتى نتحد ! !

دخلت آسيا ومعها القهوة والحليب حاملة صينية فضية بقوائم . كان مهدي جواد يدخِّن منصتاً لحديث لالا فضيلة المؤسّي : أية امرأة حكيمة !

واستطردت : آ . ذلك الحاج الدجَّال ، الخامج . عندما روت لي آسيا الحادثة غصَّت بالبكاء . قلت : لماذا تبكين ؟ مهدي واحد منا وليس غريباً . انسان عاقل وشريف . آه ياولدي هؤلاء الناس أنت لاتصدق كم هم أشرار وسيئون : لكن أنا أعرف ماذا ربَّيت في بيتي . عائلتنا معروفة . بناتي بنات شهيد ضحى في سبيل الوطن والحرية . قبل أن يستشهد كان يقول لي دائماً : فضيلة ، لا وصية لي عندك غير الدراري . ربِّيهم تربية تليق بنا كمسلمين . نحن نقاتل حتى لا يلوِّث الاستعمار شرفنا . بيت الانسان شرفه . ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه . بيت سي العربي ينبغي أن يظل نقياً . كل بيت في الجزائر قد ينهدم لكن الشرف ينبغي ألا يتهدم . لاتنسي ذلك يا لالا . لالا فضيلة تحكي بثقة وكبرياء . تروي كيف طرد الفرنسيون كالكلاب دون أن ينالوا من شرف الجزائر الصابرة والقوية : بالدم والذراع طردناهم ياولدي . تنعطف نحو الحاج محمد : بعد هذا يأتي حلوف يدَّعي أنه حجَّ إلى بيت رسول الله ويبغي تلويث شرفنا وسمعة ابنتي ! أنا قلت لآسيا : لماذا لم تمسكي بلحية ذلك الكلب وتبصقي فيها ! والله ، الحلوف ولد الحلوف يستحق أكثر . كصفحة بحر في يوم غارب يلوح وجه آسيا . الأسى كان هاجعاً تحت الماء ، لكن ذكرى الأب تلفح كريح السموم . تزيح الرمل لتجرح حنايا الحجر الصلد .

هي ذي تصب القهوة بصمت كئيب .

تستطرد الأم بسيلان تعارفي : بعد موت سي العربي رفضت الزواج . قلت أكرِّس حياتي لتربية أولادي . إخوتي قالوا إذا لم تتزوجي لن ترحمك حجارة الناس . الزوج غطاء وحماية . زوجوني من يزيد ولد الحاج مرغمة . السعادة ليست مهمة . الشرف هو المهم . الحمد لله نحن مستورون ياولدي . ربي يعيشك لمساعدة آسيا .

* * *

لابد أن الحياة غير نقية كما نتصورها ونحن أطفال . والذى يتجلى أكثر عندما نرغب ممارسة حريتنا . الحياة هي الصراع ضد الشر والموت .

وتصمت محدِّقة في أفق البحر .

- يبدو أن البشر لا يرضون بغير قوانينهم السائدة .

- متى بدأت تكتشفين ذلك ؟

- بعد أن تعارفنا .

- هذه تجربتك الأولى ؟ عنيت ألم يكن هناك آخر ؟

في عمق الماء يسري زورق شراعي تحت سماء صحو . وجه آسيا وشّاه الأسى . يختطف البحر المديد ذاكرتها الخضراء .

- كان هناك شاب فرنسي اسمه كلود . معاً نتدرب في زورق شراعي . كنا فتيات وفتياناً منتسبين لنادي الزوارق الشراعية . البحر كان مدينتنا . بين السماء الزرقاء والماء الأزرق يشعر الإنسان بالنقاء . ساعات طويلة ونحن مفصولون عن العالم . كأطفال نلعب في عالم غريب مضاء . آه . في البحر يكتشف الانسان الحلم . كم كنا نبدو بعيدين عن جراثيم المدينة والبشر !

وبونه الآن خلفهما . مدينة بيضاء تتوهج تحت شمس أفريقية حادة . جبال غابات وحجارة تبدو تحت الضحى في لون وحرارة الشمس . مهدي جواد صامت . يتملى الماء الساجي وهذا الفضاء الأبيض العاري . الزورق نقطة بيضاء تتحرك باتئاد . لا ريح . والأفق ممحو المعالم . سألته : أتحب الزوارق الشراعية ؟

نظر نحوها بحياد : لا أدري ! البحر هو الله في قلبي .

- ذات يوم سنبحر في مركب . سترى كم سيكون الأمر مبهجاً .

تمدد فوق الرمل الأبيض شابكاً كفيه تحت رأسه . سماء فارغة ، عميقة ، ومجوَّفة . كبركان أبيض كانت الشمس داخل سمتها وهي تتفجر بملايين الأشعة .

نوبة الحياد داهمته . كانت الأشعة تفصله عن الفتاة الآن . كطيور مذعورة تقدمت أشباح العالم القديم . خرجت من البحر ودوَّت أصوات كانت تحترق تحت لفح النار وصدمة الأسلاك الكهربائية ، وغاص الجسد داخل محلول حارّ . صعد المحلول إلى الرأس . وبدأت الخلايا تتحلل

بفعل الحرارة وانفجارات الدم التي غطَّت أغشية المخ .

كانوا يهذُون وينوحون ويعترفون ويتساقطون كالنيازك داخل الأقبية وفي الشوارع المظلمة ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي عمق مستنقعات البردي . وقال مهدي جواد للأشباح : ابتعدي . أريد أن أنجو . ونجا .

في زنزانة «الابيار» يقول بشير حاج علي عن جلاَّده : «عند وصولي يستقبلني في الظاهر ببشاشة وهدوء ويحدثني باللغة القبائلية . فجأة يبدو أنه مهتم بمنزل بوعلام خلفه : أين هو ؟ فأجيبه : لا أعرف . على كل حال لن أدلك عليه . هل سمعت بالشهامة القبائلية ؟ وكان يشعر بغيظ حاقد عليّ من أجل هذه القضية . وهو مهتم بصحة الصادق حجرس وعبد الحميد بن زين وبشروط حياتهم . وكان يقول لي : النضال السرّي شكل من أشكال التسول ، حيث ينتقل الانسان من باب إلى باب . أعطني كلمة اليهم وأعطني عناوينهم ، وسأذهب اليهم لأطمئنهم ولن يحدث لهم شيء . ولم أجبه» .

تسأل آسيا لخضر : ها أنت صامت كالمعتاد !

وببلاهة مفتعلة يبتسم مهدي جواد . لكنه لايجيب .

ـ بماذا تفكر ؟

ـ بالبحر .

ـ أأنت مكتئب من قصة الفرنسي ؟

ـ مسألة شخصية لاتعنيني .

ـ كنا أصدقاء فقط .

كان الرمل حارًاً . وعلى الصخور الرمادية في البحر ، وقف نورس يفلي ريش صدره الأبيض . فوقه حوَّم طائر آخر ثم مالبث أن هبط قربه . تحاذيا وراح كل منهما يغلّ منقاره في ريش الآخر .

قالت آسيا وهي تشير نحو طيور الماء : انظر . ما أجملهما ! انثنى جانباً فرأى الطائرين يتعانقان . هبت نسمة بحرية مشبعة برائحة ملح البحر .

ـ هكذا كنتما في عمق الماء ؟

الجملة سقطت سهواً . حاول استدراكها لكنه أدرك انقباضه المفاجىء :

ياللخراقة !

من زاوية عينه المواربة لمح وجهها البارد كحجر . مثل هذه الحالة كان صعباً تمييز ما إذا كانت مغبونة أو مؤذاة . وجه مرهف يمتلك خاصية الغبطة والحزن وهما يتماوجان تحت أصيل من هدوء . في مثل هذه اللحظات كانا يغتربان وينفصلان .

وقال خارقاً حالة الركود : وجهك كطقس المدينة . آناً شمس حادة وآناً مطر . أأنت كئيبة الآن ؟

افترت وهي تداعب سوالف شعرها لافة سنابله حول أصبعها : يبدو أن بيننا نقطة عمياء . بقعة مجهولة لم نكتشفها بعد . بعد صمت أوضحت : وأنا صغيرة كنت أرى في بابا صديقاً . مذ مات وأنا أبحث عن أب صديق . هل تفهمني ؟ سيكون محزناً أن تكون مثلهم . وسيكون جارحاً الا تدرك ذلك .

ـ ماذا عنيت بمثلهم ؟

كانت متكئة فوق بياض الرمل . وجهها يستقبل لمعان الوهج والبحر : في اليوم الاول يتعرَّف العربي على امرأة . وفي اليوم الثاني يرغبها في سريره . وفي اليوم الثالث تتحول إلى عاهرة في قاموسه الجنسي . هذا كريه . ليس كريهاً بل مقزز !

الآن هي مؤذاة إذن ! هكذا انفصل الحزن عن الغضب وظهر الأتّقاد .

لقد تضرَّج وجهها فبدت في قمة هيجانها : هؤلاء الخنازير أنا أكرههم . أمقتهم مقت الكلاب . إنهم يملؤون هذه المدينة بالعواء والبول . هل فهمت ماذا أعني ؟

أصابعه تغوص في رمل حارَ ، والبحر مشعَ . ملايين من مصابيح خضر تطلقها قناديل الجسد . آسيا الأخضر تضيء تحت بهجة البحر .

ـ آسفة . ربما تكلمت بحماقة غير مقصودة . أأنت مؤذى ؟

ـ هل نعوم ؟

قام هو عن الرمل . نفض كفَّيه . كانت ماتزال ممدة على الرمل كغزالة مراشة بسهم : هيا . تناول معصمها ناتراً الجسد إلى أعلى . اندفعا بصخب واخترقا الموج .

قبل أن يغوصا بعيداً رشقها بالماء . صاحت : لا . لا . الماء بارد . وكانت ترتعش . ورأى الماء يتقاطر ملألأ فوق جسدها البهيّ .

- انظري !

- ماذا ؟

- لو ترين كم أنت ملألأة الآن ؟

- اوه يادين الرب . كم تبالغ كأي قروي . قالتها بالفرنسية .

عندما غطسا معاً في حرير الماء وخرجا ، شاهدا النورسين يخفقان متجاورين فوق حقل البحر الممتد .

* * *

كتب مهدي جواد في ذلك المساء : «المنفى اغتراب جديد يضعك وجهاً لوجه أمام نفسك . إنه يضعك أمام المرآة . وها أنت تراجع هيروغليفيا الزمن في استراحة الحرب . ثمة عطب داخل الإنسان وداخل الكتلة يُرى الآن بوضوح أشد في هذا المنفى . التجربة قالت ذلك بمرارة وفاجعية الدم ، ربما . لكن الأشياء ماتزال هلامية سابحة كقناديل بحر .

إنها لمسألة غير تافهة أن تسأل : في عالم اللامنطق وانعدام القانون . في العالم المحكوم بالطغيان وسطوة الآلهة والقتل وميراث الأجداد المنقرضين . عالم النزوة والمزاج والفردية كيف تفكر وتتحرك . كيف تتقدم . بل كيف تتشكل ؟ !

هل باستطاعة الحب أن يتجاوز الحالة ؟ وهل تأسيس حالة حب على نحو صحي ضد عالم النفي اللاعقلاني ينقذ العالم والنفس ؟

ليكن السؤال هكذا : الإنسان أولا أم المجتمع ؟ وهل بالإمكان بناء عالم جديد بإنسان قديم ؟» .

- 10 -

في الاجتماع السري بحي الكاظمية ، تحدث مهدي جواد لخليته عن الوضع الراهن . حدد بنقاط واضحة الخطين المختلفين للحزب ، خط جبهة الكفاح الشعبي المسلح وهو خط «ظافر» ، والخط التحريفي الملحق والتابع للبورجوازية الحاكمة وهو خط آب التصفوي . الخط الأول ممثل بالقواعد المؤمنة بخوض نضال مسلح في الريف والمدينة لإسقاط سلطة البورجوازية وإقامة حكم الديمقراطية الشعبية ، الخط الثاني ممثل بقيادة اللجنة المركزية المتواطئة مع حكم البورجوازية ، والتي ماتزال تؤمن بالعمل السياسي السلمي وتراهن على الانقلاب العسكري الثوري .

بعد ذلك انتقل إلى شرح خطة العمل ، مركِّزاً على الطاقة الخلاقة لقواعد الحزب التي اجتازت عبر مراحل نضالها أقسى الظروف . هذه القواعد الآن ملقى على عاتقها مهمة هدم العالم القديم وبناء عالم جديد للبروليتاريا العراقية قائدة المستقبل .

ثم شرح مسألة عزل القيادة الانتهازية التحريفية ، وانبثاق قيادة جديدة على مستوى المناطق . وأكد على ضرورة السرية والاختفاء والسلاح الذي سيوزع على الخلية قريباً : قواعد الحزب ماتزال متماسكة رغم المحنة ورغم تواطؤ القيادة . خلايانا في الجيش سليمة . في الديوانية هناك فصيل مسلح . الرفيق ظافر ومجموعته يحضرون لكفاح شعبي في الأرياف . القتال لإسقاط السلطة الفاشية هو المهمة المركزية الآن . علينا أن نتمثل قول لينين : «إن مدرسة الحرب الأهلية لاتذهب سدىً بالنسبة للشعوب ، وإنها لمدرسة رهيبة حقاً . إذ أن هذه المدرسة تعلّم الطبقات المظلومة شنّ الحرب الأهلية . تعلِّمها الثورة الظافرة» .

واصل مهدي جواد شحن خليته : إن حزبنا الذي تمرَّس بالكفاح منذ تأسيسه على يد الرفيق المناضل «فهد» هو الآن أمل ملايين الشعب العراقي . هذه الملايين التوَّاقة للانعتاق من عبودية واستلاب رأس المال والتحرر من الاضطهاد القومي ـ الفاشي لها . الآن يجتاز الحزب مرحلة اختبار دقيقة وحاسمة . نحن الآن في معركة فرضت علينا . كان لابد أن نحضر لها . لكن تواطؤ القيادة وذيليتها للبورجوازية هي التي وضعتنا في هذا المضيق . وإذا ما هزمنا فان دماء الحزب ستكون في عنق تلك القيادة التحريفية . والآن في هذه المعركة الشرسة واللامتكافئة يقف الحزب على مفترق الفناء أو الوجود . الانقلاب العسكري الذي نفذته الطغمة الفاشية يستهدف رأس الحزب . لقد بدأوا عمليات الإبادة والمطاردات والتصفيات . في كل مكان البورجوازية الصغيرة بمؤسستها العسكرية وجهاز استخباراتها ومعها القوى الرجعية المعادية للبروليتاريا والاشتراكية العلمية ، تفتح علينا النار . وإذا ما سقط حزبنا ، دخلت المنطقة كلها الحلف الامبريالي ـ الرجعي . إنها معركة حياة أو موت كما ترون .

بإلتهاب كان مهدي جواد يتحدث أمام خلية من سبعة رفاق . لم يكن واثقاً من النصر أو الفشل . الحزب في خطر والمعركة فرضها العدو . معركة دفاع عن النفس ولا بد من خوضها حتى النهاية .

عندما سأله أحد الرفاق : ولكن كيف فوجئنا بالانقلاب ونحن

نتعاون مع السلطة البرجوازية . هل نستطيع القول يارفيق مهدي أننا خُدعنا ؟ توترت أعصابه . حقد ضاغط اندفع نحو قسمات وجهه . أجاب وهو يكزّ أسنانه : أجل . خُدعنا يارفيق . القيادة كانت ضيقة الأفق عندما راهنت على حصان عسكري هزيل . هذه هي الحقيقة . كانت تقول : باستطاعتنا ونحن في السلطة أن نقضي على أي تحرك معاد . إن سلطة الزعيم تحت تصرُفنا بعد أن تسربنا إلى مراكز القوة ومؤسسات الدولة . هكذا كانوا يوهموننا .

وقال رفيق آخر : لقد تحملنا مسؤولية تصفية عناصر قومية معادية في الساحات والشوارع على مرأى من الشعب . كان السلاح بيدنا والشعب إلى جانبنا فلماذا لم نقم سلطة دكتاتورية البروليتاريا الثورية بدلا من سلطة الزعيم الأوحد ؟

وشرح مهدي جواد المشحون ضد انتهازية القيادة ، بأن قيادة الحزب ، رغم وجود تيار ثوري يطالب باستلام السلطة ، لم تتخذ قراراً باستلام الحزب للسلطة السياسية : كانت قيادة جبانة وذيلية للبورجوازية والديكتاتورية . إن قيادة حزب شيوعي تتخلى عن تعاليم لينين في استلام السلطة بالعنف ، وتنتهج النضال السلمي ـ الديمقراطي ليست أكثر من قيادة بيروقراطية ، تحريفية ، جبانة ، تقدم حزبها بطواعية لسكين الرجعية . وتحت أي شعار ؟ تحت الشعار الجبان : عدم نضج الظروف الموضوعية ، والمراهنة على أنظمة البورجوازية الصغيرة الديمقراطية . هذا هو الشعار الذي أودى بنا إلى المذبحة أخيراً .

وسأل أحد الرفاق عن التحالف مع الديكتاتورية العسكرية ، وهل كان الزعيم يثق بالحزب وخطنا الاشتراكي . وقال مهدي جواد : فيما بعد ثبت عكس ذلك . في البدء ناور بنا . بعصا الحزب صفّى خصومه . أعطانا بعض المراكز والمؤسسات الإدراية . وبعد أن شلّ خصومه شعر بخطر الحزب فانقلب عليه . كان الزعيم يلعب ، كأي عسكري معزول شعبياً ، لعبة التوازن ليبقى هو .

كانوا في وكر شبه مظلم . خارج الوكر كان هناك رفيق حارس ، مسلح برشاش يخفيه تحت دشداشة . وكانوا يتوجسون المداهمة . وتحت ليل العراق كانت فرق الاغتيال الموالية للنظام تجوس كالذئاب في الشوارع والأحياء الشعبية . وإذ سأل رفيق عمالي عمن المسؤول عن هذه اللعبة القذرة التي ندفع ثمنها الآن ؟ ضرب مهدي جواد جدار الكهف بقبضته : القيادة . القيادة اليمينية هي التي خدعتنا . وقال الرفيق :

القيادة . القيادة . دائماً القيادة منذ الرفيق ستالين حتى الآن . عندما يقع الخطأ القاتل نمسحه بالقيادة لنبرىء أنفسنا . نحن ماذا فعلنا ؟

وسأل مهدي : أنت يارفيق مارأيك ؟ في اعتقادك أين يكمن الخطأ ؟

وقال الرفيق العمالي : ما أعرفه من خلال إدراكي البسيط والمتواضع كعامل أن على حزب ماركسي - لينيني - علمي ألاّ يخطىء في مسائل استراتيجية . ولكن ها نحن نرى خطأ قاتلاً . حتى نكون علميين لابد لنا أن نرى الأخطاء بكل أبعادها . نحن نقول القيادة ولكننا ننسى أننا نحن الذين رفعناها إلى مستوى المسؤولية . إذن هي لم تأت من مجرات الفضاء ، لماذا لم نرفع قيادة تمثل الاتجاه الثوري الصحيح ؟

- هذا صائب وحقيقي .

- إذن . لماذا نمسح بها كل الاخطاء ؟

- كانت هي التي تصوغ القرارات وقراراتها كانت خاطئة . التاريخ أثبت ذلك .

- وما العمل الآن ؟

- عزلها واختيار قيادة جديدة .

- ومن الذي يضمن ثورية هذه القيادة ؟

- خطها الجديد وممارستها .

وقال الرفيق العمَّالي : يارفيق مهدي . عفواً . أردت أن أصل إلى نقطة أمسكتني بطرفها . أريد أن أقول : لماذا استيقظنا فجأة على أخطاء القيادة وبدأنا تهشيمها ؟ لماذا لم تتضح هذه الأخطاء سابقاً ؟ العفو . أريد أن أسأل : أين الصوت الذي ارتفع ضد هذه القيادة سابقاً ؟ الحقيقة أن سؤالي يتجه نحو الديمقراطية الحزبية .

- ماذا تريد أن تقول بالتحديد ؟

تلعثم الرفيق العامل . وضع يديه على ركبتيه ، ثم مالبث أن هرش شعره الأشعث : نحن في بيت الحزب . وهذا اجتماع مصير . موت أو حياة كما قلت . ليكن موقفك وموقف الرفاق مني مايكون . سأجهر بما أعتقد . سأقول بأن الديمقراطية كانت مفقودة وأن قواعد الحزب ماكانت سوى أدوات تنفيذية . والآن نحن نذهب إلى المذبحة وليس إلى استلام السلطة . الخطأ قديم . لعله كان في صلب الحزب . أعني كان في البنية التنظيمية والسياسية . لم تكن القيادة هي المخطئة وحسب . الخطأ محصلة تراكم تاريخي ونحن جميعاً مسؤولون عنه . هذا ماأحسه كعامل

بسيط في خلية شيوعية . أقول ذلك بألم وأنا ذاهب إلى الموت . أنا مع حزبي حتى النهاية . وسأقاتل دفاعاً عنه حتى آخر نقطة دم . إنه حزبي وحياتي وأملي وسأستشهد من أجله ولو كان على خطأ . الشيوعي يموت واقفاً ولا يركع . هذا ماينبغي ان يكون .

بعد أن وزعت المهام على الخلية ، خرج مهدي جواد مغبوناً من الاجتماع . الرفيق الذي كشف عن سريرته سمّى الاشياء بأسمائها وهو يضع المبضع في الجرح . كان أكثر شجاعة منه عندما قابله المسؤول المنطقي فيما بعد .

وهو يخبّ الخطى في الشوارع المظلمة ، فكّر بأن الصراع ربما لا يكمن هنا . إن آلاماً ومآسٍ لاحدود لها تحبل بها الأيام القادمة . وأن تكون شيوعياً حقاً فهذا يعني القتال حتى ترتوي الأرض بدمك . وقال لنفسه : الحزب لا يخطىء .

كان يقولها دائماً في وجه أشباح الشك .

ـ لماذا لاتكون هناك كومونة عربية ؟

كان يفكر بالكومونة تلك الأمثولة الساحرة الشبيهة بشمس ساطعة لا تطفأ على مدى التاريخ .

ليكن هناك مايكون . الإنتماء إلى الحزب هو الإنتماء إلى الحياة ، والموت في آخر المطاف لابد أن يأتي ، فلتمت من أجل موقف عظيم . تلك هي المسألة بخطئها وصوابها .

عصفت برأسه كلمات بشير حاج علي سجين معتقل «بوارسون» في الابيار : «إنهم لايعرفون باسكال . لكن شهود باسكال سيعكرون عليهم لياليهم مابقوا على قيد الحياة . وشاهد القرن العشرين ليس وحيداً . إن ملايين النساء والرجال يستمعون إليه في اللحظة التي يقرر فيها أن يتكلم . هؤلاء الرجال والنساء في الجزائر وفي كل مكان ، رغم العزلة كنت ومازال أستأنس بحضورهم الخفي . تحت الماء الذي يقتل ، وفي قلب اللهيب السردابي ، وعندما كانت أصابعي المتورمة والمكسوة بالدم تحاول أن تتحرك تحت ضغط القيود لتبرهن لنفسها أنها مازالت تختلج بالحياة ، استطعت أن أميز خلف موشور الدموع التي كان من المستحيل حبسها ، خيطاً رقيقاً رُمِيَ إليّ كبرهان على التضامن من الخارج وبواسطته تشبثت بعالم الرجال الأحياء والمناضلين من أجل الحرية» .

* * *

وفي تلك الليلة كان مخموراً . شرب حتى شارف الانطفاء . هذى وصرخ . كان مطوقاً . نمر في قفص راح يدور في غرفته كممسوس . ظلام تلاه برق ثم دوي فأصداء . أصوات راحت تخرج من الفضاء والشجر والصحارى وقصب البردي والشوارع والسجون وساحات الإعدام لقد تناول حقنة مضادة لليأس وأقبل عليه سرب من طيور الليالي السود وكان هاوياً في قرار سحيق مهزوماً ومنفياً ووحيداً في هذه الصحارى وبين يديه وتحت عينيه وفي الطبقات السفلى ماكان يرى غير الغبار والدم والجثث وانطلقت أشباح سدَّت مدارج الأفق وأبتدأ بالأصابع والصوت والكلمات وأدرك أنه مقتول الليلة وسأل الفراغ واللاشيء أين الأسلحة وكانوا يُصادون كما تُصاد الوعول المحاصرة وما كانت هناك أسلحة وسأل الغبار والدم والجثث كيف نقاتل بلا أسلحة ولماذا لم تكن هناك بنادق ورشاشات وقنابل خلال ثلاثين عاما ؟

وهو مستلق على السرير يحدق في سقف عار ، قرأ جملة وردية مفزعة : أكنت مخدوعاً يامهدي جواد ؟

لكنه في مساء هادىء سيقرأ عبارة لشاعر الماني مجنون : «عندما نفسك المتلهفة تتخطى زمنك ، تمكث حزيناً على شاطىء بارد بين أهلك وأنت لا تعرفهم .

ولكن مهما يكن العام بارداً وبلا غناء في وقت ما ، فمن حقل أبيض يندفع ورق أخضر ، وغالباً مايغني طائر في وحشة» .

- 11 -

شربت فلّة بو عنّاب حتى انخمرت . من رأسها خرجت أصداء قديمة وراهنة . أصداء عن الحرب والأحلام الجديدة ، وأصداء عن الوحل الذي تغوص فيه . الوحل الطائف في الشوارع والمؤسسات والنفوس الخامجة .

- فلّة . ألا ترين أنك تبالغين ؟ !

وتردّ المرأة الخائبة : أنت لا تعرف هؤلاء الناس . البشر هنا أشرار ووسخون أكثر مما تتصور .

- لا . لا أعتقد . لكل شعب أشراره . هذا الذي يطفو الآن ليس عمق الشعب الذي قاتل .

- ولكن إلى أين رحلت تلك الروح ؟ تسأل وعيناها محرورتان .

يبدو مأزوماً ومحرجاً . بل هو منقبض . يحاول أن يوضِّح لفلّة خيط الحزن الشخصي من خيط حزن البشر . التداخل الذي جاء من شدة الإفراط في الوهم . كانت هناك أخيلة شاسعة . أحلام طغت ، رؤى شعرية امتزجت بأفراح عن أزمنة مزدهرة تولد من الحرب والثورة : أنت يافلّة كنت مأخوذة برؤى قمرية .

ـ ولكنهم سرقوا الثورة واغتالوها . القوّدون الذين لم يحاربوا . لماذا ؟ تصرخ فلّة بصوت جريح مؤذى .

ويقول مهيار وهو ينظر إلى لوحة النمور التي تُصاد في مضيق : إذا استمر صراخك على هذا النحو ستفقد الأشياء توازنها . شيء من الهدوء يضع الأمور في نصابها . بالعقل عيني بالعقل .

تنكمش المرأة على نفسها . كتلة النار الداخلية تتضاءل ، لكنها لاتخمد . ترى الى جه مهيار الباهلي النحيل والمحروق . الوجه المنحوت كصخرة جرانيت ، يسقط بصرها على جسده الصغير الهشّ . السؤال الذي يُؤجِّج الخيبة القديمة : لماذا هذا الرجل بهذه الضآلة العضوية ؟

الحس الآخر للمرأة يتوقد .

ـ كنت وما أزال أحب الرجال الأشداء . الكومندان طاهر كان صلباً كصخرة وحنوناً كالحمل . وهو يتحدث يلفحك دفق ناري قادم من فوهة بركان . رجل كالإعصار عندما يغضب وكالبحر الهادىء إذ يصفو . فلاح عنيد لكنه طوباوي يحلم باشتراكية الأرض . الفلاحون شجر الثورة ووقودها هم الذين أبقوا الجذوة متقدة حتى النصر ويتابع سي طاهر : انظري يافلّة إلى هؤلاء الجياع والحفاة والمقمّلين كيف يقدمون كل شيء . كل شيء يافلّة : الطعام واللباس والمأوى والحيوانات والدم . هؤلاء البحر ونحن السمك ، الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد مع المهاجرين بين الأنصار في يثرب . المستقبل لابد أن يكون لهم بعد تحرير البلاد من طاغوت فرنسا .

بعد أن تتناول من كأسها جرعة نبيذ تسأل وهي تترنح داخل طيوفها القديمة : الآن قل لي ياسي مهيار ماالذي ناله هؤلاء ! أكواخ الصفيح . الديزنطاريا والبلهارسيا . القمل وروث الحيوانات . التشرد في زنقات المدن بحثاً عن الخبز في صناديق القمامة ومخلفات المطاعم . الخدمة كالكلاب في الفنادق والمقاهي والخمارات . كيف حدث هذا ولماذا ؟ وعلاه . وعلاه ! قل لي يرحم والديك !

مهيار الباهلي المُنصِت بانتباه لفلة بو عنَّاب والمأخوذ بثورة المليون شهيد ، يعتصره ألم داخلي . يبدو هادئاً تحت شكل خارجي يخفي عرقاً من فولاذ . عرق يتوق لفأس مسنونة الحد تقدح شفرتها ناره المختزنة .

لكن الزمن يبدو غادراً ورمادياً ملعوناً على سطح هذا الكوكب المعتم الذي خرج من ذاكرة الخالق والخلق . وتحت هذا الاحتلاك يبدو لمعان العرق الفولاذي في صخرة مهيار ينوء بالصدأ والغبار . هذا ماتقوله الفصول المتراكمة وساعات الرمل المتواترة وهذا الصوت الجريح المرغرغ في حلق هذه العنّابية .

وقبل أن يلتحق الباهلي بحرب الأهوار ، كان يتحول في الجامعة بعد هزيمة حزيران نحو الماركسية . لقد سقط الرهان على الخط القومي ـ البورجوازي بهزيمة عبد الناصر . وفي كلية الفلسفة وباحة جامعة بغداد كانوا يستفزون تحوله الجديد : شيخ نجفي بعمامة ماركسية . ويضيفون : من الحسين إلى عبد الناصر إلى ماركس . ها عيني ! أين تتوطد الثورة ؟

باستفزاز يلمحون إلى أصوله الشيعية وأسرته المتدينة التي تنتمي إلى الأسياد الحسينيين .

ويوم انطلقت المظاهرات وبدأت الاشتباكات في جامعتي بغداد والبصرة شارك في الاصطدامات والحوارات . كان يمتلك منطقاً جدلياً متماسكاً ويتمتع بقدرة فائقة على إدارة دفة الحوار ومركزته حول مفاصل محددة وأساسية في سياق عقلاني مقنع .

التاريخية . التاريخية . هذا ماكان يردده في أصل كل حوار . لقد كان مقتنعاً أن اكتشاف ماركس الأساسي يكمن في المادية التاريخية لأن الجدل قديم منذ هيراقليطس أما هيجل فقد بلوره فيما بعد . هذه التاريخية في منهجه كانت توصله إلى الواقع والخصوصية الذاتية لكل شعب وكل أمة . وانطلاقاً من هذه التاريخية كان يرى الحلقات والحقب العربية الثورية : ثورة الرسول محمد والحركات السرية المضادة بعد تدجين الاسلام . انتفاضة الزنج . ثم القرامطة . ومن هذه النافذة سيثب يوماً إلى أعماق الهور بحثاً عن بقايا هؤلاء .

هكذا كان الشيوعيون الأرثوذكسيون وخريجو اليسوعيات السوفياتية يرون فيه اختلاطات تحريفية ولوثات قومية مختلطة

بجراثيم أجداد منقرضين .

لكنه كان يقول بأن هناك التباساً في الامور وخللاً في الوعي التاريخي . لقد قرأتم ماركس ولينين وأنجلز واستَكَنْتُم تحملون كلماتهم كالمقلاع وترشقون بها ، وهكذا تعتقدون أنكم محصنون ضد المباغتة . إنما ، أترون جيداً وصواباً كيف يتشكل العربي الجديد في العصر الراهن ! ذلك القديم كان مبلوراً ومحصَّناً ومنيعاً بالإسلام . الآن نحن نعبر إلى الزمن من جديد . من أين ؟ من الفراغ والسديم المطلق أم من ميراثنا ؟ هل الثورة هي القطع التاريخي الكامل ؟ أنا أرى في ماركس أو لينين محمداً جديداً محمد القرن العشرين . ماركس أو لينين العربي هذا مانحتاجه في هذا العصر المضطرب .

وفي تلك الأيام الصعبة كان مهدي جواد في كلية الآداب يناكده : عيني يامسيو عقل . يبدو أنك تعيش وهم رجل التاريخ . فمن الذي يتقمصك منهم ؟

ويرد متخطياً النكد الذي يرى فيه خفة لاتليق بثوري بأن ما ينقصنا في هذا الوقت الرخو والمسيَّب هو إيمان وبسالة الصحابة الأوائل . بمثل أولئك يُقدح الزناد في الحجر البارد وتسطع الشمس من جديد .

والآن هو ذا مهيار الباهلي يستلقي على أريكة في صالون العنَّابية . المرأة التي تلقته أول مانزل أرض بونه . أخذته إلى بيتها وأعطته غرفة فيها سرير وطاولة وكرسي . مسحت عنه وعثاء السفر : أنت وأنا سنعيش معاً . أنا أرملة تؤجر غرفة في بيتها لتعيش . هذا البيت يسمونه نزل المشارقة . لكنه ليس بانسوناً للدعارة كما وسَموه . قبلك جاؤوا إلى هنا . فلسطينيون ومصريون وسوريون وعراقيون . تصرفوا بحرية وطلاقة . عشت معهم زمناً لكنهم تكشفوا فيما بعد عن خساسة ونذالة لاتحدّ . وصموني بالقحبة والقوادة . آمل الا تكون مثلهم . أتوسم فيك النقاء وأنك ناس ملاح .

في البدء بدا متوجساً . حاول أن يسأل لكنها صادرت أسئلته : اسمع يا خويا ياسي مهيار يرحم والديك . أنا لست عاهرة بل امرأة حرة . اختار الرجل الذي يعجبني ولا أعتقد فيك ذلك الرجل . أنا أحترم المشارقة فقط . أتخيلهم أكثر حداثة ووعياً واحتراماً للمرأة من الجزائريين الخُمَّاج . ربما أكون واهمة لكن هذا هو الأمر . فهمت ؟

وفي مساء خريفي توجز له تاريخها . الفرنسيون قتلوا أسرتها في

مدينة قسطنطينة في مجزرة الـ 45 فتربت في بيت عمتها . بعد أن كبرت تزوجت في سن العشرين وأنجبت ولداً . الزوج كان سكيراً ، فاسقاً يهوى المومسات . طلقته ورحلت إلى العاصمة وهناك عاشت حياة غير سوية . عملت ساقية في بار يرتاده الضباط الفرنسيون .

لقد أحبت ضابطاً فرنسياً برتبة كابتن كان يأخذها معه آخر الليل إلى منزله . وذات مساء فوجئت بأربعة ضباط من زملائه يدخلون البيت ويسكرون وفي أواخر المساء يرغمها أن تنام معهم : لقد ضاجعوني جماعياً . كم كان الأمر كريهاً ومقززاً !

بعد اندلاع الثورة وجدت نفسها في خلية سرية من خلايا جيش التحرير . كان الرأس يدوي بأصداء الثأر من أولئك الخنازير الذين ولَغُوا فيها عن طريق ذلك الابن الزانية الذي أحبته فقذفها إلى الوحل .

ـ أنا وجميلة بوعزة كنا معاً في خلية واحدة . ومعاً وضعنا حقيبة القنابل في بار الضباط الذي أعمل فيه في شارع العربي بن مهيدي . بعد ذلك هرَّبوني الى الجبل ووضعوني تحت أمرة الكومندان طاهر .

ينقل مهيار الباهلي مسبحته الكهرمانية من أصابع يده اليسرى إلى اليمنى . وهو يتأمل وجه فلّة بو عنّاب يلتبس عليه ماسمِعَه . الحقيقة والوهم . الظلمة والضوء . يسحب نَفَساً عميقاً من سيجارته فيرى بين خيوط الدخان البيضاء صور المجاهدين بثياب القتال عبر الأدغال والوهاد الصخرية من جبال جرجرة إلى قمم الاوراس وهم يعبرون تحت حلكة الليل والرصاص والمطاردة . العصابات التي دوَّخت حلف الاطلسي ومرَّغت هيبته في الوحل .

كلمة لاكوست عن «الفلاّقة» الذين سيبيدهم خلال أربع وعشرين ساعة ، تدوي كصنج في أعماق وعيه . تلك الساعات الأربع والعشرون سُجلت فيما بعد بأنها أطول الساعات التي عرفها التاريخ .

- 12 -

أول اشتباك بينهما حدث في غرفته الجديدة . كان الحوار يتقاطع حول حرية المرأة وكيفية ممارستها في عالم يقيم حَجْراً على الحريم بحيث لايرى فيهن أكثر من مومسات أو زوجات شرعيات للمطبخ والسرير .

كان الصدام حاداً ظهيرة ذلك اليوم . امتد الجدل نحو الآفاق

الحضارية والمناخ النفسي . الجدار وصدمة الاختراق وكيف يتجاوز الانسان شرطه .

لأول مرة يحتدم مهدي جواد في وجه آسيا . استفاض أكثر مما ينبغي كاشفاً عن سريرة أفكاره العامة .

كانت آسيا تتابع وقائع حركة تحرر المرأة في فرنسا من خلال الصحف والكتب وكانت مفتونة بسيمون دي بوفوار .

عندما سألها عن مفهومها للحرية ، أوضحت بعبارة الوعي والتحرر الاقتصادي ، ثم شرحت التعارض بين الوعي الحقيقي والوعي الزائف .

ـ باهي . هذا واضح . ثمة وعيان إذن ، وعيك والوعي الزائف . أنا أريد أن أسأل عن الفعل . أعني كيف تتحركين أو تعبرين داخل هذا التعارض ؟

ـ طبعاً بوعي . ينبغي ذلك .

ـ لماذا قلت : ينبغي ؟

ـ لأنني لا أستطيع الآن .

ـ ولكن متى تمتلكين هذه الاستطاعة ؟

ـ عندما يتقدم المجتمع أكثر .

احتدم : والآن . الآن ماذا تفعلين قبل هبوط ملائكة التقدم ؟

ـ أتعلَّم لأتحرر اقتصادياً ثم أستَقِل .

ـ واللواتي لم يتح لهن ذلك . أسيرات الجهل والأسرة الأبوية ومجتمع الذكورة والله وميراث القتل والوأد ؟

ـ لا أدري . ربما كنّ ضحايا .

ـ أنت أيضاً ضحية . ترغبين المسرح والسينما والمقاهي والسهر الليلي . تريدين أن نكون معاً في تلك الأماكن وفي الأوقات التي نشتهيها ومع ذلك لاتفعلين شيئاً ليتحقق ذلك .

ـ أتعتقد أن هذا مقياس التحرر الآن ؟

ـ ما هو المعيار إذن ! هل الحرية تتجزأ ؟ صدمة اختراق الجدار لماذا لا تكون الآن ؟

ـ تذكَّر ماذا فعلوا بنا في وَضَح النهار . منذ قدومك إلى هذه المدينة

هل رأيت امرأة تسير وحيدة في الشارع بعد الساعة الثامنة ؟ من أي كوكب أنت ؟ تريدنا أن نخرج معاً في الليل لتسمي هذا تحرراً ! هذه فضيحة في بلادنا . إنك تعرف أنهم مازالوا الأقوياء وباستطاعتهم إيذاءانا بقسوة .

امتزج الغبن بالغضب . لاحت على شاشة رأسه بلاد رازحة تحت عصور الظلمات والرجال والسلاسل وجراثيم الله المهيمنة والخصاء .

كانت آسيا جالسة وكان هو مستنداً إلى الجدار يدخن بعصبية : لاتحزني إذا قلت لك أنك جبانة . وأنك مازلت مسكونة بجراثيم الأجداد . وأن تحريرك الاقتصادي مغارة جوفاء . أنت حرة داخل أربعة جدران وداخل قفصك الصدري . ظهورك معي يتم تحت غطاء تلفيقي . لست قادرة ولن تكوني على كسر أغلالك الداخلية . الدم والحليب معتكران بعبودية لافكاك منها . في دم جميعكن ماتزال نطفة الحريم تنبض .

بعصاب راح يصرخ ويضرب الجدار : لماذا يكون ذلك . لماذا ؟

على مهل نهضت . فتحت المسجلة . صدح صوت فيروز بالحزن : «لفحتني ريح السفر» . بدت مُربكة وسط الغرفة الضيقة وفي عينيها لاح بريق دمع . تماسكت وجلست على السرير : مهدي . ألا تعتقد انك تهينني ؟

غالبت إجهاشاً صاعداً وهي تضغط صدغها . مهدي جواد تنفس بعمق . على صدره رزح ثقل بدأ يزيحه بالتنفس وفتح الذراعين . كان الفضاء يرى من النافذة مشحوناً بمطر .

ـ أهينكِ ! الحوار الحر تسمينه إهانة ؟ المسألة ليست شخصية كما توهمت . أنا أحلم بتأسيس صداقة عميقة معاً . صداقة متعادلة .

ـ ولكن ماذا تريد مني ؟ قُل . هيا . قالت الجملة بعصبية .

ـ ماذا أريد منكِ ؟ ماتريدينه أنت . أن تكوَني قناعاتك . ألا تنقسمي مثلهن فيكون في داخلك امرأتان . واحدة حرة والاخرى عبدة . كيف ترتضين أن تكوني جريئة وخائفة ، صادقة وكاذبة في آن ؟

صَفَعت بكفيها حافة الفراش : ولكنهم يرصدونني . يتعقبونني كمذنبة أو خاطئة ارتكبت إثماً . المرأة هنا مُهانة وضعيفة . إنها حشرة تحت عيونهم . وأنت تعرف ذلك .

حرَّك رأسه بعنف : أجل . أجل أعرف . ولكن انظري كيف نحن محاصران كجرذين داخل هذه الجدران . لماذا لانسير داخل عيونهم الحادة . لماذا لاتُفهميهم بالسلوك أنك لست عبدة لرغباتهم وأن حريتك

تخرج من قوانينك الداخلية لا من قوانينهم الدينية والعمياء ! إنهم يحكموننا بالطقوس البائدة . طقوس الصحراء والحريم .

صوته كانت طبقاته تعلو لا شعورياً . كان يدرك أن في الحوار ميلاناً وخللاً ، ومع ذلك كان يتابع قذف الحجارة نحو البحيرة الراكدة . في آسيا لخضر كان يلمح لوحة إمرأة العصور القادمة . ينزع بشوق عارم ليبني مع هذه المرأة الجديدة بيتاً على مداخل البحر . بدا هذا مستكِناً وهاجعاً كجذوة تحت طبقات الرماد . وقال وهو تحت موج العاصفة : أنا أكره الخوف . أكرهه لأنه يحول الإنسان إلى حشرة تبحث عن جُحر أمان . أريدك قوية وناهضة كشجرة لاتكسرها الريح . هل فهمت ماعنيت ؟ العبارة الأخيرة أطلقها اللاشعور اللعين المفلت . كان يخاطبها بحميمية . كشيء خاص . كجزء منه ما زال غضّاً . لقد استعمل كلمة : أريدك . انزلقت من هناك على نحو تلقائي وهما ما زالا في طور الصداقة الأولى .

هذا الرجل يهذي . كمن يقاتل ضد الفقدان ويأسه . ضد بؤسه الخاص ربما .

آسيا التي انجلت غمامة حزنها سألت : وإذا ماأطلقوا النار ؟ !

إذ ذاك تذكر مهدي جواد بصمت أنه أعزل في غابة تطفح بالقتلة وأنه يخرّف وحيداً .

* * *

أماسي بونه رطبة وأسيّة . الحدائق وساحة المدينة والشوارع شبه المقفرة . سلام وسكينة يسيلان فوق الشجر وجدران المنازل والحوانيت المقفلة . لقد هجعت المدينة ، المطوّقة بالبحر والأدغال ، هجوع طفل .

صوت البحر يأتي من الغرب والشمال مصدياً وحزيناً في هذا الغسق .

وحيداً يعبر المدينة الآن . كان خارجاً من أحد أقبية الخمر السرية . بعد التاسعة تغلق المقاهي . ومن الداخل يحكم رتاج البارات الخاصة . وفي مركز المدينة الرئيسي عدد محدود من هذه البارات والأقبية ، كانت فيما مضى أوكاراً سرية للمناضلين ومخازن للاسلحة .

في هذه المقاهي التي تتحول إلى بارات بعد التاسعة ليلاً ، يلتئم شمل الاوروبيين الذين لم يرحلوا والذين تعاقدت الدولة معهم كخبراء ،

ومعهم يُسمح للمسؤولين من رجال الدولة والحزب أن يحتسوا الخمر حتى ما بعد منتصف الليل .

داخل هذه الأقبية السرية يتجمع رهط من سكارى المدينة الشعبيين . شباب يتفجر بالحياة والغضب وكراهية سجون الأسرة والمدرسة والعمل . مجاهدون متقاعدون مفعمون بحزن قديم وذكريات الحرب ، تفيض تحت ظلال الخمرة والدخان والصخب . عمّال مرهقون تمنحهم الخمرة حالة سلام ونشوة بعيداً عن استلاب العمل النهاري . متشردون عاطلون يهوون التسكع والشجارات والحنق ورفض العالم . ثم هؤلاء الأزواج المحبطون والمخذولون والمهانون الذين تقودهم سفنهم إلى خليج هذه المرافىء بعيداً عن أعاصير الحزن والمرارة وصدمات النهار .

يراقبهم وهم يحتسون بعصبية . يغنون ويصرخون ويرقصون ثم يتشاجرون . يتجلى الفرح الجزائري صاخباً كالغضب الدامي . بعد الكؤوس الأولى يشتعل الرأس . الدم الأفريقي الساخن ينخّر ويبدأ الفوران كقدر فوق نار . وإذ يصل حالة الغليان ينبثق الصراخ . صراخ الألم والحزن والفرح النادر ، غير أن الشجار المسلح بالمدى كالمعتاد ينتهي غالباً في مركز البوليس .

مهدي جواد كان منقبضاً في ذلك المساء بوحشية داهم البوليس القبو واعتقل اثنين من الفتيان ، أحدهما كان مشطوباً بسكين في وجهه كعلامة عار له .

يتجه نحو البحر . يداه في جيبه وفي الرأس صدى أحزان مختلطة ولوحات غيوم سريالية . كان يحب أن يسير في الأغساق داخل الشوارع ، وداخل هذا التوجس الغامض للمدينة الغريبة .

من أين ينبثق هذا العنف على هذا النحو الهمجي ؟ ولماذا يتحول فرح هؤلاء البشر إلى حالة دمار ؟

فيما مضى كان هذا مفهوماً ومسّوغاً ضد الغزاة . أن توجه هذه الطاقة نحو الطغيان والعسف الخارجي . لكن الآن لماذا تنحرف نحو الداخل ؟

الجزائري طبعه وعر . أفريقي والأفريقي دمه ساخن . ليست آسيا وحدها التي قالت ذلك . الكلّ كانوا يرددون هذه البديهة . ولكن ألا يمكن أن يكون للمسألة وجه آخر خارج الطبيعة العضوية ! ؟

كان يفكر بهذه الأسئلة وهو يجتاز الساحة المظللة .

ساحة بونه الراشحة بقطرات مطر .

وجاءته موجة . كيف كان يراقب قسوة الطبيعة في البراري والجبال وهو يرعى أو يصطاد . كيف كان الشجر والسلاحف والطيور والحيوانات تتقي عنف الطبيعة بقوة ذاتية ولّدتها تلك الطبيعة ذاتها في هذه المخلوقات .

وموجة . مئات سنوات الاضطهاد ، تولد في أعماق الانسان معاكس هذا الاضطهاد . لابد أن آلية القمع الاستعماري أنتجت خميرة العنف ، هذه الخميرة ترسبت في الداخل غشاء حماية وأمان ، شبيه لحاء الشجر أو قواقع أصداف البحر وحراشف السمك لصدّ قسوة الطبيعة .

وقال لنفسه تحت هدوء الليل : عنف الاستعمار لايختلف عن عنف الطبيعة إلا في التنظيم ، لكنه في اندفاعه الوحشي ونتائجه يتساوى مع الزلازل والصواعق والفيضانات التي تشوّه جمال الطبيعة .

هكذا شوّه القمع الاستعماري جمال النفوس وهدوءها بتلك الخميرة المضادة التي تحولت إلى كتلة صلبة تطلق شظايا تدميرها الذاتي في هذه المرحلة الإنتقالية . مرحلة عبور الانسان من جحيم اغترابه عن نفسه وكابوس الماضي ، إلى شجرته الأصلية الأولى .

غير أن بشير حاج علي المناضل الشيوعي والشاعر نزيل سجن «بوارسون» في «الابيار» والذي عُذِّب حتى الموت بعد الاستقلال في عصر بوخروبه ، يدحض هذا الاستنتاج التحليلي بشهاداته : «الادعاء بأن الموجة الاستعمارية بعد مدّها وجزرها المكتسح ، وبعد انحسارها النهائي والفوضوي قد تركت في وعينا الجماعي طعماً مريراً للعنف ، واستودعت رمالنا أكواماً من العادات المقيتة . لاشيء أكثر ريبة من مثل هذا الكلام .

ثمرة متعفّنة للاستبداد : ذلك هو التعذيب ، وكذلك هم الجلاّدون . إنه ثمرة متعفنة للمجتمعات المقسّمة إلى طبقات» .

بمرأى حقول البحر اللامعة ومصابيح زوارق الصيد ، ينجلي انقباضه . تنقشع ضبابة الحزن والمرارة . هي ذي المدينة التي حلم بها يوماً . مدينة العشق والسلام والأمان الروحي . مدينة ككل المدن . محطة وقتية للذي فقد الاستقرار وفقد الراحة والأمان . هنا تتوقف القطارات وقتاً ثم لاتلبث أن ترحل نحو مدن أخرى مشابهة . وفيما مضى كان الحزب والرفاق بيتاً ومدينة . الآن يبتدىء الشتات ، والمنافي تفتح

أبوابها ، والطغاة يتناسلون كالدود في البالوعات ويدق الجنرالات ـ الآلهة الأرض بأحذيتهم الإسمنتية .

قُلْ وداعاً إذن للاستقرار والبيوت والسكينة الهابطة على عباد الله الهاجعين .

وقُلْ تحت هذا الليل لاشيء سوى صفير القطارات والبواخر ودويّ إقلاع الطائرات . هذه الأصداء وحدها التي ستدوي إلى الأبد كالرياح في صحارى القلب .

ـ 13 ـ

بين آسيا لخضر ومدينة بونه وشج قديم . لقد تآلفت مع مدينتها كما يألف طفل رحم أمه . غير أن قسوة بونه الخارجة من الشمس والدم الساخن والخميرة الداخلية ، تتراءى نوعاً من الضغط الفيزيائي لجدار الرحم . ومع أن الفتاة التي لم تغادر مدينتها تتوهج شوقاً لرؤية شموس الشرق والعالم الفسيح ، إلا أن الحنين إلى المركز ، وللرحم الأم ، يبدو الأقوى والأعمق .

عندما تسأل مهدي جواد عن حنينه للبصرة ، يردّ بأن جميع المدن تتساوى في النهاية : في كل مكان بحار وشموس وحجارة وضوضاء وبشر وذكريات وأكاذيب . وكان يكذب .

منذ زمن اعتكر سلام قارته الروحي . تخلخلت خريطة الأوطان فانشرطت الأرحام مع هبوب رياح الطغيان والحصار والمطاردة .

ـ أتحبين بونه ؟

تردّ آسيا بهدوء فجر طفولي مندّى : هنا ولدت . وهنا شربت أول قطرة حليب . في بونه بللني أول مطر وسفعتني أول إشراقة للشمس . أول بحر عمتُ فيه هو بحر بونه الدافىء . وأول أم كانت لالا فضيلة وأول أب سي العربي .

ـ هنا تعرَّفتِ على كلود !

كان مغتاظاً من هذا الحسّ الطفولي ، لذا جابهها بهذه الفظاظة .

تجهَّمت من عبارته . إن ذكرى الفرنسي تؤجج شيئاً غامضاً . شيء كان خابياً في فجوة مظلمة . في هذه الفجوة بدا كأنما اصطدام القاتل بالعشيق يوماً فتخلخلت ذرات المرأة .

النار والبحر . هكذا تبدو آسيا . اليكترا المجللة بحداد مستتر على موت آغا ممنون الأفريقي .

بثقة كأنما تدفع تهمة : لابد أن تعرف أنني لم أكذب في حياتي . كان صديقاً ليس إلا ذلك الذي ينغصك سراً . فهمت !

وتابع إثارتها : صديق أو عشيق لايهم . المهم أن فرنسياً قتل أباك . كم بدت العبارة لئيمة .

لكنها بدت كأنما سقطت بعفوية . لقد نفذت بقسوة مدية إلى أعماق القلب .

ـ آه . يايومّا . . .

شهقت كمن اخترقت قلبه طلقة . انهمرت بانتحاب مطر مفاجىء . في قطرات عينيها تراءت قسوته السادية . لم يكن يقصد هذا محض إثارة انفلتت كردة فعل مباغتة : لابد أنني أخرق وغير متوازن . هجس وهو يضغط أسنانه ندماً . إن ذكرى الأب تنتقل عبر مسام آسيا نبضات كهربائية تفتح جراحاً على مداخل القلب .

ـ سامحيني . لم أعنِ إيذاءك .

كان صدرها يختلج باحتفال الحزن والمرارة التي صعدت إلى الحلق . تحت لمعان الدمع والهياج ، بدت جميلة ومشرقة . هذه الأميرة الحزينة المحطمة . الآن هو يحبها أكثر مما مضى .

ـ واأسفاه . أنت لم تفهمني . كم هذا محزن !

قالت ذلك بفرنسية تقطعها شهقات .

بدأت النوبة تهدأ . ومع أنه كان مغبوناً إلا أنه كان راغباً في توضيح شيء ما . ذلك الشيء كان معلّقاً في الحلق .

وهو ينعطف نحو الداخل فاجأه الحصار . كان الآن متّهماً : لماذا لايحق لها . هل كانوا جميعاً قَتَلة ؟

وتذكر احتجاج الكتاب والمفكرين الفرنسيين على الأعمال البربرية التي مارسها الاستعمار . أستاذ القانون في السوربون قدم استقالته احتجاجاً على التعذيب : «علمت الآن من أخبار الإذاعة بأن «علي بومنجل» قد ألقى بنفسه من شرفة عالية في الجزائر وسقط ميتاً حتى ينجو من التعذيب . وحينما كنت أقود حركة المقاومة في شمال أفريقيا ، كان علي بومنجل أحد تلاميذي في كلية الحقوق في الجزائر ففجعني خبرُ موته .

وما دامت حكومة بلادي تمارس هذه الوسائل الإرهابية التي لم تمارس ضد أسرى الحرب الألمان ، فإنني لا أستطيع الاستمرار في القاء دروسي في كلية الحقوق الفرنسية» .

* * *

كان سي العربي لخضر يقود شاحنة محمَّلة بالبطيخ على طريق بونه - سوق اهراس في طريقه إلى الجبل ، وإذ أوقفت الدورية الفرنسية شاحنته ، هجس بالخيانة . خلال دقائق كشفت عناصر الدورية عن الأسلحة المخبأة داخل البطيخ المجوف . كانت هناك مسدسات وقنابل يدوية مرسلة للثوار .

قيدوه وعصبوا عينيه وأخذوه إلى المركز . سألوه فأنكر . ضربوه وعذبوه بأسلاك احتزّت عظامه ، لكنه لم يعترف . عندما قابلوه بالمخبر العربي الذي وشى به ، بَصَق في وجهه : بيّوع . قوّاد . ولد القحبة تبيع وطنك لعدوك ياابن الزانية ! وأعادوا الأسئلة . تابعوا التعذيب عبر جلسات متوالية ، ابتداء من التغطيس بالماء ، وكم الفم بصِّمام خاص ، الى اللدغ بالكهرباء وحرق الخصيتين والقضيب . وصاح سي العربي تحت الآلام : اقتلوني . اقتلوني وأريحوني من التعذيب . وببرودة كان الجلاد يجيب : قتلك بسيط . لا . نريد أن نشوي خصيتيك حتى تعترف . ومن جديد راحوا يلصقون السلك المكهرب على الخصيتين ليبدأ التيار بتمزيق المسام .

ظل سي لخضر صامداً طيلة اسبوع تحت وحشية التعذيب .

لقد تخطى عذابه الجسدي متشبثاً بأعمدة الروح العاصفة .

عندما رفض الاعتراف ، وهدر الاعصار فيه : تحيا الجزائر والموت للكولون والخونة ، أطلق أحد الجلادين النار عليه من مسافة متر واحد فقط . كل رصاص الرشاش أفرغ دفعة واحدة في جسد الأخضر فهوى كشجرة صنوبر مهشَّمة داخل حفرة بين الغابات .

وتقول آسيا ذات أصيل شفاف : لقد كتَموا موته عنا . قالوا : سيعود يوماً لأنه مازال حياً . مذ غاب وأنا أنتظر عودته . لابد أن يرجع كعادته ومعه الأزهار والخبز والشوكولا وأخبار الحرب .

الشتاء

- 1 -

خلال الأشهر الأولى بدا وضع الأسرة غامضاً . كان الرجل الغريب القادم من أقاصي الشرق يدخل ويخرج كالريح . صموت . قليل الأسئلة مطوَّق بالخجل والحياد .

يقول لنفسه وهو يقطع المسافة بين حي (اللورانجري) في شارع الكولونيل لطفي وبيته : مع الزمن تتوضح الأشياء .

بَيْدَ أن الصوت الذي يرجّ البيت كالإعصار ، يُسمع لأول مرة . صوت رجل يأمر وينهي ويحتدّ . أمر ما في البيت لايرضيه . يتوقف الدرس برهة . تتراجع آسيا ناهضة عن كرسيها وتخرج من الصالة .

على الجدار لوحة زيتية لرصيف بحر . في منعطف الرصيف رُسمت نخلة . رسم ابتدائي . اللوحة الزرقاء والبحر هادىء بلا زبد . مهدي جواد يدخِّن ويتأمل اللوحة بانطباع بارد .

على أرض الصالون ديوانان فرشا بسجاد نظيف . فوق الديوانين طنافس ومخدات من حرير ملوَّن طرَّزتها لالا فضيلة بخيوط مذهبة تنم عن ذوق ونظافة . وعلى الأرض سجادة فوقها فراش زهري يحاذي الجدار . وفوق النوافذ أسدلت ستائر بيض حريرية مرصَّعة ، خاطتها الأم بإتقان امرأة تحب الهدوء المنزلي .

البيت ينبض ويضيء ، بسيطاً ، أنيقاً نقيَّاً نقاء روح لالا فضيلة . السيدة التي تغدو وتروح داخل البيت كموسيقى أو نسيم صيفي .

يرتفع أكثر صوت الرجل قادماً من بهو الغرف الداخلية . الأم تناقش بهدوء واثق .

عادت الفتاة متجهمة . تجلس واضعة رأسها بين كفيها . مهدي جواد الغريب عن البيت لايفقه شيئاً . إنه مرتبك . وليخرج من إحراجه يسأل الفتاة عما بها .

ـ لاشيء .

صمت . إحساس الغربة يطفو شراعاً تائهاً في محيط . يرغب أن يخرج إلى الشوارع . يهمس للفتاة برغبته تقول : لا . ابقَ . أمور صغيرة لامعنى لها .

فجأة رجل طويل جهم أسمر بعينين حادتين ووجه كجرف هاوية ، يلج الصالون . يلقي تحية مقتضبة ثم يسلّم وهو واقف .

خلفه تدخل لالا فضيلة : مهدي أستاذ آسيا . تشير إلى الرجل الجهم : يزيد ولد الحاج . زوجي .

بين يزيد ولد الحاج والغريب طاولة المائدة المستطيلة . عليها انتثرت الكتب والدفاتر . لالا فضيلة تحاذي رجلها وعلى وجهها علّقت ابتسامة جهدت لتكون رضية . دعته للجلوس فرفض : لدي أعمال كثيرة في الحانوت والمقهى .

بعد سلامه المتعالي سأل أسئلة سريعة عن الصحة وعن دروس آسيا فأجاب مهدي بإيجاز . كان الرجل يسأل بصلف ولا مبالاة ، وعلى وجهه ارتسمت علامات مقت لم يستطع إخفاءها .

إذ ألحّت آسيا وأمها على يزيد أن يجلس ، صافح مهدي وخرج مسرعاً . تلك كانت المقابلة الأولى بينهما . المقابلة التي بدت غير ودية .

شعر مهدي بالغمّ والدهشة من هذا النفور الغامض . ورأى الضيق واضحاً في محيا المرأتين .

فيما بعد سيتساءل الرجل الغريب أي ذنب ارتكب ؟ أهناك التباس في الأشياء ؟ ولماذا بدا الرجل عدوانياً على ذلك النحو ؟ خروجه نشر ارتياحاً . لالا فضيلة بعد أن ودعته عادت منشرحة : يزيد رجل صعب . وعر . لكن قلبه أبيض كالحليب . متاعبه التجارية كثيرة ومشاكله في بيته ومع زوجته الاخرى لاتترك له وقتاً للراحة . تراه يضحك ويسخر فتقول : ما أمتعه . فجأة ولأتفه سبب يتغير . يختلق معارك وشجارات لاتنتهي . هو متعب ويتعبنا معه . هكذا انسابت اعتذاراتها .

يتوجه بصر الأم نحو ابنتها كأنما تطلب الموافقة . آسيا صامتة . تحت صمتها نفور واضح من يزيد ولد الحاج .

تتابع لالا فضيلة : فيما مضى لم يكن هكذا . مثل الطفل يضحك ويلعب . لا أدري ما الذي غيَّره ؟

ـ الخطر يقرع الباب . خائف على نفسه من التأميم .

آسيا تمزج العبارتين بهجوم مستبطن . بدت كأنما تقيس نبض الأم .

رفعت لالا فضيلة صوتها بتأثر : معه حق ياابنتي . إنه خائف على تجارته التي تعب من أجلها . لقد كافح في ظروف صعبة حتى حصل على ماحصل عليه . وهاهي الدولة تؤمم كل شيء . إنه يقول : هذا رزقي جمعته بعرق جبيني والآن تريد الدولة أن تستولي عليه . العمال في المقهى والمتجر ماعادوا يطيعونه . صاروا يعملون على هواهم . فيما مضى كانوا يشتغلون من الفجر حتى أواخر المساء . والآن يقولون : الدولة حدَّدت ساعات العمل ونحن لن نعمل أكثرمن القانون . لقد شرح لي بأن الدولة تحرِّضهم ليستولوا على المقهى والمخزن ومزرعة الأبقار في بن مهيدي . ما هذا الوقت الذي يصبح فيه الأسياد خدماً والخدم أسياداً ؟ أليست هذه القيامة ؟ قُلْ الحق ياولدي !

آسيا صامتة ، منتشية بهذه الأخبار . لكنها ممتعضة من أمها .

من جديد يرتفع صوت الأم : أين الدين ؟ سيدنا محمد وربنا هل أمرا بذلك ؟ أليس هذا مخالفاً لشرع الله ورسوله (تبدو لالا فضيلة الناطق الرسمي باسم يزيد ولد الحاج وفلسفته العادلة) . كلنا اشتركنا في طرد الكولون . البلاد لنا جميعاً . (يزيد ولد الحاج كما روت آسيا لمهدي في وقت ما ، جمع تجارته من السوق السوداء إبَّان الحرب ولم يكن يدفع ديناراً واحداً للثوار) . وهذه الاشتراكية كفر وكولون جديد . إنها تسرق أموالنا وأراضينا . وقفنا ضد بن بيللا لأنه أراد أن يعمل من الجزائر شيوعية . الشيوعية عدوَّة الدين (كريم بلقاسم وآيت أحمد صاحا في وجه بن بيللا : لاعروبة ولا شيوعية . هذه جزائر المسلمين من عرب وبربر) . كيف يتساوى جميع الناس والله تعالى قال في كتابه العزيز : إنا خلقناكم فوق بعض درجات ؟ (لالا تردد هواجس ووسوسات يزيد) .

تبدو لالا فضيلة ملتاثة بأفكار وفلسفة يزيد ولد الحاج . الفلسفة التي يلقنها لها وهما في الفراش في أواخر الليل . لقد نسيت لالا فضيلة بتعاقب الزمن والفصول سي العربي شهيد غابات اهراس الذي رحل ولم يأخذ معه شيئاً إلى قبره .

تحت هذا الأصيل الباهت تلوح آسيا متوحدة . مرمية على ساحل مهجور . بيضاء كحجر رخامي . إنها تبدو هادئة هدوء عاصفة وراء موج يتقدم من الأفق . بشجن تسمع اصداء الأم . وتصمت شغفاً . في الأعماق يخبىء صمتها البارد فلذة من فولاذ محشوة في جدار منجم . والأب القديم حي . مقيم في أعماق المنجم لايبرح . طويل ، أبيض ، واسع الجبهة ، عريض الصدر ، وراسخ كجبل . محياه ينشر البساطة ، لكنه ممتلىء بحيوية الرجل العامل بين القرى والمدينة . بلا كلل يعمل ليلاً نهاراً ليقدم للأسرة الخبز والفرح . وتتابع آسيا ذات ضحى : عندما انطلقت شرارة الثورة ، أرسل إليه ريزي عمر قائد الولاية ليلتحق بالثورة فلم يتلكأ : الوطن بحاجة إليك ياسي لخضر مارأيك ؟

وكما اندفعت الآلاف ثم الملايين التي سُلبت العمل والارض والكرامة ، اندفع الاخضر حتى لايظلّ عبداً أو أجيراً في مؤسسات الغزاة ومزارع الكولون . تقدم كما تقدموا . واضعاً نفسه وأسرته وشاحنته الصغيرة تحت تصرف الثوار . وفي مساء يوم خريفي قدَّم دمه وجسده ، كما يليق بثائر عامل يفتدي وطن الحرية والخبز ، القادم .

وهي تروي شيئاً عن ذكريات طفولتها الخاطفة معه ، يكتسي وجهها فرحاً وقتياً : كنت صغيرة ومدلَّلة . كان يأخذني معه في الأصائل إلى ساحة المدينة . حبه لي كان غريباً . نجلس في مقهى الأوريان الذي تجلس فيه الآن تحت أشجار الدردار . يعرف أنني أحب الكلاس والشوكولا . يطلب لنفسه قهوة بينما أنطلق عبر الساحة وأنا أمتصّ صفائح الكلاس . أشرد مع الأطفال وهو يتحدث مع العمَّال . بعد حين يناديني ، فأصطنع اللامبالاة . صوته حتى الآن مايزال يدوي في رأسي : آسيا . هيا . هيا إلى البيت . أرفض فيجري ورائي : يا الشيطانة هيا نروحو . غداً سأستيقظ في الخامسة . يضحك من عبثي وأسعد لأنني أراوغه . العالم جميل وصلب في عالم يملؤه أب . أنت هل فقدت أباك صغيراً ! هنا في الصدر شيء ناقص . ضلع أو حنان أو جدار منيع يقع . الطفل في غياب أبيه مرمي للريح والذئاب . إنه عار فوق قمة ثلج أو في صحراء . أعظم فرح للانسان أن يكون تحت دفء جناح أب وأن يكون هذا الأب صديقاً . بعد أن يمسكني يحملني بين ذراعيه ويدلّي قدمي على كتفيه هكذا . أضرب صدره ووجهه : لا . لا . لنبق هنا لا أريد الذهاب إلى البيت . بابا . بابا . ويغرق في الضحك . يغمرني بقبلاته الحنونة ثم يضمني الى صدره : غداً ياحبيبتي . غداً انظري لقد غابت نوَّارة الشمس

وهبط الليل ، لديّ عمل وماما تنتظر . لقد تأخرنا . وفي الطريق يشتري لي لوح شوكولا لتهدأ ثورتي . ثم يبدأ يحكي لي حكاية الارنب الذي تأخر عن البيت ففاجأه الذئب في الغابة . حكاية ليلى والذئب .

ـ كم كان عمرك يومذاك ؟

ـ خمس سنوات .

ـ وعمر بابا ؟

ترفع وجهها نحو وجه مهدي . تصمت قليلا يرفّ الطيف الماضي ويشحب . الحاضر والماضي يشتبكان في محرق أشعة .

من الذاكرة وأعماق الغابة يلمع برق ناري . يقبل من الوجه الشرقي لسماء بونه التي اشتعلت الآن .

عندما تشرق الشمس في صباح خريفي ، يدخل من النافذة الزرقاء شعاع يداعب أجفان آسيا الحالمة بعودة الأب الشهيد . .

وهي تفتح جفنيها تفاجئها لوحة لوجه غريب ، تنعكس مع أشعة الشمس . واضحاً تراه كأنما لأول مرة .

ـ كان في مثل عمرك الان !

ـ 2 ـ

هم الآن في مدار الحصار . مقاومون ومطاردون وقتلى وسجناء وفارّون .

الحصان العسكري الذي راهنت عليه قيادة اليمين ، سقط . وما كان لدى الحزب أسلحة . المقاومة الشعبية التي درَّب الحزب فصائلها للدفاع عن الجمهورية ، أوقف الزعيم قبل إعدامه تدريبها توجساً من سيطرة الحزب . أغلق المكاتب ووضع السلاح تحت تصرف الشرطة وجهاز الاستخبارات .

سقط الزعيم وجاء جنرال آخر فوقع الحزب تحت السكين .

لقد عانى الاعتماد على الفلاحين نقصاً خطيراً . لم تكن هناك مجموعات مسلحة لرفاق مدربين ومعدين للكفاح المسلح ، تنشط في أوساط الفلاحين وتجذبهم . قيادة اليمين لم تشجع الفلاحين على تصفية أعدائهم الطبقيين ، كما لم يتعلموا كيف يحافظون ويدافعون عن مكتسباتهم بقوة السلاح .

سلطة الديكتاتور المغامر ، هوت بانقلاب عسكري جديد .

كانت خطة الدفاع قد أقيمت على أساس خسارة أو ربح العاصمة بغداد . من يسيطر على العاصمة يخطف رأس السلطة . تنظيمات الحزب المدنية والعسكرية تركزت في بغداد . وفي مثل هذه الحالة أبعد الريف عن مسرح المقاومة وأصبح الانسحاب نحو ريف مهمل ومُزاح عن مسرح القتال مستحيلا .

بدا الحزب الآن بين فكي الموت . يجني حصاد الصراع بين يمين كان مخدوعاً بجمهورية وطنية ديمقراطية يقودها عسكري أحمق يبحث عن مجده الشخصي ، وبين يسار منهك باحتدامات فكرية تنظيمية يخطط لكفاح مسلح طريقاً وحيدة للوصول إلى سلطة ديمقراطية ثورية .

خط «ظافر» وخط «نجم» يخوضان معركة الدفاع السلبي . الهجوم الذي خططت له القيادة الجديدة على ساحة السباع وساحة هوليود وأم الجوزة للانطلاق نحو معسكر الوشاش والرشيد ، فشل . لم ينفذ لأن القوات المعادية المرابطة في تلك المواقع انسحبت .

قادة القطعات من الضباط القادة في سلاح الجو والمدرعات والفرقة الخامسة في الوشاش وكركوك والسليمانية والموصل ، ألقي القبض عليهم . أعدم من أعدم رمياً بالرصاص ومن تبقى وقع رهن المحاكمة والتعذيب .

هكذا كانت قواعد الحزب المبعثرة تخوض نضالها المسلح معزولة وبأسلحة محدودة تحت ظروف قاسية ، عبر الأحياء والشوارع .

كان القتال يتركز ضد الحرس القومي ، والشرطة والاستخبارات . قتال الدفاع الذاتي . الدفاع السلبي الانتحاري .

انتشرت أخبار سيئة عن لواء الديوانية . يبدو أن مجموعة نجم تتعرض لحالة إبادة .

في هذه اللحظة كان الانقلابيون يخوضون حربهم الثأرية . إنهم يردّون الصاع لما سموه مجازر الشيوعيون ضدهم في عهد الزعيم الأوحد . المجازر التي عُلقّت فيها جثثهم في الساحات والشوارع وتحت المصابيح حتى أنتن الهواء من روائح القتلى .

الآن بدا كأن التاريخ ينقلب متأرجحاً في هذه البرهة بجثث الشيوعيين الذين يدفعون الثمن .

لقد شُكلّت فرق الحرس القومي واستخبارات الجيش والمباحث ،

وبدأت مداهمات الأوكار والبيوت والأحياء التي تتركز داخلها خلايا الحزب .

دمهم اليوم مباح . من يستسلم ينجُ بالاعتقال . ومن يقاوم يُقتل . وبالمنشورات والاذاعة ترتفع الكلمات : العراق للقومية العربية وليس لعملاء موسكو . فليأخذ حذراً كل من يُلجىء إرهابياً أحمر .

لقد بدأ التطهير .

على مداخل شوارع أحياء الشيوعيين وضفاف دجلة كانت الجثث تتعفَّن . وفي شارع الرشيد والسعدون وابي النواس كانوا يقذفون بهم من سيارات خاصة وقد ثقبوا بالرصاص في الظهر والرأس أو ذُبحوا بالمدى من الوريد إلى الوريد . وماكانوا ليستسلموا . كانوا يقاومون بيأس واستبسال .

هجوم على مواقع الحرس القومي . إغارة على مراكز الشرطة والاستخبارات . كانوا يَقتلون ويُقتلون ويستولون على بعض الاسلحة . أي نصر صغير كان يرفع معنوياتهم ويعطيهم إحساساً دافقاً بضرورة المقاومة في معركة الإبادة .

نشرات القيادة الجديدة ، كانت تحثّ على الاستمرار في خوض الكفاح المسلح والاستيلاء على السلطة . إنه الامتحان التاريخي للحزب ، حزب «فهد» والطبقة العاملة . وكانوا يستشهدون بمقولات لينين حول ضرورة الوصول إلى السلطة بالعنف الثوري ، محذرين من الانقسام والانحراف والتخاذل ، مؤكدين بأن القيادة الانتهازية وزمرة الجبناء والمعترفين ، سيكون مأواهم مزبلة التاريخ .

* * *

تحت هذه الغمرة تلقى مهدي جواد مع خليته ثلاثة مسدسات مع رشاش من نوع براوننغ . نقلها رفيق من حي الشاكرية . كانت مرفقة برسالة من مسؤول الخط العسكري لطيف الحاج : تسليح الرفاق محدود . حاولوا بسلاحكم هذا الاستيلاء على بعض أسلحة سلطة القمع . لا تتخاذلوا . الحزب يقاتل بضراوة واستبسال . أخبار سارة تصلكم قريباً . سنفتح جبهة جديدة في الأرياف . النصر لحزبنا والموت لعملاء أميركا .

غمرته غبطة مشوبة بإنقباض . هجس بعبارة : حرب اليائسين .

وهو يدفن طيور الانهيار قال لنفسه : عليك أن تكون جديراً بالحزب

في هذه اللحظة الحاسمة .

وبحزبه كان إيمانه لايحدّ يومذاك . طُرِدَ من الجامعة لأنه شيوعي محرِّض وقائد مظاهرات . وأكثر من مرة نقل من عمله التدريسي . كما تعرض على مدى أعوام للمراقبة والتحقيق والاعتقال . ثم طرد من الوظيفة لبثّه افكاراً إلحادية وأممية معادية للعروبة المقدسة .

نصف حياته عاشه تحت التهديد والنبذ والتشرد والمطاردة . وها هوذا النصف الآخر يمتحن في حرب اليأس .

ـ ولكن لماذا المبادرة لم تكن في يدنا ؟ لماذا . . .

حالة الحصار ضغطت كمبكس . هجمت موجاً أهوج ينفرد بزورق شراعي في عرض البحر .

أكثرمن أي وقت مضى كان يشعر البرهة بالعزلة والاختناق . كان مع رفاقه الآن شبيه نمور حوصرت في غابة .

وما كانت المسألة تتركز في صيده . لقد علمه الحزب كيف يتخطى فرديته . لكن قتله الآن هو رصاصة الرحمة .

ـ لابد أن خطأ قاتلاً قد ارتكب فيما مضى !

وقال مهدي وهو يخرج من وكره : على من يظلون أحياء أن يبحثوا عن جوهر ذلك الخطأ ، أما نحن فعلينا أن نقاتل حتى الموت .

* * *

داخل غرفته في مدينة بونه البعيدة جداً اليوم عن مهرجان الدم كتب في اليوميات : «الزمن القديم يضغط موجاً من الأشباح . وهذا المنفى استراحة محارب مهزوم داخله تراجع حسابات الزمن . لكي تظلّ جديداً لا بد أن تشنّ حربك الداخلية في وجه أمواج الانهيار . الانتصار على النفس القديمة مطهر نحو المستقبل ، والزمن يطحن جيلا ليرقى جيل آخر . التاريخ كما لم يبدأ منك فهو لاينتهي بك ايضاً . لعل طاقة التغيير هي هذه القدرة الداخلية على العبور فوق جسر الصدمة . إثبات أن الخطأ كان عَرَضياً .

لعل هذا هو الدليل على استمرار الحياة والانتصار على الموت .

الروح الحية التي تنمو أبداً كالعشب في جميع الفصول تحت أمطار قادمة» .

- 3 -

الحرب .

هذه المباغتة التي تصهر شعباً بنيرانها ليُصاغ مرة أخرى بتركيب جديد . أحرقت المدن والقرى والغابات والصخر والبشر ، وتركت الأرض وما عليها يباباً .

ولكن ها هم يطلعون من رمادها .

وبضراوتها كانت تفجر ينابيع الحب والبذل والتضحية بلا حساب . كانت تزيل الملكية وتحوِّل الأشياء إلى مشاع وتلحم الأجزاء التي انقسمت . كل ما هو مضيء وانساني كان يشعّ بينهم عبر أنهار الدم وتحت لمعان سياط التعذيب .

وعندما كانوا في مضائق الخطر والموت ، هبّوا كعاصفة . الآن ماالذي حدث بعد النصر ؟

ويقول مهيار الباهلي : السلب فيهم ترسَّب أمام مشهد التهديد . كانوا معرَّضين للإبادة . الإيجابي . غريزة الحياة صعدت لتواجه غريزة الموت . كانوا متساوين أمام الخطر . ويرد مهدي جواد : كانت حرب المجموع . لم يكن هناك تمايز أو فرز . حرب الشعب الطبقية وحدها التي تلغي السلب . لقد عادت الشرور بعودة الملكية بعد النصر . هذا مايبدو .

وقال مهيار : يبدو أنهم منقسمون ببغضاء وراثية قديمة . هذه البغضاء عادت لتمزقهم من جديد . لقد قاتلوا واستشهدوا ليكونوا أحراراً في مدنهم وقراهم وشوارعهم وساحاتهم ومقاهيهم ومدارسهم ومنازلهم . انظر كيف يصطادون بعضهم بعضاً كما كانوا يصطادون مضطهديهم . هذا الانحراف الأعمى لماذا حدث ؟

وقالت فلّة بو عناب بأن الجزائري بسيط وطيب . يحب ويكره بدرجة واحدة . البسطاء والفقراء والمجاهدون لم يجنوا من الحرب غير حصاد النبذ والجوع . لهذا هم الآن حاقدون .

- ولكن العالم القديم اللاعقلاني لم تحرق الحرب كل قلاعه . لقد ارتُدوا إلى وعيهم القديم . حدث انعطاف . عودة نحو الدارة المغلقة . انظر اليهم كيف عادوا للدوران حول معابدهم الأولى . معابد الأجداد الذين انقرضوا . تحت ضوء هذه الدورة الأنتربولوجية نفهم خصوصية الماركسية ! يقول مهيار المولع بأنتربولوجيا الشعوب .

كانوا يسيرون على كورنيش البحر في ذلك الغروب الربيعي . فلّة بوعنّاب هي التي اقترحت ذلك . في أعماقها رغبة إشهار تحررها مع رجلين غريبين في وضح النهار داخل مدينة متزمتة . طلبت من مهيار أن يشعل لها سيجارة فسألها ممتعضاً إن كان ذلك ضرورياً . فسألت باستغراب عن الخطأ في الأمر . وردّ بأن النساء لا يدخنّ عادة في الشوارع أمام الناس .

ـ ولكنني لا أريد أن أتصرف كامرأة ياسي مهيار !

ـ غريب !

بتأفف أشعل لها سيجارة .

شزراً كان العابرون بهم يلتفتون ، ونكاية بهم كانت فلّة تنفخ الدخان نحوهم . وإذ يديرون ظهورهم تمدّ لسانها بحركة بذيئة ثم تبصق : كل شيء مسموح لهم أما النساء فليس لهنّ سوى فتح الفخذين . يا الحلاليف . طيز امكم ! تفوه .

ـ برافو فلة . تعجبيني . هذا الهتاف قرب البحر يَغْلَنفِطُ منه مهيار التقي . ينظر إلى مهدي ازوراراً : معلوم تعجبك لأنها من سلالتك أيها الفاسق .

طظ . إلى الجحيم أخلاقك العمومية . أنا لست أخلاقياً .

تقهقه فلّة في فضاء العراء البحري : آي . آي . يا للأخلاق الباهلية التي ستغير العالم !

كان البحر ساجياً ، وعلى الصخور وقف الصيادون يدلون بشصوصهم في الماء . نهضوا هناك كتماثيل منتصبة على حافة البحر .

وقالت فلة : تعبنا من السير . لو نجلس في مقهى .

وطلبوا قهوة وعصيراً وبيرة .

خلال ساعة ونصف تناثر الحديث بينهم دونما ضبط أو تركيز . شتات مبعثر قذفته الذاكرة والحضور الجماعي لأشخاص جلسوا حول مائدة بدا وكأنهم يهوون اللغط أكثرمما ينشدون الراحة والصمت . مهيار الباهلي استأثر بالنصيب الأوفى للتنظير حول صدمة الحلم لأرض اليوتوبيا الثورية التي لم تنجز ثورتها الديمقراطية لحظة قطع العسكر سياق نموها الشعبي فقدموها لقمة سائغة لهم وللتجار والبيروقراطية والنهب الامبريالي . وإذ حاولت العنابية وهي ترشف العصير الإشارة

لأول مرة بروح إيجابية إلى التقدم الاقتصادي ومزارع الكولون التي أممت مع البنوك والبترول والثورة الزراعية والتعريب ، علا صوت سي مهيار بأن المهم هو الانسان . التأميم ليس الاشتراكية ، وهذا الذي يحدث ليس أكثرمن ترقيع مزيف لا يمحو الاستلاب الجوهري للانسان . اشتراكية بروح العلم لا بروح الدين هذا ماينبغي أن يكون . كل هذا البنيان الاقتصادي ينهض على الرمل لأن الانسان الجديد غائب والبلاد ماتزال تدور في مدار سوق الكولون المهيمن .

وعلى نحو احتفالي ختم محاضرته : القانون الأيديولوجي أعلى من القانون الاقتصادي . عندما تكون المقدمات خطأ فالنتائج خطأ . الوعي العميق بالتاريخ غائب وهؤلاء يهشّمون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء . في عصر الذرّة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن . خراء !

كان مهدي جواد يتملّى البحر من خلال الزجاج المغبّش ، مراقباً الدوران الأبله لطيور النورس التي تقترب من الصيادين وقد شحبت ظلالهم فوق الصخور . ولكي يبعد عن رأسه طنين الكلمات الضخمة التي يطلقها عقل السيد الباهلي الملتاث ، كان يسلس العنان لخياله ، متقمصاً ريش طائر بحري يجوب مع آسيا الاخضر كل محيطات وجزر العالم ، بعيداً جداً ونائياً . حتى الاقصى عن كل الكواكب العربية الملعونة التي أفسدتها الروائح الكريهة وحمامات الدم وسفلس السياسة . تحت ظلال المساء الهابط كانت عينا فلّة بو عنّاب تبرقان وهي تدخن وتنصت ، مندهشة من تلك القدرة السرية ذات الإيقاع التراجيدي لكلمات مهيار الباهلي المرنّة في جدران وعيها رنيناً خارقاً يعيد لها أصداء مجد الثورة الأولى في الجبال عندما كانت تستمع لهذيانات سي الزبيري وهو يصور لها جزائر المستقبل المشعة إشعاع الراديوم والماس واليورانيوم وحليب الطفولة وينابيع جرجرة والاطلس والاوراس الأشمّ .

انفجر السياق خروجاً من دائرة التناثر وضغط الزمن الهابط كالرصاص ثقيلاً ومملاً عندما سأل مهدي فلّة في فسحة صمت ، إن كان مهيار يحاضر عليها دائماً على هذا النحو . انفجر في قهقهة أطلقتها المرأة العنابية من قيعان بطنها ورأسها : آخ . آخ . دائماً ياخويا . ليته كان بارعاً في الامور الاخرى كما في الكلام !

وافترّ مهيار : العمى ! يبدو أنكما متفقان عليّ . عيني . اسمعي أنا رجل متزوج ومخلص لزوجتي . وأشار إلى مهدي : أنا لست كهذا الفاسق

الذي يبدِّل النساء كما يبدِّل الأحذية .

وأردفت العنّابية تحت سيالة ضحكتها الإباحية : سامع ياسي مهدي . سامع ! رجل وفيٌّ لامرأته على بعد خمسة آلاف ميل . وأين ؟ في بونه بلد الخير والبركات والعاهرات المقدَّسات ! ها . ها . ها .

شحب المساء فخرجوا إلى الليل الرطب اتقاء للفضائح التي نشرتها العنّابية .

بونه ملألأة بالأضواء وفي عمق البحر شعَّت مصابيح الصيادين . وسوست فلّة وهي تحتك احتكاك قطة بخاصرة مهدي : يحكون عنك في بلادنا .

ـ ماذا ؟

همست في أذنه : أنك عاشق مهرة بيضاء .

ـ ولكني لست مخلصاً كصاحبنا .

دوَّت بالضحك وهي تقرص زنده : عيني . عيني . يسلم لي الفهم . وصرخت في عرض الكورنيش : ياخويا . مارأيك لو تتبادلان السكن ! كلمتها كانت تصيب مهيار .

قال مهيار : لامانع لديّ .

وقال مهدي : نحن لانسطو على عنب الجيران .

ابتسم الباهلي : الشيوعيون ضد الملكية الخاصة .

* * *

شيء ما بدأ بينهما ، نمو عشب يحاول كسر القشرة الخارجية للأرض . سر شبيه بوسوسة موجة لشاطىء في نهار صيفي .

في أوقات الخلوَ بين البيت والبحر ، كان ذلك السر يتشكل .

وفي الأشهر الأولى كانت آسيا الأخضر تتحدث بالأسئلة .

مهدي جواد كان يجيب باختزال وإبهام ، وأحياناً بصمت .

ـ لماذا تبدو صامتاً معظم الوقت . نحن الجزائريين نرى في الصامت أبله . لماذا لاتعطي نفسك بإنسياب ؟ ضنين وباطني . في وجهك حزن غريب وحنان . أما زلت تشعر أنك غريب ؟ مرة ذكرت «كامو» وحبه للطبيعة . «كامو» أحب بحرنا وشمسنا وغاباتنا لكنه حايد عن الآلام التي برَّحتنا . ما معنى أن يكون الانسان عربياً ؟ هل يعني هذا كراهية

الفرنسي ؟

رشق الأسئلة كان يوقف مجرى الدرس .

إنه ينبىء بشيء آخر أبعد وأعمق من السرّ الصغير الذي ينمو بين تلميذة ومعلم في غرفة مغلقة .

لماذا تريد هذه الفتاة فتح مصاريع الأبواب المرتجة . الأبواب التي أغلقتها الكراهية والتعذيب والكذب والأنانية والموت ؟

ويوماً أثر يوم راح يتضح أن هذه الطفلة الشبيهة بحقل عشب ، تريد أن تتعلم كيف تنمو قوية لتصمد في وجه العواصف القادمة . العواصف التي تتحسسها تحسس الخيول للمطر قبل هطوله .

«حالة حصار» كتب مهدي جواد العبارة على صفحة الكراس المفتوح وهو منكب على المنضدة يستمع للأسئلة ولا يجيب . كان من عادته تسجيل عبارات خاصة أوقات الضيق والشرود . أعاد قراءة الكلمة فارتعد . محاها . تناول سيجارة وأشعلها .

دوهم بالكابوس القديم . الأشباح اللعينة هجمت قادمة من فضائها الأسود . وحضر الوطن البعيد لوحة حمراء كشفق .

رقصت اللوحة فتغيرت الألوان . صارت قوس قزح مالبث أن انكسر . جاءت شمس ساطعة خارجة من حجرات وممرات مظلمة .

وسمع أصوات طيور تصيح وتئن بينما الرصاص يخطفها . الجوع والمطاردة والتشرد والفرار من وكر إلى آخر تحت رعب الموت . اغتيالات بغداد والموصل والبصرة والحلة ، ثم فاجعة الأهوار .

ـ اسمك . خليتك . أماكن الاجتماعات . الأوكار . نوع الأسلحة ومصادرها . قيادتكم خانتكم . إنها في قبضتنا . أتريد الاسماء . استمع : عامر عبد الله . عبد القادر اسماعيل . زكي خيري . العبللي . صلاح أحمد . جميران . عبد الأمير عباس . صلاح أحمد . السباهي . كلهم اعترفوا . كتبوا براءاتهم . لقد سمعها ورآها الشعب على شاشة التلفزيون وعلى صفحات الجرائد . كالفئران سقطوا وكشفوا الجهاز كاملاً .

الضرب . الضرب . الضرب .

الدم . الدم . الدم .

إذ ا لم تعترف على القيادة الجديدة ستعدم ككلب . ابن القحبة . ماكو شيوعية بعد اليوم في العراق . شنو هاي الشيوعية . صار مأواها

المجاري والبواليع . أنتم شنو ؟ حفنة جواسيس . عملاء لموسكو . سيدتكم باعتكم . مصالحها معنا . أنت مو عارف أنو السوفيات تجَار . قوَّاد ولد القحبة شنو هاي القيادة المؤقتة الجديدة ؟ كالأخطبوط كل ماقصصت له ذراعاً ظهرت أخرى . هيا اكتب كل ماتعرفه عن حسن العبيدي ، والياس ديمتري ، والعلاوي ، والأحمدي ، وخليل كرم . اعطوه الأوراق . اسمع إذا كذبت تعرف نهاية الصامدين في قصر النهاية .

الصمت يدوي . والرأس مختلج ومختلّ . والعالم مظلم ومضاء بنور مبهر . أصوات المعذبين والطلقات والصرخات .

آه . يالهذا الجنون الدموي . دوي جبل شامخ ، صلب . ينهار . يتداعى وينهار .

ويستفيق . لا . لا . ليس هذا العراق . تلك حالة من الهذيان القديم عن رجال كانوا يغنون ويضحكون . كانوا يهوون إطلاق النار ويحبون الحياة الخطرة والموت .

والآن انتهى كل شيء كما يحدث في مسرحية عابثة .

غاب صباح قديم وجاء صباح آخر .

قالت آسيا : أنت متأكد أنك هنا ؟

- بلى . بلى . وأرغب أن أظل هنا طويلاً .

من الرواق جاء صوت لالا فضيلة : القهوة .

وتناولت الفتاة الطبق النحاسي من أمها .

مهدي جواد كان يدخن باضطراب ظاهر .

قالت آسيا : مريح أن يشرك الانسان الاخرين في آلامه .

انتبه ، ابتسم ببلاهة : ربما . إذ ا كان لديه مايقوله .

- في حياتك ألم تلقَ ضيقاً ؟

- حياة عادية ليس فيها مايثير .

- ولكن كيف تكون حياة الانسان عادية ؟

- عندما يكون محايداً لايهتم بالأشياء .

- أنت كذلك ؟

- هل ثمة مايوحي بغير هذا ؟

- هذا الشرود !

ـ كل ما في الامر إنني انسان غير مندمج كثيراً .

تصب القهوة . زنداها عاريان . زغب أصفر ينام هناك على مسيل الزند المعصفر . كانت ترتدي «الغندورة» الشعبية الملونة .

ـ ولكن ما معنى غير مندمج ؟

ـ لا اجتماعي . أشعر بالقصور عن الاندماج مع الآخرين .

ـ هل سألت نفسك لماذا ؟

ـ بلى . دائماً أسأل .

ـ وهل حاولت الاندماج ؟

ـ حياتي كلها محاولات .

ـ والنتيجة ؟

ـ الإحباط .

ـ ومن الممتنع ؟

ـ لست أدري . أحياناً أفكر أنني ربما كنت أحمل أفكاراً ضارة . أفكار متطرفة ، قاسية ، صعبة التحقيق . إنهم يقولون : عليك أن تكون واقعياً . لماذا لاتجري مع التيار ؟ وأسأل نفسي إن كنت حقاً أسبح ضد التيار ؟ ولكن إذ ا اندفعت مع التيار فإلى أين سأصل ؟ فيقولون : إذ ا بقيت هكذا عليك أن تقبل العزلة . أحد ما ليس معك . لكي تحيا مع الآخرين لابد أن تتنازل . أمي كانت تقول : يابني الأرض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها من الاراضي العالية . وكنت أردّ عليها وأنا صغير : ولكنني أكره الأراضي الواطئة لأن الناس جميعاً يطؤونها ياأمي وأنا لا أريد أن أشرب الا مائي . وتقول أمي يائسة : ستموت وحيداً ولن تجد من يكفّنك ويمشي وراء جنازتك . وبنزق كنت أجابه أمي : إلى الجحيم لا أريد كفناً ولا مشيعين . أريد أن أموت عارياً تحت الشمس في غابة أو صحراء ، تأكل جثتي الصقور ووحوش البرّ . هذا أفضل وأهدأ لنفسي من صلوات الدجّالين وقبور المسلمين المظلمة .

كانت الفتاة تحدق فيه متكئة على مرفقها وذقنها تنام كعصفور بين راحة أصابعها ، مذهولة من هذه الأحجيات . هو لم يكن ينظر إليها . كان بصره يتوزع بين الفضاء الخارجي ولوحة البحر المعلقة على الجدار المقابل . وبدا واضحاً أنه يرمي إلى تحييدها عما لايريد الإفصاح عنه . وسألته إن كانت أسرته شديدة التعصب فقال : أكثرمن أسرتك .

ـ ولكن من أين جاءتك القوة على المجابهة ؟

ـ منذ الصغر أحسست أنني قوي لا أخاف . كنت أرعى وأصطاد الطيور وأشتبك في شجارات دامية في الحي . الأطفال كانوا ينقسمون الى عصابات . كنا نقتتل بالعصي والأيدي ونشتبك بالسكاكين . سكاكين المطبخ المسنونة . الأحياء الشعبية شرسة . المتشردون الحفاة والوسخون كانوا يتناثرون في حينا كالذباب . الجوع واليتم ووحشية الآباء علمتنا القسوة . طفولة أزقة الوحل والأمراض والجوع تنمي الحقد والكراهية . كان العالم ملطخاً على نحو ما . جزء من الطفولة عشتها في الطبيعة بين الرعي والصيد . الطبيعة علمتني الحرية وشحنتني بالصلابة . كنت أتملى طويلاً الأشجار الشامخة والصخور وأراقب الهوام والوحوش من أعالي الشجر وهي تتصارع . الأشياء والحشرات والحيوانات وهي تغالب وحشية الأعاصير والرعود والأمطار . أقف طويلا تحت المطر وفي مهبّ العواصف لأمتحن قدرتي . المغامرة الأولى فتكت بي وكادت تودي بحياتي . فيما بعد اعتدت الأمر . صرت آوي إلى الكهوف والمغاور الصخرية . الأطفال في حينا كانوا يسمونني القط البري . وأنا في الثانية عشرة مات أبي . أمي تزوجت من رجل قاسٍ كان يعمل حمّالاً في سوق المدينة . أبي الذي مات لم يترك لنا شيئاً . في بيت عمي كانت الحياة قاسية . كان يعود مخموراً في أخريات المساء وليس في جيبه شروى نقير . تسأله أمي عن أجرته واحتياجات البيت فيصرخ ويشتم وينهال عليها . بوحشية كان يضربها بقبضته وبالعصا . أمي كانت تُعْول وهي تطوقني خوفاً منه عليّ . أحياناً ينزعني من أحضانها ويقذف بي خارج البيت . تلتقطني أمي من وحل الزقاق . تلفلفني وتهرب بي نحو بيوت الجيران طالبة الحماية . بعد أن كبرت استمر ذلك العمّ في ضربي كما يضرب الكلب . كنت أحتمل ضرباته الوحشية ثم لاألبث أن أهرب إلى البراري لأنام أياماً في الكهوف وإذ يعضني البرد والجوع أعود . فيما بعد وقعت أمي فريسة مرض السل . ثم ماتت .

ولكن من أين جاءت هذه التهويمات . هذه الانبثاقات الطفولية الخرقاء ؟ أية مناسبة حمقاء فجرّتها ؟

كان واقعاً الآن تحت تأثير موجة الندم .

سامحيني ثرثرت أكثر مما ينبغي . هذه أمور شخصية ما كان يجب أن . . .

ـ لا . لا لماذا تعتذر ؟

موج الاشعاع الداخلي طفا على وجهها فبدا ساطعاً كصفحة بحر تحت شمس : كنتَ تفيض بأشياء خارجة من نبض القلب . الآن أعرف حزنك . . أفهمك أكثر .

وهما يشربان القهوة ، ولجت الصالون فتاة . جمالها الوحشي والصاعق ملأ المكان . حيَّت بالفرنسية ثم صافحت باستحياء : أختي منار . قالت آسيا ثم تابعت : تعارف مباشر . منار تحب الرقص والموسيقى وشارل أزنافور وجوني هوليداي والتنس والشوكولا . ولكنها لاتطيق اللغة العربية . إنها تعرفك قبل أن تراك . حدثتها كثيراً عنك .

ضحكة منار الارتجاجية هزَّت الصالون . في عينيها وعلى شفتيها القرمزيتين ، غنّى طفل جامح ، مفعم بحيوية . صبَّت لنفسها في قدح زجاجي مزيجاً من القهوة والحليب ، وتناولت أكبر قطعة كاتو . كانت تأكل وتشرب بنهم وصمت ولا مبالاة .

مهدي جواد بدا مُربكاً ، ومصعوقاً . بين الأختين انطلق حوار سريع بالفرنسية . كانتا تبتسمان بإشراق طفولة . للحظة أحس بالعزلة والحرج وفكر : آسيا ومنار لاتبدوان أختين . وجه أفريقي أسمر يحاذي وجهاً رومياً أبيض .

انتبهت آسيا كأنما ضبطته : نحن لانتشابه . ما رأيك ؟ واستطردت ساخرة : دائماً أقول لهذه الكحلة أنت لست أختي ؟

سأل مهدي إن كان أحد من السلالة قد تزوج من أجنبية فقالت بأن جدها كان متزوجاً من فرنسية ماتزال حية وهي تحب هذه الكحلة أكثر مني . ماتدخره من أموال تعطيها منه . تقول عني : أنتِ فورم فرنسي يتقمص روح العرب . أختي دليلة تختلف عنا . من يرانا لايصدق أننا أخوات . أنا أشبه بابا كثيراً . بابا كان جميلاً وأبيض .

ـ لك أخت ثالثة ؟

ـ متزوجة من عامل جزائري يعمل في مدينة نيس .

الفيلا الزرقاء الموشحة بالهدوء في حي اللورانجري راسية تحت الأصيل . من خلال النافذة والستارة البيضاء ، كانت ترى أعالي شجرة الدردار القائمة في شارع الكولونيل لطفي حارسة شجر البرتقال المزهر .

انسال غروب بونه العذب أشعة شفقية على الجدران وتراب الأرض وأوراق الشجر . تهبّ نسائم رخية فترتعش الستارة وتندفع إلى الصالون

روائح زهر الليمون . تحت هذه العذوبة الخارقة للقلب ، تترامى الغبطة والسلام وأنس العائلة .

فجأة تقول منار : سندخن . بهرج وجرأة ترمي المشروع . تضحك آسيا : أنت ستدخنين ؟ غريب !

تهزج منار : أنا أعرف أنك تدخنين . لماذا أنت يحق لك وأنا لا ؟ كانت الآن تشعل سيجارة تناولتها من علبة مهدي .

- وإذا مادخلت ماما ؟

تقول منار وهي تسعل من الدخان : أبتلع السيجارة هكذا . قلبت السيجارة واضعة طرفها المشتعل داخل فمها وبدأت تنفث الدخان من الفلتر وأنفها .

- ياحلُوفة . أنت محترفة إذ ن وأنا لا أدري ؟

وانخرطوا في ضحك امتزج بسعال منار .

قال مهدي : أتكرهين اللغة العربية فعلا . منار ؟ أوضحت بأنها تحسها صعبة غير مفهومة . ولأنها مادة ثانوية غير مهمة في قسم التجارة والمحاسبة فهي لاتهتم بها .

بصعوبة وإحراج راحت تشرح فكرتها مازجة عباراتها بكلمات فرنسية ولهجة محلية . وسألها إن كانت تفهم حديثه معها تماماً فقالت : قليلاً .

عن طريق آسيا سأل منار عن إحساسها بهذا العجز .

بطفولة فطرية ابتسمت . حرَّكت يدها بارتباك فوق سطح الطاولة . كانت ترسم أشكالاً سريالية لامعنى لها : لا أدري . أنا لا أحسّ بضرورة العربية . ولسبب ما اندفعت آسيا بين المزاح والجد : نحن عرب ونريد أن نتعلم لغتنا الأصلية . اللغة التي سلبها منا الكولون . هناك صعوبات لكنها لغة أجدادنا الأوائل الذين قدموا من الصحراء .

بالفرنسية والعربية كانت تشرح . سألها مهدي عن عبارة الصحراء فقالت : نحن من ولاية الصحراء . من باتنة . ولاية عربية من زمن الهلاليين .

مع دخول لالا فضيلة سُحقت اللفافات بروؤس الأصابع تحت الطاولة ثم أسقطت تحت الأقدام بحركات مسرحية مرتبكة .

للأم قُدِّمت القهوة باحترام وتواضع . لالا فضيلة سألت مهدي عن

تقدم ابنتها في الدروس . قال مدرِّس اللغة : آسيا ذكية وتتقدم بسرعة غير عادية . والتفتت الأم نحو منار : ولكن منار لاتفقه من العربية حرفاً . ضحكت منار باستهتار . وبلا مبالاة نهضت : بدأ برنامج «ام تراكي» في التلفزيون .

ابتسمت لالا : برنامج «ام تراكي ناس ملاح» خير من العربية والفرنسية ياالكحلة !

أكملت الأم قهوتها بسرعة ثم خرجت .

سألته وهما منفردان إن كانت تتقدم حقاً في اللغة .

ـ بالتأكيد . إنما ينبغي التخفيف من الحوارات العامة .

ـ وهل سأنجح ؟

ـ ولم لا ؟

ـ وساقرأ كتباً بالعربية ؟

ـ أووه . مؤكد يزّي أسئلة ياثرثارة . أف !

تناكده : وأستطيع أن أفهم عليك وأنت تتحدث بالكلمات الصعبة ؟ كانت ترقص بكل جسدها وهي تسأل فرحة باكتشاف الايقاع الطفولي للغة .

الطفلة ـ المرأة التي تجتاز عتبة الرشد إلى مجرات العوالم الغامضة والغريبة وهي تتخيلها مجرات من الفرح والغبطة .

في مجرى هذه الأشهر واللقاءات كان مباغتاً بهذا الكنز . الأقحوانة التي تنمو في براري بونه بين الصخور والشوك وصرخات الريح الوحشية .

* * *

يكتب مهدي في اليوميات : أمر مهم أن يكافح الانسان ضد وحش العزلة وضراوة العالم المسموم . أن يدقّ بلا كلل أبواب الكهف للخروج إلى الأشعة والضوء . الحياة يمكن أن تكون جميلة وعذبة رغم الشقاءات . التوق للاندماج شوق لحياة حقيقية تتحقق بين رجل وامرأة يتحدان لمجابهة قسوة العالم . افرِدْ جناحيك وانهضْ كالبجع في ثلج الفضاء العاصف .

آه . لماذا ننسى في غمرة الألم والرداءة صوت موسيقى البحر

ورنين الأمطار وصعود الأنساغ تحت اللحاء القاسي للشجر . إنه الدفء يشع من عيني امرأة . هذه التي على وشك الصراخ : لماذا لانتضامّ كالطيور في ليالي الصقيع ثم ننهض مع أشعة الفجر ونحن نغني !

- 4 -

صباحات أفريقيا عذبة ، رغم برودتها القاسية . فجر حزين وغامض كأسرار الغابات ، يحمل في هبوب ريحه روائح مفعمة بالبراري وشفوف البحر .

إن الغموض الذي يوشي غلاف المدينة ، يطوقها بشفافية الأسى والصمت . هذه الموسيقى المموَّجة بالأسرار ، تنجلي تحت الفجر الرطب حيوية وشوقاً .

العمال والفلاحون والطلبة ، وهذه الطيور الصائحة عبر الغابات وفوق مياه البحر ، توقظها شمس بونه ، فتتدفق بكل دينامية افريقيا العذراء .

وصباحات هذه القارة المضاءة والخضراء ، تقول شيئاً متناقضاً يصل منابع الدهشة . ماأعذب هذه القارة وما أقصر الإقامة هنا ! هذا ما يحسه الغرباء بعد وقت .

إحساس المنفى يتواقت مع انفجار الحب . وكما يتجلى الجنس إلهاً افريقياً مقدساً يرمز لقوة الجسد والطاقة البكر في هذه القارة الحارّة ، يشعر الغريب الوافد وكأنه طير مهاجر من طيور لقالق القطب هبط خطأ أو تعباً هنا .

لابد أن إدراك أفريقيا والاندماج بدمها ، أفريقيا المتوهجة ، الغريبة ،الغامضة ، المتوثبة ، المشعة بحجرها الناري الذي لم يُمس ، يحتاج وقتاً طويلاً وقلباً جاهزاً للانفطار .

الوحش الابتعماري سمّى هذه الطاقة المخزونة والمشعة في أعماق البشر والبحر والشمس والغابات ، باسمة : الوحشية ! هذا البريق يُرى ساطعاً الآن من شرفة بيت مهدي جواد الجديد .

بعد شهر عثر على غرفة في الحي الغربي من المدينة .

عندما طرده الحاج محمد قال له : أنتم معلمون ياشيخ . والشيوخ يأتون إلى هنا لتدريس القرآن لا من أجل النساء .

رغب السخرية من الحاج مادام مطروداً لامحالة . قال للحاج محمد : أنت مخطىء ياحاج . القرآن يتلوه حجَّاج بيت الله . والمعلمون لايجبرون النساء على المجيء إليهم . هن اللواتي يأتين باختيارهن . واستطرد مغيظاً : عندنا في الشرق مثل شعبي يقول : عضو الغريب حلو . وكل جديد وله لذة . والأمثال ياعمي الحاج خلاصة تجارب الشعوب كما لايخفى على فهمك اللبيب .

وفاجأه مهدي هازئاً : عمي الحاج بصلاة محمد على رأسك هل أحببت في حياتك ؟

وقال الحاج : واحدة . واحدة على سنة الله ورسوله .

ـ طبعاً تزوجتها ؟

ـ أكيد

ولكن الله قال : انكحوا ماطاب لكم . ورسولنا المعظَّم كان مثالنا جميعاً ونحن على سنته . لقد تزوج أكثرمن عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة . وكان صلوات الله عليه وسلم يقول : تناسلوا . تناسلوا فإني مفاخر بكم الأمم . استبدّ الغضب بالحاج : الرسول تزوج حسب الشريعة . أما أنتم فتريدونها شيوعية . والله تعالى قال في كتابه العزيز : إذ ا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا .

وصرخ مهدي ضاحكاً : ياعمي الحاج رغبنا الاستتار فإذا بمخابرات ربي تقرع علينا الابواب الموصدة .

وضاق صدر الحاج بالحوار فصاح : هيا . هيا عجل ياخويا . يرحم والديك . المستأجر الفرنسي سيأتي بعد ساعة . يزي تمسخر . وقال مهدي : سأسرع ياعمي الحاج . مؤكد أن المستأجر الفرنسي سيملأ لك جدران الغرفة بسور من آيات الله والأحاديث النبوية .

* * *

أصيلاً قرع الباب . لالا فضيلة وآسيا ومنار . قالت الأم وهي تنزع خمارها الأبيض وعباءتها السوداء : حبينا نزورك في دارك . مبروك السكنى الجديدة . واش راك ، لابأس ؟

ـ أهلاً بكم . لا بأس .

وجلسوا . آسيا على السرير . منار وأمها على كرسيين من الخشب .

ـ البيت متواضع . العفو منكم . تعرفون حياة الغريب هنا .

ظهر الامتعاض على وجه آسيا . هذه «الغريب» كم تجرحها .

ويوماً قالت : يبدو أنك تتلذذ بتكرار هذه الكلمة . أشعر بالإساءة وأنت تقولها . قالت ذلك رداً على عبارة سجلها بالفرنسية في دفترها « l etranger reste etranger » الغريب يظل غريباً .

عندما قرأتها تناولت القلم بعصبية شطبتها : لاتعد إلى تكرار هذا . ما عدت غريباً . أنت واحد منا . فهمت !

ـ هذا ما تريدين لكن المسألة ليست هكذا .

ـ أوه . كم تثير الحنق أحياناً . لماذا هذه الحساسية المريضة ؟

ـ سأوضح لك يوماً معنى الغربة الداخلية . شعور الندم بقدوم الانسان إلى العالم خطأ .

أثنت لالا فضيلة على الغرفة . سألت كيف انتقل وتخلص من الحاج محمد الذي وسَمَتْهُ بالحلوف .

قال مهدي : أسكن الحاج غرفتي القديمة مهندساً فرنسياً زاد له الأجرة ضعفين . لو تأخرت ليلة في الخروج لرمى بأمتعتي إلى الشارع .

ـ أوه . ياللجزائريين الأجلاف ! علقت منار .

وردَ مهدي : لكن هذا الحاج لايمثل الجزائريين .

وقالت لالا فضيلة : دينهم المال . وحق ربي اليهود متآلفون أكثرمنا .

تتوجه إلى آسيا : تصوري حاج مسلم يفضل الرومي على العربي من أجل الدراهم . حوّسي على تاريخ هذا الحلوف يطلع «غومي» مخبر لفرنسا أيام الثورة .

وهي تتناول الراديو قالت آسيا : يوما خلينا منه . الرجال ماتوا والخنازير تأكل الوطن . هذه بلادنا .

انعطفت بتيار الحديث . سألت أختها : منار ، يا الكحلة . ماذا تحبين من الأغاني العربية ؟ ضحكت منار ضحكتها الارتجاجية : هل يغني توم جونز بالعربية ؟

حنان فيروز الدافىء صدح .

ـ منار . مارأيك بفيروز ؟ سأل مهدي .

ـ آسيا مجنونة بها . أنا أحب لها : تك . تك . يمّ سليمان .

حول الثقافة والحضارة الأوربية انطلق حوار مقتضب . طُرحت على شكل أسئلة وجهها مهدي لمنار . كانت تجيب بالفرنسية . آسيا ترجمت الجمل الصعبة . لخصت فكرتها بأن الاوروبيين عفويون . أكثر صدقاً مع الحياة منا وأقل تعقيداً . يعبرون عن أحساسيهم ببساطة وحرية ، أما العرب فمتعصبون محكومون بشروط التقاليد الموروثة . ليسوا أحراراً من الداخل .

جاهداً حاول مهدي أن يوضح الفرق بين العرب القدامى والعرب المعاصرين . كيف يحاول الجيل الجديد التعبير عن الحياة ببساطة وصدق وحرية : الجيل القديم مايزال الأقوى في الوقت الراهن . لكن الصراع بين الجيلين سيكون مستقبلا لصالح الأجيال الجديدة المتطورة .

سألت لالا فضيلة : يعني أنا من الأجيال القديمة . وبيننا حرب ؟

ضحكوا . قالت آسيا : لا يا يومّا . أنتِ «مودرن» . مادمت معنا فأنت من الجيل الجديد . المهم ألا تكوني من حزب عميّ يزيد . قالت الام : لكل جيل زمانه وتقاليده . كتاب الله يقول : نحن وجدنا آباءنا على سنة ونحن على آثارهم لمقتدون . استشهدت بالآية خطأ .

شعّ الجو حافلاً بالغبطة . سأل مهدي : شاي أم قهوة ؟ صفقت آسيا بمرح : شاي . شاي عراقي . أموت بالشاي العراقي . أنا سأجهز لكم الشاي . ونهضت نحو المطبخ . زقزقت منار كالعصفور : آسيا . ياعراقية . أنا لا أحب الشاي . اعملي قهوة وإلا نقول مافي قلبي .

ـ لا يوجد حليب . قال مهدي .

حسمت لالا فضيلة الخيار : شاي . شاي عراقي . نحن في بيت سي مهدي نشرب كما يريد وفي بيتنا كما نريد . احترام العادات والتقاليد واجب .

نرفزت منار : هوه . أف . عدنا إلى التقاليد . حتى في القهوة والشاي لا توجد حرية عند العرب . وقلبت شفتها السفلى امتعاضاً .

قال مهدي : باهي . آسيا تعدّ الشاي وأنا القهوة .

* * *

اسطوانة يزيد ولد الحاج تدور . تديرها لالا فضيلة بينما منار وآسيا تعبثان بالمسجلة والأشرطة . تروي بداية هجرته من منطقة القبائل

البربرية إبان حرب التحرير . ثم توضّح كيف كان فقيراً معدماً اضطر للعمل في السوق السوداء إلى أن أثرى بجهده وعرق جبينه . ثم كيف تزوج من امرأة أصيبت بمرض عقلي فدمرت حياته وجزءاً من ثروته : الآن يزيد رجل نشيط . رجل ذو نفوذ وكلمته هي العليا عند الوالي وقائد البوليس ومسؤولي الحزب .

تشعر بالاعتزاز والنشوة وهي تتحدث عن علاقاته مع بعض الوزراء والضباط الكبار ورجال الأعمال الفرنسيين : ومع ذلك يخشى التأميم . تهديدات بومدين بالاشتراكية تشجع العمال . لقد بدؤوا يسرقون ويطالبون برفع أجورهم . ويهددون باستلام مصالحه .

تتوقف قليلا لتسأل مهدي : قل لي ياسي مهدي . عندكم في العراق كاين اشتراكية ؟

يضحك : في العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لايوجد غير النهب والقتل والأكاذيب . الحكام العرب ياخالة لالا حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم . هؤلاء يتحدثون عن الاشتراكية كما يتحدث الحاج محمد عن الدين . ولكن كما الدين بريء من الحاج كذلك الاشتراكية بريئة من حكامنا .

تسأل لالا فضيلة بعفوية شعبية : ولكن الدين هل يسمح بهذه الاشتراكية ؟ انتبهت آسيا : يومًا . الدين هل يسمح بالظلم ؟ صرخت من المطبخ

قالت الأم : حاشا لله .

ونبضت آسيا بغتة : من يملك لابد أن يظلم من لايملك . هذا قانون البشر .

تقول الأم بدهشة : ولكنك تعرفين قلب يزيد الحنًان وكيف يعامل العمال والناس !

ـ أنا لا أتحدث عن عمي إنما عن الأغنياء الذين يكرهون الفقراء . دائماً الأغنياء يثرون من عَرَق الفقراء . هذا كان من بداية العالم . بن بيللا سار بالجزائر نحو الاشتراكية . لماذا قلبوه ؟

لالا فضيلة تؤرجح رأسها . تسوّي حزامها الذهبي الذي قدمه يزيد لها في ليلة العرس . ترشق عبارات مبهمة عن الجيل الجديد الذي لايعجبه شيء . حبها الجارف لابنتها يطغى :

ـ لا أعرف يا ابنتي . لا أعرف . أنتم متعلمون وتفهمون أكثر . نحن

قدامى ولم نتعلم . يلعن أبو الظلم والظلاّم . والله أنا ، وأنت تعرفين ، أقطع لقمة الخبز عن نفسي وأعطيها للفقراء .

في الجلسات السرية بين مهدي وآسيا ومنار ، كانت آسيا تسمي يزيد ولد الحاج «الغول» . منار تلقبه «بهتلر» البيت وتبدأ تقليد صوته الآمر . الصوت العسكري : لا لا . أين كنت اليوم ؟ مانوع الطعام الليلة ؟ لا لا . بناتك يستعملون التلفون ياسِرْ . اسمعي . بعد الساعة السابعة لا أحد خارج البيت . لا لا لا لا . يأمر كما ربي . وتكمل آسيا مقلدة : منار . جهّزي العشاء . آسيا . أوقدي الحمام . أطفئوا هذا التفزيون . فيلم خامج . بومدين حوَّل الجزائر إلى «بورديل» . طاح الدين والشريعة خربت . لالا هاتي . لالا تعالي . لالا . روحي . يزيد ولد الحاج الاله ـ الطاغية والآمر الناهي ، أكره كلمة عليه أن يقال له «لا» في وجهه .

من رأس ماله استمد طغيانه . بهذا المال كان يخيل إليه أنه يحرك دفَّة العالم ويوقف الأرض عن دورانها ساعة يشاء . لقد امتدت فروع تجارته من وهران غرباً إلى قسنطينة وعنابه شرقاً .

فروع تجارته وصلاته مع المسؤولين ورجال الأعمال ، ورحلاته إلى تونس والمغرب وفرنسا ، أوحت إليه يوماً بأنه مؤهل لحكم الجزائر حكماً ديمقراطياً أفضل من حكم بومدين العسكري وبن بيللا الشيوعي الأحمر . بذلك وسوس للالا فضيلة في مساء مخمور .

آسيا لخضر سمعت طرفاً من هذيانه في تلك الليلة الصيفية فظلت تضحك حتى غَفَتْ .

ـ 5 ـ

إذ يهدأ الاعصار تنحسر الأمواج وتستقر . إيقاع رتيب ومتناغم للمياه وهي تصافح الشواطيء بوداعة وأنس . لقد تلاشت الريح الزعزع ، بعد أن بعثرت الأشياء مخلِّفة وراءها الحطام والصدى .

ثمة هبوط رخو للأشياء وهي تتموضع في القاع دونما ضجة . في هذا الوقت الشبيه بنهاية حرب ، يعتكف الناجون من الزلزال ليقدموا أمام المرايا حسابات الخطأ والصواب .

ربما كانوا الآن أقل صداعاً ، وأكثر هدوءاً ، لكنهم بوضوح يرون ما وراء الجدار .

غير أن استراحة المحارب تحت هذا الأصيل الرخيّ ، تبدو في

موشور ما أقل عنفاً مما ينبغي .

هذه الاستراحة ضرورية لطيور الأفق بعد رحلة المحيط .

ونحن نراجع في حجرة النقد والنقد الذاتي السرية ، نسأل : آه . ولكن لماذا حدث ذلك .

غير أن السؤال الأكثر تنغيصاً لمهدي جواد في منفاه هو الحصول على الجواب الحاسم : أين يكمن العطب ؟

لكن السد الناهض كجبل من صوّان عصيّ على الكسر : كيف تبني من جديد ولا تتحطم ؟

كانت الأسئلة اللاجواب عليها تتناسل في رأسه كانشطارات ذرية تهوي من سماء بعيدة على شكل فراشات من الثلج .

في مدار هذه الشلالات الباردة والحارة ، يأتي صوت آسيا كالنذير ذات ظهيرة : كلما اختمرت الأرض بالمطر ينهض عشبها أقوى وأنضر .

آنذاك كانت تتحدث باستبطان مجازي عن جوهر علاقتهما الموشكة على البوح .

وكان مهدي جواد ساقطاً على غير ماتشتهي رياح سفنه ، بين أرخبيل الماضي والزمن الراهن . بين الأرض التي تميد تحت قدميه والأراضي الصلبة المترائية على أبواب البحر .

ـ كم كانت الهوّة عميقة . وكم كان الخراب كثيفاً !

في تلك الأزمنة . أزمنة العواصف ، بدا مريراً التنبؤ بأن رب هذه الأرض كان يزحف ، وهو ينسلّ من عصور الرمل والشمس ، ببطء السلحفاة .

* * *

في المدارات التي تلامس المركز لتنحسر عنه أحياناً ، كانت الحوارات تحتدم .

في المدن والأرياف والشوارع والساحات والمقاهي والجامعات وداخل الأوكار السرية .

كانوا جميعاً يترنحون كسفينة باغتها إعصار ، تحت الضربة التي شلّت مبادرة الحزب فراحت تشطره يميناً ويساراً ، أفقياً وعمودياً .

ولعمق الصدمة وفجائيتها ظهر على شاشة مهدي جواد ذلك الذهول

والاضطراب المفقدين للصواب .

ولكن أين توارت تلك الجحافل التي كانت تفيض كالسيل لحظة كانت صرخة الحزب تعلو في الفضاء !

هكذا انشطر العالم .

اللجنة المركزية على ضفة المراوغة وشاطىء النضال السلمي الديمقراطي والبورجوازية الوطنية .

والقواعد النامية تحت وهج الثورات المسلحة في الفيتنام وكوبا والاورغواي والمقاومة الفلسطينية ، على الضفة الأخرى .

كان الزلزال يرجّ أرض العراق ، وبين الترنح وصدمة الموت ، رأى مهدي جواد السماء والشجر وشواطىء الأنهار وهي تكفّن القتلى والجرحى .

وفي المعتقلات ، أمام فوهات البنادق وشفرات الحراب ، سقط المتخاذلون كالطيور في الأشراك . لقد أُعدم سلام عادل وجمال الحيدري عضوا القيادة الثورية . وفي معسكر الوشّاش والرشيد اخترق الرصاص أجساد الجنود والضباط ، بينما كانت فرق الاغتيال القومي تقوم بمهام صيدها في شوارع وأحياء بغداد والموصل والحلّة والديوانية .

تحت هذه الغمرة بين لمعان الدم والاستشهاد والبسالة ، فرّ قسم من قيادة اليمين إلى موسكو ، واحتمى قسم آخر بقواعد الثورة الكردية في السليمانية . ومن مواقع قيادة البارزاني ، شنّت قيادة اليمين هجوماً ضارياً ضد من سمّتهم الانشقاقيين من دعاة الخط الصيني والكوبي المغامر ، ودعت كوادر وقواعد الحزب للالتفاف حول القيادة الشرعية الأمينة لتاريخ نضال الحزب .

كانت خلايا القواعد من الكادر الثوري وقيادة بغداد ، تتحين لحظات الانفراج والهدوء النسبي في المطاردة والزركات التي تداهم البيوت والأوكار السرية ، لتقوم بحملات دعائية مكثفة ضد افتراءات اللجنة المركزية التي خانت الحزب وكشفت أوراقه إبان تعاونها مع الديكتاتورية العسكرية .

وتحت هذه الغمرة كانت مجموعة الكادر اللينيني بقيادة العلاوي وجماعة بغداد بقيادة عزيز الحاج ، ووحدة اليسار بقيادة أمين خيون ، تدعو إلى توحيد فصائلها تحت شعار خوض كفاح مسلح طويل الأمد .

لكن الصدع كان عميقاً ، والضربة اخترقت القلب . كانت الحالة

تشبه استفاقة ما قبل خفقة الموت . لقد حزمت السلطة أمرها هذه المرة ، ولكي تكون جديرة بأخلاق الخلفاء الذين أبادوا الزنج والقرامطة ، صممت أن تكون وفية لميراثهم .

هكذا ابتدأت عملية صيد وإبادة الحزب تجري وفق منهج شديد الدقة ، والتركيز ، والفعالية .

وفي أعماق مهدي جواد نزيل سجن الحلة ، كان المشهد يتراءى ملوناً بالدم والنيازك المشظاة .

مشهد أول خلية سرية تكوَّنت في بيت حمدان القرمطي وبابك الخرمي وعلي بن محمد وسبارتاكوس ، بغية تدمير العالم القديم الاستبدادي .

وفي الطرف الآخر ، داخل القصور والقلاع وبيوتات الحريم وثكنات الحرس الامبراطوري ، رُسمت الخرائط والخطوط السرية لتحركات الجيوش والخلفاء والجنرالات للحفاظ على هيكل ذلك العالم المقدس . هيكل الوحش الصحراوي العائم فوق بحار البترول والتعازيم الخرافية للدين الحنيف .

هذه الخطوط والخرائط والوثائق القديمة ، بدا كأنما الآن يعاد إخراجها وترتيبها وقراءتها من جديد تحت ضوء العصور الحديثة .

لقد بدأ المحققون الساديون في أقبية التعذيب والمعتقلات ، وداخل القلاع العسكرية ووزارات الدفاع والداخلية والأمن القومي ، يحلّون رموز الشيفرة بوضوح ومهارة : ضرورة التحطيم الذري لهيولى الجنين الماركسي النامي في رحم الأرض العربية إلى أبد الآبدين .

الــربيـــع

يبدو أن الشتاء يتأهب للرحيل . كمسافر هوذا يجمع غيومه وعواصفه وأنياب صقيعه . يضعها في حقائبه السماوية ويهاجر إلى ماوراء البحار .

الضوء الذي سطع في سماء بونه وفوق حجارتها وذرا أشجارها ينبىء بذلك .

لكن هذه الشمس الأفريقية تبدو أشد حدة من شمس الصحراء . الشمس القريبة من خط الإستواء والمنعكسة على جلود وأدمغة البشر ودمائهم المحرورة .

بين ممرات الحدائق والساحات وفوق الطرقات المؤدية إلى الجبال وعلى الشواطىء البعيدة ، الحبّ يفيض وينتشر .

أشعة شهر مارس التي تكسر حدود المدينة تتدفق كالشلالات ضامة تحت أجنحتها وطيوفها ، العشاقَ والطيور وحشرات الأرض الدابة بين الأعشاب وتلال البراري .

أصداء . أصداء وهمسات غريزية تطلقها هذه المخلوقات الرائعة التي لا تحب الموت .

احتفال عذب لكون ما يزال عامراً بالحنين للبدائية الأولى .

بدائية الجسد الدافق بالدم والشهوة وتصالب أشعة الطبيعة داخل الشرايين .

حيوانان صغيران ينحدران بين التلال الشرقية باتجاه البحر تحت أصيل بدت شمسه معلقة كأجنحة الطيور فوق أشجار الأفق .

ما الذي أتيت من أجله إلى هنا ؟

ولأن السؤال كان صدى للهاجس الداخلي ، اختلط عليه الصوت والسؤال تحت هذا الأصيل الشفاف ، الجارح للقلب .

فراراً ، فراراً نحو أرض لاتقسو . نحو رحم دافىء .

وما كان متأكداً من السؤال أو الجواب . وفي ذلك الزمن ما كان متأكداً حتى من جلده أو رأسه أو دوران الأرض . كانت الأمور تترنح في خريطة عقله ومجرى دمه على نحو سريالي يشتت كل العقلانية القديمة التي أسسها بدأب منطقي من خلال وهم تغيير العالم بسلطة نور العقل الكاسف لسحر نور الله في مخلوقات ماوراء الطبيعة .

وما كانت عبارته أو جوابه بالدقة المطلوبة . إنه يعبّر أحياناً بمواربة أو بمجاز يستعصيان على آسيا لخضر التي احتجت بالفرنسية : أنت اثنان . واحد مع نفسك وآخر معي . لماذا ؟

من بين شفتيه خرج لحن أغنية شعبية . تررري . تررري . لا . لا . تلاه صفير حزين ينشده الرعاة أو الخائفون على دروب القرى في الليالي الخالية من النجوم .

في ذلك الأصيل ، وتحت تأثير بخار البحر ولمعان الأشعة فوق الماء وزقو النوارس ، ثرثر قليلا عن أزمنة مضت . حكايات وتواريخ وهرطقات ابتلعها الوحل ومستنقعات الشرق .

الزمن الذي يدور حول نفسه كالشرنقة . والحادث الناقص الذي لايكتمل كقمر أو حكاية شهرزاد . الطفل الذي يولد في الشهر السابع بعملية قيصرية ثم لايلبث أن يموت تحت صدمة الضوء . الصحراء الصحراء . وشمسها القاسية المعطّلة للنمو .

وصرخت الفتاة : اووه . ياللجنون ؟ أنا لستُ طفلة .

- لماذا تصرخين هكذا ؟

- هل تعتقد أنني لا أستحق مشاركتك ؟

- مشاركتي !

- لماذا تتركني دائماً معلّقة في فضاء الرموز والهوامش ؟

بدت غاضبة غضباً طفولياً ضرّج وجنتيها التفاحيتين .

وقال ضاحكاً : ولماذا تريدين أن تفهمي كل شيء ؟ هناك حكمة قديمة تقول : في كثرة الفهم كثرة الغمّ .

- اف . ياللإله الصغير الذي وقع خطأ هنا ! قالت بامتعاض .

- أوقفي هذا الهراء ! أنا لست شيئاً ولا أريد أن أكون . إنني ألعن أمي التي ولدتني على هذه الأرض . فهمت ! أنت وهُمْ والآلهة الى الجحيم !

وهي التي ابتعدت .

شجرة الصحاري وأمان المنفى .

الضوء المنبثق في ليل المسافر التعب .

حالة من اشتقاقات الدم والعشب والبحار والأمهات والأوطان البعيدة والشموس الغاربة .

الشيء الذي مضى في غمرة الجنون وصرخة الموت .

الطريق طويلة والرحلة شاقة .

- إنما أنا رجل ملعون فَقَد الأب والآلهة ولا يريد غفراناً .

لكن الدم كان ينشد الدم في تلك اللحظة العارية . لحظة الحطام الكلّي للجسد والروح والشرائع التي فَسَدت .

وحدهم . قال لها وهو منغمر بالعشب ووجهها المضاء بالأصيل ودم الجسد ، الذين تغربوا أو نُفُوا أو اعتقلوا وعُذبوا ، يعرفون صرخة الحنين إلى المفتقد . الشيء الذي مضى ولن يعود . شيء لايسُمى ولا يرُى تماماً . يسُمع أو يشُم أو يتُخيَّل . مزيج من الأصوات والروائح والأطياف والتكوينات الجديدة المغايرة للماضي ، يرتسم ويتشكل شفافاً ، جارحاً ، ملوناً في الفراغ الضاوي .

لكنه ناء كنجم القطب في مساءات القلب .

وإذ سألته : أحقاً لاتستطيع العودة ؟ سمع الريح تبكي في أوراق الشجر والبردي . ورأى الأهوار النائمة في أعماق السماء ، وسمع أصوات البجع والبط وهي تُذعر في غسق الليل .

وكان ينتظر وهو جريح لايقوى على الحركة .

أخيراً قدموا . جروّه كالكلب وقالوا ظفرنا بك اذن يا ابن الفاسقة . وقال هذا حقيقي وقالوا له إنك خنزير لا تساوي فلساً وقال هذا صحيح وقالوا له إنك لن تكون بعد الآن وقال إنني أستحق ألا أكون بعد الآن .

وفي المعتقل ، بين الموت ورهج الضوء والصرخات اعترف بأنه كان مخدوعاً . وضُرب الجسد وكل الخلايا الحية ، ومات . وآنذاك كان العالم يرتجَ وينبهر ، يتصادم ويتناثر . زوغان فضي ثم ذهبي ثم بنفسجي فناري رآه أو تخيله في مدار البهق الضوئي والأهليلجي للأم التي

تصرخ وهي تلد خنزيراً أو يربوعاً أو سلحفاة داخل مخبر كيميائي للتجارب عندما ابتدأت آلات وأنابيق المزج والتقطير والانابيب المستطرقة توزع محاليل حمض الكبريت والزئبق والآمونياك ونترات الكلور وثاني اوكسيد الكربون والصدمة العذبة والقاتلة التي تلسع رأس القضيب والخصيتين متسربة من شريان الاحليل الدقيق حتى بوابة القلب .

«أفتح عيني فإذا بي في الصالة نفسها . صالة باردة . ضوؤها شاحب . ضباب موزع قطعاً رخوة ، ومنقّطاً بأشباح غائمة . أرتجف من البرد . انهضوني ثم علقوني في قضيب أفقي من الحديد . كنت أتأرجح والحبل الأحرش يحزّ جروح معصمي الدامية . أسمع طقطقة داخلية . هل يداي ستنفصلان عني ؟ إن الألم يتدفق ولا يطاق والعرق يتصبَّب من المسام . من جفوني انفجر الدمع . بعصا طويلة ، رخوة ومدببة ، راح الجلاد يضربني على أعضائي التناسلية ، بينما سيل من الشتائم البذيئة يسيل من فمه الأدرد . قطرات من سائل حار تنساب بين إليتي : الدم .

ثم أغمي عليّ» .

مرحى . مرحى . بشير حاج علي .

شاهد القرن العشرين في عصر بوخروبة وكهوف ابن أبي ضبيعة والسلالة التي ستدخل التاريخ من بوابة الإست الضيّقة .

- 2 -

من الفرنسي إلى العربي مسافة .

وسط هذه المسافة قتل سي العربي . ومهدي جواد حيّ يتسكع في شوارع بونه القديمة . يأكل وينام ويغني ويضحك ويتغوّط ، وفي غمرة الليالي يسكر ويحلم بامرأة تضجّ بشهوة الغابات . وتحلم آسيا بالأخضر في الليالي القمرية قادماً من قلب الغابات ممنطقاً ببندقية وقطع الشوكولا وفساتين الساتان والألعاب .

ثم تندب : لابد أن يعود . سي العربي نائم وسيفيق . صليل صوتها المفجوع يصل شعاب الجبال الصمّ . ووجهها يكسوه الدمع .

- لا تبكي . لاتبكي . سي لخضر لايجيء . في هذه الأزمنة لا أحد يجيء . الكل يذهبون بلا عودة . الموت وحده الذي يأتي . كسوف مفاجيء للشمس . اهتزاز للأرض ، يطلع منه رجل مشوه اسمه مهدي جواد أو يزيد ولد الحاج .

هذا ماتخبرنا به الأزمنة الراهنة . الأزمنة التي تحنو وتنضم على دم قتلاها ، وهي تنبىء عنهم برائحة العشب المهيّج للحزن والنسيان .

ـ سيعود . سيعود . إنه يعرف البيت .

ـ لا . لا أحد يستطيع العودة إلى البيت . لقد نأت المنازل عن أهاليها نأي نجوم في سماء سحيقة . استيقظي من هذا الكابوس . حتى ولو كان حياً في هذه الأزمنة لاشتهى العودة إلى القبر .

لكنه كان حياً وميتاً . كان يخطر مع الكريات داخل الأوردة ، متوهجاً كأشعة شمس بونه .

ـ 3 ـ

إنه يخرج الآن من البصرة .

متسللاً يخرج مع غروب الشمس المنحدرة نحو الخليج . يتناول جواز سفر مزوراً ويغيب .

وفي لحظة اختلاط الألوان ، تتداخل المشاهد .

ومهدي جواد ليس سي لخضر . يقيناً ليس هو .

ويسألها : أتعتقدين حقاً أنه سيعود ؟

رؤوس أناملها تداعب العشب . أصابع بيضاء طويلة تنضح صحة .

مع السؤال تتوقف الأصابع البيضاء المترعة بالدم . تقطع أنصالا من الحشائش . تضمها في راحتها وتبدأ تضغط عليها .

صمت واجف .

بهدوء تفرد راحة كفّها . تمتد أصابعه لتمسّ عصارة العشب المسحوق . عشب حار . يضغط على العشب . يتدفق الدم سريعاً ، نابضاً . ومن صدريهما ، في لحظة برق ، يندفع صوت ، خافت ، مكتوم .

اليدان اللتان انضمتا معاً كطائرين في عش ، ضغطتا أعشاب الأرض فأزهرت .

* * *

سجل في اليوميات : في المنفى المرأة وحدها العزاء . مخدر ناعم يشفّ كالطيف في أمسيات الحزن وافتقاد البيت . موجة بحر تنغمر فيها وتوغل بين الطحالب الملساء والقواقع وفجوات الصخر .

بعيداً . بعيداً . تحت السطوة الجسدية وهذا الدمار الجميل للروح وهي في قبضة الشيطان وقد تقمص جسد إله أرضي أو امرأة أو بحر أو غابة : آسيا .

ولكن هل هذه المرأة الغريبة مُفْلتة من عقال عصور الوحل حقاً ! وهل تسمع في الصمت ، الرنين البدائي لهذه الوحوش الضاجَّة في عمق الغابة البعيدة . رنين المعول الأول وهو يضرب الأرض لابتناء أول بيت على سطح هذا الكوكب المعتم !

لماذا تعيش مثلهم في الماضي . وتتوهمك الأب وأنت ضيَّعت أباك وهي تلوذ بك الآن وأنت الباحث عن ظل يقيك الهجير . شجرة أو صخرة تمسك بها تحت هذه الريح الزَّعزَع . هي التي تتوهم أنك تعرف الطريق إلى البيت وأنك حي وأنت تعرف من خلال النبض الداخلي أنك لست بالحيّ ولا تستطيع أن تصل . وهم الذين ضيَّعوك وضاعوا . والطرق كل الطرق هنا وهناك مغطاة بالرمم وحراب الأعداء . تدرك ذلك الآن أكثر من أي وقت مضى . وخارج مدار الدرس الخصوصي تقول لها : الخطأ ياعزيزتي في الخلايا . خلايا هذا الوريث البدائي الهجين والأعمى .

رجل الصحراء الراكض نحو عين الشمس ، المنبهر والمأخوذ بالصعقة الكيمائية للقرن العشرين .

ـ 4 ـ

بعد ظهيرة ذلك اليوم حضرت فلّة بوعنّاب ، مهدي جواد كان غارقاً في تحضير الدروس .

كانت بكامل زينتها . دخلت باسمة ، مصطنعة خفراً تقنعت به على العتبة . مع دخولها انتشرت رائحة ماكياج وعطر رخيص خانق .

ـ هل فاجأتك ؟

ـ مفاجأة جميلة .

كان يعرف أنهاستأتي يوماً . وما كان محصَّناً في وجهها . أنها مسألة وقت وخشية . هذا النوع من النساء الكاسرات يخيف رغم هشاشته البلورية في الفراش . إنهن يتأبين في المراحل الأولى ، لكنهن فيما بعد يقتحمن كاللبؤات باتجاه الفرائس .

وما كانت في ذاكرة الرغبة يوماً . كان عازفاً عنها .

امرأة ثرثارة طحنها الزمن وغَدْرُ الرجال . لم يبقَ من حطامها غير بريق خافت ، وهذا الشوق الهاجع في قرارة النفس .

جلست على السرير وانطلقت تتحدث عن الغرفة وتواضعها وفوضاها الجميلة : يبدو أن صديقتك لاتهتم بك جيداً . قالت ذلك بمزاح غامز . وحايد مهدي فسألها عن مهيار فقالت بأنه غارق في لاهوت كتبه : هذا المهيار ، غريب مختلف عن المشارقة . قل لي هل هو مجنون ؟ ياخويا هو إما مجنون أو عبقري .

ـ لماذا ؟

ـ لا أفهم عليه عندما يتحدث . رأسه مليء باختلاطات وسخافات ربي لايدركها . يخلط الفلسفة بالسياسة بالشعر بالدين بالطبيعة . إنه يحدثني دائماً عن شيء يسميه أنتروبولوجيا العربي . ورأسك مهدي مامعنى هذه الأنتروبولوجيا اللعينة ؟

ـ اسأليه .

هزت رأسها مجلجلة بضحكة فاسقة : اسمع . مهيار يريد أن ينظمني .

وابتسم دهشاً : ينظِّمك !

ـ بلى . بلى . يحكي لي دائماً عن تنظيم سري يقلب الأوضاع عاليها سافلها في كل بلاد العرب . ويقول بأنه جاء إلى هنا ليتصل بهؤلاء الثوريين .

ـ أي ثوريين ؟

ـ لا أدري . بين حين وآخر يلتقي برجال لا أعرفهم . يغلقون الغرفة ويبدؤون اللغط .

ـ هؤلاء زملاؤه في المعهد .

ويستطرد مهدي ضاحكاً : باهي فلّة . لماذا لاتدخلين معه في التنظيم السري ؟

تضع ساقاً فوق الأخرى فتنحسر تنورتها القصيرة . تشعل لفافة مطلقة دخانها في الفراغ وتقول باستهزاء : أنا بتاع تنظيم ! يكفيني تنظيمات وثورات خامجة . أنا ياخويا أنتظم مع رجل يحب الحياة والدنيا الوسيعة لا السياسة والحرب والمشاكل . يزيني منها .

مهدي الجالس أمام الطاولة وبيده القلم يكتب على هامش دفتره :

«رجل يقلب عالي فلّة سافلها بدلا من قلب دنيا العرب» .

يسأل العنّابية : قهوة أم شاي ؟

تضحك : ها . صرت مهياري . شنو عيني ما عاد في بيتك غير هاي المشروبات الأخلاقية ؟

عيناها المتوهجتان بالرغبة بدتا اسّيتين وهما على حافة استجداء . المنطقة المنحسرة من أعلى الركبتين حتى المنحدر المغطى ، تلوح صلبة ولامعة تحت ضوء ما بعد الظهيرة .

قال وهو يرفع عينيه إلى صدرها النحيل الضامر : الوقت وقت عمل وأنا أحضر الدروس كما ترين . غداً لديّ ست ساعات في المدرسة .

ـ هل أفهم من هذا الطرد ؟

قالت ذلك بتجهم خائب .

بحركة غريزية حلّت ساقيها فانفرجتا . بدا المشهد فظاً أكثر مما ينبغي . كان مايزال عازفاً . ضغط اسنانه وهو يقول : لا . لا . أبداً . أنت صاحبة البيت . ونهر النَّغل الذي تمدد بين ساقيه . وثبة صغيرة فتصبح بين ذراعيه . ولأنه أحسّ بالحنق من هذا الابتذال فكر : اغتصاب بلا رغبة . وما كان مهيأ لهذا النوع من الوجبات السريعة التي تسد بعض مسامّ الجوف بينما النفس خاوية . وقال له : نم أيها الفاسق واستَخْذِ .

عندما استلقت على ظهرها فوق السرير بقيت ساقاها سائبتين على الأرض . حافة ثوبها التي انحسرت توازت مع حافة الحوض . هناك التمع عُرْيُها .

اووه . ياللعنة !

أبتدأت الشياطين الداخلية تتململ من رقادها وبنبضات راجفة كيقظة الافاعي النائمة ، راحت تتمطى تحت جلد الأرض .

هي ذي الروائح في عمق الأدغال تنتشر حول الأنف بينما الفريسة تلوح على مدى الأنياب .

هكذا بغتة على أبواب الغابة مَحَتِ الصرخةُ المديدة ما كان ينبغي أن يقال بهدوء تحت لسع تلك الظهيرة الكاوية .

* * *

من الوزراء إلى ضباط الجيش إلى مديري الشركات إلى أمناء

فروع الحزب . عصابة الدولة بكاملها مَّرت من هنا . قد أكون سكة قطار ومحطة لكنني أرشيف . تواريخهم كلها عندي . ودقت على صدرها . هنا الثوريون القدامى والماسكون بزمام دولة الأمر والنهي استراحوا في محطة فلّة بوعنّاب . حتى الشهداء قبل أن يستشهدوا عبروا تحت السارية . تطهَّروا في جنة عدن الأرضية قبل أن يطيروا إلى جنة السماء . المرأة الأفريقية ياخويا مهدي مصنوع جسدها من حجر النار الشمسي . الحق أقول لك . طبيعة ظامئة أبداً لاترتوي من الأمطار على مدار الفصول . المهم . ليس هذا . بيتي يوم كنت مهمة كان كبيراً . بيت الدولة . كان في شارع العربي بين مهيدي اكتراه لي وأثثه سراً وزير الداخلية . في الأسبوع كان يمر مرة واحدة يتعشى أحياناً ويشرب قليلا من الويسكي وينام معي . وأحياناً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام في البيت . كان رجلاً عصابياً لايعرف الابتسام يعاني حالة كآبة دائمة . فقط كان يبدو منشرحاً وهو عار في السرير كطفل . حتى تلك اللحظات كنت أخشاه . أخشى الوحش الكامن فيه والجاهز للانقضاض . لكنه كان خائفاً . كان يضع مسدسه تحت متناول يده وطلقته في حجرة النار . مم يخاف ما دامت المدينة كلها تحت رقابته . أسرارها وجرائمها ودسائس مسؤوليها ومراكز القوى وما يُحاك في لياليها من المؤامرات . للتوّ كنا خارجين إلى الاستقلال . الدنيا فوضى والبلاد بلا قوانين ولا مؤسسات والصراعات محتدمة داخل جبهة التحرير التي تحولت إلى حزب مخلوط يمين ويسار ووسط . عسكر وتجار وأقطاع وفلاحون ومثقفون . مخلوطة عجيبة وغريبة حتى ربي لا يستطيع توحيدها . كانت هناك حكاية العرب والبربر والعسكر والمدنيين والتعريب والفرنسة والاشتراكية والبورجوازية والأفريقية والعروبة . مليون مسألة ومسألة أمام استقلال طفل ومهشم بالجراح . صراع حتى الموت من أجل اختيارات المستقبل .

في حَمى هذه الصراعات المجنونة كنت أتساءل : أنت يافلّة بوعنّاب أيتها البقّة الصغيرة ماذا تستطيعين أن تفعلي في هرجة هذا الكرنفال ؟

الثورة الوطنية انتهت والرجال صاروا في مواقع السلطة والمسؤولية . وها نحن اللواتي قاتلن في الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية . جميلة بوحيرد تزوجت من محاميها وهاجرت معه . جميلة بوعزّة دخلت في النسيان . أنا مع آلاف النساء صرنَ إلى مايشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال . انتهى دورنا الاستثنائي فاستدرنا إلى وظيفتنا الأساسية . في غمرة هذيانها طلبت

مزيداً من النبيذ . قدم لها كأساً فجرعته دفعة واحدة . استندت الى ظهر السرير وابتسمت : قبل لحظات كنت أشتهيك . بل ربما أتيتك من أجل ذلك . لا . لا . صدقني ليس من أجل هذا . إنما لاحظت من خلال مراقبتي لك وحديث مهيار أننا من طبيعة متماثلة . كلانا شجرة عارية . شجرة مجتثة من جذورها ومرمية على سطح الأرض . نحن مهزومان في موقع واحد جغرافيته متباعدة . إنني أعرف مايدور في رأسك من جلبة وضوضاء ومرارات . تجشأت ثم أشعلت سيجارة . مثلي أنت تهرب وتراوغ وتنقسم على نفسك لأن الهزيمة كانت مريرة ولأنك وحيد لاتستطيع أن تفعل شيئاً . أعرف . أعرف . لاتستطيع أن توقف الدمار والخراب . الخراب أقوى منَّا ولا احد في الساحة . أعرف . لقد انسحبوا إلى الملاجىء الآمنة والهدوء . بدّهم يعيشوا وياكلوا ويتزوجوا ويجمعوا شوية فلوس مش كِدَه ياخويا مهدي ؟ قل الحق . أنا غالطة في هدرتي ؟

وقالت إذا قدمت لي كأساً سأكون أكثر صفاء وشفافية .

ـ شرط ألا تحتسيه دفعة واحدة . هل تَعدِين ؟

ـ أعِدُكَ .

وهو متكىء على حافة طاولة الكتب والدفاتر رسم في الفراغ : امرأة جريحة .

كان يستمع ، غير راغب في قول أية كلمة توقف شلال هذيانها المتدفق .

في ذلك الزمن كان لي عشيق . في الثامنة والعشرين من عمره . نقيب في سلاح المظليين . فتي ، صلب ، معتدّ ، كان يأتيني أواخر الليل بعد أن بدأت زيارات الوزير تقل وتتباعد . اسمه صقر العمراوي قبايلي من بجايه متعصب لآيت أحمد والبربر . لم يكن يهمني ذلك . إنني أتذكر الآن عينيه الزرقاوين وصدره وصلابة ذراعيه وهو يضمني ، هذا ما كان مهماً في ذلك الزمن . عيناها معلّقتان في السقف والكأس في يدها ومن الفضاء الكابي للسقف وبخار النبيذ كانت تتوالى ذكرياتها كموجات هابطة من قمم عالية .

فيما بعد قتلوه غيلة وهو خارج من البيت . افتقدته وقتاً ثم نسيته . ضاع في هرجة الموت السائد . كنت قد اعتدت غياب الناس . في الجبل غاب أصدقاء ورفاق كثيرون ولم يعودوا . أصدقاء قاتلت معهم وضاجعتهم في الكهوف . أنت لاتعرف عذوبة الجنس في لحظة

الحرب . في لحظة الموت . عندما يموت المقاتل بعد استراحة هانئة مع امرأة لايأسى على شيء . لقد أخذ الجسد وأعطى ثم نام مرتاحاً . هذه هي الحياة ياخويا مهدي . الجزائري يحب الحياة والموت في نظره برق خاطف يعبر به ولا يبالي .

كان مستحيلا إيقاف هذا الشلال المتدفق كالنياغارا : صقر العمراوي قاتل مع عميروش في الجبال ولم يمت هناك ليس الوزير من اغتاله . الرجال السريون نفذوا المهمة . قتلوه في الشارع الرئيسي . اوه . العفو . نسيت أن أقول لك أن ذلك المغفّل كان يرغب الزواج مني وكنت أقول له أنا لا أصلح لك ياسي العمراوي . امرأة مثلي مجوّفة كالفزاعة ماعادت تعرف الوفاء ولا الحب الزوجي . سنوات الوحل غمرت قلبي بالطين . ياسي عمراوي غير مسموح لي أن أتزوج وأرتاح . نحن تحت المراقبة وعليك أن تنتبه لنفسك . لكنه باعتداد وثقة كان يتحدث عن نفسه ويلمح إلى رقاب الذيبان التي لا بدّ من قطعها يوماً . كنت أفهم مايعني وأدري مايجري في الظلام وتحت الأرض وكنت خائفة عليه لأنني أعرف أساليبهم . من النافذة كنت المح كلابهم المرابطة في المنعطفات والتي تراقب الداخل إلى المنزل والخارج منه .

وضعت رؤوس أصابعها على صدغها . كانت الأشباح القديمة تتواثب في أعماق هاويتها كطيور ليلية مندفعة نحو غاباتها وجحورها . وفي ذلك المساء . آه . خرج متأخراً من البيت . وفجأة دوت طلقتان وسمعت الصرخة . لم أتحرك من غرفتي . كززت على أسناني وداهمني انقباض . أنا الاخرى سأموت . مددت ذراعي ، وأنا في السرير أرتعش ، إلى علبة الفاليوم وابتلعت قرصين وانتظرت تحت هدوء طيوف الغيوم الزرقاء صعودهم إلى غرفتي .

واضح أنها نَهْبَ حالة غريبة من الذهول والإبحار المظلم ، كان ذلك يلوح في غشاوة عينيها وعلى بَشَرة وجهها استسلاماً وادعاً ، وهي مستلقية على سطح الفراش الأبيض بدت وكأنها تنام في جوف تابوت يطفو على سطح بحر .

إنني أعترف الآن لأنني مدركة أن لا شيء أخسره بعد اليوم . في ذلك الوقت العصيب كان الله يتقمص السلطة . الجنة والجحيم ومن يمسك بالفأس يقطع الرأس بلا شفقة . رفاق السلاح والموت صاروا الأعداء . نفوس مسعورة بشهوة السلطة . دروب الحكم والسيطرة كانت هي دروب الدم . من أجل الشعب . من أجل الشعب ! كلهم كانوا يصرخون بهذه

الأراجيف والحماقات . ولكن أين هو الشعب . أين الفلاحون الذين قاتلوا وأين العمال ؟ سي الباهلي يسألني عن الثوار الذين ملؤوا سمع العالم ودوخّوا حلف الأطلسي . هيه . هيه . يوماً خرجت معه إلى القسم الغربي من المدينة فرأى النصب التذكاري للشهداء ثم ذهبنا إلى حي وادي القبة القريب من البحر فرأى المقبرة . مقبرة الشهداء ، قلت له إذا أردت أن ترى من تبقى حياً منهم فاذهب إلى الخمَّارات والمقاهي أو زُرْ مبنى المجاهدين القدامى في شارع بن بولعيد . ابتأس واغتمّ . ولكن لماذا تبتئس ياسي مهيار لقد صار باسمهم شوارع وساحات ومدارس ومؤسسات خيرية ماذا يطلبون أكثر من ذلك ؟ !

بدت متعبة فتحركت فاردة فخذيها ثم استندت بنصفها الأعلى إلى الجدار . كانت الآن في مواجهته . عيناها معتكرتان ووجهها في بُهوت المقابر . كم بدت مسحوقة بتلك الآلام القديمة . كان الاضطهاد يفجر جسدها فيما بدا الشقاء الروحي يزلزلها بأنين خلخل حتى المسام الدقيقية لخلاياها .

وسألها إن كانت ترغب كأساً أخرى فقالت : لا . لا بد أنني ثَمِلتُ وثرثرت أكثر مما ينبغي . أريد أن أستمع إلى الموسيقى . وضع في المسجلة شريطاً لباخ . وأحسّ وهو يواجهها أن الجو مثقل وضاغط . حاذاها واضعاً رأسها بين كفيه ثم قبَّلها بحميمية خالية من أية شهوة : خففي من هذه الآلام فلَة لافائدة من هذا النَّزْف . وما كان متأكداً من أن هذا ينبغي أن يُقال لكن دموعها التي سالت ووجيبُ صدرها أورثاه شعوراً بتشقق الزمن وسطوته اللعينة شبه الأبدية . الماضي الجرثومي الشبيه بالجذام الذي يقرضُ الخلايا الداخلية ويأكلها . وعندما قال لها علينا أن نخرج من تاريخنا القديم إلى البحار الزرقاء والشموس والمدن الأخرى ، كان يخاطب دمه المحرور هو الآخر ونشدان تجديده بدم آسيا لخضر التي ظهرت في سمائه ذات غروب كنجمة الصبح .

* * *

غبطة ما بعد الدرس ، هذا الزوغان في ساحة المدينة المظللة بشجر المرجان والدردار .

مصبّ أمواج البشر المتعبين في أصائل الربيع .

على الأرصفة وتحت الظلال كراسي وطاولات مقهى الأوريان والمغرب والاكسبريس . على كراسي الأوريان يتضام الشرقيون

كالقطعان الخائفة . يرشفون القهوة والبيرة ويدخنون باسترخاء كسول موغلين في ثرثرة شؤون المدارس وذكريات الأوطان البعيدة الملفّعة بالنميمة والغيرة وهذيان الجنس .

عندما يبدؤون بالصراخ والشجار يقول الجزائريون : انظروا . انظروا . ها هم العرب . يقولون ذلك بازدراء . لكن العرب . لايظلون . طويلاً في الشجار . يتدخل الجزائريون لتبدأ الوشوشات حول آخر الصفقات السرية للسيارات المستوردة وتحويل العملة الصعبة في السوق السوداء ولقاءات الليل مع مومسات ساحة افريقيا .

في هذا المدار تزول الخصومات وتعلو الضحكات ، فيتحول العرب جميعاً مشارقة ومغاربة إلى أصدقاء وشركاء ومزاودين في التنافس على تقديم البيرة حتى يقول النادل بأن وقت البيرة في الساحة انتهى وبدأت القهوة . يقول ذلك فتنطلق الشتائم احتجاجاً نحو فروج الأمهات والأخوات .

وهنا رئة المدينة .

موران صاخب في هذا المصب البيضوي المزروع بالشجر والشبيه بجزيرة خضراء : كور بونه الرحمي . كما يقول مهيار . .

ومهدي جواد كان يسميها : استراحة الحسناء .

هؤلاء الهاربون من سجون المدارس وسجون زوجاتهم ومنازلهم إلى ساحة الله الرحبة ، يتنقلون من مقهى إلى آخر ضاربين بلاط الساحة وهم يحدقون في أعالي الشجر وجدران العمارات . يتملون بالتياع مؤخرات وصدور الفتيات الهائجات ، الضاحكات ، واللامباليات . ضجرون ومهتاجون وحالمون ، واقعون في الشبكة القانونية والمحرّمة لهذا الهذيان المعتوه الزائغ من مداره كنجم مذنب سيتلقاه حقل الجاذبية بعد همود ابتهالات الجسد .

آلاف الخطوات تقطع من شرق الساحة إلى غربها أو العكس تحت العزف السري والغامض للاشعور فردي وجماعي موصول بالعضوية ومتناسج مع صبوة الرغبات والتوق إلى الطيران نحو كل الجهات البعيدة التي حُلِمَ بها ولم تُرَ . بعيداً عن هذه البنايات الشاهقة التي تسور الساحة فتحيلها إلى سجن له ممرات تسمى الشوارع حيث تدق الخطوات بعد التعب وتتثاءب المدينة وتنام الأحلام ليبدأ الكنيف الحميم للبيوت الزوجية في نهاية المطاف .

وفي فسحة التنفس يظهران معاً فوق الساحة .

الظهور المثير في رحاب كعبة الله والبيع والثرثرة والشجارات .

ومن العيون ينطلق نذير خوف مستفزّ .

كل ما كان غافياً من جراثيم هوذا يدبّ في العيون .

- اووه . انظروا . ياللفضيحة !

وهما المحايدان . إنما المتماسان ذراعاً لذراع ونبضاً لنبض .

الحشد . الحشد .

وهما خارج الحشد .

تقول انظر إلى عيونهم الفولاذية فيقول من هم فتقول الناس فيقول : الناس ! إنهم مهمومون ومصابون بوباء العزلة ونحن لانستطيع أن نقدم لهم العزاء . لكنها تستتر بالظلال والجدران والخشية . تسرع خطاها لتخرج من ساحة المدينة وساحة العيون إلى فضاء البحر .

وهي التي تحتاجه ويحتاجها . العاشقان السريان ، والصديقان الآن في مدينة الله التي لايريد الاعتراف بها والخارج من نطاقها غريباً عنها وعن آلهتها وعن سائر المدن ، والغريب عن نفسه المترائية تحت النظر الآخر المخدوع بالظلال والجدران وحيثيات الخشوع . هي التي بوُغتت به كما يُباغت طفل بزهرة برية ذات أشواك عندما التبس عليها الأمر بين موت سي العربي واستتاره حياً في أحد أدغال سوق أهراس القريبة من بونه .

وبينهما كانت هناك قنبلة موقوتة قيد الإنفجار .

رُميت عَرَضاً في ليل أعمى .

الصديقان الجميلان في الزمن القبيح والعابران أرضاً لانجاة فيها .

لانجاة فيها .

أرض الغريق وأرض الحريق وأرض السدّ الذاهب فيها لا يُردّ .

وهي المحفوفة بالأشراك .

وهو الخارج من أضلاع الله والطغاة والحروب الأهلية المغدورة ونفسه .

أأنت خائفة ؟

- لا .

ـ لماذا أنت هاربة إذن !

ـ قسوتهم . أنت تعرف لؤمهم .

ـ وهل هم قضاتنا ؟

ـ نحن تحت قوانينهم . ألا ترى ؟

ـ إلى الجحيم . لكل رسله وشياطينه . أنت لماذا ترمينني أبداً في مضائق الخوف !

وما كان ذلك مجدياً . لا الأصوات ولا الصرخات والأحتجاجات ولا حروب التحرير المجهَضَة .

الآلهة والقضاة والخوف الموروث والزمن السلالي ، كانت في كريات الدم وكل ماعدا ذلك بدا باطلا وملعوناً وخارجاً عن قانون جاذبية العرب الذي يدور حول ذاته السرمدية كالخذروف .

كذلك كانت تجذبه وتحايده بعيداً عن الساحة منخطفين في الأزقة الخالية نحو أبواب البحر .

وهما تحت شجرة الصمت الانفجاري .

حالة غضب . مهدي جواد .

وحالة أسى . آسيا لخضر .

وعلى الجسر المطلّ على البحر تحت شمس غاربة يحتفن الرجل حفنة حصى ويقذفها إلى الأسفل . تئز الحصوات وهي تتناثر ثم ترتطم بالأرض .

الحصوات التي لم تكن لتنفجر أبداً .

ولكن إلى متى ستستمر هذه الحالة اللعينة . حالة الدفاع عن النفس !

وسمع نفسه تقول لنفسه ستنفق أيها السيد التافه كما تنفق الحشرات الضارة قبل أن تنتقل إلى وضع الهجوم المعاكس .

وآنذاك ، على الجسر ، وفي الساحة ، ومذ هبط من الرحم ، جاءته الأشباح السود والزمان الأسود والقلب الأسود والكلاب السوداء ولم يأت القتل الجميل الأبيض .

واستدار . كعادته القديمة استدار .

نفر كالطير المذعور وتركها وحيدة . هبط الجسر باتجاه المدينة والساحة والضوضاء .

اختلط بالبشر . بالدويّ الحار والصقيعي . خلّفها وراءه مكسورة بحزنها تحت سماء غائمة ابتدأ برقها والرعد .

وفي غمرة حزنها تساءلت عن الخطأ واستعادت الوقائع .

ولكن ما الذي حدث بغتة ؟ وشعرت أنها وحيدة ومنبوذة تحت هذا الغروب الضجر . كسرت غصناً من شجرة رصيف وراحت تلوح به في الفضاء . كان مهدي جواد بعيداً وسمعت وقع خطى وراءها . خطى تلاحقها وابتدأ نذير المطر وما كانت منتبهة لوقع خطى الآخرين حولها وعيناها لا تعلوان عن قتامة الرصيف . ولكن لماذا فعل ذلك ؟ واهتزت الصورة التي رسمتها للرجل الصلب وريث الأب وعلى اللوحة لمع وجه غريب لاتعرفه وجه كريه وعصابي ونزق لايختلف عن هؤلاء الذين يعبرون بها ولا توليهم أيما اهتمام . وجه مهدي جواد المعتكر والصلف والذي لايستحق إلا الاحتقار . وحتى تلك اللحظة ما كان الشيء النامي بين العشب قد أزهر . كان مايزال تحت شغاف القلب وفي نبض الدم . وداهمها ندم . لقد أهينت بشكل مُزْرٍ . مبتذلة وهامشية أنت ياآسيا والرجل الذي خُدعِت به لم يكن الرجل الحلم ولا المثال وهو لايستحقك . إنه الوهم نسجته الطفولة والحنين إلى الأب وأمواج المراهقة . اووه . ياللأسف !

بين الدمع وانبثاقات الحنق سمعت وراءها كلمات رخيصة ونابية .

وجاء البرق خاطفاً فوق قوس الأفق فسارعت خطوها إلى البيت .

ـ هيه ياللبِترمَة اللذيذة . هاو يا الرومية السخونة .

بالمرارة اختلط الاحتقار . حالة غثيان امتزجت بحنق يشارف رغبة قتل .

لقد غادرها الذي كان يوصلها إلى البيت وها هوذا أحد خنازير المدينة يطاردها كمومس .

مهدي جواد بدا الآن ممقوتاً ومجوَّفاً كفزاعة حقل . وكان يدخل دائرة الظلام .

يترنح في مدينة غريبة ، تحت سماء تحللت هيولاها إلى قطرات مطر . الحجارة ، والأشجار ، والناس ، بدت شاحبة ، ممسوحة الملامح .

تحت هذا الشحوب ، تتضاءل المرأة التي ملأت فجوات المنفى ، المرأة التي خدع بصلصالها النقي .

الخطوات ترنّ فوق بلاط الساحة والأصوات والخطوات البشرية

تهرب من المطر الذي انسكب كشلالات .

وما كانت آسيا الخضر آنذاك بالمرأة التي يندفع للصعود معها إلى القمم . وبينهما نقطة عمياء . رآها كبرق خاطف داخل رأسه الموشك على الانفجار . وازداد تهطال المطر الأفريقي وتحته كان يغتسل ويتواسى .

وهي الآن تتجه نحو بيتها وهو يتجه نحو العراء .

تحت سماء من المطر ، وسماء من اللمعان . وهي المحمية بغلاف من البلازما ، والدم ، والنسيج المخاطي : بونه .

الرحم .

وهو المرْمى في التيه المترامي بعد أن قذف به الجسد مادة غريبة عنه .

وما كان احد يدري أين يقع البهاء الطلق ، والزمان الطلق ، وكانا ينشدانه في المساءات الحزينة ، والصباحات ، وعبر دروب البحر ، وداخل الرعب الصامت المسمّى : الحب . وما أفصح عنه . كان نائماً تحت العشب الخضِل في الغابات القصية .

وتذكر وهو يتلقى وحشية المطر العذب ، تواتر اللحظات التي عبرت . كان وحيداً كطفل في غابة .

وكلاهما كان مايزال يختزن الصرخة .

وقال الخنزير الذي تبعها : أرغب أن تكوني الليلة لي يا الرومية .

استدارت فهاجمها ، وبحركة جيدو خاطفة طرحته أرضاً ثم داست وجهه وبصقت بين عينيه : ولد القحبة . يزّي . يزّي !

حدث ذلك كالومض الذي يخطف البصر ، في مدينة لا يسمح فيها للفتيات بالتجول بعد هبوط المساء .

ونحو البيت غذت آسيا خطاها مغسولة بالمطر والدمع .

السماء هوت وكان مهدي جواد يبكي .

وتحت المطر كان يسير . المطر الربيعي المتدفق كالميازيب .

وكلاهما كان بعيداً جداً الآن .

الرغبة الوحيدة التي استيقظت تحت انهمار هذه الشلالات السماوية أن يصل غرفته ثم يحكم رتاجها ويستلقي لينام بهدوء طفل متعب .

* * *

وكان يرى .

أنه يُطوى في سُجُفٍ بيضاء تتماثل مع السحب البيضاء التي رآها في طفولته أيام كان يرعى ويصطاد الطيور والأرانب ، محمولاً داخل تلك السَّجُف الغريبة والشفافة . أصداء وأشكال تتراءى وتسمع حوله وهو لا يعرف إلا أنه يطير في فضاء مفتوح .

أطياف ملونة وأحياناً شَبَحية وطيور ثم فجأة غابة كثيفة متداخلة بأغصانها وجذوعها . بغتة هو هنا . أرض مجهولة ولكنه رآها أو حلم بها في مكان ما . يحاول أن يتخلص من اشتباك الغصون التي شكلت سقفاً يستر السماء ليرى الفضاء لكن محاولاته وهو يقاتل الأغصان ليفتح في السقف السميك فجوة ، لاتؤدي إلا للفشل . ويرى أنه يسبح فوق سقف الأغصان . الظلام شديد وهو يكاد يختنق . في زحفه على بطنه ورجليه ويديه تتساقط عن الشجر ثمار صفراء مهترئة تشبه التين والمشمش والسفرجل ، يراها وهي تتدحرج على الأرض الرمادية . أرض من الغبار الكامد . يشعر بأن آلاف الساعات والأعوام ستمرّ قبل أن يستطيع الخروج من هذه الغابة الملعونة التي تحولت أغصانها إلى مايشبه السواعد الملتفة والمتعانقة كالسلاسل الحديدية . ياللعنة ! ماالذي جاء بي إلى هذه الغابة الغامضة ! بعد مضي ألف عام من الزحف والالتفاف والركض رأى بيتاً على حافة الغابة . أحسّ أن المتاهة انتهت فجرى في المنحدر الترابي المشقّق .

فجأة سدّ من الكلاب باغته من وراء البيت . كلاب سوداء ورقطاء وبلا لون فتحت أشداقها وراحت تعوي بشراسة وتهاجم . تتقدم وتتأخر وتدور وهو يحاول الهرب والإلتجاء والتصويت . لا أحد أبداً . هو وهذه الكلاب المستشرية . لا يدري من أين جاءت البندقية . بندقية طويلة كانت الآن مسددة من كتفه نحو الكلاب القريبة جداً . طاق . طاق . مازالت الكلاب تعوي وتندفع ولا طلقات أو نيران تخرج من فوهة البندقية . لقد تحولت إلى قصبة في يده . كان يضرب بها كالعصا فلا تصيب شيئاً . استمرت الحرب مع الكلاب ألف عام آخر حتى هبطت السَجف فطوته وأخذته إلى السماء البيضاء حيث سطعت الشمس على السرير .

- 5 -

من مناضلة مفعمة بالحيوية والأمل ، إلى مومس . خط أحمر موشى بلون النار يصبّ في الأسود : الوطن .

وخارج مشيئتها وقعت في فخّ جسدها . تلك هي الموهبة المركزية بعد أن تتحرر البلاد من غاصبيها .

غير أن فلّة بوعنّاب تتوهم أنها مسكونة بمواهب أخرى غير موهبة فتح ساقيها . تقول : هم قتلوا مواهبي الأخرى وركزوا على موهبة التأوه والصراخ الجنسي . أليس هذا هو الاستعمار الحقيقي ؟

ثم تستطرد : أصلاً ما الذي فعله الكولون الفرنسي إلا هذا ! لقد قتل كل مواهب الجزائر ووضعها عبدة بين فخذيه لخدمة نزواته .

بمرارة تتحدث عن الوطن الذي امتُهن بعد الثورة . وطن الوزراء والضباط والعائلات والمراتب الحزبية العليا والمخابرات والحلاليف والتجّار واللصوص .

إذ يبدأ مهيار الباهلي تنظيراته عن التنظيم والثورات القادمة والفروق بين الثورات الوطنية والثورات الاشتراكية ، تنتاب فلّة كآبة مُرمِضَة .

تضع اسطوانة وتستمع لأغنية جزائرية عن الحب : واه يا الرومية . تتحرك من الصالون إلى المطبخ . تجلو صحوناً وكؤوساً وملاعق ، وهي تدندن مع الأغنية .

بعد أن تنتهي من المطبخ تذهب إلى التواليت ، تبول وهي تغني وتراقب الجدار الأبيض الراشح بالرطوبة .

في غرفة زينتها تجلس أمام المرآة .

تراقب وجهها والتجاعيد فترى حسيرة ضربات الزمن على الوجه النضر . الوجه الذي كان نضراً .

تضع المساحيق ثم تدعك الوجه الشاحب في محاولة يائسة لينبض الدم . تتناول قلم الكحل وترسم خطوطاً سوداء تحت الجفنين . تحفِن قطرات من عطر مدام روشا الفرنسي المُهدى لها ، وتمسح به رقبتها وصدرها .

وهي تجسّ بأناملها كتلة ثدييها ، تحس ضمورهما . تعصرهما لينموا في خطفة وهَمٍ . ثم تمدّ أصابعها العطرة تحت سروالها وتضغط .

تتأوه بتمرين مسرحي تحوّل مع الزمن إلى عادة متقنة .

فلّة بوعنّاب ، المرأة الجديدة ، جاهزة الآن .

في الصالون تختال بكامل زينتها مبتهجة تحت أمواج عطرها .

الباهلي بنظارته يقرأ ويسجل ملاحظات .

ينتبه . يرى امرأة أخرى ، تفوح .

بخطوات متئدة ، والابتسامة على الشفاه الحمر ، تتقدم المرأة .

يرتعش مهيار ، ويرتبك . ماعاد يفهم مايقرأ ويتوقف القلم .

- فلَة !

- مهيار .

وهما الآن على مسافة جسد . المرأة الجاهزة والرجل المباغَت .

وهي تفتح ذراعيها يتعلثم الذي بدا محصَناً ضد الخيانة . إذ تحضنه تشعر بحرارته . يضمخه عطرها النَفاذ ، وتقول المرأة : أنا أشتهيك الليلة ياسي مهيار .

يضطرب الرجل : آه . آه . هذا شيء آخر . وفوق البساط المفروش على بلاط الغرفة يهبطان . المرأة المستثارة تقبله بشهوانية وهي تضغط جسدها بجسده .

مضطرب مهيار الباهلي ومباغت وهو يتلوى بين أعضاء المرأة .

لقد باغتته في لحظة غياب ، فانتثر . تشوّش العقل المفصول عن الجسد . العقل المحض المتجلي عن دنَس الشهوة .

غير أن العنَّابية كانت منغرسة فيه كالأخطبوط . هي اللحظة مستثارة . كانت وحيدة قبل لحظات لكنها الآن تطلب انساً . وقبل لحظات أيضاً كانت عطشى . الأرض المشقَّقة من القيظ تتشهى الماء . وهذا البيت يشبه الصحراء بعد أن سكنه هذا القديس الأحمق ، الذي يفهم كل نظريات العالم ، لكنه قاصر عن تلبية صراخ جسد امرأة وحيدة . وفي أزمنة غبرت جاؤوا إلى هنا : فلسطينيون ومصريون وسوريون وعراقيون ، تركوا بصماتهم على خريطة الجسد ومضوا .

- آي . آي . أنت حلو . آي . كم أنت لذيذ . هيا ! هيا ! ومهيار الباهلي يبدو تحت جسد فلَة رجلاً مغتصباً . ارتدت به الصور والأخيلة نحو الشرق . الزوجة الوحيدة التي تركها تحت قسوة الغياب . الوفية التي لاتخون رغم برد الليالي ونداءات الجسد المهجور .

العقل مع الأخيلة البعيدة تفاعلا فولدت حالة اشمئزاز . وقال لنفسه وهو يتململ ويضغط الأرض : كن وفياً مثلها . هذه لحظة اختبار وعلينا أن نتماثل .

وما كان ليستجيب لأصوات صراخات المرأة التي تتمزق فانسلَ من براثن جسدها بعيداً .

ـ أراهن إنْ كنت رجلا .

قالت ذلك وهي تنقلب مهتاجة كاللبؤة على قفاها .

وأحس بأنه أهين فكتم صرخة .

كان الآن مكوّماً على نفسه في زاوية الصالون . وهبَّت عليه عواصف من الذل والغربة والحنين والانكسار ، وأنه لم يُفهم .

وفي منتصف الصالون كانت المرأة . امرأة أفريقية تشتعل بالشهوة ورغبة الامتلاك ، مجروحة يتفصَّد منها الجنس والألم والاحتقار .

بهدوء ابتدأت تتعرى . وشاهد مهيار الباهلي أصابعها وهي تخلع سروالها . وكانت تضحك .

وقالت : لأول مرة أتعرَّى . هم كانوا يعرونني . رشيد الفلسطيني مزَّق سروالي ونام معي أربع مرات في ليلة واحدة . هو الآخر كان متزوجاً ولديه أطفال . لكنه رجلاً شهماً يعرف معنى وحدة امرأة كما يعرف كيف يستجيب لرغبة جسده الظامىء . مرسي المصري بعد أن يشرب النبيذ والحشيش كان يتحول إلى منشد شعبي وهو يضاجعني حتى الصباح . ذو النون العراقي كان يبكي بين فخذي وهو يهذي بالشعر .

واصلت المرأة فصلها المسرحي ، فكشفت سترها . كانت تضحك بندب هستيري : هذا الجسد لايعجبك ! لقد عبروه جميعاً ولكنه ظل صامداً كحجر النار . كل الثوار عبروا من هنا . لماذا تتعفف ؟ من قال لك أن امرأتك لا تنام الآن مع رجل آخر ؟

وفي الزاوية كان الرجل يتكوم ضاغطاً رأسه بين راحتيه ، وإذ سمع الاهانة ، صرخ : اقفلي فمك أيتها . . . وكزَّ على شفته السفلى . وقهقهت : هل أتممها عنك ؟ كلهم كانوا يصرخون هكذا . في البدء يتأوهون : حبيبتي . غزالتي . قمري . روحي . عيني . وبعد أن يفرغوا شهوتهم يشعرون بالتأنيب : لقد ناموا مع عاهرة . عاهرة ! أما الثوار والمناضلون والقوميون والمثقفون والاشتراكيون . نخبة الشعب . طليعة الأمة .

النور الساطع في الظلام العميق . القادة المعبودون والآباء الروحيون المتوَّجون بهالات القداسة والجلال والعظمة .

ها . ها . ها . ياللسفلس الثوري !

وصرخت : كلهم تخرجوا من مدرسة العنّابية ، ومروا تحت قوس فخذيها . بهدوء تناولت قلم مهيار الملقى على البساط وقالت عليك إن كنت رجلاً أن ترى وتتماسك . وما كان يدري ماذا ستفعل . وللحظة أحسّ

وكأنه في قاعة مصحّ أمراض عقلية . وقال لنفسه . سحقاً . كيف أخرج من هذه المصحّ ؟ وودّ لو يستطيع الخروج ويعدو في الشوارع أو نحو البحر أو بيت مهدي جواد . وكان الليل يتقدم وبونه راسخة تحت ليلها الهادىء .

بدأت فلّة بوعنّاب العارية تمارس بالقلم شهوتها ، وتتأوه . كانت جالسة على البساط ، فارجة ساقيها بينما قلم الباهلي يهتزّ ويحكّ بحوافّ فرجها وبَظرها وهي تئن ، وتهذي .

الضوء يسقط على الكتب المبعثرة ، وبين الصالون وغرفة مهيار ستارة تخفق بها الريح . وفي رأس الباهلي كان العالم يتصادى بملايين الصرخات والحركات والألوان ، وإيقاعات الألم .

كصرصار زحف تحت الستارة المدلاة نحو غرفته . صوت أنين المرأة في رأسه وهذا الزوغان المجنون . استلقى على فراشه كمريض . عندما صرخت المرأة نازفة شهوتها المنفجرة ، اندفع الرجل المهزوم ببكاء مرير .

* * *

الصباح العذب . فجر بونه البحري . سماء من النوارس والضياء ، وأرض من الغابات والسهب الخضراء . بلاد الشرق الجزائري المتاخمة للشمس والبحر ، والحزن العميق .

هنا وُلِدَ القديس اوغسطين وريزي عمر ومحمد بوخروبه ، وهنا بكى مهيار الباهلي . وتحت هذا الصباح الوردي ، بين شعاب جبل سرايدي المحفّ بالبحر ، وُلدِت آسيا لخضر ذات وقت ، وذات وقت آخر نام سي العربي ملفعاً بدمائه تحت تراب هذه الأرض المقدسة والملعونة .

- 6 -

ذلك المساء .

موسيقى ونبيذ مسكرة وقرار داخلي بانكسار العلاقة مع آسيا بعد الذي حدث في الساحة وعلى الجسر .

إنه يشرب ويدخن برغبة من يريد الثمل سريعاً لينشد على نحو ما أغنية القفر والوحشة الذئبية . لكن مهيار الباهلي هذا البهلول المأخوذ بابتهالات الدماغ لا يسمح كثيراً لبروق القلب البشري أن تلمع .

بين الضجر والحزن يتحدث عن الثورة التي لم تبدل شيئاً في أعماق

الانسان هنا . لقد زادت مرارته وتعمَّقت كآباته أكثر فأكثر ، وعلى مايبدو فقد بدأ يكتشف أن سنوات الحرب الوطنية لم تكن أكثر من صرخة في عراء .

إذن . ما العمل .

وكان أن قالت العنَّابية ذات ضحى بأن الفساد في الخلايا والعربي ياسي مهيار لايرجى منه خير في هذا الزمن . ويومها قال سي الباهلي بأن هذا هذيانٍ عنصريٍ أفرزه الاستعمار ليظل متفوقاً ونظل نحن على الهامش أتباعاً وخدماً من الدرجة العاشرة .

وفي تلك الليلة بين النبيذ والضجر وبدايات ظهور علامات التلف قال مهيار لمهدي بأن فلّة امرأة فاسدة ومخيفة ومدمرة . كان يحكي باقتضاب ممارستها للعادة السرية على ذلك النحو الفظ والكريه .

كان الضوء خافتاً في الغرفة وعلى الطاولة النبيذ والخضار والحشائش والبيض المقلي وشرائح البفتيك . وتحت شفافية الليل يتموج صوت البحر .

لقد قالت آسيا له يوماً أنت لاترى من الأيام شموسها وصباحاتها . لماذا لاترى غير الليالي الدامسة !

وفيما مضى هذى الباهلي : لو كان لديَ خمسة ثوريين من نمط أبي ذر وعلي بن محمد وحمدان قرمط لألهبت هذه الدنيا العربية بالحرائق .

ـ لكن ثورة المليون شهيد اغتالها العسكر والتجار في النهاية . هكذا قالت فلّة بوعنّاب وهي تتكىء على أريكة في صالون بيتها وتدخن سجائر الهقّار .

وقال مساء بونه : كم أنا وحيد مع الشجر والبحر .

تحت سطوة الحزن والإرتكاسات وأشباح الذاكرة سقط مهدي جواد أسير حرب .

هو والباهلي وحيدان في غرفة مغلقة .

رجلان جاءت بهما الأيام مصادفة وبلا ميعاد إلى هذه المدينة الغريبة .

ومن فتحة النافذة كانت هناك فرجة سماوية تلمع فيها نجمة .

يتابع مهيار الباهلي تسبيحاته حول عبثية النضال السلمي وهراء الخط اللارأسمالي والأعترافات والتواطؤ والانشقاقات والاتجاه الصائب لجماعة الأهوار . لكنه يستطرد بأن اندفاعة الكفاح المسلح كانت متهورة

وجنونية . الجنون الذي لابد منه في لحظة استثنائية ليطهر الدمُ فسادَ البشر .

يشرب مهدي جواد فيشعّ الرأس وتشع النجمة في السماء أكثر .

آسيا الآن تبدو كالظلال الراقصة على ساحل السماء الآخر .

شمس أو صرخة يمكن أن توقظ . لكن الأشياء الآن تدخل تحت خط الأفق البحري ، وعلى المدى المعصفر بدم الشمس لايُرَى شيء . سديم مدرع بكلس السماء والغيوم المتكاثفة . سحب متراكمة كالجبال أو الحيتان أو التماسيح .

وتحت خط الأفق يلوح وجه . وجوه . تجلس على كراسٍ وتعترف .

وجوه تنطق باشياء بغيضة قابضة للقلب .

ـ كنت مخطئاً . الآن أنا أعترف بهذا .

ـ أتقول ذلك قانعاً ؟

ـ أقول .

ـ هل توقع وتعلن براءتك ؟

ـ أوقع .

ووقعوا .

هكذا انكسر الزمن .

ـ أنا وآسيا لخضر انكسرنا . هزمتنا الآلهة وخراب الخلايا ودم سي العربي الذي راح هدراً في دروب سوق أهراس . هذى لمهيار .

استفاض الباهلي عن عصوره التنويرية . العصور التي ضاعت بعيداً ولم تضيء هذا الكوكب اللعين المعتم .

ـ الدماء وحدها التي تضيء الآن وماتبقى هو الهراء .

وكان مهدي جواد تحت أمواج النبيذ وحرقة القلب المنكسر ممروراً بأحزان نيازك تلهب الأعصاب ساقطاً تحت وطأة الدمار الهابط مع قطرات الحليب نحو بلازما الكريات ودفق الشرايين .

وقالت آسيا : من أين تأتيك هذه الأشباح الملعونة ؟ فسألها آنذاك إنْ كانت ستخون فضحكت من اهتزازات عقله المضطرب .

كانت على الصخرة البحرية حيث يتناثر الموج وهو يضرب الصخرة قبل أن تغطس في الماء ليشق الصخر رأسها وينبثق الدم فيصرخ . يصرخان في العراء البحري . يجفف دمها النازف ويجري وهو يحملها إلى الطريق العام ثم إلى المستشفى .

وفي غمرة هلام الزمن الراشح بالنبيذ ورعب ماجرى ، نأت المرأة البيضاء العملاقة . المرأة التي اختلط عليها مهدي جواد بسي العربي . كذلك نأت غابات البردي في أهوار الغموكة وجاءت بونه الجميلة الهاجعة تحت الليل الأفريقي . سفينة تائهة على سطح هذا الغمر .

عذبوه بالأسلاك ثم صدموه بالكهرباء ولما لم يعترف نسفوا جمجمته من مسافة متر ثم جروه إلى حفرة بعيدة وطمروه .

ـ لكنه حيّ وسيعود .

والاستحالة تجثم أشباحاً من هلام وضوء وعصافير في خيال الأطفال الذين لم يدركوا سن الموت .

الأرواح تسافر في رحلة طويلة أو قصيرة مثلها مثل الطيور ثم لاتلبث أن تعود في مواسمها . اوه . يا إله السموات والأرض . لماذا لايكون الأمر هكذا إذا كان الله عادلاً وشفوقاً لايحقد على مخلوقاته !

ومع أنها شاهدت الموت يخطو في بونه . رأت الوحش في الشوارع وهو يقذف رصاصه وقنابله فيحصد الأطفال والنساء وطلبة المدارس في أسبوع رحيل الغزاة ثم يعلقهم على الأشجار والجدران والأسطح وأسلاك الكهرباء . رأتهم يتدلون كالعصافير والثياب وفزاعات الحقول ، إلا أنهاظنَّت ذلك كابوساً من كوابيس الطفولة أو السينما .

ـ لا . لا . كفى موتاً . لا أريدك أن تموت . كثيرون ماتوا ولم نحصد غير الألم . الحياة جميلة ياعزيزي ونحن نريد أن نحيا .

ـ بلى . بلى . ينبغي أن نحيا .

وقال حديثنا ياجميلتي عن الحياة العذبة في بلاد ولد الحاج وعسكر بوخروبه وعبيد بن أبي ضبيعة الكلبي .

كانا في بيتها بعد أن رحلت العائلة في تلك الليلة إلى شاطىء شطايبي . ملتصقان ومطوقان كأب وطفلة على جلد خروف في مملكة يزيد ولد الحاج السرية . أمامهما التلفزيون وأصابع قدمه تدغدغ كاحل قدمها وهي تضحك وتتباذأ بالشتائم .

ـ دعنا من السياسة . طيز أم العالم . أنا وأنت هذه هي الحياة .

لقد تركت الابواب الداخلية مفتوحة خوفاً من مداهمة يزيد في لحظة عودة نزقة . ووراءهما فُتِحت النافذة احتساباً للهرب .

ـ كيف دبرتِ الأمر ؟

ـ تذرَّعت بقرب الامتحانات .

كان البيت حميماً . جسد آسيا الممدد على الجلد الصوفي الأبيض يتوهج بالرائحة . رائحة أعشاب بلَّلها الندى في فجر ريفي . ومن الحديقة فاح زهر قداح الليمون .

ـ سنظل يقظين حتى الفجر .

ـ ياللحلم !

اختلاطات لعينة تأتي وتروح ونبيذ مسكرة لا يُسكِر مهيار الباهلي وشاشة الرأس مداهمة بالصور والآيات ومهدي جواد مزعزع في هذه السفينة المؤرجحة لايعرف كيف يتجه ودوار البحر يصدي به والزمن ليس ملكه وهو الذي استوهم يوماً أنه ملكه لحظة جلس على عرش الله وصرخ بالخليفة : كوني معي يوماً . يوماً واحداً فقط .

ومن بداية الخليقة رأى نفسه وحيداً . ويوم ربطوا بالحبال والده السكير إلى جذع شجرة التوت في حظيرة البقر من أول الليل حتى شروق الشمس صرخ بهم : ياأولاد الزواني إن العاصفة لاتربط . سيُحَلّ وثاقي وسترون ما الذي سافعله بكم !

ولم يفعل شيئاً ذا قيمة فيما بعد . ظل يسكر ويضرب زوجته ويحمل بندقيته ويطلق في الليالي قرب أبواب الإقطاعيين والأسياد من رجال الدين ويشتمهم ، وليلة أشعل النيران في بيادر القمح والعدس والحمص وهو يسكر ويقهقه : ياأولاد الانكليز راحت عليكم . يوم القيامة قام وسعدون جواد أتاكم بالنار والخراب . نار الله الموقدة وسعدون رب النار . طاق . طاق . عيري فيكم يانسوان ابن الجوشن ياقَتَلة الحسين . هذا يوم الحساب حساب الذي لن يشفع لكم . طاق . طاق . طاق . خذوا . خذوا ياعبيد المال والفروج .

جاؤوه بالدرك وطوقوه بعد أن نفذ خرطوشه وارتمى على جذع الشجرة مُتَعْتَعاً من الخمر .

سعدون جواد مات فيما بعد وحيداً دون أن يحقق شيئاً ذا معنى سوى حماقاته الشخصية بعد أن تندلع في جوفه ورأسه نيران خمرته وبؤسه اللعينين فيندفع كمنبوذ يطلق ثاراته الرعناء .

كان كارهاً للناس جميعاً . حتى امرأته الجاهلة قذفها بحقده الشيطاني فأذاقها العلقم لأنها لاتفهمه ولا تدرك مدى قدراته اللامحدودة في الوصول إلى النجوم وقيادة الكرة الارضية وإيقافها متى شاء . إنه

يمسكها بيده حتى لا تجنح في أية لحظة فيهوي الكون كله في الجحيم لكنه يشفق على المخلوقات الطيبة والأنيسة كالطيور والحمير والماعز والغزلان والجواميس والذئاب والجياد من أن تهلك لهذا يظل يشد الكرة إلى المركز حتى لاتنهار . يقول ذلك وهو يترنح تحت الوهج الطيفي للذات التي خرجت من ملكوتها الأرضي . تصمت المرأة فيقول هاتي مهدي أنت امرأة حمقاء بضلع قاصر ولا تفقهين شيئاً من كلمات الآلهة . هاتي ذلك الملعون المولود من ضلعي لا من ضلعك . وحده الذي يفهم ماذا يقوله سعدون . أنا مجنون ! هكذا تفكرين أكيد أيتها المعتوهة . ولكن كيف . قولي . كيف اصطدمْتُ بك ؟ من أين أتيت واعترضت طريقي ؟ قولي . هاتيه وإلا قطعت رأسك بهذه المدية تصرخ المرأة وتولول فيقهقه سعدون جواد في الليل الأصمّ لأنه أخاف المرأة .

يبدو للمرأة الطيبة رجلاً مخيفاً ترتعد المخلوقات منه وتتفكك حتى تبول تحتها .

لكن مهيار الباهلي هذا الشبيه بأم مهدي جواد لايريد أن يسكر في هذه الليلة وفلّة بو عنّاب أهانته في رجولته ليلة العادة السرية . رأى فرجها يبكي ثم يضحك ثم يغني ثم يصرخ باللذة أما هو فبكى شوقاً إلى أرض بعيدة كالنجم . أرض من الرخام والغيم وأزهار اللوتس تتفتح في الغسق . ومهدي جواد بن سعدون جواد كان صغيراً ووحيداً ويرتجف من التجديفات والطقوس المُلْغِزَة التي يقوم بها أبوه . قال له أنت لن تكون ابني إذا ما اعترفت يوماً بأمومة هذه الأم اللعينة والغبيّة . أنت ابن سعدون يعني ابن الذئاب . كان يرتعد في حضرته وهو يتخيله مجنوناً سيقتله . وكانت السكين على مرمى ذراعه . وقال له عندما تكبر تذكّر أنهم أهانوني وساطوني وعليك أن تثأر منهم . إذا لم تثأر ستأتي روحي وتحوم حولك وتخنقك . ربطوني ، أولاد العواهر في الحظيرة إلى الشجرة وجاؤوا بالدرك وضربوني ثم أحرقوا البيت لأنني أحرقت محاصيلهم ثم طردوني من البلد . تذكر كل كلمة أقولها لك الآن . أنت ابن الطبيعة والوحش وهذه البندقية والسكين ميراثك فلا تغفر لأحد . أتسمع ؟ اقترب منه نفر الصبي فأمسك به بقوة ورفعه إلى أعلى وصرخ : أنت جزء من الصخر والشجر وصوت ذئاب البرّ . لن أورثك شيئاً لأن حياتك ستنمو في العواصف . أتفهم ما هي العواصف أيها الكلب الصغير ؟ لابد أن تكون قوياً أيها الجميل . كان يضمه بحنان أبوي شغوف ثم يداعبه ويرميه على

الأرض فيتشقلبان كطفلين . الأب يضحك والطفل يضحك والأم فاغرة فاها لاتصدق هذا الجنون : ستضربهم بلا رحمة . هيا اضربني . وبخوف يضرب الولد أباه . اضرب أكثر وأشدّ اضرب بألم وقوة . ويضربه على جبهته بقوة . آي . آي . يا ابن الكلبة . اوجعتني . هكذا ساضربهم يقول الطفل ويضحكان بغرغرات صاخبة . ممراعة في ليل غريب ، ساحر ، مجنون .

* * *

تجذبه آسيا من شعره فيلتقي بصراهما : أنت لي . هاه . عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة .

ويضحك . أنفها الكبير المفلطح يواجهه . يقرص أنفها : لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .

- هو من صنع ربي . لماذا تسخر منه ؟

- لابد أن ربك فنان فاشل إذن !

ومنذ لحظات دخل مهيار . جسد نحيل ووجه حادّ ومحروق ومقطب . موج من الأعصاب المتوترة كسهام قيد الاطلاق . في عينيه انحرار من لاتهبّ الرياح بمشيئة سفنه .

ارتمى على السرير شابكاً أصابعه تحت رأسه . كان يخترق السقف ببصره المشعّ .

- ماذا يقول العَراف الأعظم ؟

لاهو أجاب ولا مهدي جواد اهتم بالمتابعة .

يرتفع الحياد أكثر . بدا الباهلي عازفاً عن قبول العالم والاندماج فيه في هذه اللحظة . ومهدي جواد ملفوح الآن برياح ملعونة لاتحمل غير روائح الموت . لقد اقبلت آسيا الأخضر في العصور المندحرة ، وها هي ذي تغرب أسيرة هذه العصور . كغيرها تجتاحها الرياح السوداء . تخطف روحها البيضاء البروق السحرية التي تشق الأبناء عن الآباء ، والزوجات عن الأزواج ، والرفاق عن رفاقهم ، والبحر عن شواطئه .

ولكن لماذا خلعت هذه الأرض الملعونة غزاتها الخارجين ليغطي جلدها الغزاة الداخليون ؟ ها هو العنكبوت الدموي يتموَّج من مشارق الأرض إلى مغاربها وقد غطى الشمس . يطاردك في الليل والنهار وفي جميع الأماكن . بنسج خيوطه اللزجة فارزاً سمّه فوق الأعشاب وعلى وجه البحار وداخل النطفة البيضاء وبين الشفة والشفة .

وكان أن ابتدأ الباهلي أراجيفه . الذكريات والتحليلات وأحلام العظمة ووهم قيادة التاريخ ، خرجت من سقف التأمل وكهوف الكتب المتراصة في أدراج تلافيف دماغه . وتحت هدأة الليل الذي يتقدم ارتفعت صرخة : نحن لسنا شيئاً في هذا الوقت اللعين . أحد منا لم يكن ما ينبغي أن يكون . لم يستطع أن يكون ما ينبغي . لماذا لاتكف عن هذه الحماقات !

انتبه مهيار للصرخة . رفع جسده الممدد فتدلّت قدماه على حافة السرير .

ـ ما الذي تريد إثباته ؟

ـ ألا ترى أشباح العنكبوت ! لماذا لاتستطيع أن ترى الارض ؟

على سرير البحر العشبي ، والمحيط يمتد أمامهما ، سألت آسيا الأخضر : أتقبلني صديقة عمر ؟

وقال : آه . لو أن القلب لم يمت بموت الأصدقاء !

وقالت : لكن الحب العميق مطر يحيي موات العشب .

ثم قالت : نحن الجزائريين مازلنا أطفالا . لقد ولدنا بعد موت الاستعمار ونريد أن نصخب بحرية الأطفال .

ـ في المشرق نحن عجائز في سن الأطفال .

ـ كيف ؟

ـ يولد الطفل ثم يحبو ليخرج إلى النور فيفاجأ بجندي يحرس الأبواب .

شارع مصطفى بن بولعيد هامد . فسيح وخالٍ إلا من أشجار الدردار وظلال الضوء .

كانت الغرفة تبحر الآن تحت مطر النبيذ الأرجواني ، وبين قطرات المطر سمع أصوات الطيور . أصوات حادة وجريحة . كذلك كانت هناك أصوات الرصاص ، وأصوات الرجال الذين طفوا على سطح الغمر وعلى وجوه الشوارع . وجاء صوت آسيا لخضر الضارع . الصوت التائه بين الفرنسي والأب القتيل ومهدي جواد .

وتحت الضوء لمعت زجاجات الخمر والكؤوس وسكين .

شيء كريه كان هناك . كريه ومقزّز .

وبدا مفصولا عن العالم المحيط . وجه مهيار الصلب كحافة جرف ، ظهر له كوجه فأر مبلل . أكان يبكي أم يدفع أشباح الإهانة ؟

ولكن من أين أقبل هذا العجز ؟ هذا العار وهذا الطّرح ؟

بعد جرعة نبيذ حارقة ، أصيب طائر أبيض بطلقة .

وعلى سطح مياه بحر بونه رأى امرأة جوفاء ، مقتولة .

قال الرجل المخمور : ليست آسيا لخضر بالمرأة التي يراهن عليها لا في هذا الزمن ولا في أي زمن . نحن الموت . الآن نحن الموت .

واحد منهما كان يبكي . وقال واحد للآخر : الزمن غادر والقلب غادر وسيخون أحدنا الآخر . سيتركه ويرحل إلى آخر .

وقال أحدهما : نحن نعشق والآخرون يتزوجون عشيقاتنا . الحب الأول مرصود لطحالب البحر .

وقال الآخر : سيمزقنا الزمن . طريقنا هالكة وبيننا برزخ .

ـ إنك تخوض حرب الإتلاف والذي تفعله له اسم واحد : الانجراف نحو الهاوية .

كان مهيار الباهلي يتحدث الآن من شرفة صحوه بنقاء طهري .

لقد سجى الليل الرحماني فوق هضاب بونه . يزيد ولد الحاج معتكف الآن في جسد لالا فضيلة يسبح لجلاله المزدهر . وهما في الغمرة . آسيا ومهدي بين العري والموت يحتفلان بليلة سرقتها آسيا من رقابة يزيد التي تطاردهما عبر شوارع المدينة .

ـ هذا حلمي . مذ تعارفنا وأنا أحلم أن ننام معاً هنا في بيتنا . لا أدري لماذا صرت أشعر وكأن هذا البيت لنا . قلبي ينقبض عندما تخرج بعد انتهاء الدرس . وأنا أودعك على العتبة أرغب لو أمسك بك لأعيدك . ألا تشعر بأنه صار بيتك ؟

ثم يأتي صوت البحر .

ويقول صوت مهيار : إننا ننفق في المنفى ونهلك .

بهدوء تمتد أصابع مهدي وتلتقط السكين .

الباهلي يدخن ويسمع موسيقى ويحلم بثورة جديدة يقودها من أهوار العراق إلى جبال الأطلس .

وعلى مهل يوجه مهدي جواد رأس النصل نحو الشريان . يضغط بهدوء ثم بقوة فينبثق الدم .

قطرات الدم تتساقط على السطح الزهري لغطاء الطاولة . الألم يمتزج باللذة . يرسم الخيط الرفيع القاني : آسيا لخضر فتاة حمقاء .

ثم يرسم : ومهيار الباهلي رجل مريض مسكون بأوهام النصر .

بلذة كان يُصَاعِد لعبة النار . لقد انفتح الجرح أكثر وتدفق الدم

بهدوء أشعل لفافة وراح يلهب الجرح بوهج السيجارة . وامتزج الدم بالرماد فتخثر وداخل الخثار الصديدي رأى حبيبات العار والقصور . ورأى كلاباً تلتهم رؤوس اطفال ، ثم رأى سجوناً وثقوب صدور فتحها الرصاص ، ورأى العراق محمولا على محفة يغني ويبكي ويترنح في قبضة ابن أبي ضبيعة .

وأقبلت أصوات وصور وشظايا شهب . تشتعل ثم تنطفىء فوق بحر أحمر . فجأة وبكل ماأوتي من طاقة ، غرس رأس اللفافة المتوهج في عمق الجرح .

الصيحة التي دوّت خارقة الجدران وعراء الليل ، أيقظت مهيار الباهلي . صيحة الوحش الذي تلقى طعنة : آه . أيها الاحمق ما الذي صنعت ؟ !

وكان أن التفّ مهدي جواد الجريح برايات سود ، ثم هوى في أعماق تلك الليلة الليلاء .

- 7 -

وفي تلك الليلة قبل أن تأتي ضربة الجرح سهرا حتى الفجر .

وبعد منتصف الليل نسيا العالم الخارجي وأمنا مباغتة يزيد ولد الحاج . البيت بكل اتساعه ودفئه كان لهما . حتى الصباح وهما ملتفان كالأغصان والجذور وجهاً لوجه وصدراً لصدر وذراعين لذراعين تحت الفرح الطفولي العاري والنشوة التي رفعتهما عالياً نحو السماء الزرقاء والينابيع الزرقاء داخل موج من الشهوة والدوار المميت الذي يرفع نبض القلب حتى بوابة الموت إذ يبدأ انحسار الموج والصوت الخافت لهسيس البحر وهو يدغدغ الرمل الناعم لينام تحت أيك من الأزهار وهي تهمي فوق جسديهما وتغطيهما بتلك البرودة المخملية الناعمة .

سيتذكر ذلك وأشياء أخرى بين الهذيان والصحو في سرير من أسرَّة مستشفى الرازي القائم على التلال الخضراء الجنوبية القريبة من جبل سرايدي . وفيما مضى . في زمن بعيد جداً كان للأشياء معنى . الحماسة وهيجان الجسد والهرطقات الأبوية وصرخات الحزب وطفولة الطبيعة . كلها كانت تهبّ في المسامّ وداخل الأضلاع شوقاً لامتلاك العالم . إمكانية أن يكون العالم بين راحتيك وتحت وهج عينيك وفي تدفق الجسد . والآن تحت هذا السقف الأبيض . هبوط الأشياء واختلال العالم .

سرير أبيض وروائح ادوية . حموضة في الهواء وممرضات يتحركن بثياب بيضاء .

ما الذي أتى به إلى هنا ؟ يتحرك فيشعر بوخزة ألم في الذراع اليسرى . تقول الممرضة : انتبه لذراعك خلال الحركة .

اوه . ياللحماقة !

جسد مجوَّف . مُرمى كطَوْف على سطح بحر . صمت أبيض يُرى في عيني الممرضة التي تقترب حاملة الضمادات . وهي تنزع الضماد القديم سألها عما جرى فقالت بين الجرح والشريان مسافة ميلمتر . وسألته إن كان يشعر بتحسن فهزّ رأسه بانكسار وهو يتأمل اسمرار وجهها وأصابعها .

وقالت وهي تغير الضماد : عليك أن تأكل . المصل لايكفي . وبدت عيناها في لون شهد العسل . ولأنه كان واقعاً تحت سطوة الحس بالذنب ؟ اعتقد بأن الممرضة تريد أن تقول شيئاً آخر من نوع : لماذا فعلت ذلك ؟ لكنها اكتفت بعد تضميده بسؤال بارد : هل تريد شيئاً ؟ ثم خرجت .

الطبيب هو الذي سأله فيما بعد . وعندما أجاب بأنها حالة خاصة ، قال الطبيب شيئاً عن حالات المثقفين وحساسيتهم والتعقيدات التي تخلقها الحياة المعاصرة . وأضاف : بالنسبة للجزائريين الانتحار حالة شائعة . هناك الطبع الحادّ ، والدم الحارّ ، والظروف الحياتية الصعبة . ثم استطرد : لكنهم هنا يواجهون الموت بعنف رغم شَغَفهم بالحياة ونادراً ما ينجون .

وأمام الطبيب بدا كمذنب في قفص اتهام . كان صغيراً في مواجهة الرجل المتماسك والمتوازن مع العالم .

كم كان عارياً ، مبللاً بالندم ! هو الذي كان يكابر أبداً ، ويستتر وراء المتاريس ، مقنَّعاً بجلدة وجه صلب ، متحفزاً ومحصّناً ضد الحماقات .

لقد عاش حتى الآن في مركز العواصف ، وها هي ذي امرأة تهزمه . تكسر الجدران وتباغته ، فتصل طعنتها حدود الشرايين . ولكن هل المرأة كانت السبب ؟

ومرَّت عبر الطيوف الآلام المتراكمة . الانكسارات والضربات التي تتالت . وتذكر جذوع النخل التي تتقشر وتنحلّ من الاسفل تحت رياح الطبيعة . حلقات أضلاعها تظل صامدة حاملة السعف والعذق إلى أن ينخر الجوف وتتفتت الخيوط الداخلية .

ليس مسموحاً لك أن تنهار . على الثوري أن يظل باسقاً كشجر النخيل . نهوضك يساوي نهوض العالم . وحدهم البورجوازيون يقعون فرائس نزعاتهم الذاتية . آه . آه . الوصايا العشر القديمة .

لقد جاءت الحمّى . الغرفة ضيقة ومبتلة تسبح بالأشعة والعرق . وها هي موجات الحرارة ترخي ثقلاً وكآبة فوق الأشياء الخارجية .

كطُفيل آميبي انتقل الثقل والرماد إلى الدماغ ، فابتدأت الأشياء تترنح . تحت هذا البياض الموحي بمدافن وشواهد قبور وجدران ثقيلة بيضاء ، رسا كجسم ربط بكتلة ثقيلة وراح يغوص في محيط لاقرار له .

وماكان مدركاً أين هو ولماذا هو هنا . لا بد أن أموراً كثيرة التبست منذ زمن . مذ خرج كنيزك من مداره وفقد مركز الجاذبية .

شيء ما في الاساس العميق فقد توازنه .

وهو يهوي تذكر أنها حدَّثته عن الرجل الذي تحلم به ، وعن البيت الذي ترغبه والطفل الذي تشتهي ولادته .

رجل طويل ، ديناميكي ، جماله عادي ، لكنه قوي أمام الصعاب .

وأضاف هو : وعيناه بلون البحر وشعره بلون حقول القمح الناضجة . وعندما سألت باستغراب : لماذا ؟

قال باسماً : الانسجام الداخلي .

وقالت : المهم أن يحترم المرأة وحريتها . وتابعت مستطردة : الجزائري فظّ والمرأة في مرآته حشرة أما الفرنسي فناعم وهشّ أكثر مما ينبغي رغم الجمال الظاهري . ليست الصورة مركزة في رأسي تماماً . أحياناً كنت أراه عبر أكثر من شكل . هل ستضحك لو قلت لك أنني حاولت تشكيله مرة من عجينة لدائن الرسم في المدرسة ، وعندما سألتني المدرِّسة عما أصنع ، قلت : أنني أرسم حصاناً أشهب . وبغتة سألت : ولكن قل لي لماذا يفترق فتى وفتاة بعد حبّ عاصف ؟

وضحك : أحدهما يموت !

ـ لا . لا . في الحياة وهما أحياء لماذا يفترقان ؟

ـ آ . في الحياة . لماذا تموت الأعشاب هل سألت نفسك يوماً ؟

ـ أنت . قل لي . هل أحببت ؟

بعد أن سجى الليل تحت سحر بونه المطوَّق لشغاف القلب ، أقبل من المدى الشرقي موج يحمل رائحة عبقة للوطن . على ذرا الموج لمعت أعشاب القلب التي ماتت .

قطار طويل يتأهب . زحمة وحشد في محطة القطار . مودعون وجلبة وبحث عن مقاعد السفر في المقطورات . داخل هذه الفوضى يضيع رجل وامرأة كانا معاً قبل لحظات .

يرحل القطار ويسدّ الأفق .

أفق مظلل بالضباب والليل ووراءه نجم يشعّ .

في رحلة النهر كان هناك زورقان ينقلان الرحلة . على سطح أحدهما يتعارف رجل وامرأة لأول مرة .

حديقة شط العرب مطوّقة بالماء . ثمة اخضرار ندي على امتداد الفرح . فوق العشب المبتل يخطو الرجل والمرأة معاً .

بعد أن افترقا في محطة القطار ، ها هما يشهقان لمفاجأة اللقاء في صالة الفندق .

الأشياء تتشكل ثم تنمو كما في شريط سينمائي ، غير أن الواقع أكثر عمقاً وأكثر خصوبة ، لكنه أشد فاجعية .

خصوبة الحياة ثم عمق المفاجأة التي تأتي كصعقة الموت .

وهما الآن يخطوان فوق الغبار . غبار المدينة التي كان اسمها بابل . المدينة المرممّة والتي تبدو الآن كمومياء .

تمثال الثور الهاجم والمرأة المضطجعة يشير إلى انتصار بابل على آشور التي تغتصب . تشير الفتاة إلى تمثال البازلت الأسود إشارة جنسية عابرة . وينحدران بين الغبار .

لم يبق من بابل غير الأنقاض وهذا الغبار والصلصال المرمّم . وهما يعبران الأنقاض يسمعان صوت يمام ينوح . تقول الفتاة : اليمامة تنوح حبيبها المفقود . ثم تروي قصة عاشقين من بابل القديمة . العاشق الذي أخذته الحرب والعاشقة التي تموت حزناً وحنيناً بانتظار الفارس الذي لايعود . يستلقيان على العشب تحت شجرة نخيل . الوقت أصيل ، والظلال تسيل على وجه في لون العسل . شعر أسود كثيف كدغلة ، وعينان تلمعان بوميض غريب ، خاطف للقلب . وهي تتكلم تتكثف . من وجهها يشع بريق يضيء : تاريخ العراق هو تاريخ الفقدان . تقول المرأة .

ويقول : مختلطاً بالدم .

ـ تشعر وكأن الطبيعة تبكي مع الانسان .

ـ لكأن الانسان في مسرح اغريقي .

امرأة غريبة تنضح حناناً وشوقاً إلى زمن قديم . مع الحنان ينصهر

ذكاء ساطع . المرأة التي صدمته في ذلك الزمن السحيق . ناعمة كشفافية الأصيل ، إنما جارحة لكأنما ولدت من زواج المساء مع رمل الصحراء .

تلك المرأة التي غابت كشمس لن تشرق .

ـ أنت من بغداد ؟

ـ وأنت بصراوي !

ـ من الحلة . ماذا تدرسين في الجامعة ؟

ـ صحافة .

وفي جامعة البصرة كانت الجلبة والضوضاء يثيرها الشعراء بأشعارهم وكلماتهم التي ترنّ كأوعية نحاس تتصادم . المرأة والرجل يغادران الضوضاء نحو الحديقة والممرات المشجرة .

يستلقيان على العشب تحت حرارة الضحى . متواجهان . العيون ورَجَفان الأرض والجسد . يسألها : ما الذي يقولونه الآن عنّا هناك ؟ تقلب المرأة شفتيها استخفافاً : عشاق ! طظ . ويضحكان عالياً .

إنها تقول الأشياء بمباشرة وحياد وإذ يتحدث عن العالم البدائي والبدو الذين يتزيُون بالثياب العصرية والسيارات والديكورات المنازل ويحكون عن التقدم تقول بأنها تعرف كيف تضع قدميها خارج مضاربهم .

ـ هل سقطت آلهتم عن شجرتك ؟

تضحك . المرأة الغريبة القادمة من سحب أخرى تضحك وهي تتدحرج بين الحشائش ثم تستلقي على ظهرها تحت السماء العارية .

ثوبها الوردي منحسر وفخذاها العاريان واللامعان يضيئان تحت الشمس . بغتة تصمت بينما عيناها ترفرفان كجناحي عصفور ويداها الممرعتان تداعبان ذؤابات العشب .

ـ ما الذي أثارك ؟

تقول : تخيلت الآلهة بلحاً في زمن القطاف وهي تهوي من السماء وأنا أتلقاها في راحتي .

ثم تستطرد : أشعل لي لفافة . تقول : في طفولتي كان أبي يتحدث عن الأولياء الذين يصعدون إلى السماء بعد موتهم وكيف يستقبلهم الله مرحباً في الجنة مهيئاً لكل منهم سريراً مريحاً وخدماً وملائكة وحوريات ليظلوا سعداء . كنت أتخيل السماء شجرة والله هو القمر والنجوم

والكواكب أولياء وملائكة الله .

عندما اندفع القطار داخل كتلة الليل واجه الرجل وحدته في مقصورة . بغتة اختفت فتاة بابل في هذا الزحام والهرج والدوار الأبله لكأنها حلم عذب في ليلة صيف . ومن النافذة كانت السهب ومستنقعات الهور والنجوم تركض كقطعان وطيور .شيء ما افتُقِد وداهمته الوحدة والحزن والاستيحاش والرعشة الباردة للّيل .

أكثر أيضاً اندفع القطار طائراً فهجمت دفقات الريح . دخلت صدره وانفجرت حنيناً . شوق لافح ، حنون ، عذب يجرح حواف القلب .

هناك في مكان حساس من الجسد شفرة مرهفة تحزّ على مهل الجلد واللحم والعظم ، والدم يصعد . يتنهَّد ويشهق وهو يضغط حديد النافذة والريح تواصل دفقاتها على شكل موجات ساحرة وحريرية لكنها كالمدية وهي تتغلغل إلى الأعماق .

ماكانت هنا المرأة العَسَلية التي فقدها في محطة القطار . قالت ذلك آخر دفقة ريح .

ورأى أنه يندفع عبر ممرات القطار صارخاً صرخات صامتة كانت تصطدم بالحنجرة وسقف الحلق وقبة الرأس وصفيح القطار . كمجنون أصابه مسّ ، أو كأبله راح يجري من مقطورة إلى أخرى ومن مقصورة إلى مقصورة وهو يدق الأبواب ويسأل وينتظر ، وكانت الأسئلة تتلاشى مع الصرخات البلهاء والأصداء التي تدور وتتصادم بالصفيح ووجوه الناس المندهشين . حتى منتصف الليل وهو يعدو ويدور في الممرات بحثاً عن الحلم الطائر الذي هبط عليه ذات ضحى في حدائق بابل الغبُارية .

لم يكن هناك من أحد سوى رحلة قطار ووهم رجل رأى شبحاً في غبار بابل القديمة تزيا له بزي امرأة لا اسم لها ولا تاريخ ، ثم غاب تحت وطأة هذه الحمّى المضلية التي تلهب الدماغ قاذفة بسفينة الزمن الضائع من بحر بونه إلى بحر البصرة على متن أمواج بحّار مصاب باختلاطات الذاكرة ودوار البحر واختلاطات المدن والنساء وتمزّع الأشياء وهي تتناثر في هذه الهدأة عبر كل اتجاه .

الأهـــوار

KMH

خالد أحمد زكي .

مذ دخل العراق سراً قادماً من لندن حيث كان عضواً في مؤسسة برتراند راسل للدفاع عن المعتقلين في العراق ، توجّست القيادة اليمينية من هذا الغيفاري المتهور الملتاث بأفكار اليسار الأوروبي الجديد ومغامرات التوباماروس وحروب عصابات أميركا اللاتينية .

رجل رقيق ، عذب ، نحيل الجسم ، وأنت تراه لأول وهلة يتماثل لك في الذهن أميراً رومانسياً من أمراء ويلز أو أسبانيا القديمة ، وإذ يضحك ترى خجله الأنثوي يصعد كالورد إلى وجنتيه البيضاوين . هذا الطفل الرقيق العاشق .

ما الذي أتى به من شوارع لندن وضبابها في هذا الوقت الغريب ! يسأل مهيار الباهلي نفسه ، لكنه إذ يلمح الوجه الآخر للطفل يدرك أن الشكل قد يفترق عن المعنى ، وأنه يدرس جيداً خلال معرفته به التفاصيل الدقيقة لما وراء قشرة الجلد البيضاء .

في أعماق الفرات الأوسط ، وهما يعبران المستنقعات والوحل والتعب وإيقاعات الرعب ، سيدرك مهيار الباهلي ما الذي حدا بهذا الفتى الرقيق الرومانسي للقدوم إلى مملكة الموت الوحيدة هنا .

سيضعه في حضنه وصدره مثقوب بالرصاص والدم يتخثر مع الوحل وسيناديه لينهض ، وفي أعماق روحه ندم عميق لما بدر منه يوم اختلف معه واتهمه بالتخاذل وأنه كان ضد مواجهة الموت الانتحاري .

بوعي رجل ثوري عاش التجربة الهزيلة للخط السلمي الديمقراطي التي أودت بالحزب إلى الكارثة ، سيقدم وثيقته النظرية التي تؤكد على

ضرورة استبدال التهريج السياسي بالكفاح المسلح والانطلاق من الأهوار ، كما سيدعو القيادة السياسية لأن تكون طليعة هذا الكفاح . ثم يحدد في الوثيقة كيفية العمل والاعتماد على الريف دون إهمال المدن ، مشيراً إلى ضرورة وحدة الفصائل التقدمية الأخرى وإشراكها في العمل المسلح ، والانتباه إلى الثورة الكردية في الشمال بالاستناد اليها كجدار .

وخلال التفاصيل ركّز على ضرورة تكييف قواعد الحزب لتكون جاهزة للمعركة دون نسيان الجنود والعناصر الوطنية في الجيش . وعندما استشهد بمقولة لينين : لايمكن للبروليتاريا أن تقيم سلطتها وتقهر البورجوازية إلا بالعنف المسلح . كان يعتقد أنه يخطو في الاتجاه الصائب ولو بعد فوات الوان .

وفي تلك الحقبة الفاصلة ، المفلتة من عقال الزمن ، حيث كان على البشر أن يعبروا أطواراً أخرى أكثر نمواً وصعوداً كما تراءى الأمر في مرآة خالد أحمد زكي وتخطيطاته الرومانسية العذبة والاقتحامية ، كانت البلاد والأزمنة تدخل حقول فوضاها وتواطؤاتها والانحدار المتواصل إلى الهاوية .

ويومذاك ارتفعت أصوات قيادة اليمين تروي بتعقل براغماتي أهمية التحالف مع الديمقراطية الثورية التي استولت على السلطة بانقلاب عسكري جديد . لقد قادها تحليلها العبقري المطعَّم والمشمول بالهداية الأبوية الخروتشوفية إلى المطالبة بحل الحزب والانخراط في حزب السلطة لتخريبه وتثويره من الداخل بخميرة البروليتاريا الماركسية .

- اوه . اوه . ياللعبقرية الخارقة !

هكذا صرخ خالد أحمد زكي في اجتماع لجنة منطقية بغداد .

واستطرد لنفسه إنهم يأخذوننا إلى مقصلة جديدة هؤلاء المناشفة .

بهدوء يشرح الرجل التجربة القديمة الفاشلة مع الزعيم ، وكيف راهنّا عليه فإذا دمنا هو الثمن عندما جرد المقاومة الشعبية والحزب من السلاح ووضعه تحت تصرف الشرطة والاستخبارات العسكرية ثم بدأت المجزرة والحزب أعزل فَذَبَحنا .

- إلى متى هذا الرهان الأحمق على حصان عسكري أعرج ؟

يومها اكتشفه مهيار الباهلي . اكتشف الوجه الآخر للطفل الهادئ . ويومها سأل نفسه كيف يحمل الانسان في داخله قلب طفل وصرخة نمر !

لا بد أنه كان مجنوناً أو مصقولاً بحلم شمسي ، وعلى مؤشر هذه

البوصلة كان يتقدم في حقل ألغام عل كتفه بندقية وفوق جسده كَفَن أبيض .

فيما بعد سيقول عنه أحد أصدقائه الانكليز بعد أن سمع بغيابه الطويل : كان خالد مزيجاً من غيفارا ودانتون . ما كان مجرد انسان ثوري ، نادر وعظيم ، لكنه كان حميماً وقريباً من كل انسان يعرفه . كان واضحاً ، وهو في لندن ، أنه يعدّ نفسه للقيام بأعمال عظيمة لا كفرد إنما كإنسان جماهيري يحب شعبه حتى الاستشهاد .

وهكذا إلى جانب وثيقة الكفاح المسلح التي قدمها للقيادة بدأ مع تيار الكادر اللينيني حرباً لاهوادة فيها ضد العقل اليميني والانتهازي ، فردّ على المغامرين من جماعة بغداد الذين يهجسون بانقلاب عسكري ثوري وأنه مبادرة بالثورة وليس الثورة ، بأن المعركة لن تنهي في حال نجاح الضربة الانقلابية في العاصمة . فالحزب لايقوم بانقلاب فوقي لتغيير شكل السلطة بل يقوم بثورة اجتماعية . وأبداً كان يسعفه لينين وهو يتحدث عن الحرب الأهلية : إن مدرسة الحرب الأهلية لاتذهب سدى بالنسبة للشعوب ، إنها لمدرسة رهيبة حقاً قد ينطوي منهجها وانكسارها على انتصارات لأعداء الثورة ، وتنكيل السلطة القديمة بالثائرين ، إنما لاينوح على دخول الشعوب هذه المدرسة الرهيبة غير المتحذلقين والانتهازيين والمنحطين الذين فقدوا الرشد . إن مدرسة الحرب الأهلية تعلم الطبقات المظلومة شن الحرب الثورية كما تعلمها كيف تظفر بثورتها في النهاية .

* * *

من خط الأفق إلى منتصف السماء ، كان هناك غشاء قاتم . وتحت هذا الغشاء كانت نجوم شاحبة لا يراها العابر على الأرض التي غرقت في الليل .

لكنه كان يرى النجوم لامعة في ذلك الزمن كما كان يسمع اصطخاب الموج وهو يسير مع مهيار الباهلي في أزقة بغداد المعتمة . ومن قلب الأهوار كان يتراءى الشعاع الوحيد والأخير الذي ينير هذه الظلمة ليضع لها قانوناً جديداً سيسمى فيما بعد بقانون الضوء الفيتنامي أو الكوبي أو قانون البراري والحرب .

هناك كانت تستعاد الأشياء لتعود إلى أصلها الأول ثم تبدأ امتدادها

كالجذور في أعماق الارض .

- أنت تعرف تلك الأقاليم جيداً ويمكن أن نبدأ من هناك .

يقول الباهلي .

ويقول مهيار : الحزب . أعني نحن لسنا غرباء في الهور .

- علينا أن نبدأ سراً . كما ترى نحن في مدينة بيزنطة وربك لايعرف متى تحسم هذه الأراجيف .

- اتخذوا قراراً وأنا جاهز . أعني نحن هناك .

- تكوين قاعدة مسلحة يضعهم أمام الأمر الواقع .

- هل هذا انشقاق ؟

- لا . انعطاف . انتقال من المماحكة إلى الفعل النوعي . ستُقال الأمور فيما بعد على نحو مختلف عما مضى . وستبدأ الهواجس ، التي بدأت في فترة ما وكأنها نوازع رومانسية وانفعالية ، طريقها إلى التنفيذ .

ففي المداولات الحامية مع القيادة التي تشرذمت إلى قيادة تيارات والتي سيسطع قسم منها ليضلع في الدمار الشامل للحزب والوطن بينما سيموت ويُنفى قسم آخر ، كانت تدور خلف الكواليس وفي الاجتماعات السرية والثنائية ، كيفية تشكيل بؤرة قتالية في أعماق الهور لإنقاذ مايمكن إنقاذه في هذه اللحظة الحرجة .

كان يقول للباهلي : اسمع يامهيار . إنها اللحظة الحاسمة . هي معركتنا قبل أي شيء . موت أو حياة تلك هي المسألة الآن .

ويرد الرجل الحالم باستعادة ثورة علي بن محمد ضد الخلافة العباسية بأنه ابن الأهوار وهناك تجربة فاشلة يمكن الاستفادة من أخطائها .

كان مهيار يشير إلى تجربة أمين خيون وبؤرته الثورية بعد أن قاوم القوميين ببسالة لمدة ستة أيام خسر فيها الشوعيون أكثر من خمسمئة مناضل في قتال الشوارع والإعدامات في الكاظمية بعد انقلاب ال 63، ثم بعد فشله هرب إلى أهوار الجنوب وشكل بؤرة في الجبايش مع عشرة أنفار من المجانين الثوريين الذين نجوا من المذبحة .

- معقول جداً . معقول . إنما لابد من التحاور مع جماعة وحدة اليسار في الأمر .

- إنها مملكة أمين خيون التي اكتشفها .

- مملكة الحزب أولاً وأخيراً . نحن تيارات ولا نرغب في الانشقاق الآن . بعد إعلان الكفاح المسلح نطرح الأمر كالتالي : من مع القتال ومَن ضده وعلى ضوء ذلك يحدث الانشقاق أو تبقى وحدة الحزب .

- أنا أعتقد أننا حزبان دون أن يُعلن ذلك إن لم أقل ثلاثة .

في تلك الأثناء كان خط الكفاح المسلح والقتال ضد سلطة الدولة التي جاءت بانقلاب جديد وجنرال جديد ، قد شكّل مجموعة سرية سُميّت بخط حسين تحولت إلى خط هاشم فيما بعد وكان خالد أحمد زكي عضواً بارزاً داخل هذا الفصيل القتالي تحت اسم حركي : ظافر .

ومع أن الزمن آنذاك كان زمانين والبشر داهمتهم صاعقة فانقسموا ثم تاهوا كالقطعان المفاجأة بالذئاب ، إلا أن خالد الممتلئة خلاياه بأشعة الحلم وأساطير جده القديم عن المهدي المنتظر وعودته قبل عام الألفين قادماً من عين الشمس ، شاهراً سيف العدل والمساواة والحب بعد انتشار الجور والفساد والجوع ، سيرى أن هذه اللحظة يمكن اصطيادها بسيف المهدي الشيوعي .

غير أن شيئاً آخر أكثر رسوخاً في الزمن كان مايزال يتراءى له أحياناً وهو نائم في سريره المتواضع في بيت مهيار الباهلي .

كان ذلك يأتيه على شكل سؤال ملح : كيف تزلزل قناعات آلاف الأعوام الراسخة في الدم كالجراثيم ؟ ثم يتحول السؤال بعد الدخول من عتبة النوم إلى أشكال وصور وتوهجات تختلط بين أطياف الوعي واللاوعي .

بين تلك الاختلاطات كان يرى نفسه أحياناً في صحراء مديدة ، مرة عامرة بالماء وتارة مفروشة بأشعة الشمس ، ومرة مرصوفة ببلاط أبيض كالثلج ، وهو يسير كمن يخطو في الهواء مرة حافي القدمين ومرة بلا سترة تقي العورة فيضطر إلى وضع كفيه فوق عانته ، لكنه لايلبث أن يرى بشراً مدّ الأفق تصرخ وتهلل في الشرفات وداخل أزقة المدينة وفي السحب المدلاّة : ها . هي . هيها . هاهي . هيها . ولم تكن هي الكلمات تماماً لكنه كان يتصور أنها تماثلها . إنه يسمع الصدى يدوي كالاعصار وهو يكتسح الكون .

وكان يبدو أن هذه الأصوات جاءت من أقاليم بعيدة لتحيي أعياداً وطقوساً خاصة بها لها علاقة بالموت أو الحياة ، إنها لتدور في بياضها

هازجة بالأصوات والمدى المبرقة وهو بعيد عنها ، وعندما يقف رجل مقابل الصحراء وكأنه على مسرح ، يصاب الناس بالذهول والخشية منه . رجل أسود اللباس بوجه عنكبوت يتقلَّد سلاحاً غريباً وعلى رأسه خوذة من الفولاذ .

يسكت الهرج ويبتدىء الركوع وحثو التراب والتكبير في اللحظة التي يرفع فيها العنكبوت الأسود صوته : أيها العباد الصالحون . أيها الورثة الأوفياء .

وهو يحاول أن يتقدم من الحشد يشعر بخيوط العناكب الدبقة تمنعه . وحده يسمع صوته وهو يتدحرج عن سطوح إحدى العمارات اللندنية دون أن يدري إلى أين سيودَى به .

وقبل ذلك كان يعتقد أنه قادم إلى حفلة صاخبة سيرقص فيها رقصة جميلة . حفلة أقامها له أحد أصدقائه الانكليز . وفي هذه الحفلة سيفاجأ بامرأة لم يرها من قبل ستقول له كلمات حميمية سيتذكرها فيما بعد وهو يرى الشمس تشرق من ثقوب صدره .

هكذا كانت الأشياء متداخلة في ذلك الزمن ، ملونة بابتهاجات سريالية ولدائن دبقة من المرارة والأمصال والتوهج المنبثق من جذوة تاريخ قديم تراكم الغبار فوقه مع أعوام طويلة من النسيان .

ولأن خالد أحمد زكي ومهيار الباهلي وأمين خيون وابراهيم علاوي ونوري كمال ومظفر النواب ، مع عصبة من الفتية الجامحين المأخوذين بالهجوم على سانتا كلارا وسقوط هافانا بعد مغامرة الغرانما ، كانوا تحت تأثير وهج ذلك النصر الهائل ، اندفعوا بطاقة المغامرة نحو تخومها القصوى في محاولة يائسة وفريدة في تاريخ الشرق الجديد لتدمير طقوس الاستبداد الشرقي وغوائل الجوع والميراث الأسود للزمن القديم . سيقول أو يهجس وهم ضائعون في تلك الصحراء الموحلة مع أحد عشر مقاتلاً فقدوا الاتجاه واحتمالات النجاة ، بأن المغامرة كانت طيفاً جميلاً وملوناً في سماء الرأس لكنها الآن تتحول إلى نيزك يندفع من السماء بقوة الجذب والخذلان ليدخل جلد هذا الصلصال الكامد .

وخلافاً لما سيستنبط المسؤول العسكري عن المجموعة حول الخور والارتباك الذي اعترى ظافر في لحظة المواجهة وانتصاب الموت ، كان هو فريسة حالة غريبة من الذهول المتأتية من صدمة الحلم

وهو يفاجأ بوحشية النهار ، ولذا عندما صارحه الباهلي مساعده التنفيذي بالأمر قائلاً تستطيع أن تعتبر نفسك خارج المعركة وأنا سأقودها حتى النهاية ، سينتضي حربته ويغرسها في الأرض : ليست المسألة هكذا أبداً . لقد فهمتني خطأ .

ثم يستطرد مغموماً : نحن معزولون والحزب تخلى عَنا . وعدونا بالسلاح والذخيرة ولم يقدموا شيئاً . كنا نحلم بتثوير المنطقة واستنهاض الفلاحين وزجّ الحزب في المعركة وها نحن منذ أشهر في هذه البقعة الموحلة نعاني الجوع والتعب واليأس ونقص الذخيرة والمؤونة فوق هذا المستنقع اللعين . إننا وحيدون كما ترى . لماذا يصير الأمر هكذا ؟

- لا لأننا ارتكبنا خطأ هنا . أنت وأنا نعرف ذلك وعندما قرَّرنا أن يبدأ الحزب من هنا كنَّا نعرف مدى العزلة والتخلي عنا . الأمر نفسه حدث لغيفارا في غابات بوليفيا . البدايات صعبة والتراجع مستحيل . وأنا أقترح أن يطرح الأمر على التصويت في القاعدة .

تحت تأثير العزلة والتجربة الجديدة للمثقف الذي اعتاد حياة المدن والجدالات النظرية ثم انتقل بغتة إلى هذا التيه المستنقعي بين القصب والبردي والبعوض والخنازير وأفاعي الماء والجرذان السمينة كالقطط وجليد الصباحات وهذا الغموض الرهيب للمدى تحت أصوات الطيور والضباب الكامد والأصداء سيداهم ظافر إحساس عميق باختلاف الطقس وامتداد الزمن البطيء والثقيل على نحو مختلف عن التسارع السهمي في مجرى الدماغ والأفكار . سيلمح مهيار الباهلي إلى هذه النقطة المظلمة فيما بعد ، وليستدير حولها سيقترح على خالد النزول إلى بغداد ليطِّلع على أوضاع ومواقف القيادة وأسباب لا مبالاتها ، وهو يضمر استراحة نفسية للمسؤول العام عن قيادة المجموعة في أعقاب هذه الصدمة العُصَابية المنذرة بالدمار .

- 2 -

امتداد لا يحده البصر من البردي والقصب والماء يعود لأزمنة قديمة تبدأ من نهاية القرن الخامس الميلادي في عصر قوباذ الأول ملك الساسانيين . فوق هذا الامتداد الأخضر الساكن والشبيه بحيوان خرافي من ديناصورات العصور الأولى ، يعيش بشر شبه مفصولين عن عالم

اليابسة . مخلوقات فصلتها مئات الأعوام وسطوح الماء والبردي عن نبض الزمن الآخر . إنهم ينتمون لهذا العالم المائي ذي القوة الخلاقة والذي خرجت منه الحياة والخلية الأولى يوم كانت الدنيا غمراً . لقد روى الرواة بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة عن هذا الغمر أن الله يوم شاء خلق السموات والأرض خلق جوهرةً خضراء حجمها أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر برهبة إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار ومن ذلك الدخان خلقت السماء ومن الزبد ولدت الأرض ، ولما خلق الله الأرض ـ يقول الرواة ـ كانت طبقاً واحداً فَفَتَقَّها وصيرها سبعاً ثم بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب ، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ووازنها فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوتة خضراء حجمها بحجم سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي حدث لقمان ابنه عنها : يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ـ كما تقول الآية ـ وقال الرواة بأن لقمان لما نطق هذه الكلمة انفطرت من هيبتها مرارته ومات فكانت آخر موعظة له . ولكن لم يكن للصخرة مستقر فخلق الله نونا وهو الحوت العظيم واسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره ، والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله قال لها الجبار كوني فكانت منها هذه الأهوار . وقال الرواة وفي عصر قوباذ بعد ملايين السنين من الخلق الأول كانت السدود ممتدة على طول ساحل دجلة والفرات ، وكان الساسانيون يروون سهوبهم من بحيرات الماء التي تجمعت وراء السدود ، وفي مطلع القرن السابع ارتفع الماء في النهرين بطوفان عاتٍ فدمَّر النهران سدودهما وغمرا السهوب الواطئة بالماء ، لكن الفلاحين أعادوا بناء السدود وإصلاحها في عهد قوباذ الثاني بعد انحسار الفيضان .

وفي القرن الثالث عشر لم يكتف هجوم هولاكو البربري بتدمير بغداد وإغراق مكتباتها في دجلة ، إنما أضاف مأثرة جديدة إلى حضارته

البربرية حيث دمرت وحوش الشرق الهاجمة كالسيول ، السدود ونواظم الريّ فأغرقت المزروعات والفلاحين تحت غمرة المياه التي فاضت على الأراضي المنخفضة فهلك الزرع والضرع والأهالي تحت الغرين المتراكم ومياه الأهوار التي تمتد مساحتها إلى عشرات آلاف الأميال المربعة .

وسط هذا السهب السومري الموحش ، والمنسي ، على التخوم الجنوبية لبلاد الرافدين ، كان يعيش القوم الذين لايحجون إلى مكة إنما إلى مراقد الأئمة . إلى قبر علي بن أبي طالب في النجف الأشرف ، والحسين والعباس في كربلاء ، وموسى الكاظم في الكاظمية ، وعلي الرضا في مدينة مشهد . وبطقوس مضمخة بالتأنيب والندم الفاجعي ، قبل حلول يوم عاشوراء يوم ذبح الحسين في كربلاء ولمدة عشرة أيام ، يبدؤون القرأيات . فصول من فاجعة كربلاء يتلونها حول قبور الأئمة والأضرحة مصحوبة بالعويل والبكاء المرير حزناً وندماً على موت سبط رسول الله بيد الأعداء والمنافقين ، وفي الأيام الثلاثة الأخيرة يبدأ مع العويل اللطم على الصدور ، وفي ليلة العاشر من محرم يبلغ الندب والنحيب واللطم أشده حتى الإدماء والموت . ومن تلك الأهوار النائية يأخذون موتاهم بالزوارق ثم بالقطارات أو السيارات ليدفنوهم في مقابر الأرض المقدسة بالنجف الأشرف . يقطعون مئات الأميال باتجاه تلك الأرض الطاهرة المروية بدماء الشهداء ، وهم يحملون نعوش موتاهم بين دوي التراتيل والآيات الفاجعة والبكاء ليحققوا لهؤلاء الموتى شرف القربى من دائرة أرض أحفاد الرسول الذين قضوا غدراً وغيلة .

هنا وسط هذا العالم الغريب البدائي من الماء والغرين والبردي والبعوض والطيور والأسماك وأساطير الطبيعة وانكسار هيبة القانون ، بين هؤلاء المعدان في أهوار العوينة والغموكة والحمّار ظهرت أول بؤرة ماركسية مقاتلة في النصف الثاني من القرن العشرين .

كانت أقاليم الجنوب : البصرة والناصرية وميسان ، مهد الثورات القديمة وأرض التمردات والانتفاضات في عصور الأمويين ثم العباسيين ثم الانكليز فالإقطاع فيما بعد .

ومن هذه الأقاليم الشاسعة والخصبة ، الصارخة بالجوع والإهمال انطلق الخوارج والشيعة ثم الزنج والقرامطة وثورة العشرين .

ففي العهد الملكي شهدت أرض السواد انتفاضات مضادة للملكية

ذات طابع بدائي وقبلي ، فقبيلة الزيرج في خمسينات القرن العشرين واجهت بشراسة بدائية النظام الملكي وحاصرت قلاع الإقطاع ثم ذبحت أمراءهم واستولت على الأراضي بقوة السلاح .

وفي تلك الحقبة وقفت محلية الحزب إلى جانبهم . ومدينة الحي تتذكر جيداً انتفاضة الـ 56 الشيوعية التي هبّ فيها الفلاحون ضد الإقطاع المحمي بالنظام الأوتوقراطي ، كما تتذكر بألم إعدام ثلاثة من مسؤولي التنظيم في ساحة المدينة ليكونوا عبرة لاتنسى لكل من تسول له نفسه رفع رأسه عالياً في وجه الهيبة الملكية وكلابها من كولاك الأرض .

وليدعم الجيش سطوته أُطلق له العنان في ذلك اليوم المشؤوم فاندفع ضباطه وجنوده كالثيران المهتاجة ، حطموا بيوت الفلاحين وأشعلوا النيران في المنازل ثم اقتادوا حشداً من الفلاحين الفقراء والمشردين وباعة عربات الشوارع والطلاب وربطوهم بالحبال ، ثم بدؤوا يسوطونهم ويدلونهم من أقدامهم فوق أغصان الشجر تحت سمع الأهالي وبصرهم من الضحى حتى غروب الشمس ، وبعد أن نفذوا حكم الإعدام بالثلاثة الحزبيين رمياً بالرصاص أمام الرتل الذي كان يساط بالعصي والكرابيج وأعقاب البنادق حملوا أكثر من مئتي متمرد في الشاحنات العسكرية إلى سجون العاصمة .

وهكذا بالاضافة إلى تاريخ الحزب هناك وتضحياته ، كان اختيار بؤرة الكفاح المسلح يستند إلى البعد عن العاصمة وصعوبة وصول النجدات الحكومية إلى تلك الأقاصي النائية .

داخل هذه الأهوار التي خلقها الرب في الأزمنة الموغرة في القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التي لا تحد في بلاد العرب وحدها حيث الزمن يدور على عقبيه منذ ألفي عام ، كان آلاف البشر الهامشيون يعيشون حياة بائسة ، منحطة ، تذكر بعصور ماقبل التاريخ .

في جوف هذا العالم النائي ، الغارق في الجوع والوحل وصراع القبائل وملح الفيضانات ، بدا كأن النار توقد في الهشيم ليبدأ التاريخ مرة أخرى من هنا .

على حافة الهور كانت ميسان القديمة ، تتصل بالناصرية والبصرة كنقطة عبور إلى حقول المستنقعات . ومن الناصرية في الطرف الجنوبي يمكن الانتقال إلى الجبايش مرفأ الزوارق النهرية .

لقد بدأ تأسيس القواعد المسلحة سراً بعد تكريس خط آب الانقسامي . الخط الذي كرّسته القيادة العائدة من موسكو في أعقاب فشل انقلاب سليم فخري وإعدام السكرتير العام سلام عادل .

وفي تلك المرحلة ، التي ينبغي تذكرها جيداً حتى لاتطمس من التاريخ الرسمي ، سيدعو تقرير خط آب للقيادة العائدة من الدول الاشتراكية إلى ضرورة الاعتماد على نظام عارف وغضّ الطرف عن طبيعته وتكوينه السياسي كما سيصف التقرير نظام عبد الناصر في مصر بأنه حركة تقدمية تاريخية ، وهذه الحركة ستشمل العالم العربي بأسره ولا بد لها أن تشمل العراق بتيارها الجارف .

ومن موسكو حرّض الأب الروحي خروشوف قيادة الحزب على ضرورة حلّ الحزب الشيوعي العراقي أسوة بالحزب في مصر ، والدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي : مركز جذب القوى الثورية كما سيسميه بوجكاريف في النيوتايمس السوفياتية . وحتى لا تصدأ الذاكرة فيتداخل الماضي بالحاضر على نحو عشوائي ليوضع زمن الانحدار والهزيمة على مشجب التاريخ البائس ، العام ، والمغفل من التوقيع والمسؤولية المحددة ، سيكتب الرفيق عضو اللجنة المركزية منير أحمد في مجلة قضايا السلم والاشتراكية في كانون أول 1964 مايلي : « إن النضال من أجل الطريق اللارأسمالي يحتم علينا إعادة النظر في برامجنا في جميع ميادين النشاط الجماهيري . كان الحزب الشيوعي العراقي يعتقد في الماضي بأن إقامة حكم شعبي تحت قيادة الطبقة العاملة هو شرط جوهري لتحقيق الاصلاحات الجذرية ولبناء الاشتراكية في العراق ، إلا أننا غيَّرنا وجهات نظرنا حول هذه المسألة في ضوء الظروف الجديدة ، حيث يشكل النضال من أجل الطريق اللارأسمالي الخط السياسي لحزبنا» .

ثم يشير بصراحة إلى الدور الفعال والقيادي المتنامي للفئات البورجوازية الصغيرة ونضالها الديمقراطي الثوري .

* * *

سيُفسِد وصول مهيار إلى الجبايش حيث أقام أمين خَيُون قاعدته المسلحة ، خطط القيادة ورهاناتها التكتيكية المذهلة حول اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي يوصل البواخر سالمة ولو بعد مليون عام الى مرافئها .

وسيقول لأمين بعد أن يوصله إليه أبو صبري مسؤول التسليح والأمن وابن الهور : نحن الآن معاً . أنت بدأت كقائد شجاع وهذا شرف ووسام لحزبنا الثوري الوفي لتقاليد لينين . الكادر المتقدم أرسلني لأكون تحت تصرفك .

وبعد حوار محتدم وعاتب حول الاستراتيجية والتكتيك والخطأ والصواب وضرورة صياغة حزب جديد آخر مصهور بنيران الحرب الاهلية ، وفي أعقاب رشاش البذاءات التي سيقذفها أمين في وجه القيادة الانتهازية المربوطة بذيل البطرياركية الخروتشوفية وحصان السلطة ، يتفقان على استلام مهيارٍ الدعاية السياسية في القاعدة التي تضم فصيلاً من خمسة وثلاثين مقاتلاً .

وفي الجبايش سيمضي مهيار شهرين يقطع مع المقاتلين أغصان البردي ليقيموا فوق المياه الأكواخ العائمة ، وليعيشوا حياة يومية جديدة تبدأ استيقاظها من السادسة صباحاً بفطور الشاي والتمر ، تليها فترة التدريب الرياضي تخويضاً في أعماق المستنقعات الصقيعية ، يبدأ بعدها تكوين أنفاق داخل قصب البردي بغية العبور والإختفاء عن أنظار العدو ، تتلوها عملية تقطيع القصب وتحزيمه لصناعة أطواق صالحة للإبحار تعويضاً عن الزوارق ، وانتهاء بالرمي على ألواح من الزنك أو الخشب تعلّق فوق رؤوس القصب .

في المساءات إذ يهبط ليل الأهوار زاحفاً كالتماسيح حاملاً الرهبة والأصداء الغريبة ومشاعر العزلة خارج بوابات العالم ، كانوا يباشرون حياة بدائية في شيَ الخبز فوق صاج على شكل قبة رمادية يوقدون تحته قرم القصب التي اقتلعوها بحرابهم خلال النهار .

وداخل الكوخ القصبي العائم فوق الماء ، كانت مائدة العشاء تنحصر بالمعلبات والتمر والشاي والخبز المشوي وما تَم صيده من السمك وسرطانات النهر . كان على الملازم الأول فاضل عباس الذي فرّ من الجيش في أعقاب انتفاضة الكاظمية ، وقاتل مع أمين خيُون في شوارعها ثم هرب معه إلى الأهوار ، الإشراف على التدريب العسكري عدا قيادة زورق المشحوف التي أسندت إلى أبو صبري والذي سيسحر بإخلاصه وجرأته أعماق مهيار الباهلي .

ـ الرجل الشعبي النادر في كل العصور .

هذا ما سيقوله مهيار عن أبو صبري . العراقي الأصيل الذي

لايخشى في الحق لومة لائم ، والمعجب من كل دعوة الرسول محمد بعبارته الشهيرة التي قالها لعمّه أبو طالب : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما تركته .

منذ اثني عشر عاماً فرّ هذا الرجل الغريب إلى هذه الأهوار الوحشية هارباً من مطاردة القانون بعد أن ذبح ابنة عمه غسلاً للعار ، وبعد أن يُلقى عليه القبض ويودع في سجن نقرة السلمان يرسم خطة للهرب ويعود كثعلب ماكر إلى جحره القديم بين قصب الأهوار . غير أن هذا الرجل الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ، صديق الباهلي الحميم ، والضوء المشعّ في أعماق الهور الغامض ، سيموت فيما بعد غيلة وغدراً في هور العمارة ، لتبقى جثته طافية فوق الماء عشرة أيام تحت القيظ حتى تتعفن وتأكلها الجرذان المائية وأسماك الشبوط .

سيحدث ذلك بعد أن يهرب من السجن ليعلم ابنه التصوير الشمسي وتوزيع جريدة اتحاد الشعب الشيوعية في شوارع البصرة وهو يقول له : يابني حرفة في اليد أمان من الفقر والشيوعية سفينة المضطهدين في بحر الحيتان . وكما نهشت أسماك الهور وجرذانه جسد الأب فيما بعد ، سيلقى صبري الابن مصرعه رمياً بالرصاص في سجن قصر النهاية بعد أن ينهار تحت وطأة التعذيب الوحشي وهو يصرخ طالباً الموت لأبيه والعالم والحيتان والآلهة والصور الشمسية واتحاد الشعب وجميع الطقوس اللازوردية التي قذفت به إلى هذا الجحيم . كانت تجربة غريبة مليئة بالسحر رغم قساوتها ، بدا التآلف معها يتطلب طاقة خارقة لما كان مألوفاً من ليونة حياة المدن الهيولية والرخوة . انتقال فجائي من الحروب الدونكيشوتية عبر رياح كلمات الفراغ ، إلى حروب الفعل مع الطبيعة والموت واختبار الخلايا العضوية فوق أرض جديدة وتحت سماء جديدة ، في ارتعاش فصل صقيعي تخترق برودته حوافّ العظام . كانت عمليات الاستطلاع تبدأ بعد الغروب للتعرف على طرق الذهاب والعودة والمناطق المجاورة الآهلة بالسكان أو الصالحة لتبادل المواقع .

أبو صبري كان يشرف على دوريات الاستطلاع بينما يتولى الملازم فاضل تدريبات المجموعة على شحذ البصر في سواد وسكينة الليل وعمليات الإنصات لتمييز صوت المجذاف والطيور المذعورة التي تنبىء بالخطر ، وهي تضرب جذوع القصب أو تفرّ خائفة في الفضاء . كما كان على الجميع التعرف على حركات هوامّ الماء من الضفادع إلى الأسماك

الطيَّارة إلى الأفاعي المائية ، وتمييزها عن غيرها من الحركات .

في المراحل التالية ، بعد مضي أقل من شهر ، سيكون الاعتماد الغذائي في غياب المؤونة ، على صيد السمك والضفادع والسراطين وجرذان المستنقع والأفاعي .

كان في زاوية من زوايا الكوخ صندوق ذخيرة فارغ تناثرت فيه مجموعة من الكتب الأدبية والسياسية : نسخة مهلهلة من رواية الأم ، والعقب الحديدية ، والفولاذ سقيناه ، والنخلة والجيران ، وعناقيد الغضب وكتب أخرى . وفي مقدمة المؤلفات السياسية : ثورة في الثورة وكتاب عن التوباماروس والفيتكونغ ويوميات تشي في السييرا مايسترا والهجوم على المونكادا . رأساً على عقب يتحول الانسان وهو يرى نفسه في أرض المعركة . هذا ما سيقوله الباهلي فيما بعد . انسان آخر في كوكب آخر ذلك ما سيشعر به فصيل الكفاح المسلح في قلب الأصقاع المائية البعيدة عن خدائع المدن .

بعد عشرين يوماً من هذه البداية التراجيدية ، سيفاجأ الباهلي بتصدع يحدث شرخاً في جدران الحصن الذي بنته مخيلته العاشقة للضربة النوعية التي تخلخل توازن العالم الكاذب . ستة من فصيل القاعدة سيغادرون غبّ انهيار عضوي وإحباط نفسي . ثلاثة منهم يقعون فريسة اسهال مَعَوي حادّ ينقلون اثرها إلى مستشفى الناصرية ، وثلاثة آخرون يسقطون فريسة حالات سوداوية وكآبة متواصلة مصحوبة بنزق عصابي وهلوسات ليلية نتيجة المناخ الجديد الصعب الذي صدم هؤلاء الطلاب القادمين بحماسة من المدن .

وفي ذلك الزمن اللاهب سيتراءى للباهلي أن بقاء نصف الفصيل في هذه الأهوار الحُمّية كافٍ لزرع النواة الأولى صخرة صلبة تمتد فيما بعد لتشكّل جزراً في أعماق هذا الغرين الرجراج .

وفي الأماسي ، تحت وهج الحلم ، كان يقول لأمين خيُّون وأبو صبري وفاضل عباس قائد التدريب ، بعد أن يهجع الآخرون ، بأن أساس الصخرة يترسخ بتوطيد العلاقة مع الفلاحين والصيادين واستطلاع الأقاليم المجاورة لتكون تحت إشرافنا فنتحرك في حقل آمن ، وفيما بعد يمكن البدء بغارات محدودة على بعض المخافر .

وفي الوقت الذي كان فيه مهيار يرسم ، بهدوء وعلى المدى

الطويل ، خرائطه على صفحة المستنقع ، تخيُّلاً بأن الحزب سيولد من وهج الكفاح المسلح ، كان المسؤول العسكري يخطط سراً للبدء بضربة عسكرية صاعقة ذات شعبتين : تدمير سكة حديد البصرة ـ بغداد والأستيلاء على القطار القادم من العاصمة . أما المحور الآخر فهو احتلال جميع مخافر قضاء الجبايش وتجريدها من الأسلحة .

بذلك يضع الحزب والسلطة مرة واحدة تحت تأثير هذه الضربة الباهرة والتراجيدية .

فيما بعد سيتحدث الباهلي عن هذه المرحلة الحميمية إلى قلبه ، فيُشبِّهها بلحظة لقاء أبي ذر الغفاري بالرسول يوم انخرط في الدعوة ، مسحوراً بألق تلك اللحظات النشوى التي ستقلب التاريخ رأساً على عقب .

لكنه بعد أن يختلف مع أمين خيُون ويسبر أغواره الجريحة من خسارة معركة الكاظمية ، واندفاعه الأخرق للإنتقام ، سيدرك بعد فوات الوقت ، أنه مطوَّق برجل تنتفض فيه روح الثارات الموروثة التي لاتتقن أبعد من الموت الانتحاري .

وهكذا بعد شهرين من الصقيع ، امتدا من كانون الأول حتى أواخر العام الجديد ، في أغوار الغموكة السحرية ، التي ارتسمت في ذاكرة الباهلي حدثاً أسطورياً ، أبدي الوميض ، ستنتهي التجربة الأولى بعد أن يُطرح الخلاف على المجموعة لتقول رأيها فيه .

يومها سيبقى مع أمين أنفاره التسعة الأوائل ، أما من التحق فيما بعد فسيغادر إلى البصرة والناصرية وبغداد .

وعلى مدى شهرين سيعيش الباهلي مع صديقه أبو صبري الذي وقف معه ، في منزله المعزول في قضاء العمارة .

عزلة رجل الفكر مع رجل الطبيعة ، المأخوذان بحلم أن يكون العالم حقلاً من القمح والحرية للبشر الشرفاء .

في تلك العزلة البعيدة عن عيون الرصَّاد والمخبرين ، سيبدو أبو صبري مكتئباً لأن بندقيته الروسية أُخذت منه بعد أن استولى أمين خيُون على الأسلحة .

وفي مدار الجدالات والهجس بتأسيس بؤرة جديدة سيسأل أبو صبري صديقه الباهلي بسذاجة مندهشة : إلى متى سيظلّ الشيوعيون رهن حالة الدفاع عن النفس ؟

الرجل المنكسر ، والحزين كرصيف مهجور في صباح شتائي ، لا يصادف جواباً .

يستلقي على فراش ممدَّد فوق بساط زهري باهت ، ويحلم .

البلاد المظلمة والخانعة .

الزمن اللولبي الذي يدور كالخذروف حول ذاته المقدسة .

الخراب الممتد من مليون عام .

انقسام الخلايا في الجسد الواحد .

كيف يمكن اختزال صرخة أبو صبري في جواب قاطع تقوله الأسلحة !

- 3 -

أحدهما كان يحدق عبر السهب وانعكاسات أصيل الشمس على أثباج الماء ، وهذا الغروب المتكرر الذي يليه شروق ، وفي مواجهة هذه القامات المحنية ، قامات البشر المجوَّفة من الداخل والمكسورة بتعاقب الزمن الذي لايحمل غير الفقدان وانتصار الأعداء وجراثيم الخيانة والمذابح الأهلية الفاشلة والبكاء على الضحايا والمفقودين والذين رحلوا بلا عودة .

بينما يواصل الآخر رسم جبال وأشجار ومياه دفاقة ، صائغاً من صلصال خياله وموج رغباته بشراً آخرين . بشر صلاب ، يتحركون بخطوات واثقة بين الجبال والكهوف ومجاري الأنهار وأنفاق المدن . بشر أينما هبطوا يوقدون النار ليردوا دوائر الظلمة الهابطة من حنايا الزمن ، الزمن الذي لا بد من تحويل مجراه كيلا يُستعاد كما كان ، وكما صُنع من خمائر الوحل والرماد والدماء المخثرة والحيض والبخور والصلوات وأصوات الندب والتخاذل والخيانات والتصدعات .

وبينهما كان الليل . المساء البوني العذب ، مساء هذه المدينة الغريبة والمخترق شغاف القلب . المساء الذي سيتلاشى يوماً متحولاً إلى طيف أو سحابة أو رائحة أو صوت بحر أو رجع موسيقى أو إيقاع خطوات في الأغساق ، إذ يتموج الحنين لزمن مضى يُستعاد ولا يعود ، يتقدم كما ينمو شعاع من أفق أو حرف نصل لامع سابحاً في سماوات غريبة داخل مسافات لا تنتهي ، يتقدم ليغوص على مهل في المسامّ

الشفافة لروح غدت وحيدة على حافة الهاوية .

وما كان هذا الاحساس الخاطف والبعيد ليلقى قناعة أو استحساناً لو قيل أو أفصح عنه على نحو ما . فما كانت تلك الطفلة الضائعة في جحيم بونه تدرك تعقيد هذه الامور التي تبدو للوهلة الاولى وكأنها أحاسيس مَرَضية أو عُصابية .

وعلى نحو ما ، كان انهدام الفقدان هذا ، لو هُجس لابد أن يذكرها بسي العربي الذي رحل عنها في ليلة نصف قمرية لكنه لايزال يتراءى في أحلامها عائداً من وهران أو قسنطينة أو قالمة أو سوق أهراس أو أي مكان آخر لا يعرفه الحلم ومعه البسكويت والشوكولا ودمية من البلاستيك لطفلة تشبه آسيا .

ولأنها تخاف الموت الذي يخطف البشر في غفلة ، فيحرمهم جمال الحياة وعذوبة العالم والأفراح التي لم تكتشف بعد ، كان الأب يعود في الحلم أجمل مما كان . وفي تلك الليلة الغريبة شارفا عَتَبة الإفصاح عما يجري في الدم ويصعد إلى الرأس ، فانهالت أسئلتها عن الموت والزواج والمغامرة والرقص والجنون والبلاد الغريبة التي تحلم باكتشافها .

وفي المساحة البيضاء والمضيئة كأعماق بحر ، كان حلمه هو الآخر يرسمها مع كتلة البشر الذين يزيحون أمواج الظلام الهابطة من ثنايا الزمن ويقيمون السدود الصلدة المنتصبة في وجه الفيضانات والانهيارات والأزمنة السوداء .

هناك كانت تتشكل على مهل ، ومع أنها بصعوبة كانت تُشاد وتعلو إلا أنه كان خائفاً من انكسار جديد ومن الخديعة التي ترتدي ثوب حمل وديع واخضرار حقل .

في وجهها المصقول لم يلمح في ذلك الزمن ملامح غدر . كانت عيناها الصافيتان تشفان عن أعماق في بياض الثلوج ، وكانت الأسئلة التي تطرحها توحي ببراءة طفل يرفض أن يخدع بأن الله يجلس على قرني ثور حاملا السماوات والأرض وتحته حوت سابح في البحر . غير أن النقطة العمياء بينهما كانت تتراءى أحياناً على شكل بقعة دم ، تركها لخضر كلطخة مظلمة ومضى . بعد رحيله ستستيقظ تلك الطفلة لتفاجأ بأنها وحيدة في صحراء تهب عليها رياح السواقي : لماذا يموت سي العربي ؟ قل لي بوضوح لماذا الثوريون يُقتلون بينما يبقى اللصوص والقتلة ؟ حدّق بهؤلاء الوَرَثة . الحلاليف التي تَلِغُ في الدم ! أنت نفسك انظر

إلى أين أودت بك السياسة . لا أهل . لا أسرة . لا وطن . لا استقرار . لماذا التضحية بالحياة مادام الانسان لا يحصد غير الموت والألم في النهاية ؟ لأجل من نضحي ؟ قل ! الجانب الآخر من نفسها كان يختزن نزوعاً للثأر ، لا من القتلة الفرنسيين إنما من هؤلاء الغاصبين الذين اجتاحوا البلاد بدماء الضحايا فاقتسموا لحم الوطن وشحمه وجماله وأفراحه ورموا للفقراء وأبناء الشهداء النفايات والعظام والقبح والمرارة .

ولأنه كان يعتقد رغم الهزيمة أنه خسر معركة إلا أن الجذوة كانت تتراءى له تحت الحطام ، وكان يقول لنفسه في الأوقات السرية بيقين أو مكابرة كاذبة : مادمت حياً فهناك ضوء وأنت لست أكثر من نيزك انطفأ .

وفي مسافة الصراع ، بين الحلم واليقظة ، بين الأسود والأبيض ، كانت تلك المرأة تُشاد في أعماقه كبيت صخري فوق أرض من رمل وجماجم . كان التشييد يتم بسرية وهدوء وهو يردد لنفسه : مادام الجوهر أصيلا فالصدأ يزول بالصقل وهذه وريثة دماء الشهداء .

موجتان كانتا تتقاذفان مهدي جواد في ذلك الوقت : أن تكون هذه الطفلة امرأة جديدة مشعَّة ، خارجة عن صراط الميراث وأزمنة العبودية ، وأن يكونا حجرين متراصين في جدار ينهض .

لكن هذا الرجل الذي خرج من أضلاع بلاده وهو يترنح بلا أرض ولا سماء ولا جدار ، كان يصارع أشباح دونكيشوت يولد فيه في غسق هذه الأمسيات العذبة والخادعة ، وكانت المسألة تبدو في عنصرها الأول كأن العالم حوله قد تحطم بما فيه الكفاية ، وأنه نفسه صار جزءاً من هذا الحطام ، غير أنه لا يزال يعاند بدافع من روح موغلة في القدم وموغلة في العناد والتحدي ، إن عنان الزمن لم يفلت كلية ، وإن هذا الحطام المرئي ليس إلا أنقاض الآلهة الخرعة وفساد العهد القديم .

من أجل ذلك كان يقول لآسيا لخضر وهما مستلقيان على حافة الليل الذي اقترب صباحه : دم سي العربي لم يذهب هدراً ويزيد ولد الحاج ليس نهاية الزمن ، فالشجرة قبل أن تموت ترمي بذارها إلى الارض . انظري إلى نفسك وإلى إخوتك كم أنتم فتيان ونَضِرون . ومأ دام دم الأخضر فيكم فالشجرة حية لم تمت . لكنها كانت تردّ بحزن يجرح ظلال القلب : لقد مات الأخضر مرتين مرة في الغابات بيد الكولون ومرة لأن ولد الحاج يسكن بيته ويطأ فراشه وامرأته ويدوس آثاره ويهين ذراريه .

المرارة في الحلق والألم يكوي القلب ونحن نضحك بالأوامر . يزيد ولد الحاج لأنه يملك المال يعتقد أنه والرب في مرتبة واحدة . كما ترى نحن نعيش تحت سطوة رجل ليس أبانا . الرجل الذي استولى على الأسرة واستعمرها بقوته وماله . أنا أعرف ذلك ولا أستطيع البوح به لماما لأن ذلك يجرحها . نحن نخدمه ونضحك له ونطيعه ونقبل يده لا لشيء إلا لأننا يتامى . عندما يغيب الأب يتهدم هيكل البيت . أعمدته تتهاوى وتسقط ويصبح الذلّ والمهانة والطاعة غطاء النفوس التي انكسرت وتهّدم جدارها . ماما تحاول أن تعوِّض ما فات . تتحدث عن القلب الابيض والبريء وهي تعرف قسوته وقلبه الأسود . ماما مغلوبة على أمرها . غير قادرة على مقاومة رجل مستبد صار شرعاً زوجها . عنفه وجنونه أصاباها بمرض القلب . إنها مريضة . وقريباً ستموت . هذا الغول سيقضي عليها . ولأنه غني ، يتصور نفسه إلهاً ما خُلق البشر إلا لطاعته . صدقني أنه يرى بومدين ضئيلاً أمامه . قد لاتصدق أنه يحلم بحكم الجزائر . ورأس بابا قال لماما يوماً لو أردت أن أكون وزيراً لصرت لكنني أرفض وزارة في دولة يحكمها مثل بومدين . هذا البوخروبة يخرِّب الجزائر باشتراكية ورثها عن الحلوف الأحمر بن بيللا .

بغصَّة وحرقة تفصح عن هذه الجراح الخفية . وهي تفيض بألمها يترقرق الدمع . يمسح العبرات بأطراف أصابعه ويرجوها أن تكفّ . تأتي دفقة ريح من النافذة الشرقية فيضغطها إلى أضلاعه .

يبكيان كطفلين .

والآن هما منصهران ، وخائفان وغير محميين سوى بجسديهما . يرتعشان تحت هذه الريح الملعونة . الريح التي تجتاحهما وتؤاخيهما كالأغصان . وهما الآن قريبان وأليفان إلفة طائرين فوق صخرة وحيدة عائمة فوق بحر مضطرب .

وفي السرّ سيقول أحدهما للآخر همساً : خذ بيدي لآخذ بيدك في مهب الريح الزعزع .

ثم تشتبك الأصابع والوجوه والضلوع ومجاري الدم .

ـ أنت لي وأنا لك فلنبن بيتاً يتحدى الإعصار . ولأمر ما كان يتخيل ذلك تحت هبة سوداء ضرباً من الخَيال والوهم . وللأمر نفسه الخارج عن قوانين الجدل والاقتصاد ، كانت الخديعة تتسلل كالأفعى تحت الحقول الخضراء والأمواج الخضراء ، وفي وقت ما كان أحدهما واقعاً تحت

سطوة الأيام المليئة بالحفر والمستنقعات والرمال المتحركة وميراث القبائل وضربة الخيانة . كان أحدهما يبدو على شاشة البحر ضعيفاً وهو يتراجع وينهزم ويتخلى ويخون ، وكانت الليالي البيضاء والحقول البيضاء والصباحات البيضاء لما تأتِ بعد .

- 4 -

بعد أن يخرج مهدي جوادمن مستشفى الرازي يبقى أسبوعاً في غرفته كان يذهب ليبدِّل الضماد في المشفى ويعود .

لم يكن ما حدث معقولاً . وهو يحاول أن يتذكر حماقته في الفراش ما كان يستوعب أكثر من نثارات وقائع متداخلة تراءت وهي تندفع على نحو لا شعوري من منطقة مؤذاة تنزف أسى . تساءل إن كان ذلك يشير إلى مداخل عتبة الجنون ، أم أنها بداية فقدان الأعصاب التي لابد أن دمها قد تحوَّل إلى كحول ؟ وفي وميض برهة لمح رجلا حولته العزلة والحسّ العميق بالموت إلى مايشبه حشرة أو عنكبوت أو كتلة غبار في زاوية سقف ، لكن ذلك الوميض كان يرحل سريعاً لتأتي امرأة ، وميض على شكل امرأة ، كان يتمثلها ويراها منذ الخليقة ، مندفعاً نحوها بقوة الدم في أحلام النوم وأحلام اليقظة كما يندفع المطر والشهاب إلى الأرض ، وإذ تغيب في طيات السحب كان الأب الميت يتدلى من سماء غريبة لا يعرفها .

أيقظه مهيار وفلّة من أخيلته الهذيانية وهما يدخلان بصخب وهرج . كانا يحملان باقة ورد وقالب كاتو وابتسامات وغيوم كثيفة من الثرثرة حول لعنة ماجرى . بحرارة عانقته العنّابية ثم سلم مهيار بابتسامة عتب : ياعيني على الرجال الجوف . جواره انطلق الحديث . كل كلمة فيه كانت تشير إلى حماقة طفل ارتكب خراقة رعناء . قالت العنَّابية : كنت أظنك أقوى . الحياة جميلة ياشيخ وتستحق أن تعاش رغم المرارات . يلعن أبو الحزن . ثم تستطرد بلهجة مصرية مبتذلة : إفرحْ تفرح لك الحياة . هو إلنا غير عيشة واحدة في هذه الدنيا !

وإذ علق مهيار باستنباط بسيكولوجي فذّ عن النمط الناري المسكون برغبة الاندفاع الطفولي إلى الموت ، ضحك مهدي وقال ساخراً : بلى . بلى . نمط سريع العطب ، يساري طفولي ونفسه قصير في مواجهة الصراع الطويل المدى .

هزّ مهيار رأسه متأففاً : وصلت الرسالة عيني . وصلت .

ابتسمت العنَّابية وهي تجسّ ضمادة الجرح : هل تؤلمك ؟

ـ لا . انتهى الألم . لم يبق إلا صديد طفيف .

أحس أن مهيار كان أكثر خراقة منه لإخباره العنَّابية بالحادث . ووِدّ لو يقول لها شيئاً حول الضعف الانساني ووحدة الانسان التي تهبط معه من الرحم ، لكنه استدرك إذ رأى وجهها الشاحب وقد اكتسى اسفاً .

ـ لكل جواد كبوة كما تقول العرب . ولكل بطل كعب آخيل كما تقول اليونان . وفي النهاية لامعنى لكل هذا العالم الملعون .

وردَّت فلّة بوعنَّاب : ولكن من يعرفك لايصدق .

ـ يعرفني !

ـ كم تبدو متماسكاً من الخارج !

وضحك . أشعل له مهيار سيجارة وناولها له : عنجهية عربية جوفاء من الداخل . مع أن مسيو عقل سيعترض إلا أنني سأقول بأن العربان يتراؤون غابة واسعة من الشجر الضخم لكنه شجر سريع القطع .

وهو يرفع رأسه نافثاً الدخان في سماء الغرفة قال الباهلي بأن الاعتراض هو على التعميم وسحب حالة خاصة على التاريخ العام . ثم نفخ بأبهة العالم العارف : حقيقة أنا مندهش من هذا الأسود الذي يطلي كل عالمك . تبدو لي في معظم الأحيان ملتاثاً بلوثة عدمية تسدّ كل أبواب الأفق . لماذا هذا السلب المطلق وهذه الذاتية المقروحة ؟ هل أنت وأنا نهاية التاريخ والكون ؟ عجيب !

تداخلت اختلاطات في الجلسة اشتبك فيها المستقبل بالراهن والأسود بالأبيض والصراع بالسكونية ، فوق هذه القارة التي تهتز وينهتك عرضها في رابعة النهار بينما شعوبها تتدافع مقهورة ويائسة ولا مبالية نحو جحيم عبوديتها وموتها .

اقترحت العنَّابية أن تصنع القهوة خارقة هذا الاستنماء الجدلي : النساء يصنعن القهوة والرجال الجدل . أليس هذا تقسيم العمل عندنا ؟ كانت تغمز نحو مهيار . وانتفض الرجل : عيني . روحي . أنا أعمل القهوة بسّ يرحم والديك أريحينا من لسانك السليط . وإذ هم بالنهوض اقتربت العنَّابية منه وربتت على كتفه : لا . لا . لاتتعب رأسك بالتوافه . أنت مهيأ لجليل الأعمال . عيني !

بعد أن دخلت المطبخ تمتم متعوذاً : أعوذ بالله منها . ياأخي هذه

كَمي من الكُماة المدججين . العمى في ربها شو قوية ! أتعلم بماذا أناديها في البيت : فلة بنت الازور لا لفروسيتها كخولة إنما لافتراسيتها وازورارها لي .

كان الجدال والحوار متواصلين إنما من طرف وحيد بين الطبيب الفيلسوف ومريضه الصامت ، حول نظرية التعديل القمعية في أعماق العصابي ، والتي تؤجل أو تنعطف بمجرى الدمار عن طريق المواقف المتسلسلة الشبيهة بالعلامات في طريق مظلمة ومجهولة : الموت .

تقابلها شخصية عصابية ، صامتة ، تختزن قوة انفجارية تختزل المواقف بموقف نهائي واحد ، كما تلغي الوعي والزمن فتنفجر مرة واحدة وتتشظى .

النمط الأول كان مهدي جواد . إنه يذكر الفيلسوف مهيار بهاملت الذي يجتاز سلسلة من المواقف التعديلية حتى يصل إلى قراره الأخير أو راسكولينكوف في الجريمة والعقاب .

كانت هذه الأحوال الغريبة قد طرأت على مهيار الباهلي داخل ترجيعات تنوس بين مقولتين أخذ بهما في قرارته بحسم لايقبل الجدل : التنوير والحروب الأهلية .

وعندما أودت الحرب التي خاضها بروح مقاتل اعتنق السلاح شريعة وحيدة للوصول إلى الحقيقة ـ الثورة ثم انحدر المشروع بذلك الشكل المأساوي ، ارتكس إلى الطرف البديل ليعدّل الاحباط بالبحث والتحليل عن الأسباب الكامنة وراء هذه الانهيارات التي تشهدها بلاد الشرق المخذولة ، والفائحة بروائح الدم المغدور . وخلال العام الذي سيمضيه في بونه كاستراحة محارب قبل أن يُعتقل ويُطرد من المدينة ليتوه فيما بعد مشرداً ومنبوذاً في بلاد العرب الموحلة والضيقة ، سوف لن يتكلم إلا لماماً ، وفي لحظات خاصة وخاطفة ، عن تجربته المرّة في مستنقعات الهور .

لقد انكفأت التجربة في داخله كصَدَفة كلَّسها الزمن خلال هذه الأعوام . فتراكم فوقها الكثير من الرمل والطحالب حتى باتت وكأنها حكاية خرافية أو اسطورة مخترعة لفَّقها خيال مشبع بأحلام اليقظة وقصص الطفولة العامرة بالجن . جاءت فلّة بالقهوة . وضعتها على طاولة ثم فتحت الراديو ووزع مهيار الفناجين . كانت الموسيقى مؤامرة

من العنَّابية لإسكات هذا الفيلسوف الذي لا يملّ من التبحُر في أبحاثه الفراغية .

ـ هل مازلت على هواك للشرقيين فلّة ؟ سألها مهدي غامزاً نحو مهيار . خلال رشف القهوة قالت بمرح : إدمان ياخويا مهدي . إدمان . هؤلاء لعنتي الأبدية رغم أنهم جرعوني العلقم . وأضافت : هؤلاء الحلاليف السحريون لا يعرفون الوفاء أبداً . حكاياتها معهم بدأت من تلك الخديعة الطفولية والساذجة يوم ذهبت مع وفد نساء جبهة التحرير إبان الحرب إلى سوريا ومصر لتلتقي في القاهرة بذلك السينمائي الأفاق الذي سينام معها ويضحك عليها قائلاً : ستكونين جميلة بوحيرد في الفيلم الذي سأخرجه عن الثورة . اوه . حتكوني حاجة هايلة يافلّتي العظيمة في الفيلم بتاعي . ياسلام ! بذلك سيوسوس لها وهو يوغل في أعماق رحمها الأستوائي المندى .

لكنها بعد أن تكتشف الخدائع الكبرى والصغرى فيتمزق حلمها بوطن الحرية والعدالة والخبز ، ستستسلم لضربة القدر الأقوى من مقاومة حلمها فتنزوي بعيداً عن العالم الكبير في حيّ جانبي من أقصى بلاد الشرق الجزائري ، تصطاد هؤلاء المشارقة الأوباش فتربيهم في قفص بيتها ثم تطعمهم من طهو يديها وما يدرّه ثدياها وفرجها من المنَ والسلوى في أماسي بونه المستوحشة .

ـ 5 ـ

وما كانت الصباحات الجميلة قد استيقظت بعد ، لكن البحر كان يركض تحت الليل كطفل يتعثّر بالشاطىء ويهوي .

هو كان في زمن ما الموجة التي تصطدم بالرمل . الاندفاع الأزرق الجميل كان يتحول إلى زبد منحسر ، لكن الموت كان على الأبواب وفي نسوغ الشجر وعلى الشفاه التي تلثغ ، ومع ذلك كانوا مأخوذين بأصداء النصر والأفراح واستيلاد النساء وابتناء القصور وامتلاك السيارات وأوراق البنكنوت والتزيين بالديكورات الجرثومية .

وإذ تتحدث عن السفر والبلدان الغربية التي لم تشاهدها ، كان يسألها : أحقاً أنت موقنة باستيقاظك حية في الصباح القادم ؟

وتفاجئها العبارة الغامضة لكنها كانت تستشف الإنذار فتسأل عن

منابت هذا الخوف الكامن . كانت تسميه : افتقاد الأمان . وكان صوت البحر يجيئها عبر أدراج الليل . البحر الراكض كطفل والذي لايصل . البحر الراغب في تجاوز شواطئه ليغمر العالم بأمواجه الزرقاء الباردة .

هي كانت تقول بصوت البحر : بي رغبة لرؤية الدنيا المدهشة والبعيدة والتي تتوهج بالجمال والغرابة .

وكان يراها .

الطفولة والوهج والبحر المتموج والراكض نحو شواطىء على امتداد البصر .

وكان يرى .

البلاد التي أغلقت حدودها ، والزمان المقاس بين المدرسة والبيت في عقل يزيد ولد الحاج الصغير كعقل نملة ، كما كان يرى حبل السرّة القصير الذي لا يسمح بالتأخر الى مابعد السابعةمساءً . وكان يرى حدود مدينة بونه المسوَّرة بالبحر والغابة ، وصوت يزيد ولد الحاج : بناتك يا لالا فضيلة . خذي حذراً . عيون بونه كلها تترصدني وتلسعني كالنار . شرفي في خطر . البنات يا لالا كبرْنَ وعيون الشباب تأكلهن . أنت تعرفين معنى صحبة شاب لفتاة في بلادنا وأين تنتهي . الرجال هنا ذيبان والبنات حملان صغيرة جاهزة للنهش . بناتك ذاهبات غاديات إلى البحر والتنس والسينما وساحة المدينة .

ولما تسأل لالا فضيلة : وماذا في الأمر ياخويا ! جميع البنات يفعلن ذلك . هذا جيل جديد متعلم ومختلف عنا . ينتفض يزيد ولد الحاج بصوت هستيري : اسمعي لالا ! القحاب وحدهن يفعلن ذلك . أنا لاأسمح لبناتي بهذه الإباحية . بونه صارت «بورديل» بهذه الحرية . حرية الجيل المودرن . جيل الرقص والسينما والتقحيب . كل هذا بسبب هذه الدولة الفاسقة المعادية للشريعة . دولة هذا البوخروبة .

لالا فضيلة كانت تكتئب فتشعر بضغط دمها يزداد . وهي في طريقها الى غرفتها لتشهق وتندب حظها العاثر ، كانت تتذكر مغامرات ولد الحاج الرخيصة ، التي رواها لها في أوقات الثمل ، مع عاهرات مدينة بجاية التي جاء منها .

وكان يرى في زحمة الأيام .

آسيا لخضر تحت الريح الزعزع ، وبين وهج الطفولة الحالمة . أمامها الأسوار التي تنهض ، وخلفها الصباحات التي لم تستيقظ بعد .

وما كان في النهاية أكثر من عابر سبيل في مجرى الأيام . وبين النوم وصحوة البحر كان يسأل نفسه : أين الوهم وأين الحقيقة في هذه الزحمة ؟ وهل يزيد ولد الحاج هو الزمن والتاريخ أم أنه محض سياق عَرَضي سيتلاشى تحت موج العصور القادمة ؟

وفي ذلك الوقت كانت الهزائم تتراكم كجبل يتشكل من ذرات رمل . ورغم ضوء الوعي الذي ينير الطرق في الليالي المظلمة ، إلا أن صدمة الحزب بدت وكأنها أفقدته التوازن .

ومع ذلك كان يراهم كما تلمع نجمة بعيدة في شفق الأفق .

الذين نجوا من المشانق والطلقات .

والذين تحملوا سنوات السجن والتعذيب والمنفى .

الرجال الذين لم يبيعوا شرفهم للكلاب ، ولم يتحولوا إلى مماسح .

لقد قاوموا بالمنفى والجوع والمهانة وقوة الروح سطوة الجنرالات الذين ورثوا بالدهاء والحراب مجد معاوية وعظمة أبي العباس السفاح في الثلث الأخير من هذا القرن الغارب .

وقبل أن يرتدي خالد أحمد زكي ومهيار وفصيلهما المقاتل ، البزة القتالية ويرحلوا تحت غيمة أحلامهم إلى أقاليم المستنقعات الغامضة ليخوضوا انتفاضتهم السحرية ، كانت المعارك السياسية في أوج احتدامها في قلب العاصمة حول كيفية إنقاذ الحزب من الدمار وتصفية الزمر الانتهازية ، والتكتيك والاستراتيجية ، وحول الوسائل العنفية الحاسمة ، ومسألة إعلان الانشقاق النهائي .

وما كانت الأمور محسومة في أوساط التيارات التي تشكلت داخل جسم الحزب ، كما لم تكن تلك التيارات المعارضة مندمجة في مجرى واحد . كان الوضع شبيهاً بجبل ثلج يتشقق وينحدر وتتصادم كتله المنهارة ، وبفعل قوة الجاذبية والصدمة والاندفاع الحادّ كانت الكتل تنقص أو تزداد وهي في طريقها إلى الوادي .

«من المؤسف أن الصراع الشديد حول مسائل التكتيك قد تسلل إلى صفوف التيارات المناهضة للخط الانتهازي . وهذه الحالة التراجعية

ستضعف قدرة الحزب على تصفية خط آب نهائياً» .

ويضيف خالد أحمد زكي بأننا ضيَّعنا وقتاً طويلاً وفرصاً ذهبية في الجدل اللامحدود حول إسقاط الحكم أو عدم إسقاطه والكيفية التي يتم بها ، وعندما نتفق على خطة معينة يذهب كل منا ليطبق ماإتفق عليه حسبما يراه هو صائباً ، وهكذا يستمر هذا الوضع الشاذ والغريب داخل الحزب كما كان قبل سنوات . إن بيانات الحزب تعكس سياسة ثورية صائبة . لكن الجماهير من خلال تجاربها المريرة ملَّت وسئمت هذه الوعود اللامجدية . إنها تبحث عن العمل الجدي والفعال ذي الطابع العنفي . ومن لايصدق ذلك فلينزل إلى الشارع ليرى بنفسه تلك الحقيقة الصارخة . إنهم يجيبون على بيانات بالتجربة العفوية : «يمعوَّد هذا كله نعرفه . احنا نريد شغل . هاي وين تخرج !» هذا ما يقوله الشعب في هذه اللحظة .

وبعد فوات الأوان ، في أعقاب الصخب اللامجدي ، وعودة القيادة الهاربة إلى موسكو كعادتها في الأزمات الخانقة والتي رفضت عقد مؤتمر وطني متّهِمَة مناهضيها باليسارية الطفولية والتخريب والحضّ على الانشقاق والمواقف اللا أممية والنزعة البرجوازية الصغيرة المغامرة ، فوجىء خالد ومهيار وفريق الكادر بالطرد من الحزب مع جماعة بغداد .

وهكذا عندما سيبدأ التحضير للإنتفاضة المسلحة في أوائل حزيران ، ويرتدي المدنيون ستراتهم القتالية بسرعة فائقة وعلى نحو دراماتيكي ، سيبدو الأمر شبيهاً بعرض مسرحي استفزازي مرتجل لم يجرِ التدريب على أدواره بالشكل المطلوب .

وعلى نحو تراجيدي يذكر بمقدمة المسرحيات الإغريقية المضادة للقيصرية سيصوغ خالد بيان جبهة الكفاح الشعبي المسلح المقتضب رداً على قرار الطرد :

«يا أبناء شعبنا الباسل .

يا أبطال ثورة العشرين وتموز .

إن ساعة النضال المسلح قد دقت لتضع حداً لحكم الارهاب والألم والخيانة . منذ أمد طويل وأنتم تقاسون الجوع والحرمان والاضطهاد . إن دموعكم ودمكم وعرقكم قد حولت إلى ذهب وعقارات وامتيازات

لخدمة الحكام الطغاة من رأسماليين وإقطاعيين حيث يعيشون في ترف وبذخ بينما تعانون أنتم الحاجة والفقر .

إن الحكام الطغاة الذين يخدمون الإقطاعيين الكبار والممولين وشركات النفط ، والذين هزموا أمام اسرائيل ، حولوا العراق إلى معسكرات اعتقال كبيرة في الوقت الذي يقاومون بدم وحديد نضالكم العادل ، وفي الوقت الذي تدافع فيه هذه الطغمة عن مصالحها الخاصة تدافع أيضاً عن مصالح الطبقة الرأسمالية والاقطاعية وجميع المستغلين الذين فرضوا عليكم .

إنهم يشددون الضغط على الحريات ، ويقتلون المناضلين ، وينتهكون كل القيم . إن أعداءكم لايفهمون سوى لغة القوة ، وحكمهم الدموي سوف لن يطاح به إلا بقوة السلاح .

لهذا قامت جبهتكم المناضلة ، جبهة الكفاح الشعبي المسلح . إنها تضم ممثلي كل القوى الثورية ، والمجموعات التي شرعت بالنضال لإقامة حكومة ديمقراطية ثورية ، سوف تحترم حقوق الشعب ، وستوزع الأراضي على الفلاحين ، وتقضي على الاستغلال والطغاة والإقطاعيين» .

* * *

فيما بعد ، بعدَ أن يخترق الرصاص صدره ويمتزج دمه بصلصال المستنقعات ، لينام هادئاً على صدر مهيار فلا يعلو صوته إلا بعد زمن طويل ، طويل ، سيردد القصب في أنين الريح بصوت فيكتور جارا شهيد سانتياغو في الستاد الرياضي هذا المقطع التراجيدي الحزين :

«أتيت مغنياً هذه السامبا

بإيقاع حر من قيوده .

لقد قتلوا المحارب الشجاع :

غيفارا القائد .

الأدغال ، الأدغال

آجامُ القصب والجبال ستردّد : الوطن أو الموت

تلك كانت صرخته .

بوليفار أشار إلى الطريق

وغيفارا الشجاعُ سار عليها
حاملاً أعلام المجد من كوبا الأم .
بوليفيا تبكي الآن
حياته التي ضحّى بها .
آه . أيها القديس أرنستو من الهيفيرا
هكذا كان الفلاحون يدعونه .
الأدغال ، الأدغال
«الوطن أو الموت» تلك كانت صرخته التي لم تمت» .

الحب

KMH

وبونه مدينة غريبة . شعاع أو شهاب هوى من الأعالي واستوطن الحافة الشمالية لأفريقيا .

مهدي جواد كان يسميها الطفلة الشرسة التي تداعب أمواج المتوسط بأصابع قدميها ، وتتكىء برأسها على جبل سرايدي ، وهي المسوَّرة بالبحر والغابات وحقول القمح وأشجار الزيتون والبرتقال ، والتي كانت المأوى الشرقي لقراصنة بارباروس بعد غاراتهم على سفن اسبانيا وصقيلية .

بناها الفينيقيون ثم رممها الرومان والآن لم يبق من تاريخها العمراني غير أعمدة من الأنقاض ، والميناء وكنيسة القديس اوغسطين حيث يسجى جسده المصاغ من الجصّ .

الفرنسيون بنوا المدينة الجديدة شرق الأنقاض على التخوم المجاورة للبحر .

وبعد اندحار المعمّرين الفرنسيين وجيوشهم الغازية ، هبطها الجزائريون من الجبال وسكنوا منازلها الفخمة المغطاة سطوحها بالقرميد الأحمر والمحاطة بأزهار الليلك والمصطكي .

هي الآن بعيدة عن امتدادها المادّي الصلب ، تتحول إلى ضربة شمس أو سرطان خلوي ، تستوطن الأعصاب وتلمع كالنيازك على شاشة الذاكرة .

المدينة النائية ، والمرمية في أطراف القطب ، والأقوى من صرخة الموت ونشيج الحزن الغامض .

كان يسميها الميناء واستراحة الحرب . جزيرة يوليسيس التي نجت

من الدمار الطروادي .

في هذه المدينة استقرت أسرة سي العربي ، الأسرة التي تحولت بعد الحرب بعملية قيصرية إلى أسرة يزيد ولد الحاج مساء زواجه من لالا .

وداخل هذه المدينة ، كانت الحياة رتيبة ، مملة ، تمضي في النوم والتسكع والطعام والعمل السلبي المنهك والثمل والحلم بالسفر خارج المدينة الصغيرة ، الضاغطة ككابوس .

كان سكانها يكرهونها لضيق جهاتها الأربع ، ولإتساع الأحداق حول ما يجري في حواريها وأزقتها القديمة .

لقد تعمقت الكراهية أكثر من وحشية البوليس الوطني إزاء البشر الذين لم يكن ليرى فيهم أكثر من عصاة أو حيوانات شرسة خارجة عن القانون ومنتهكة لحرمة الأخلاق .

وخارج نطاق العمل اليومي الذي ينتهي في منتصف النهار ، كانت الحياة تمضي بين المقهى والخمَّارة والمبغى والتسكع في ساحة المدينة وعلى شواطىء البحر .

وفي أماسي المنازل العربية ، كانت الأسر بعد العشاء ، تنصلب كالتماثيل منذ السابعة مساء أمام شاشة التلفزيون الغبيَّة لتشاهد مباريات كرة القدم أو مسلسلات الويسترن والكابوي الأميركي أو الأفلام المصرية القديمة المليئة بالحسرات والدموع والخيبات .

ومع أن في المدينة مسرحاً ضخماً بناه الفرنسيون ، إلا أنّ أغبى أنواع المسرح الشعبي كان يعُرض عليه خلال المواسم قبل أن يأتي وقت المسرح المدرسي الساذج والتهريجي .

وخلال عام كامل شهدت المدينة فيلمين أو ثلاثة من نوع «حالة حصار» أو «الأفيون والعصا» أو «الأرض» ؛ كانت مدار حديث العام بين من حضروها .

غرب الساحة كانت المكتبة اليتيمة التي لا اسم لها والمجاورة لمحطة القطار ، لاتعرف واجهاتها من الأدب الجديد أبعد من المنفلوطي وأحمد شوقي ، ومن السياسة والفلسفة أبعد من عبد الحميد بن باديس والغزالي وابن تيمية .

غير أن الكشك الدائري القائم في منتصف الساحة ، كان يقدم آخر السلع الاستهلاكية ، واليانصيب الرياضي ، ومجلات الجنس السرية المهرَّبة من فرنسا ، عبر ابتسامة سي عمر الاسخريوطية ، المفعمة بورع

اقتصادي وشوق كاذب يتحدث بهما عن لوعته العميقة وتوقه لزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة .

في هذه المدينة النموذجية ، كانت لالا فضيلة تحلم ، بتواضع الفقراء ، أن يتعلم أولادها ليحققوا مستقبلاً يليق بهم .

ومع أن ثروة يزيد ولد الحاج كانت تشكل عصباً قوياً من حركة المدينة التجارية ، غير أن أحداً من أسرة سي العربي ماكان طامعاً بهذه الثروة .

كانت الأم تكافح في سبيل استقلالية أبنائها ليبنوا حياتهم ومنازلهم بكفاحهم الذاتي ، وذلك من خلال تقاعد الشهيد وعمل رابح الذي يشتغل عاملا في معمل عصير ؛ كذلك كانت رغبتها عارمة في أن يبقى الأطفال في كنفها فلا يغادروا بونه إلى بلاد بعيدة .

وفي بونه ، كما في كل البلاد المغربية ، كان الحلم الأكبر : الهجرة إلى فرنسا الأم . وكانت لوحة الحلم الملونة بألوان قوس قزح تسمى : الحرية . وما كان الانسان بحاجة إلى دراسة معمَّقة في البسيكولوجيا الجماعية ورفض الاستبداد لإدراك المغزى والدافع السري للهرب خارج هذه الاسوار الجحيمية .

ومع أن نزعة الحنين إلى المغتصب تظل كالوشم في الأعماق ، إلا أن جوهر النزوع كان يتأتى من تلك الرقابة الخرقاء على السلوك ومن فظاظة التخلف وانحطاط العلاقات المضادة لرغائب الانسان المشروعة .

في الأسرة كانت تبدو علاقة لالا فضيلة بآسيا شبيهة بحالة عشق خفي ، العشق الذي تكنّه الأم للولد البكر والوريث الأول . ولأن آسيا كانت تشبه سي العربي بقامتها الطويلة وأنفها المفلطح والرجولي وجبهتها العريضة ، كانت الأم تقول لها : إذا تغرَّب الآخرون لا ينبغي أن تغيبي . سينكسر قلبي إذا رحلت وأموت غما ياآسيا .

كان هذا الحب الامتلاكي يؤلم آسيا في قرارتها . لكن الأم كانت تصادر أحلامها السفرية قاطعة قوس قزح بشهقة حبل السرة .

منار وحدها كانت تمتلك قلباً قاسياً ، متمرداً ، وخارجاً على الميراث . كأنما دمها مختلط من جدتها الفرنسية .

وكان واضحاً أن هذه الصغيرة النفور كوعل بري ، لاتقيم كبير وزن للعلاقات التقليدية ، ولا للحنين المرضي للأهل والمدينة التي كانت تسميها : المدينة الضيقة المسمومة والخامجة . وكانت لالا فضيلة تعلّق

على قسوتها : هذه الكحلا ليست عربية . العرب حنونون وغيورون أما هذه فطالغة لجدتها الفرنسية . قلب قاس وبارد كالحجر لايفكر إلا بروحه .

كانت منار صغرى بنات لالا تصهل في سهوب بلا حواجز . في البيت والمدينة ، وفي ملاعب التنس مع صديقاتها أطلقوا عليها اسم المهرة البرية . الحواجز قائمة لكن هذه الطفلة الشرسة شراسة المدينة كانت تكسرها . تتأخر عن الموعد الطقسي الذي حدده يزيد ولد الحاج قانوناً إلهياً لآل البيت في الساعة السابعة مساء ، تحت شريعة الخوف من ذئاب المدينة والفسق المستشري والشرف المهدد في أي زاوية من زوايا المدينة ، كما كانت منار تذهب إلى ملاعب التنس وتتدرب على الرقص مع الفرقة المدرسية وتمارس رياضة الزوارق الشراعية ، وعندما كان ربّ الأسرة يسألها عن تأخرها باكفهرار ينبىء بهبوب عاصفة ، كانت تصرخ في وجهه : أنا حرة وأعرف ماذا أفعل . ثم تستدير عنه إلى غرفتها وتنزوي هناك مع مجلاتها المصوَّرة أو تستمع إلى الموسيقى حالمة باليوم الذي تنهي فيه دراستها الثانوية لتهاجر إلى باريس قاذفة بهذه البونة العربية الموبوءة ، إلى الجحيم .

وفي أواخر المساء ، عندما تكون لالا فضيلة تدفع الثمن في فراش يزيد ولد الحاج بارتفاع ضغط قلبها تحت وقع حماقاته وتهديداته من سلوك منار الشاذ ، تكون آسيا ومنار مستلقيتين في سريرهما المزدوج تتجادلان حول الحرية والواجب الأسري ومراعاة وضع الأم المشرفة على الهلاك .

وبقدر ماكانت تبدو منار أنانية ومتمردة ، متشبثة بجذر استقلاليتها وهي تتحدث عن ضرورة مجابهة هذا الطاغية الذي سمته : هتلر ، كانت آسيا هادئة وغيرية ترى إلى ماهو أبعد من الشخصي والخاص . كانت تؤكد في حوارها مع أختها على ضرورة تضامن الأسرة وتماسكها ، وأن الأم ستكون الضحية في سياق التمرد الفردي ، فيزيد ولد الحاج قوي الآن ولا يُقاوم بصرخة منفردة في وجهه ، وعلينا أن نشعره أننا معاً وليس أبانا حتى ولو كان زوج أمنا . وفي تلك الليلة ستهجس لمنار عن خلافها مع مهدي في ساحة المدينة وكيف افترقا وأن انقطاعه عن البيت سببه تلك المعركة التي تصايحا فيها وتشاجرا حول الحرية . وتسألها منار : سوف لن يأتي إلينا بعد اليوم إذن ؟

تقول آسيا : لا أدري . افترقنا وكان غاضباً وحزيناً .

ـ اوه . لا بد أنك آذيته !

ـ لا . أبداً . أنت تعرفين كم هو قريب إلى النفس . إنما يريدني أن أظهر معه جهاراً دونما خوف في هذه البلاد الخامجة .

وتسأل منار : قولي الحق . هل تحبينه ؟

ـ لا أدري إن كان مابيننا هو الحب . عندما أكون معه أشعر براحة طفل في حضن أمه . حساس ودافىء لكنه عصبي المزاج ومزاجه كيما النار .

تهدر منار : شرقي غريب . لم أر في حياتي عربياً إلا وخفت منه إلا هو ليس مثلهم . في عينيه حزن غريب .

وتستطرد : عليك أن تذهبي إليه غداً .

ـ خائفة أن يطردني !

ـ لا . لا . أعتقد أنه انسان حر من الداخل وهو معنا ضد يزيد . إنما الحق أقول لك : أنت جبانة في مواجهة الامور ياأختي !

ـ جبانة ! كيفاش ؟

ـ أنت تحبينه في أعماقك فلماذا تخجلين من مصارحته ؟

ـ خائفة .

ـ من أي شيء ؟

ـ المستقبل . مهدي انسان سياسي وأنا أخاف السياسة .

ـ ليس المستقبل ولا السياسة . أنت خائفة من معارضة يزيد ولد الحاج .

بين الحياد البارد والرغبة العابرة في المشاركة ، ترسل منار مشاعرها بتلقائية .

تبدو آسيا خائفة من الجهر بعلاقتها بمهدي جواد . الرجل الغريب الذي تراه كسفينة في عرض البحر تهددها الأمواج لايصلح لامرأة تنشد صخرة ثابتة لا تهددها الرياح وانقلابات الطقس .

وعندما تقول منار بلا مبالاة طفلة مراهقة بأن الارتباط برجل لايعني الزواج ، وأن الفتاة يمكن أن تحبّ أكثر من رجل ، تجفل آسيا مندهشة .

في أعماقها يشيل نزاع بين العشق المراهق ، وبين الحبّ الراسخ

وبيت الزوجية المستكن .

وما كانت المسألة محسومة . كانت مراهقتها قصيرة وفي سن الخامسة عشرة بدأت تشعر بالمسؤولية بعد غياب الأب ، وابتلاء الأم بزواجها المشؤوم ، وصغر سن أخيها رابح .

هكذا في لحظة اشتباك الأشياء واختلاطات الزمن ، ظهر مهدي جواد .

ظهر كنجم مباغت فوق أفق ضبابي . ولعلها تساءلت وهي على حافة الحزن والمسرّة إن كان ينبغي لهذا الرجل الغريب أن يظهر الآن .

منار تنام الان بهدوء طفل أتعبه الحوار . من النافذة الشرقية ينعكس شعاع قمر في وداعة طائر ليلي أبيض ، يتسلل إلى الغرفة المطلة على الشارع فيخيَّل لآسيا الأخضر أنها تسمع نحيب أمّ يغتصبها رجل غريب تحت ضوء القمر في لحظة تشبه برقاً في ليل شتائي ، يداهمها إحساس كراهية مفاجىء لكل الرجال الغرباء الذي قدموا إلى بونه من الشرق والغرب بعد موت سي لخضر .

\- 2 -

إذ اطلقت منار سهم رغبتها النارية فوق اخضرار البحر ذات صباح او مساء ، فعشقت طالباً من مدينة قسنطينة ثم نامت معه بعفوية بين أعشاب غابات بونه ، ثم هجرته فيما بعد ، حلمت آسيا برجل من المدينة يؤثث لها بيتاً جميلا ، هادئاً،يعطيها الأمان لتنجب له أطفالا ذكوراً يملؤون البيت بالضوضاء والحركة كما تملأ الارانب سهلاً من العشب .

عصر ذلك اليوم الربيعي أتت آسيا إلى بيت مهدي جواد . استقباله لها لاح هادئاً وحزيناً . بدت مشرقة أكثر من أي وقت مضى . كانت ترتدي ثوباً مشقوقاًحتى حافة الثديين . لوهلة بدت وجفَة تحت ازدهار بسمتها .

لقد بوغت بها بعد أسبوع من الشجار والهجر . وكعهدها في الأيام القديمة ، سلمت بالفرنسية وتعانقا كصديقين . بعد أن اجتازت الحجرة قذفت كتبها ودفاترها على الطاولة ، ثم بهدوء سألته : هل اشتقتَ لي ؟

\- شويّه !

أجابها وهو يرتب الفراش .

بحركات من ألِفَ البيت وضعت شريطاً في المسجلة : حبَّيتك وسع الغابات .

أغنية فيروز الحميمية إلى قلبيهما . وإلى المطبخ دلفت لتضع إبريق الشاي على النار .

عادت إاى الحجرة . تصفَّحت كتباً متناثرة . ثم قالت عبارة حول ألفتها للغة العربية التي ما عادت غريبة عليها . كانت تتحرك وكأن اشتجارهما على الجسر وفي الشارع غمامة صيف . داخل هذه الحركات العفوية بدت قراراته حول تحديد العلاقة في حقل الدراسة ، تتهاوى .

ـ ماما سألت عنك ومنار قالت علاه مخاصمنا مهدي ! لو اصطدمت العيون في تلك اللحظة لانفجرت الحجرة والفضاء . لكن شيئاً آخر يتماهى مع الغفران والنفي والأستيحاش الموغل في الأوصال ، كان يصعد في الأنساغ على شكل أزهار اللوتس العائمة فوق المستنقعات .

مع عبق الشاي الحار الذي ستقدمه آسيا في ذلك الغروب وصوت فيروز ، سيزول توقيت الانفجارات لتبدأ الغابة تتفتح بورودها الخضر .

تذكر حماقة محاولة الانتحار فأحس الضعف والخذلان تماماً كما كان في حضن أمه يوم قذفهما الرجل السكران إلى وحل الشوارع : بنت الكلب اذهبي أنت وابنك إلى الوحل الذي ولدت فيه . في تلك الليلة نهضا من الوحل وهربا تحت الأمطار فناما معاً في خرابة مهجورة وطوال الليل كانت الأم ترتعد وتبكي وهي تطوقه .

الآن يستعاد فقدان الأمان فتتسلل غربة الليالي من النافذة المفتوحة على الشارع ، ومن صوت فيروز ، ومن هذه الحركات المرتبكة للفتاة الغريبة التي تصطنع الالفة والانسجام مع الأشياء والعالم . إنها تتحرك كأنما لم يكن ثمة خطأ ، وكأن شجار تلك الأمسية لم يكن أكثر من نزوة أطفال .

عندما سألته عن إمكانية نجاحها أجاب بجفاف رسمي بأن الأمر يعود إلى اجتهادها . كان يتحرك بارتباك منهمكاً بإيقاع حركات تافهة وخرقاء . هارباً من مواجهتها ونشوته السرية بقدومها .

ـ أنت لاتبالي بي ولا تنظر إليّ . ماذا هناك . هل مازلت غاضباً من تلك الأمسية ؟

ـ لا . لا . لست غاضباً . ولست شيئاً .

ـ اتريدني أن أرحل ؟

قالت ذلك وهي تحاذيه في المطبخ . هوى السؤال هويّ ثمرة قبل النضج عن أغصان أمها . كان مداهماً بحالة غريبة من الوحدة والغربة والشعور برغبة البكاء وهو يتلوى من البرد في أحضان أمه المطرودة . والتقت عيونهما . وميض شفاف حارّ يلمع على وشك الانفجار . كانا عاريين ووحيدين تحت السماء المكفهرة والصقيعية في خرابة مثقوبة الجدران . في وجهه لمحت شحوباً . فسألته إن كان مريضاً فنفى . تذرع بفقدان السكّر : سأنزل إلى السوق وأعود حالاً . لايوجد سكر . انتبهي للشاي . وفي غيابه فكّرت آسيا لخضر بأن مهدي جواد ليس طبيعياً وأنها ربما أخطأت في قدومها .

بعد أن أطفأت الغاز تحت الإبريق استلقت على السرير شابكة يديها تحت رأسها . حتى هذه اللحظة لم تكن قد سألت نفسها إن كان مايجري بينهما هو الحب أم الصداقة أم أخوة الغريب للغريب . خُيِّل إليها من خلال دفق الموسيقى والغلاف الخارجي وعلاقات المدينة المبتذلة والسوقية أن الحب المنشود خارج صدمة الجسدين ، مستحيل هنا . كانت أمواج الخوف تغمرها وهي عارية ترتعش بين ذراعي رجل لاتعرفه جيداً . رجل غامض ، مغامر ، سكير ونزوي ، يلتقطها كطير جارح ، وبعد أن يمتص دمها ونضارتها يفتح مخالبه ليتركها تهوي من على فضاء . ولتكسر مرآة هذه الصورة الكريهة جاءتها عبارة منار عن مهدي جواد الذي يختلف عنهم والتي تحبه في أعماقها لشبهه بالأخضر ، لكنها فزعة منه .

رن جرس البيت ، فانتبهت . فاجأت نفسها مستلقية لأول مرة في سريره . رتبت الشرشف بسرعة ماحية آثار الجسد واندفعت لتفتح الباب . كان يحمل السكر والفواكه والشوكولا ، ووجهاً أقل رمادية .

وهما متقابلان بينهما الكتب والدفاتر وبخار الشاي ، كانت تفكر بأن الامور ليست سيئة ومخيفة بالشكل الذي تراءى لها في غيابه ، ولم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بالراحة والأمن وهما معاً . وعاتبته على غيابه عن منزلهم لأن الاسرة افتقدته : يحبونك أكثر مما تتصور . منار خاصة .

وكان يراها في مرآة مكسورة ، مهيضاً ، غير راغب أن يشرح شيئاً أو يقترب من الحادثة . كان في الفراغ ، كاتماً الصرخة التي ليست هي عندما جاءت على شكل فصد شريان .

وقال : افتحي كتاب النحو .

ـ بالعقل ! لم ننته من الشاي بعد ! قالت معترضة .

وتناول كتابها ودفتر الوظائف .

ـ لماذا لاتزال تحايد وأنت تنظر اليّ !

ارتدى قناعاً لايصلح له وهو يقول : منذ الآن سنهتم بالدروس ولا شيء آخر .

ـ ولكن ماذا هناك ؟ هيا قل لي .

ـ لاشيء . الامتحانات على الأبواب ويزيد يراهن على نجاحك . لقد أمضينا أوقاتاً فائضة لامعنى لها في الثرثرة .

على نحو مباغت عَلَت طبقة صوتها : يزيد . يزيد . من الذي قال لك أن هذا الحلّوف يهمني ! لتحرقه النار . أنا حرة في حياتي . في خيري وشري . أنا لست مدينة له بشيء أبداً .

ـ في النهاية هو سيِّد البيت .

ـ ولكنه ليس سيدي . زوج أمي لا أكثر . كانت الآن تتحدث بثقة وعناد وصلابة لاتترك أثراً للشك بأنها تحتاز الآن شجاعة وقوة الانشقاق عن بيت ماعاد بيتها رغم الضراعة الأمومية التي تناديها لتعود .

ظل محايداً وهو يقلب صفحات الدفتر رغم أنه كان يلتقط بدقة صوتها العالي . وفيما مضى كان يحدق بنهم ابتهالي إلى وجهها وزغب زنديها ونضارة الجسد الصلب يكاد يخرج من ثوبها ويغمره . هي الآن بعيدة ، تكاد تكون غريبة عنه ، وبينهما مسافة جرح .

مدّ يده ليتناول القلم من الطرف الآخر للطاولة فانحسر كم القميص وبان أثر الجرح المحترق بعد نزع الضمادة .

ـ ماهذا ؟

صاحت كأنما تئنّ . كانت عيناها مركزتين على الجرح .

ـ لا شيء . لاشيء .

كل شيء بدا مغموراً للحظة بألوان العبث والاشمئزاز ، وما هو الآن والماضي وما سيجري بينهما ، كان يمكن أن يقال أو يفعل بشكل مختلف وأكثر تواطؤاً .

داخل لحظة انفجار أمام تيارات إلحاحاتها قال : أنت السبب ! وعندما سألت بدهشة لماذا وما الذي فعلته ، أدرك أن حماقة أخرى ارتكبت ، وأنه وقع فريسة سلسلة من الأخطاء والأنبهارات والارتباكات والتوريطات ، راح يختلج داخل خيوطها العنكبوتية . واستمر تحت هالة من الهذيان اللاشعوري المنبثق : بلى . مع إنك لاتستحقين ذلك لكنني فصدت دمي من أجلك . إنها لحماقة طفل أبله . ولكن الأمر حدث . حدث هكذا في لحظة جنون خُيِّل إلي فيها أنني أحبك . كنت مخدوعاً . حدث ذلك بتأثير الغربة والعزلة المريرة . العزلة التي تدفع بالسكين الى حافة القلب .

توقف كل شيء . حركاته وصوتها ويداها السائبتان على غطاء الطاولة والكلمات المعلَّقة في الحلق . هبطت السكينة عليهما كأنما الزمن والحركة اعتقلا للتو . وكما يصعد نسغ تحت لحاء شجرة ، صعدت أشعة العيون وتلاقت في أبواب البراعم . عيون تضيء مرارة وتضيء حناناً ، وتضيء شغفاً وانفطاراً ، فامّحت الغربة . كان قلبها يُرى تحت صدرها وهو يخفق متسارعاً ، على وشك الوثوب خارج الأضلاع في اللحظة التي شهقت فيها : آه . آه . يايومًا .

وهي تمسك بأصابعه متلمسة الجرح ثم وهي تقترب بشفتيها من المعصم وتقبله : سامحني . سامحني ! دارت الغرفة . حملتها الريح خارج الجاذبية وابتدأ بريق وحشي ، عذب وجارح ، يعصف بجسدين يطلقان ملايين الشرارات تحت هذا المهرجان الطائر في فضاء بونة .

- 3 -

حدث ذلك في أول نيسان . في عيد الكذبة التي صارت حقيقة في لون أزهار اللوز البيضاء والليمون والمصطكي وهذه الشمس التي تستيقظ من فجر البحر .

تحت ذلك البياض والضحى اغتبطا . امرأة ورجل داخل غرفة ضيقة ومغلقة انفتحت حتى صارت في رحابة كون لا يُحدّ . دخلا في الحقول الخضر ، وجريا تحت الأمطار الخضراء ، وانبثق من ضلوعهما براعم وينابيع خضراء ، حارة ، وباردة ، في أعقاب شتاء كان شديد البرودة .

وما كانت الروح وحدها التي ازدهرت في ذلك الربيع . كان

الجسدان يطلقان ملايين البروق فوق شواطىء وجبال بونه .

ـ أأنت بهذا الحنان !

ـ كم كنت قاسياً !

منغمران . تحت شجر الجسد الفوّاح . رأس طفل يتغلغل في صدر أمه . وذراعا طفلة تطوق أباً عائداً من سفر طويل .

ـ كم كانت أشهراً صعبة !

ـ كيف حال الغربة الآن ؟

ـ أنت وطني .

ـ نصف عام مضى في المقدمات والألعاب والأكروبات وهذيانات النفس حتى وصلنا إلى هذه الحقيقة البسيطة .

لم يكن سهلاً إحصاء الكلمات التي تدفقت تدفق الأشعة داخل مياه البحر ، هنا في هذه الغرفة التي عزلها العشق الصاعق عن عالم الاحصاءات وعلوم الأخلاق وميثولوجيا الدهر العربي الراكد .

كل منهما وهو منصهر بالآخر عبر الأذرع ، والأفخاذ ، والوجهين ،والعيون ، وفيضانات المسام ، كان يكتشف ما كان عصياً على الكشف في أشهر الكذب والمخاتلة والرعب .

كان الوقت الذي ضاع في جوف الكلمات الفارغة ، يُستعاض اللحظة بهذه الألفة العضوية الرافعة لنبض الأوردة ، تحت مطر موسمي يصعق الحواس بالشهوة ورجفة الموت فيحدث التعارف .

ـ لماذا ظللنا غرباء حتى الآن .

ـ لم نكن .

ـ كنت بعيدة .

ـ مذ وطئت عتبة البيت ماعدت غريباً .

ـ كنت محايدة . باردة كجبل ثلجي . قال ذلك وهو يشدها من أذنيها .

ـ اوه . لا . كلما اختمرت الأرض بالمطر ينضر العشب ويقوى . وأخذ رأسها فاحتواه بكفيه وضغطها إلى صدره .

وفي لحظة الوهج صرخا معاً . صرخة الاحتفال بالدم وهو يمتزج بالدم .

سيتذكر فيما بعد تلك الأزمنة السعيدة التي ستأتيه مع الرياح في مطالع الربيع وهو ينتشر فوق التلال والسهول وحقول المنفى ، وستأتيه الروائح التي تفطر القلب إذ يهبط الشوارع المشجرة الشبيهة بشوارع بونه ، في الأصائل التي تشبه أصيل اللورانجري العابق بزهر الليمون وهو يقبلها على عتبة الدار .

* * *

في ذلك المساء يكتب مهدي جواد في اليوميات المهجورة :

زمن جديد يطلع . نجم ساطع في ليل . امرأة العصور الجديدة التي حلمت بها مذ كانت الدنيا سديماً والعالم هيولى . حيث لا حبّ لا توجد حقيقة . عدم الكون وعدم الحب شيء واحد . إنني أنغمر في غياب الآلهة وهذا الدمار البشري ، داخل أمواج هذه المرأة التي قذفتها في وجهي ابتهالات البحر .

مدينة جديدة .

ناصعة ومصقولة بضياء الشمس ، وهذا التموُّج الشفَّاف ، الغامض ، الخارج من كل نبضة من نبضات الأرض والفضاء .

بونه . الربيع .

ضياء فجر يتدفق من السماء وشجر الحدائق والساحات وانفساح البحر . فضاء شبيه ملاءة حريرية شاسعة كالكون أرختْها سماء عارية من الغيم .

لاموت . البشر أطفال يضحكون في الشوارع وعلى الأرصفة . أبنية جديدة ، وساحات جديدة . الشمس والغبطة تنهمر أشعتهما شلالات من الوجوه والأعشاب وبياض المنازل .

* * *

مهدي جواد يستقبل المدينة مفاجأ بها وكأنها غابة منقَّطة بالبيوت البيضاء هبطت ليلاً من كوكب آخر .

في الطريق إلى المعهد يظهر خليج بونه المرجاني سواراً من الماس ، مفتوحاً على الحقل البحري ، يطوق المدينة . نوارس بيضاء تخفق فوق البواخر محتفلة بصباحها الأزرق وأصوات طيور وروائح عشب .

ما عدت وحيداً اذن ! ياه . ما أبهج الحياة وما أعذبها أيها الأسود !

كان الطيف الآسيوي يخفق كالشراع تحت عينيه الجديدتين ، ومن مركز المدينة حتى وادي القبة حيث المعهد ، كان الطيف يرسم له تفاصيل اليوم السابق .

وقائع الحلم التي تتراءى لرجل على حافة الشهقة الأخيرة ، يُرى في تسارع مفلت من عقال الجاذبية . ينهض من قبره ليلاً ليُقذف داخل ملايين الإشعاعات فوق أرض لم يرها ولم يسمع عنها ولم تولد يوماً سوى في هذا الإنهمار الضوئي المشتت كنيازك من الزهر .

عندما يختلط المشهد بصخب الطلاب ودوي أصواتهم في باحة المعهد ثم في قاعة الدرس ، تتبدد الأشعة والأزهار وحقول الأرض والبحر ليتجسد تحت بصره هؤلاء الأبالسة .

كان الطلاب يحبون مهدي لأنه يترك لهم الحرية خلال الدرس في طرح الأسئلة الخاصة أو العامة الخارجة عن مجال الموضوع ، ومع أنهم كانوا نماذج لعينة في الشغب والثرثرة وكراهية الدراسة ، إلا أنه كان يحاول تقديم درسه وكأن هؤلاء الخمسين طالباً يستلقون على العشب في الهواء الطلق .

خلال أقل من ساعة ، مضت عشرون دقيقة منها عبر الأسئلة والأجوبة عن الأمور الخاصة والأشتباكات الجانبية والتعليقات الساخرة وهيجانات المراهقة ، استطاع خلال أقل من ثلاثين دقيقة شرح قصيدة لأبي فراس الحمداني .

أثناء التحليل وفيما تبقى من الوقت حتى بعد قرع جرس الاستراحة ، أثيرت حوارات حساسة انتقلت من جو القصيدة إلى مداخل الحياة الشخصية .

كان هناك شطران مثيران : « تكاد تضيء النار بين جوانحي» «ولكن مثلي لا يذاع له سرّ» .

من خلال تركيز مهدي جواد على هذين المقطعين وتحليلهما بافتتان خاص ، عثر الطلاب على مدخل الخروج من عالم أبي فراس إلى ما يلامس أحاسيسهم ورغباتهم الداخلية .

في لحظات من المجال الحرّ للأسئلة ، بوغت الأستاذ مطوقاً بأسئلة محرجة وشخصية من قبل مجموعة من الطلاب كأنما اندفع حسها الشيطاني للإيقاع به .

سأله أحدهم عن رأيه في العنّابيات وهل وقع في شراكهن أم لا . وقال آخر إذا كان الأستاذ كما يوحي لنا ويعلمنا الصراحة وفن الصدق عليه أن يبوح لنا باسم حبيبته .

كان مناخ الدرس قد تحول إلى حقل من الصخب والهرج والاعترافات ، وبدا مهدي جواد مُغبطاً وهو يحاول تفادي الحرج والجو المنذر بالفضائح ، وقال بأن عليكم أن توقفوا قليلاً هذه الجلبة . ليس في الأمر فضيحة كما ليست خطيئة أن يحب الانسان . العشق دافع طبيعي احتياج الجسد له كاحتياجه للهواء والماء والطعام . أن تحبّ فأنت موجود وحيّ .

وضحك وهو يسمع صوت طالب يصرخ من آخر مقعد : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان !

وقال الأستاذ : صح . صح . كما للانسان حياة واحدة لا حياتان . وعليه أن يحياها بكل طاقاته قبل أن تفلت منه إلى الهاوية . ومن الزاوية اليسرى انطلق تعليق : إن لجسدك عليك حقاً . صدق الله العظيم .

ـ اسمع . الجزائري ربما كان الأول بين العرب من يعرف قيمة جسده . معبوده الرياضة والخمرة والنساء والبحر .

كالطلقات شالت التعليقات والضوضاء ونشوة الفحولة الذكرية .

ـ الجزائري دمه سخون .

ـ النار يادين الربّ . النار .

ـ ياسيدي حارّ من أكل الهريسة .

ـ الأصل جبلي . ذيب غابات .

ـ الطفلات ياأستاذ يهبّلوا ويطيّروا العقل . بنات بونه كيما اللبؤات .

رشق من فوضى واندفاعات الأعماق المختزنة ، أطلقه المناخ الحرّ للحصة الدراسية ، في لحظة خيل فيها لمهدي جواد أن هذه الفوضى قد تخطت شريطها الأحمر المسموح به .

دقّ على الطاولة : كفى . كفى .

ـ أستاذ هل يمكن أن تعترف لنا بآخر مرة نمت فيها مع امرأة ؟ !كم بدا السؤال فجّاً . خيّم صمت . في فضاء حجرة الدرس علّقت قنبلة حُلّ صمام أمانها .

كان يجلس على سطح أحد المقاعد الأمامية . هبط بهدوء وتحرك

بين المقاعد . داهمته حالة ضيق . بالإمكان الإجابة بلا حرج ، لكن السؤال رن صارخاً ، مبتذلاً ، منفلتاً من حقل الحرية إلى غابة الفوضى والمزاج العاري .

اتجه إلى السبورة . تناول قلم الطباشير وكتب بخط عريض : ولكن مثلي لا يُذاع له سرّ .

ـ أستاذ ! لماذا تهرب ؟

ـ قل الحق . قل الحق !

وبهدوء . وهو يلملم كتبه ودفاتره تأهباً للخروج قال : الجواب في الدرس القادم .

* * *

وكانت بلاداً جميلة .

إنها تتألق أبداً بالبحار والغابات والسموات الزرقاء . كما تتألق بنساء جميلات وشهيات كالكرز .

البلاد العذراء التي تختزن المعادن والحبوب والبترول والغاز والمستقبل الغامض ، وهذا الذي يسبِّح ليلاً ونهاراً ويسير باسم الله مجراه ومرساه .

لكنها كانت تلوح بلاداً جارحة كحدّ المدية .

فكما تختزن الجمال وعذوبة الطبيعة والمواد الخام ، كانت تختزن الزلازل والأعاصير ونذر الحرب ومقاصل الإعدام . وفيما مضى في عصور سحيقة في القدم ، يوم كانت قارة من الصحراء المموجة تحمل على ظهرها النوق والخيول والخيام الراحلة ، كانوا يسمونها : مهابط وأرض الأنبياء .

غير أنها مع تقدم الأزمنة ، عندما ستمزق مسامها لتتفجر بالدم الأسود ، ستُسمى مهبِطَ ومرقى فرق الكوماندوس ، وحملة بنادق الناتو ، والبحَّارة اليانكيين ، ومِخْبراً لصنوف تجارب التعذيب . ومن أعماق هذه الأرض المترامية الأطراف شرق المتوسط وغربه ، يكتب بشير حاج علي في معتقل بوارسون وهو يسمع الأذان والصوت الغنائي الشرقي فجراً : «صوت عجيب لمغنية جهيرة آت من أعماق النيل . صوت يكثِّف الصمت الثقيل . أذان بطيء يرتفع داعياً للصلاة ، يمازجه ضجيج الأحذية

العسكرية الأصم ويقطعه ذهاب سجانين مستوفزي الأعصاب .

القلب يرتعش وكل واحد ينتظر دوره في المحنة والعذاب . بعد لحظة سيُساق إلى الاستنطاق رجل أو امرأة» .

* * *

بعيداً عن هذا شدّ ما تبدو غريبة حكايات وهرطقات هذه المرأة المسماة : فلّة بوعنَّاب .

المرأة التي سقطت سهواً على شواطىء بونه حيث نسيها الله بعد أن اختار لها زاوية ضيقة من زوايا الجحيم قائلا لها : امكثي هناك ملعونة إلى أبد الآبدين . فتردّ بصرخة شيطانية : في مؤخرتي الحياة الآخرة وأنهارك العسلية وينابيع الكوثر . هذه حياتي الآولى والأخيرة وما تبقى خذه . سامحتك فيه . اعطه لعبادك الصالحين .

تقول ذلك بعد أن حلمت طويلا بامتلاك اخضرار البحر ، لكنها لم تقبض سوى الريح العاصفة .

وعندما يحلو لها ، وهو يحلو لها دائماً ، أن تتكلم عن الرجال والنساء يرسم مزاجها للمرأة الجزائرية وجوهاً ثلاثة . الوجه الاول وجه المناضلة والثاني وجه العاهرة والثالث وجه الأم .

ودونما شعور ربما ، تشرح حالتها ، رامية ستارة الأم تمويهاً ، بين الغريب المشاهد ومسرحها الذاتي المغلق .

تقول بأن الأفريقية بقدر ما هي طيبة وبسيطة كالطبيعة ، بقدر ماهي شرسة وشهوانية . إذا ما أعجبها الرجل طاردته حتى آخر الدنيا لتحصل عليه وإذا كرهته بحثت عن آخر في اليوم الثاني . نحن عنيدات كالحيوانات إنما الوفاء مسألة فيها نظر . قد تقول : الدم . أما أنا فأقول : جرثومة الشهوة التي تنغل . وفاء صادق للطبيعة . ربما كان هذا بتأثير الشمس أو الميراث الدموي ، أو الاثنين معاً ، لا أدري . ما هو مهم إنها تندفع مع غريزتها بلا حرج . الحق أقول لك : صرخة الدم هنا لابد أن تخرج إما بالجنس أو القتل .

يحاول مهدي جواد كسر انهمار التدفق الأبليسي الغريب وهو يعترض بأن هذه ليست سمة أفريقية محصورة ، فتقاطعه : لا . لا . اسمع . سأقول لك شيئاً خاصاً عنَّا . نحن نشتهي الفرنسي والجزائري والعربي

معاً . هل تستطيع أن تتكهن لماذا ؟

ـ لا . تكهني لنا . ترمي وَدَعها ثم تخط في الرمل : هو صوت الدم المبدد أو الشهوة أو العبث أو رغبة الاستبدال . آ . هذا ماتقوله . ولكن أنا أسألك : الجميل والغريب والغني والذكي والمغامر والشهوي والفنان والشجاع والقوي ، هل يحتازها كلها رجل واحد ؟

ـ لا . طبعا !

ـ الجزائرية في بلادنا تحلم بهذه الجمهورية المفقودة من الرجال . من أجل ذلك تخون إذا كان ذلك البحث عن تلك الجمهورية يسمى خيانة .

ـ هذا ماذا تسميه . فلّة ؟

ـ بحث مشروع عن الحق الطبيعي . حق أم لا ؟

التياثات غريبة في عالم حافة الغابة ، تضرب رأس مهدي جواد في هذه الأماسي السحرية ، حيث تنفتح أبواب غامضة وتُهتك أسرار مقدسة حملتها الآلهة والأنبياء وختمت عليها القلوب الواجفة ، هاهي ذي المرأة التي خانها زمانها فتمردت عليه تهتك ستر القلب والروح عنها .

وخلال التماعة تعبر آسيا لخضر كالطير في هذه السماء الغبراء : آسيا داخل هذا العالم أم خارجه ؟

ـ أف . يالها من دوامات . هذا الذي تهذين به !

ـ دوامات . استيهام . استباحة . ليكن . الأمر هكذا صدقني . اسمع . حتى أنتم الرجال هل ستقنعني أنكم لاتبحثون بلهفة عن المرأة الكاملة عبر ملايين النساء ؟ لماذا لاتكتفون بامرأة فيها جزء من تلك الجمهورية الكاملة ؟

يضحك مهدي ، كاسراً هذا السيلان العجيب للعنّابية التي تستمني بهذه الهرطقات العزيزة على نفسها وجسدها .

ـ أنا مكتف بما وهبني الله .

تهزّ فلّة رأسها : هيه . هيه . يا من يصدق !

وحيدان كانا في ذلك الغروب . من نافذة البيت كانت تلوح الجبال التي تشكلت تحت المغيب لوحة آخاذة ، ومن الشارع دخلت أصوات الباعة وهدير الباصات المتأهبة للرحيل إلى أطراف بونه .

كان الوجه الرابع للمرأة العاشقة والوفية قد اختُزل وامتص في حقل من النهب ، هذا الذي ترى جذوره أكثر اندفاعاً وعمقاً في أرض المرأة .

وتحت تأثير نوع من الادمان على النبيذ الذي تشربه في كل الأوقات ، وهذا الوجيب العضوي الذي ينتابها كأرق دائم ، وديمومة التحديق في المرايا وحزن الوجه الأعجف ، كانت قد دفنت في مقابر بعيدة جثة تلك المرأة الساحرة التي تعشق حتى حدود الانتحار من أجل فارس أحلامها . وهكذا عندما قالت بأن براءة وطفولة الحب ليستا أكثر من فخ مموه بالأعشاب والزهر في غابة بشرية تعج بالوحوش ، بدت كأنما ترثي إلى الأبد تلك الطفلة اليانعة التي ازدهرت يوماً في نفسها .

وما كانت تهذي بتلك البدع لتصطاده . إنها تقول بأن بونه تشبه مصحّاً جنسياًوالرجال فيها مبذولون كالذباب . لكنها تستطرد قائلة بأن الحب يبدأ بالولع والدهشة ثم سرعان مايتبدد بالملل والعادة والرتابة ، وصديقتك يا عزيزي مهدي أرجو ألا تزعل من صراحتي ، لابد لها أن تجرح قلبك يوماً وتدميه . الهمس الحارّ والحكايا الجميلة وأصداء الشعر تصدأ بتقادم الوقت فتتبدد الدهشة والأسطورة ، ليبدأ البحث عن أساطير أخرى وأصداء جديدة . كل شيء . كل شيء يصدأ في النهاية والحب أكثر الأواني قابلية للصدأ . هذا هو قانون الطبيعة . لا أدري ماذا تسمي هذا !

كان من الممكن دحض هذه النظريات الجرثومية المستنبطة من أصول لا بشرية ، وهو يتذكر آسيا ووجه لالا فضيلة المشعّ بالحنان والأمومة والسلام الروحي ، لكن العنّابية ستظل تماحك بعناد حتى الفجر لإثبات تجاربها المخبرية . وفي مثل هذه الحالة المنهكة للأعصاب سيتصدع رأسه تحت طنين ثرثراتها المضنية . الثرثرة التي لن تهدأ إلا بضغط أصابعه على بشرة فخذها العاري والصرخة التي سيرفعها جسدها الناري وهو يلتهب في صليل جحيمه .

غير أن الأصوات الخارجية القادمة من الشارع واقتراب قدوم مهيار من المعهد ، وسوداويته التي غلفت الجو ، نشرت ستاراً كالحاً فوق جسم فلّة الخشبي فأوقفت احتمال الهجوم المضاد .

حكّ صدغه ليزيح الكآبة فجاءت المدينة . هذه التي لم تكتشف كل أسرارها الجاثية تحت الزبد . مدينة الحب والشهوة والخيانة والسمسرة والصلاة والسطوة الاقتصادية . بونه يوليسيس والساحرات ومصاصات الدم والأمجاد الزائفة . وعلى الشعاع الخاطف العابر من خط الاستواء الأفريقي تراقصت فراشات وطيور تائهة ما عادت تعرف الطريق إلى الحقول ولا العودة إلى الشرنقة .

الآلهة والبشر والشمس وصرخة الدم ، كلها كانت تنذر بزوبعة غبار تسدّ أبواب المدينة وشوارعها ومنافذها في وجه هؤلاء الغرباء الذين هبطوا على سطح هذا الكوكب اللعين في غفلة من الدهر .

واذ قالت العنّابية : عيني مهدي . هل أزعجتك ؟ صحا قليلاً من دواره .

ـ لا . لا . لماذا ؟

ـ أعني هل جرحت شعورك ؟ صدقني أنا سعيدة بعلاقتك مع آسيا . مع عبارة : أبداً . أنا وصديقتي لسنا آلهة ونحن . . . رنّ الجرس فقامت لتفتح لمهيار الباب .

* * *

سيتذكر ذلك فيما بعد بشجى .

الأصيل والتلال الخضراء ولمعان حقول البحر .

إنها الريح هذه التي تتدفق دافئة من باطن الأرض ومن الأفق البنفسجي للبحر .

سوف لن يتجرأ على قول ما ينبغي أن يقال لأن العمر كان يبدو قصيراً جداً آنذاك ، كذلك كانت الشمس تشرق وتغرب بسرعة ، وكانت صرخة : آه . أنت أيتها الشمس لماذا لاتكفينني . تدوي في تجاويف حلقه .

ولأمر ما خارج عن إيقاع الزمن وغروب الشمس ، كانت حياة مهدي جواد في تلك المدينة مسكونة بالفرار ، وأن كل مايراه ويسمعه ويحسه ويشمّه يجري كأنما في حلم أو يُرى من نافذة في قطار الشرق السريع .

يُلمح إلى ذلك لمحاً وهو يستلقي على فخذ آسيا الصلب ، فوق تلال خليج المرجان المعشبة بين أزيز النحل وهسهسات الزيزان المختبئة بين أنصال العشب وتويجات الزهر .

كانا على حافة الهاوية وتحتهما البحر . وقبل لحظات كان يقرأ لها قصيدة «العملاقة» لبودلير :

أن أعيش قرب عملاقة شابة

كهرٍّ نهم يجثم مستسلماً للذته

تحت قدمي ملكة .

في ذلك الزمن كان حبهما يصعد كفطر البراري المفجّر بالرعد من باطن الصحراء . وفوق العشب كانت المرأة التي تخطت خوفها ممددة الآن بين الأعشاب مغمورة بالضوء والحبور .

في نهاية المقطع انحنت برأسها وقبّلته . أولجت لسانها فانسال الريق العسلي واهباً ذراته نضارة تتحدى الموت .

رغب أن يسألها عن الوجه الآخر الذي تحدثت عنه العنّابية عندما سألته كيف يحبها فقال حب الجذر لأعماق الأرض . ودخلا في رهان طفلين أخرقين إذ قال أحدهما للآخر : هل ترمي نفسك من هنا لو طلبت منك ؟ وقال الآخر : وفيما بعد .

ـ أرمي نفسي وراءك .

ـ لا . بل تبحثين عن آخر . قولي الحق !

هكذا جاء السؤال . قالته العنَّابية تحت هذا العراء المفتوح .

ـ لماذا تعتقد ذلك ؟ سألت باستنفار جهم .

ـ هكذا أنتن ! كما قالت فلّة .

ـ اوه . لقد أفسدتك تلك العاهرة . مذ تعرفت عليها فَسَد دمك . اسمع سوف لن تدخل بيتها بعد اليوم . فهمت ! تلتقي مع مهيار في أي مكان عدا بيتها . القحبة ! قالت بانحرار دمّ افريقي .

ـ لماذا تسبّينها ؟

ـ رائحتها في بونه كيما الجيفة . أسأل أي عطّاي في المدينة إن كان لا يعرف من هي فلّة بوعنّاب . واحدة فاتحة بانسيونها للشرقيين تصطاد لهم بنات المدارس وترشو البوليس سراً حتى لاتُداهم ويأخذونها الى البورديل .

نهض عن فخذها وتواجها .

في وجهها استفزاز الوحش وفي وجهه دم المرارة .

وسألها إن كانت متأكدة من اتهاماتها فقالت هذا ماتقوله المدينة ، وهزّ رأسه أسفاً وغماً وهو يرى آسيا لخضر مجتاحة بالمدينة وإشاعاتها وأخلاقها المريضة .

أحسّ برطوبة الأعشاب وهو يمسح براحته فوق الزغب ، ثم وهو يقتلع الحجارة الصغيرة ويقذف بها إلى الهاوية ليسمع رنين سقوطها في

البحر .

ـ ليس الامر صحيحاً . ليس صحيحاً أبداً . إنهم يكذبون . السَّفَلة !

قال ذلك وهو يضرب بقبضته تلعة من غضار الأرض . وبحركة غريبة تدحرج فوق المرج المعشب فرأى وهو مستلق على ظهره سماء بعيدة ، مقوَّسة ككأس ضخم رغب لو يطير إليها وحيداً .

- 1 -

يومذاك كان الفضاء رمادياً والريح غبارية . وكانت بونه جميلة جمال امرأة تتشح بحدادها الأزرق . وما كانت الجهات معروفة لا في الأهوار الزرقاء ولا في أعماق فلّة بو عنّاب التي انكسرت بوصلتها وهي تغادر الجبال باتجاه المدن المنتصرة .

وعندما ستقول وهي على أبواب نشوتها : أعتقد أننا سُرقنا في غفلة الزمن . سيقول مهيار : لابد أن الغفوة كانت طويلة أكثر مما ينبغي . وتقول آسيا : الحياة فسيحة وأنا أحلم ببحار مليئة بالزوارق الشراعية وبلاد عامرة بالرقص والمغامرات . ويقول مهدي جواد : ما أسعد البشر الذين لم يولدوا هنا !

سيقولون ذلك في الحجرات السرية والمغلقة ، في بونه العذبة التي مسَّها شيطان الشقاء والعشق الفاسق . المدينة المسوَّرة باخضرار البحر والغابات وسطوة الكلاب السرية .

وما كان أحد ليدرك على نحو واضح ومميز ، ماذا يحدث داخل الضمير السري لمدينة استباحها جنون البيع والشراء ولصوص العهد الجديد الذين نموا كالطحالب على جسد المدينة الجديدة . كان الفرنسيون هنا قبل عشرة أعوام ، لكن سكان المدينة بدؤوا يحسون أن الغزاة قبل أن يغادروا بذروا جراثيم سلالتهم في رحم المدينة . وإذ كانت آسيا الأخضر تقول : آه . ياللبلاد الجميلة ! وهي تختزن عبارة : آه ، يالقسوتها . كانت تبكي لخضر الذي مات مجاناً . آنها كانت فلّة بو عنّاب تنوح كندابات المقابر : آه . أين الدم وأين الرجال !

وفي عروق المدينة المعتمة والمضاءة . المدينة المسفوعة بالريح وضوع الغابات ورهبة أفريقيا ، يخطو مهدي جواد على الآثار القديمة حذِراً . هو الآن تحت الفضاءات الرمادية . يأتيه الماضي في لحظات

الحنين فيقع فريسة الروائح . تطفر الدموع تحت شجر الساحات في الأغساق الأخيرة فتحنو المدينة بليلها ونداها الهابط ، وبهذا الغلاف الشفيف لجسدها العذب . تعبره موجة فينتبه إلى أنه يبكي نفسه والوداع القادم لمدينة ليست له . مدينة فارَّة من يديه وتحت قدميه . مدينة الذاكرة التي ستجرحه يوم يغادرها نحو أرض أخرى لايعرف أين تقع . وتحت تأثير هذه الروائح التي تلفحه كالنيران يتذكر كلمة الأم التي عميت من البكاء عليه : تتوه في البلاد البعيدة فتجرفك السيول والريح الصرصر . قل لي ماذا ترى وراء تلك الآفاق العمياء التي تقصدها ؟ يومها كان عائداً من رحلة صيد فداهمته الأمطار المدرارة وتاه عن الطريق فنام في كهف جبلي حتى الفجر ، تحت لسع البرد وفزع مداهمة الوحوش . حتى الصباح ظل يرتعد والبندقية مسددة نحو بوابة الكهف خوف المفاجأة .

بعد عشرين عاماً هاهوذا يجلس على المقعد الحجري تحت أشجار دردار أفريقيا ، ملفعاً بسكينة الليل وفزع مدينة لا يعرف متى ينبثق لصوصها ويهاجمونه ليسلبوه عشرين ديناراً ينفقونها في أقرب حانة .

ويومذاك كان القلب عارياً كسهب تكتسحه الزوابع ، وما كان محمياً .

يضع أصبعين على بؤبؤ العينين المغمضتين ويضغط . على الشاشة السوداء نيازك تتهاوى وأشباح تترامح في الفضاء وتسقط . الرجال الذين اغتسلوا بالدم والوحل والسماوات التي امتلأت بطيور البجع المذعور في أوائل ذلك الأصيل . الغرف المغلقة المسكونة بالفزع والأصوات ونوافير الدم وآلات التعذيب .

لقد انفجر الزمن الذي سقط بين أشداق اللوياثان الضاري ، دماً ويتامى .

كان بوده أن يصرخ في ليل الساحة تحت الشجر الظليل : مافائدة ذلك ! ولماذا نقع فريسة الريح العمياء ؟

ليس هذا ماينبغي قوله تماماً . ولأنه كان مساطاً على نحو عاطفي لعين ، ضغط أكثر على غلاف العينين لينبثق أكثر نزيف الدمع .

كانت الحالة للرجل الذي توهَّم أنه ناضل وخسر ، هي : هل ينتحر أو يحيا ؟ وبتحديد أكثر تركيزاً سيسأل نفسه في لحظة أخرى عندما يكون مطوَّقاًبذراعي آسيا الأخضر ، إن كانت خلاياه ما تزال تصلح للحياة أم أنها انعطبت إلى الأبد .

في تلك الاوقات المماثلة لاستراحة حرب كانت تقول له : أنت مازلت قوياً وفتياً وعليك أن تطرد هذه الغربان السود من سمائك .

تقول ذلك المرأة الحالمة بسماوات نقية وبلاد بيضاء كالثلج . المرأة الراغبة ببيت مؤثث بعيد عن الأعاصير تزينه الديكورات واللوحات والرقص والموسيقى والأطفال ، تقول ذلك تعزية ونزوعاً باتجاه أحلام طفلة تحب الدنيا .

وإذ اشتبكا ذات غروب وفي لحظة جنون : أنا لا أصلح . ابحثي عن رجل آخر لايسكنه الجحيم . بكت في البدء ثم اندفعت نحوه وضمته بحرارة : أنا سعيدة بجحيمك الجميل . وما كان يرى من جحيم جميل سوى حياتهما المحمولة على أساسات الريح . حبهما المتدفق كالجرح وكأمواج البحر في وقت عاصف . هو الذي ينزف وهي الطالعة على العالم كالعاصفة . الأنثى التي تتفتح على الدنيا كما يتفتح زهر المصطكي حول حدائق بونه .

- أنتِ ياآسيا جميلة وفتيَّة مفعمة بأحلام ملونة أما أنا فرجل مكسور حطمت سفينته عاصفة فتاه في البحر .

- لا . لا . أنت واهم ياعزيزي .

- صدقيني . أعماقي رماد . إنما أنا رجل هالك يا صديقتي !

- وهم . وهم . تحت رمادك جمر أحسّه ينبض وأنت تأخذني بين ذراعيك . خليك من السياسة والذكريات الحزينة وأنا معك . وإذ يصرخ داخل الغرفة القائمة في نهاية شارع مصطفى بن بولعيد : اسمعي . أنا لا اصلح لتأثيث منازل مريحة . في داخلي غابة من القبور . تضحك . تقول وهي تمسح بحنان على شعره : إنما أنت طفل بلا حنان وتحتاج أماً . حياتك ياحبيبي أمضيتها في مناطق الجليد . بونه استوائية وساخنة . أنت كنزي وأنا كنزك . تعال . هيا ! وتأخذه إليها . تضغط فينتشر دفء الجسد الطفل : تدفأ ياعزيزي وانس الرياح الباردة .

تتموج رائحتها كعشب الغابات في يوم مشمس . رائحة طفل بعد حمام ساخن مضوع بالعنبر والصندل وورق الغار ، آسيا الاخضر . رمال شواطىء بونه المشمسة والدافئة في بلفدير وخليج المرجان وشطايبي ورأس الحمرا .

* * *

بعد احتفال عيد ميلاد لأحد مدرِّسي المعهد عادا إلى البيت . كانت المرَّة الأولى التي تجرؤ فيها على قضاء الليل معه حتى الفجر . لقد كذبت على لالا فضيلة بأنها ستبيت في منزل صديقتها .

خلال السهرة كانا متجاورين ، أقدامهما متماسة تحت الطاولات كذلك كتفاهما وجانبا الوجهين . خلال جو الاحتفال شكَّلا غلافاً عازلاً عن الحشد ، ضاربين عرض الحائط ، وهما يتراشقان القبل ، بالرصانة الاجتماعية . أكلا من صحن واحد وشربا العرق السوري الممزوج بالماء ، وتوشوشا بكلمات بذيئة على الآخرين الذين يراقبونهما ثم عقدا صفقة النوم معاً في بيت مهدي باختراع كذبة من آسيا التي ستنام الليلة عند صديقتها وردة .

اندمج المحتفلون بالأغاني الشعبية والتصفيق والهرج الصاخب . كانت الأغاني تتناوب بين مجموعات المدرِّسين السوريين والعراقيين والجزائريين واللبنانيين .

في أوج الفوضى المرحة كانت زوجة المدرِّس السوري منهمكة بإبراز مواهبها الخلاَّقة في فنون الطبخ وتقديم أنواع الأطعمة السورية بدءاً من التبولة والكبة بأنواعها حتى ملفوف يبرق العنب والكوسا المحشي والبفتيك والسمك المشوي المحشو بصنوف بهارات سوق الهال الموصى عليها من أسواق مدينة دمشق الشعبية ، احتفاء بهذه المناسبة السعيدة .

الزوجة تبدو ضاحكة ومنشرحة بثوبها الفولكلوري المقصَّب بعروق الذهب وهي تختال بين المدعوين توزع الأطعمة والابتسامات ورقائق المجاملات ، بينما انهمك زوجها في شرب الأنخاب . كان يشرب ويسكي الجوني وولكر في كأس طويلة عامرة بالثلج وهو يضحك ويهرهر فيهتز كرشه البدين اهتزاز الطبل ، وتحت الضوء المبهر تلمح صلعته الأمامية التي خرجت قبل لحظات من حانوت الحلاق بعد أن صبغ له ذوائب شعره الجانبية والخلفية . كان مهدي وآسيا يعلقان بنميمة سرية على هذا العجوز المراهق وهو يتنقل بين كراسي النساء ، ينحني فوقهن رافعاً كأسه متدفقاً بأشعار غزلية لابن أبي ربيعة وجميل وابن الملوَّح وقيس بن ذريح ، مضى عليها أكثر من ألف عام لكنها ماتزال طرية في أعماق هذا الشيخ العائد إلى صباه في سنّه الثانية والخمسين .

بدأ الغناء دورياً . وقبل أن يصلهما اتفقا أن تغني آسيا حتى لايفسد صوت مهدي الغرابي جوَّ الميلاد . وسألته ماذا ستغني فقال أي أغنية .

يرحم باباك لاتفضحينا . شوفي عيونهم علينا مثل عيون القطط .

غني ذو النون الشاعر أغنية عراقية حزينة . كان صوته الموصلي يرعش الأعصاب ويفطر القلب . العراقيون وحدهم فهموا كلمات الأغنية العامية التي فسَّر مهدي بعض مقاطعها لآسيا . وعندما ألح مهيار على قصيدة البراءة لمظفَّر النواب ، قال ذو النون : خلّونا الآن من السياسة . ودندن برجع شجي مقاطع من الرّيل وحمد .

جاء دورهما . علت الأصوات : مهدي . مهدي . ارتبك تحت الأنظار فلكز آسيا . هيا ! وقال ياجماعة صوتي من أنكر الأصوات . آسيا ستفديني .

ـ آسيا . آسيا . وردة بيضا بالعلالي .

من وجنتيها كان الدم ينفر . وشوشت : ماذا . قل لي . هيا !

ـ اللي تحبيه غنّيه .

ـ مانحبش وردة بيضا ولا الغناء الجزائري .

ـ طيب . غني لفيروز .

ـ تغني معايا !

انطلقت خجلة : «يبكي ويضحك لاحزناً ولا فرحا كعاشق خطَّ سطراً في الهوا ومحا» . كان يدندن معها بخفوت . بعد دقائق كسرت الارتباك واللجلجة ثم انطلقت كقصب تماوجه الريح في ليل رخي من مساءات الصيف .

باغتتهم المفاجأة فصفقوا وصرخوا . اندفع صاحب الدعوة نحوها رافعاً ذراعيه وقبّلها على خديها : لله درك . إذا ولدت النساء فليلدن مثلك . يرحم أبوك وجدّك والبطن اللي حملك . ياعمي كاس آسيا ومهدي أحلى قيس وليلى في ربوع بونه . قال ذلك باحتفالية باهظة بدت طبيعية في غمرة الخمرة والحفل الذي ابتدأ رقصه .

كان مهدي جواد سعيداً كما لم يكن أبداً ، وإذ طوّقها بعد الغناء أحس بغمرة عارمة تحمله وآسيا داخل سجف بيضاء بعيداً عن الحزن والمرارات التي انكسرت الآن .

الليلة ليكن فرحنا عميقاً . وسوس لها وهو يتناول ذراعها إلى حلقة الرقص .

رقص مع آسيا ثم مع فتيات ونساء السهرة ومع زوجة الزميل المحتَفى بميلاده ، ثم وحيداً مع جسده وأرض الغرفة ، محمولاً طي تموجات كانت تتخطفه قاذفة به خارج جاذبية الجسد . كان على أبواب الثمل ، مغتبطاً بوجود آسيا الليلي معه . نجمان هو وهي في هذا الاحتفال الصاخب . رقصت آسيا مع المدرِّس العجوز حتى داخ وتهاوى وهو يصرخ آي . آي . ألا ليت الشباب يعود يوماً .

كانت أشواق الغبطة المختزنة تندفع من حجيراتها السرية على شكل إيقاعات شفافة تارة وجموحة تارة ، وشعر مهدي جواد أنه يدخل الآن أطوار الطيران خارجاً من أطوار زمن الرقود .

بدأ زمن الطفولة والمراهقة يستعاد الآن بعد أن اختُزِن طويلاً ونُسي داخل حجرات الشقاء . مهيار الباهلي الرصين يراقب عن مقعده طيران مهدي وصراخ أفراحه بابتسامة طفل لايعرف الرقص ولا الطيران . السرّ الآسيوي هو الذي فتح الممرات المغلقة ورمى بأحزان القلب المنقبض إلى النهايات القصيَّة من القطب الآخر . يقول مهيار في نفسه . وإذ لا يستطيع الكبت ، وهو يشرب النبيذ الأحمر المتدفق من عينيه ، يصرخ بآسيا أن ترقص مع مهدي رقصة الجيرك .

وكانوا جميعاً منتشين تحت وهج الاحتفال . وجوه تشع بالخمر ، وأجساد مطلقة كجياد في حقول ، وجباه تنضح بعرق الجيشان الكامل لكل مسام الجسد . غير أن الوهج كان يبدو أكثر نصاعة وانصقالاً ولمعاناً في وجه وجسد آسيا البهي ، وقد تخطت طورها الخجل والمرتبك ، طائرة نحو فضاء الجنون الطفولي الخصب . كانت الآن في الزمان الطلق والبهاء العاشق وهي ترسم بارتعاشات ذراعيها المرفرفتين كفراشة ، أشكالاً سريالية لفرحها داخل اتساق مفعم بالرغبة تطلقه ساقاها وإلتواءات جذعها الصلب الممتلىء بالصبا والشهوات . بدت كالمطر الهابط الى مسام الأرض وهي تتفتح بأزهارها وعشبها في غمرة هبوب عاصفة مكتسحة تنقي الدم من أوجاعه وجراثيمه وغازات الأوكسيد وفساد الأزمنة والأماكن العطنة .

تعب الراقصون فانسحبوا إلى مقاعدهم . غنَّت آسيا حبيتك وسع الغابات فصفقوا وصاحوا ، وانتشى مهيار فغنى معها وواصل مهدي طيرانه خارقاً خوفه والحزن القديم وهو يتقدم باتجاه المرأة الصبوحة كصباحات أصياف بونه .

- 2 -

سوف لن يستوعب فيما بعد لماذا حدث ذلك الشيء اللعين في السرير في أعقاب سهرة الميلاد الجميلة . لكنه سيكتب في اليوميات شيئاً عن تلك النذّاهة اللعينة التي تطارده أبداً خارجة كالدود أو العلق من أعماق وحل المستنقعات لتلتصق به معكّرة صفاء دمه . لقد سمّاها مهيار الباهلي شهوة الموت المنبثّة في الدم احتجاجاً على الفساد الخارجي ، ووصفها مهدي جواد بأنها حالة الهجران والأراضي الهاربة .

الأشياء وهذه المرأة ثم الأفكار والأحاسيس والصور ، تتموج تحت استواءات وتعرجات متداخلة ومربكة . يتحول السقف تحت رقصات ضوء الشمعة إلى شاشة . هناك كان يصطخب العالم : المرأة الحسّية مع الجيوكندا . المدينة الصلبة والخضراء والمتمورة بالحركة والحياة والنبض الضاحك ، مع الصحراء المهجورة . حفلة الرقص والغناء والصخب تتداخل مع مهرجانات القتل والتعذيب . البحر والسماء والحقول والأطياف التي رآها في أصائل التلال ورمال الشاطىء تتغطى فجأة بركام من الجثث والروائح الكريهة والكلاب والدود ومستحاثات الدهور المنقرضة .

يرحل البهاء الطلق والزمان العاشق والأماكن المعشوشبة ، ليتقدم هذا العكر اللعين الجاثي في الدماء في الوقت المتأخر من الليل بعد أن يهمد فرح الجسد .

وما كان أي منهما قادراً على إنقاذ الآخر في لحظة ذلك الفيضان اللعين . كل منهما كان يبدو كأنه مقيَّد بالسلاسل وبهذا الإرث الرَّحَمي وانعكاسات الشمس ورائحة الأرض التي قُذفا فوقها مصادفة أو خطأ . وكانت صرخة : إلى الجحيم كل هذا . أنت مستقبلي وإلهي الذي أعتنق . تحتاج إلى تحطيم قاسٍ لا يرحم لكل الأنصاب السماوية والأرضية .

وفي ذلك الزمن كانت الحياة تسير تحت مظلة واقية من التواطؤ والريبة في أعماق اثنين يتوهمان أنهما واحد . تواطؤ وريبة الزمن المؤقت والمقايض .

عندما سيتحدث عن ذلك التبدد الخَلَوي والهجران ستقول له : آه . يا عزيزي كم أنت مسكون بالموت والخرائب ! وإذ يقول لها بأنها ليست أكثر من ضبابة في يوم غائم ، تصرخ وهما عاريان على أبواب الصباح : ياربي ما هذا ! انظر . امسكني جيداً . ألا تحس بي وأنا أخفق بين

ذراعيك !

وهو يداعب براعم نهديها ؛ وهم . وهم !

تضغط جسده : أينبغي أن أخرج لك قلبي الذي ينبض بك لتوقن !

ـ عنيت شيئاً آخر . أنت غير حقيقية . لست صلبة هنا . وأشار إلى صدره . لماذا لا أشعر بالامتلاء بك ؟ في أعماقي فراغات تملؤها أشواق غامضة . إنني أحبك ولكنك مسروقة مني وهاربة . أرغبك جزءاً من دمي . أن أظل ممتلئاً بك لأشعر بالأمن والطمأنينة . أنا رجل وحيد ومعزول من الآخرين وأبحث عن جدار . لا أحد ، لا أحد في هذه الصحراء الملعونة والقاسية . فهمت ما أعني ؟

تبكي المرأة بانتحاب مرير . تغمره : معاً . معاً . حتى الموت .

كان الآن تحت سطوة هذياناته وشياطينه التي تمطّت في الفجر ، وكانت آسيا لخضر تحت سطوة شقاءاتها ، فريسة حالات رجل أخرق وينحدر من قمم أفراحه الجميلة بغتة إلى الوديان المظلمة .

* * *

وفي بونه الأفريقية الصغيرة كانوا يواجهون الكآبة والملل وصدمة الأيام الرتيبة . الرجال والنساء الذين يصطدمون فيرقصون ويغنون في المناسبات السعيدة ، وفي الليالي يمارسون الجنس بنشوة الثأر التي تطلقها وحشية الجسد إذ يزدهر ازدهار الشجر في مطالع الربيع وتحت بهاء البحر في الأصياف الحارة . ومع أنهم كانوا يضاجعون بعنف القتل ، ويشربون الخمر بنهم الحيوانات العطشى ، ويقتلون دونما شفقة ، إلا أنهم كانوا أبداً مبتهجين وسعداء بهذا السطع الحاد للشمس وبهذا المهرجان الأبدي للجسد الدفّاق المضاد للموت .

وفي الخمارات والمقاهي ومكاتب العمل والساحات ، كانت الأيام تمضي مضي شروق الشمس وغروبها ، في الثرثرة عن الوقائع اليومية والاستغابة والنميمة والأمجاد الدونكيشوتية التي يفتتحون بها العالم وهماً .

في هذه المدينة كانت آسيا لخضر تحلم ببلاد أكثر اتساعاً . عالم لاتتكرر أيامه بين المدرسة والبيت وساحة المدينة وغرفة مهدي جواد . عالم يزيد عدد سكانه عن مئة ألف بشري لا يكررون زمانهم في كل الفصول بين المقاهي والسينما والتسكع والبحر والنوم باكراً بعد إغلاق

التلفزيون .

هكذا من خلال الحلم بحياة رحبة رحابة الفضاء أمسك الخيال الطفولي بالطائر الغريب الذي سيغادر بونه يوماً ليحملها معه إلى البلاد السعيدة النائية .

كان تعبير الاصطدام العفوي ، المفاجىء ، صائباً إلى حد ما في علاقتهما .

وبعيداً قليلاً عن الاتساق الجنسي ، كان يبدو عليهما ، من خلال العطب الداخلي ، أنهما غريبان عن عالم بونه الراسي في مرافىء السكينة والاسترخاء والماضي .

كانت اللقاءات مشحونة بالأشواق ، والخدائع الجميلة ، والعزاءات ، والحكايات اليومية ، والضحك . ومع أن الجنس كان حاراً ومجنوناً وشفافاً كالبحر في الأصياف ، إلا أن الاعتكارات الداخلية للعواصف كانت ترمي قشرة التواطؤ ، لتنفجر الجراثيم على سطح الجلد .

العائلة ، هذا الميراث الرحمي المدرَّع بمشيمة الأم ، كانت تقف بينهما كسدّ . وبدا جلياً من خلال علاقة آسيا بأمها أنها على استعداد للتضحية ولو بحياتها ، لإسعاد لالا فضيلة التي تحطمت مرتين : المرة الاولى بموت زوجها . والثانية بزواجها من يزيد ولد الحاج .

ولم يكن لدى مهدي جواد من اعتراض سوى استحالة الجمع بينه وبين يزيد ولد الحاج ، الإله المتوَّج والشرعي في أسرة سي العربي .

هكذا على نحو أكثر انبتاتاً وألماً ، كان تأصيل العلاقة مع آسيا يبدو كأنه يستدعي نوعاً من القطع الرحمي مع حبل المشيمة النابض . ولعل تفكير مهدي ، في حالة تأسيس حياة جذرية مع آسيا ، كان يتجلى على النحو التالي : أن يرتضي كل منهما التضحية بميراثه الدموي القديم والدخول في الآخر بشكل متفرِّد ومفارق للماضي .

يوم اشتبكا معاً حول ذلك ، دهشت آسيا . لقد فهمت من عبارته : إذا كنا سنبني على الصخر بيتاً لا يتزعزع فلا بد أن نرمي الأهل في البحر ، كأنما العبارة موجهة ضد أسرتها .

وبذعر سألته إن كان يكره أسرتها ولالا فضيلة ، فأوضح بأن لالا فضيلة هي أعظم أمّ شاهدها . وسألته لماذا يريدها أن تكون ضد الأسرة إذن ! فقال : يبدو أنك لم تفهمي قصدي .

وفي تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التي أقامها الآباء

والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين والله ، والأخلاق والتقاليد ، والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولي الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها دهور الكذب .

وإذ قالت باستغراب فزع : لكنهم أهلي ! حليب ماما ماتزال آثاره في فمي ، ودمها يسري في عروقي . كان بمقدوره أن يقول بأن هذا كان فيما مضى . أما الآن فانظري إلى دمائنا كيف تمتزج . إننا نتذوق طعماً آخر للحليب .

لكن المسألة في ذلك الربيع كانت تبدو أبعد من ذلك . كانت متصلة على نحو ما بالحزن العميق المدفون في زمن الضحك والشهوة والاستهتار بالمستقبل والأجيال الجديدة . وفي الوقت الذي كان يرمي إليه نحو مرامي أخرى ربما ، كانت هي تهجس بشهوة الامتلاك ورغبة الرجل في السيطرة على المرأة .

وهما معاً على مائدة الطعام يأكلان الستيك والبطاطا المقلية ويشربان النبيذ الأحمر ، يحاول أن يشرح لها أفكاره حول العلاقة الصحية بين الرجل والمرأة . العلاقة التي تتجاوز اليومي والتجاري والجنسي إلى الحزن والفرح الكامنين في الخلايا : إذا استطاع رجل وامرأة أن يتعانقا بعد انقضاء رعشة الجنس فلن يفترقا ابداً .

ـ لماذا ؟

ـ الخيبة والحزن والمرارة تتعانق في تلك اللحظة . آنذاك يكتشفان تحت العراء الموحش من هما حقاً . وفي ذلك الوقت الحزين يكونان معاً أو لا يكونان .

فيما بعد عندما سيلتقي مهدي جواد بفلّة بو عنّاب ويتحدثان عن هذه النقطة الحرجة ستضحك العنّابية من هذه الأفكار المثالية والرومانسية . تعترض على هذه الأوهام فتسميها هازئة بأحلام المراهقين المأخوذين بعصور قيس وليلى وعشق الروح .

ـ رومانتيك . رومانتيك عربي ياخويا مهدي . تقول وهي تقهقه .

ـ وأنت يافلّة ؟

تجيب وهي تعبر ساحة مجونها وحريتها التي اغتصبتها بتدمير الجسد : تفريغ ياعزيزي . كلنا متعب وينشد تفريغ هذا التّعب .

ـ وماذا بعد ؟

ـ ماذا بعد ؟ اوه . اوه . الدورة الحيضية والطمث . بعدهما تتجدد الشهوة . هذا هو الما بعد !

ثم تستطرد : آسفة لهذه الفظاظة التي تجرح رقّة الشعر .

كَدِبٌ ينخر امتعاضاً : لا . دعيك من هذه التأسفات . أنا لست أخلاقياً لكني أود أن أسألك إن كنت موقنة بما تفعلين حقاً !

ـ موقنة ! لم أفهم .

ـ عنيت السلام الروحي بعد صرخة الجسد .

عندما ستأخذ رشفة من كأسها ثم تضعه بهدوء ، تنفخ الهواء عميقاً على شكل دوامات لامَرْئية . يسمعها وهو متكىء بكوعه على البساط الأرجواني وهي تتحدث عن التعب ولقمة العيش والمهانات وكيف يتصرف الرجال من أبناء القحبة والخنازير في هذه المدينة بعد أن يأكلوا قلب المرأة ثم يرمونها إلى المزبلة كقشرة موز : أنا أعرفهم . من مسافات بعيدة يشمون الرائحة فيركضون نحوها . بعد أن غادروا تجاويف الجبال اتجهوا إلى تجاويف النساء . هؤلاء لا ألجأ إليهم إلا بعد خيبتي بالرجل المستأجر . أما إذا كان شهماً فهو سيكفيني مغبة البحث عن أولئك النتنين ذوي الروائح المرحاضية .

وهي تتدفق بمراراتها ، تبرز من وجهها وعنقها وأصابع يديها خطوط الزمن الغادر الزرقاء . هكذا على نحو ميلودرامي متّسق مع تكوينها العضوي والروحي ، تصهر الشخصي بالعام مسدلة على مرايا الحياة ستارات من السواد تشبه ستائر العتبات المقدّسة المدلاة على واجهات وأعمدة منازل كربلاء والنجف والكوفة في الأيام التي تسبق ليالي عاشوراء الحزينة .

ولأنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً هاماً لها أو لنفسه في ذلك الزمن ، كانت تتراءى له وحدتها الداخلية متماثلة إلى حد بعيد مع عزلته التي لاشفاء منها .

وهو يرى عروقها الزرقاء نافرة تحت ضربات الزمن المنهك ، يصطنع التعاطف معها بزفرة تخرج سداً من بخار خيباته شبيه حصان أتعبه الركض ليحوز قصب السبق فإذا به في مؤخرة الجياد .

آنذاك ، مخاتلة ، وليخرج من حصارات الضنى الذي توحي به العنّابية كان يحاول إدارة دفة الأحاديث نحو بحار أخرى لاصلة لها بهذه الهذيانات الخرقاء .

بيد أن تلك المرأة التي يبدو أنها طُعِنت بقسوة في أكثر مراكزها حساسية ، ففقدت أي أمل في استعادة زمانها المفقود ، كانت تدور كالممسوسة في مجالات طيوفها وأشباحها ، كأنها تنشد مرثية لأحد شعراء غرناطة يرثي بها مجد الزمن الغابر بعد سقوط الأندلس .

ورغم أن الأمر لم يكن هكذا في الثبت التاريخي وحركة الزمن ، إلا أن أعماق فلّة بوعنّاب كانت تختزل التاريخ في محرق شخصها وتجربتها الذاتية وهاوية حلمها الجليل بعد أن تلوَّث وانعطب .

سيتذكر وهو يخرج من منزلها عابراً الأرصفة والمتاجر والمقاهي والبيوت تحت أشجار الدردار الرطبة أن ذلك الأصيل كان مُكرباً للنفس لشدة اختلاطاته من تداخل الحب الروحي مع الجنس مع الوضع السياسي المزري من كل جوانبه ، بدءاً من وحشية الجنرالات وهمود الشعب ، وانتهاء بتخاذل القيادات الثورية وقطاراتها المتأخِّرة على سكة الخط اللارأسمالي المخرّبة .

نشيد الموت

في أعقاب الانشقاق الذي أعلنه عزيز الحاج في منتصف أيلول تحت اسم القيادة المركزية ، وزّع تيار الكادر وثيقة طبعت على الرونيو تشجب الانشقاق وتدعو إلى الوحدة المبدئية للحزب .

في بغداد عقدت قيادة الكادر اللينيني اجتماعاً لتقويم الوضع العام بعد الانشقاق وبعد الاختلاف مع تيار وحدة اليسار ، والانسحاب من قاعدة أمين خيون في أهوار الجبايش ، وفي نهاية الاجتماع يتقرر إقامة قاعدة جديدة في هور العمارة في منطقة أبو غريب العصية والموحشة والمغطاة بكثافة أدغال البردي .

سيتحرك مهيار مع أبو صبري فيما بعد لاكتشاف المنطقة ومعهما ثلاثة عناصر ، أحدهما كان فارّاً بعد فشل انتفاضة العرفاء في بغداد ولاجئاً إلى الهور ، أما الآخران فعاملان زراعيان من أبناء العمارة . وعلى مدى شهر من التحضير والاستطلاع سيؤجل استدعاء المتطوعين الذين سيلتحقون بالقاعدة المجهّزة والمسلّحة تسليحاً أولياً ببندقية روسية ورشاش دكتريوف ورشاش ستيرلنغ ومسدس براوننغ /9/ ملم وبندقية صيد وزورق مشحوف .

معظم النصف الأول من شهر نيسان سيستغرقه مهيار وأبو صبري وبارود في عمليات الاستطلاع بعد بناء الكوخ القصبي فوق تلال هورة أبوغريب ، وتجهيز القاعدة الجديدة بالمواد الأولية والطعام وتحاشي سلبيات القاعدة الأولى التي دمرّتها انفعالات أمين خيون وصرخات روحه المغامرة التي تستوهم إعادة الحزب إلى قيادة سفينة التاريخ بحرائق تشعل البلاد من شمالها إلى جنوبها في غمضة عين .

وعلى ماسيبدو فيما بعد ، من خلال تلك المغامرة الفريدة في لحظة الشتات والفوضى الشبيهة بقفزة في فراغ من علو شاهق ، ستظهر المسافة بين مهيار الباهلي وأمين خيون ، قصيرة ، لا في التحضير والتجذير الذي سمَّاه الباهلي الصخرة الصلبة وكسب الشعب ، إنما في هذه الروح المندفعة حتى نهاياتها لفعل شيء خارق لايمكن فعله إلا بالموت الاحتفالي . وهكذا سينطلقون في ليلة غريبة إلى الشرق في تجذيف متواصل على مدى عشر ساعات لاستطلاع منطقة الأبيض تحت الريح الباردة وبين غابات من القصب الطويل الذي يصل ارتفاعه أحياناً إلى عشرين متراً .

كان تقدم الدورية محفوفاً بمخاطر لا حدود لها في هذا العالم الغامض والبكر ، تبدأ من احتمال انقلاب الزورق إلى مهاجمتهم من الخنازير البرية أو المهربين .

وعندما سيخلفون غياض البردي ويواجهون قامات القصب الغليظة التي تبدو لهم كجدار من الثلج يسدّ الأفق سيسأل الباهلي وهو بين اليقظة والحلم أين نحن وماهذا ؟ ويقول أبو صبري وراء القصب يمتد عالم الأبيض . ثم يتحدث عن ذلك الانفساح المائي الملئ بطيور البط والكراكي وتلال اليشن الراقدة من عصور السومريين .

ـ ولكن كيف نخترق كثافة هذا القصب اللعين ؟ يسأل مهيار .

ـ نقطع القصب بالخناجر ونخترقه . ويمتشق أبو صبري سكينه .

بعد عشرين عاماً ، وفي شوارع وأمسيات المدن التي ستطوي مهيار الباهلي بحثاً عن بؤرة حياته الضائعة وثورته التي يحلم بها ، سيتذكر تلك الصورة السحرية الغريبة للمدى الأبيض الذي فاجأه كالحلم وهو يجتاز جدار الثلج .

انفساح ناصع أبعد من مدى البصر ، مزروع بالقرم اليابسة وتلال القصب الملتَّمة أكواخاً متناثرة تخشخشها الرياح وأصوات البط واللقالق وهي تهمّ بالنهوض عن سطح الماء ثم تطير وئيدة كالسحب فوق هذا البحر الجاثي كإله سومري قديم ، لم يعكر عزلته بشري منذ ملايين السنين .

إنهم يتقدمون ببطء وفزع بينما مهيار يحاول استيعاب المشهد الذي وقع فيه كما يقع طفل من طائرة فوق سطح بحر ، فلا يعرف أين هو ولا

كيف يخرج منه . كان مسحوراً بالمدى الذي لايحّد. المدى الذي يتسع أبداً كلما تقدم الزورق تحت هذا الضحى المحجوبة شمسه بالقصب الناهض كقامات العفاريت والجن في أساطير ألف ليلة وليلة .

بعد أن يقطعوا أقل من ثلاثة أميال في هذا التيه الأسطوري يلاحظ أبو صبري شباك صيد غطتها الطحالب والأشنيات المائية فيحاولون رفعها لكنها ماتلبث أن تتفتت في أيديهم .

يقول أبو صبري بأنها شباك نقلتها الريح من أماكنها فضاعت عن الصيادين منذ شهر تقريباً .

قبل أن يهبط الليل تداهم بارود صرخة جوع : لابد أن نصيد شيئاً لنأكله مع الخبز الحافّ ، وهو يحشو بندقية الصيد بخرطوشين يقول أبو صبري : بارود ، اكمنْ بالمشحوف في غيضة قصب .

كان المغيب يسجو على حقل المياه بألوان ممزوجة بالزعفران واخضرار القصب وبنفسج الأعماق تحت ظلال متموجة رسمتها يد إله طفل عبث عرضاً بهذا الغمر الشاحب ، الملّفع بالجلال المهيب .

على خط الغسق عبرت أسراب طيور وهي تزقو . لكز مهيار أبو صبري ليطلق عليها فقال بأنها بعيدة وستذهب الطلقات على الفراغ . وكصياد خبر الأهوار وأسرار طيورها على مدى عشرين عاماً راح يصدر أصواتاً غريبة مقلداً زقو البط البري .

قال مهيار بأن هذه المنطقة ستكون مقراتنا الخلفية للأسرى والعتاد والتموين والذخيرة الاحتياطية .

وقال بارود : العودة مستحيلة . سننام هنا .

ـ بلى . سنقطع أوراق القصب وننام عليها .

في تلك اللحظة دوت طلقات أبو صبري الذي كان يراقب الفضاء بعينيه الثاقبتين وسمعه المرهف . وضع البندقية على حافة الزورق وبحركة سريعة تعرَّى من ثيابه ثم انشبح في الماء : أعتقد أنها إوزة . جهزوا النار لعشاء دسم .

وراقبوه وهو يضرب المياه بقوة فتى لم يكن الآن فوق الأربعين . كان يندفع بمهارة شاقاً الماء بنشوة الصياد المقاتل الذي هيأ لرفاقه وجبة لذيذة بعد نهار شاق .

وبالمدى الحربية بدأ مهيار وبارود يقطعان الأوراق وجذوع القصب ويراكمانها في قاع الزورق . وسأل بارود : هل سمعت شيئاً يقع بعد الطلقات ؟ فقال مهيار : كنا في شؤون السماء والبطّ . لم أنتبه إلا على صوت النار .

ـ أبو صبري مخبّل . هاي الوقت وقت وزَ

ـ لكنه ابن الليل . صدقني وأنا معه أشعر كأني معي كتيبة . تصور رجلاً ينام النهار ويسهر الليل حتى الفجر !

ـ آني احكي عن الرمي والهدف .

ـ الليل علّمه الرمي على مصدر الصوت والحركة . وروى مهيار لبارود خلال جولاتهما الليلية إبان وجوده في بيت أبو صبري ، كيف خرجا ذات مساء وأوغلا بعيداً عن البيت . كانا يتمرنان على السير الليلي واكتشاف المناطق النائية ، يمران على قرى الفلاحين فيسهران حتى مابعد منتصف الليل ، ثم يعودان مسافة عشرة أميال مشياً . لم تكن بندقية أبو صبري لتفارقه لا لأنَّه يزهو بها إنما لأنه كان يتوجس الغدر أبداً في هذه البقاع الخارجة عن القانون : في تلك الليلة وأنا أتسامر معه في بقعة مهجورة أمسك فجأة بكتفي وشدّني لألتحم بالأرض وراء تلة يشن ثم سدَّد بندقيته ورمى . حدث ذلك كالحلم . استيقظت وأنا أسمعه يصرخ : وقع . انقتل . واندفعنا إلى الأمام . وراء أجمة قصب كان هناك خنزير بري بحجم الثور يشخر وهو ينزف . لقد أجهز عليه بطلقة ثانية بين عينيه .

كان أبو صبري يرتعد من البرد وهو يمسك بحافة الزورق وقد تدلَّت بين أسنانه بجعة مبللة . رماها في أرض المشحوف وهو يصطك : النار . النار . عجّلوا وإلا متّ . وداخل الزورق لفّه مهيار ببطانية عسكرية لكنه استمر في ارتعاشاته وهو يشتم هذا الأبيض المنحدر من جليد القطب الشمالي .

ـ كل هذا الشقاء والبرد من أجل بجعة !

سخر بارود : الجنازة كبيرة والميت كلب .

زمجر أبو صبري : عيني . حظكم خرا . قِدُوا النار يمعوَّدين ويكفي مسخرة . هيا ياكلاوات . هيا !

ماحدث خلال عودة الدورية سيبدد فرح اكتشاف المدار الأبيض الذي سيدعوه مهيار مدار الثلج أو القارة السادسة . فبعد ليلة عاصفة من

هطول الصقيع وغثيانات الطعم الكريه لطائر البجع الأعجف ستباغتهم بين أدغال القصب طلقات نارية وأصوات تصرخ بهم : سلموا أنفسكم أيها اللصوص . أنتم تحت مرمى النار .

تحت أول فجر سيباغتون وهم مطوقون والبنادق فوق رؤوسهم ، ثم يقتادهم ثلاثة أنفار ملثمين يتهمونهم بسرقة شباك الصيد ، ليرموا في حظيرة من حظائر الجاموس ويغلق عليهم حتى المساء .

في جلسة الاستنطاق والمحاكمة التي عقدت في تلك الليلة ، كان الباهلي مبلبلاً من هذه الورطة اللعينة . المصادفة غير المنتظرة التي اعترضتهم وهم مازالوا في بداية الطريق ، غير أنه وهو يرى أبو صبري صامتاً في البدء كالجدار ، لامبالياً ، شعر بحالة غريبة من الهدوء أوحت بها هيئة الرجل المجرّب الجالس قربه يدخن .

بصمت لم يلبث أن قطعه بطلب الشاي كوصية أخيرة للذين سيساقون إلى الإعدام : نبغي شاي يمعودين قبل مواجهة سيدنا عزرائيل . كان يهزل وهو يحاور الرجال الجالسين للمحاكمة . وكان هؤلاء يتوقعون من خلال ضيق أفقهم وغرابة عالمهم ، أنهم وقعوا على كنز من الأسلحة والأموال يخبئها هؤلاء الغرباء في مكان ما من هذا الغاب المائي .

عندما دخلت امرأة صاحب البيت بالشاي وقدمته للأشقياء الموقوفين ، تفرّست ملياً في وجه أبو صبري الأسمر الملتحي . وضعت قدح الشاي على الحصير أمامه . ثم فجأة علا صوتها : وصلاة محمَّد على رأسك ألست موسى عطية زوج الدوبيّة ؟

بوغت أبو صبري كمن يدفق على رأسه سطل ماء بارد من أعلى سطح : بلى . شنو القضية ياأختي ؟

ـ أنا أعرف زوجتك في قريتنا الدوب . كيف حالها ؟

ـ أعطتك عمرها . قالها باكتئاب مفتعل .

ـ الله يرحمها كم كانت طيبة . عندك أولاد منها ؟

ـ بلى . صبري . مات هو الآخر . ذكرتيني اقفلي هذه السيرة يرحم والديك قبل أن يداهمني البكاء .

كان الحوار بينهما يجري حول ذكريات وتفاصيل محاها الزمن والذاكرة بينما الآخرون مدهوشون من هذه المفاجأة السريالية التي

حوّلت سيناريو جلسة المحاكمة إلى حفلة تعارف تذكارية بين زوجة صاحبِ البيت الذي طار كنزه ، وموسى عطية الأرمل ، الحزين ، والموشك تمثيلاً على البكاء .

وعندما سيسأل زوج المرأة المفجوع بتبدد كنوز الأسلحة والأموال زوجته من يكونون هؤلاء ، ستعرفه بموسى عطية رجل صديقتها وجارتها الطيبة والكريمة قبل أن تتزوج وترحل عن القرية قبل اثني عشر عاماً .

هذه المرأة التي يتذكرها الآن أبو صبري كالطيف خلال زياراته لقرية زوجته ، من خلال لسانها السليط والوشم الأزرق في أعلى جبهتها ، سيكون لها الفضل في إنقاذه ورفيقيه ، كما ستتوَّج ذكرى ودادها لأم صبري بإعداد وجبة ديك رومي مع الرز سيلتهموها في أعقاب وجبة البجعة الحامضة في المساء الفائت .

* * *

قبل أن يصل خالد أحمد زكي مع عناصر جديدة إلى مركز القاعدة ، كانت قيادة الكادر المتقدم قد قررت في اجتماع موسَّع ، الانضمام إلى القيادة المركزية التي يقودها عزيز الحاج تحت شرطين : تصفية خط آب والاعتراف بجبهة الكفاح الشعبي المسلح بقيادة خالد زكي وحسين ياسين ومظفر النواب . ومع قدوم خالد وحسين في منتصف نيسان ، حاملين بعض الأسلحة والأموال ، اتخذ قرار بالانتقال من هور العمارة إلى أهوار الناصرية في إقليم العوينة ، خروجاً من العزلة التي عاشتها القاعدة في تلك المناطق النائية والمعزولة عن الفلاحين ، كما تقرر أن تبقى قاعدة العمارة موقعاً احتياطياً في حالة الانسحاب والتبادل التمويهي .

مع وصول القيادة الجديدة والمتطوعين وبعض الأسلحة ، ارتفعت المعنويات وبدأ الانتقال إلى القاعدة الجديدة بحماسة لامثيل لها . ومن الشطّانية للعوينة حُملت الأسلحة والعتاد والمشحوف بالشاحنات . عند الظهر وصلوا الدوّاية في قضاء الشطرة ، ومن الدواية بدأ التجذيف على مدى ست ساعات حتى وصلوا العوينة وناموا ليلتهم في بيت مسؤول محلية الحزب .

كانت القاعدة أكثر أماناً في هذه البقعة ذات التاريخ الحزبي القديم والذي يعود عهده إلى زمن المؤسس الشهيد فهد الذي اغتاله الحكم

الملكي من خلال محاكمة عسكرية صورية أشبه بالمهزلة حوَّلها ذلك العامل الثوري مع رفيقيه زكي بسيم وابراهيم ناجي إلى احتفال شيوعي سيظل يدوي إلى الأبد في أعماق الثوريين وهم يصعدون نحو حبال المشنقة هاتفين بصوت فهد الأقوى من الإعدام : الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من المشانق . لو تيسَّر لي أن أولد من جديد لما اخترت غير هذه الطريق . لي الشرف أن أشنق في هذا المكان الذي تنطلق منه مظاهرات أبناء الشعب .

* * *

سيقول خالد أحمد زكي المسؤول السياسي عن قيادة القاعدة والذي سيتخذ منذ الآن اسمه الحركي «ظافر» ، للرفاق ، بأن التناقضات في الحزب لم تحسم بعد ، لكن الأوضاع اللحظة أفضل ، علينا أن نضغط من هنا ليولد الحزب بقوة البنادق بعيداً عن انتهازية المدن . وفي المساءات سيتحدث بتوهجات نبوية عن الشرارات الصغيرة التي تضرم الغابة . الاضرابات . العصيانات . انتفاضة الشمال الكردي . العراق من شماله إلى جنوبه لابد أن تُضاء النيران في سماواته المظلمة .

وفي تلك المساءات كان الحديث يجري حول مسألتين أساسيتين : تجذير العلاقة مع الفلاحين وتأمين السلاح والذخيرة . كان أبو صبري وهو منهمك في تدعيم أساسات الكوخ القصبي ، يدرِّب المجموعة على كيفية قطع القصب ونقلها بالمشحوف ثم ربطها على شكل حزم متراصة تؤمن للبيت الثوري غائلة المياه والصقيع والريح الباردة .

وعلى المدى الطويل الذي مضى في بناء هذه الأكواخ منذ القاعدة الأولى ، صار الرجل محترفاً في هذه الصنعة . ففي أوقات الراحة كان يفصح لمهيار الباهلي بأنه نسي التصوير الشمسي في شوارع البصرة ، وإذا ماظلَّ حياً فسيزاول مهنة بناء البيوت العائمة في الأهوار : مهنة بسيطة أخويا مهيار . منجل حادّ وكومة حبال ومهارة يدوية . هكذا نأمن لعنة الفقر التي تطاردنا من بداية الدهر .

كان الباهلي يضحك من سذاجة هذا الرجل الذي نسي في غمرة العمل المؤقت ، إن مايقوم به ليس سوى محطة بين حياة الفقر ومغامرة الموت . وعندما سيذكره بأن أموراً أكثر خطورة من بناء الأكواخ القصبية ستبدأ في الأيام القادمة ، سيسأله أبو صبري عما إذا كانوا لن ينتقلوا مرة

أخرى ليقيموا قواعد جديدة في أماكن أخرى أكثر أماناً .

في أعماقه كان الرجل قلقاً ومغتاظاً من هذه الهجرات الشبيهة بهجرات الغجر في شهور ماقبل الحرب . فالقواعد تقام والأكواخ تُبنى والتدريب متواصل ، لكن القتال مؤجل .

وهكذا عندما يحاول الافصاح عن شعوره ، منتقداً غبار المماحكات السياسية ، يوشوش لمهيار على انفراد : أخي مهيار . اسمع . أنا رجل بسيط غير متعلم لاأفقه في التيك والتاكتيك . اللي أعرفه أني شيوعي فقير لاأملك شيئاً . الحياة والموت عندي سوا . الضباط والتجار والاقطاعيون ورجال الحكومة أعداؤنا . صح أم لا رفيق ؟

ـ صحّ . يقول مهيار .

ـ آني وكل الشيوعيين الحربيين لازم نقتل هؤلاء الأعداء بلا شفقة . حق وعدل هذا الكلام رفيق أم لا ؟

ـ حق وعدل . يردّ مهيار .

ـ وإذا بقينا ننتقل ونبني أكواخاً ونمطمط كلاماً في التيك والتاكتيك يربحون الوقت . صحّ وإلا لا رفيق ؟

ـ صحّ

ـ يمعوَّد . صار لنا مليون عام تايهين مثل المجانين في هذا الطين الملعون . أعطونا أوامر نهجم عليهم ونكنس الأرض من ريحتهم الجايفة . شُف عيني مهيار ! الناس تعبوا وداخو وتراهم يقولون : دنّ الرايب مابي زبدة !

في هذه الأوقات السحرية ، المتوهجة كالنيازك ، يرى مهيار الباهلي ما وراء فطرية هذا الرجل . ومن خلال لمعان عينيه وأنفه المحدب كصقر ، وحاجبيه المعقودين ، كان يستشف صرخة شعب رست فوق صدره صخور من القهر والمذلة ، يحاول الآن زحزحتها بقوة النزع .

جليلاً كان يتمدد الليل خارج الكوخ ، جاثياً فوق شساعة خضراء وعزلة أبدية لغمر منسيّ . عراء مديد، مديد يصدي بالوحشة وحفيف القصب وأصوات الطيور ودويّ المياه المسكونة بملايين الجن والأشباح الغامضة . في أعماق مهيار الباهلي كان هذا العراء السحري يوقظ

مشاعر نائمة تعود إلى فجر الطفولة الأولى للبشرية .

الأزمنة السحيقة التي تشكل الانسان من عناصرها الأولى ثم انبثق بعد اختمار الخلايا من الطين والهواء والماء والشمس . الآن تبدو وكأن مليارات السنوات من حياة الصعود نحو الاكتمال الانساني وبناء صرح الحرية ، قد تبددت عائدة إلى أصلها الأول . لقد ضربها الانسان المتوحِّش ببراثنه في لحظة هوس وعطش للدم ، فتهاوت ، وهاهي الآن بحاجة إلى تشييد جديد .

ومن شوارع وساحات وقاعات الدفاع عن المعتقلين في مدينة لندن كان خالد أحمد زكي يرى هو الآخر الانهدام العميق ودمار الهيكل . انهدام باتساع هذه الأهوار السومرية التي تروي أساطيرها الأولى قصة غوديا وكيل الآلهة الأرضية وهو يحلم في أوقات حبس الفيضانات باعادة بناء الهياكل المدمرة إذ يرى عملاقاً على رأسه تاج ، جناحاه جناحا طائر عظيم ينتهي أسفله بموجة فياضة . على يمينه ويساره فهود وأسود صاغرة . يشير العملاق لغوديا أن يبني الهيكل المدمر ثم بغتة يلمح الفجر في الأفق فيرى غوديا امرأة تمحو المباني القديمة وبيدها قلم من ذهب ولوحة طين رسمت عليها ابراج النجوم . امرأة تتراءى لها شبيهة بإلهة مدينة «أور» كانت تندب مدينتها الموشكة على السقوط والهلاك : عندما كنت وكلي حزن وأسى أتوقع يوم العاصفة ذاك المقدر لي ، المفروض علي ، وكلي دمع وبكاء ، أنا المرأة الوحيدة ، لم يكن لي مهرب من ذلك اليوم المحتوم . على كاهلي حطّ الخوف من دمار العاصفة الشبيه بالطوفان . وعلى حين غرة وأنا في فراشي حُرِمْتُ الأحلام كلها . وأنا في فراشي حُرِمْتُ النسيان كله . ولأن هذا البكاء المرّ قدرٌ لبلادي ، ولأنني لم أستطع حتى ولو جبْتُ أرجاء الأرض كبقرة وحشية تبحث عن ابنها المفقود ، أن أستعيد شعبي ، حتى ولو بسطت جناحي كالطير ، وكالطير طرتُ إلى مدينتي ، ماكانت مدينتي لتنجو من الدمار حتى أسسها ، ماكانت أور لتنجو من الهلاك حيثما هي . حتى لو صحت صارخة بيوم العاصفة المشرع الجناحين : عُدْ يايوم العاصفة إلى صحرائك ماكان كَلْكَلُ تلك العاصفة ليرتفع عني .

مليّاً يتمعن غوديا في المرأة وهو مندهش . يرى جندياً يحمل لوحة من الزبرجد يرسم عليها تخطيطاً لبيت الهيكل ، وعلى يساره يرى قوالب آجر وسلالاً ورجالاً بأجسام طيور يصبون الماء بلا انقطاع ، ثم يرى

حماراً إلى يمين العملاق يضرب الأرض بحوافره نافد الصبر .

عندما يستيقظ غوديا من كابوسه الغريب يدرك مغزى الحلم : لقد أوحى إليه أن يشيد الهيكل من جديد .

ظافر ، الرجل النحيل ، الناعم ، موّهوا شعره الأشقر وشاربيه فطلوها بالسواد ليتجانس شكله مع البيئة ، والملازم في الجيش الحكومي ببزته العسكرية الجديدة ، هذا ، المأخوذ بتجارب الثورات التي قرأ عنها وانتفاضات أمريكا اللاتينية ، يتحدث ويهجس بمسيرة ماو وطابور لويس كارلوس بريستس الذي قطع عشرين ألف ميل مع ثمانمائة رجل مخوّضاً في مستنقعات البرازيل على مدى أربع سنوات من التعب والمرض والأوبئة والجوع وأشباح الموت ، ثم ينتقل إلى ثورة العشرين في هذه البقعة المضمخة بدماء الفلاحين والبدو ، فتنهض في دمائه صرخة بناء الهيكلِ المدمر . هذا الرجل كان يبدو بين المجموعة المؤلفة من اثني عشر مقاتلاً نذروا حياتهم للموت ، كالغمام الذي يختزن الاعصار . إنه يحلم الآن أن يعيد لبلاده قوتها ومجدها الضائعين بعد أن توقف قلبها النابض عن الحركة .

كانت البلاد والشعب المهان بحاجة إلى دمٍ جديد بعد أن امتص دم الجسد القديم بأنياب الكلاب واللصوص والأفّاقين ومجموعة أولاد العواهر والحثالات المسماة الآن بالدولة الإلهية القدرة .

هكذا كانت الروح البروميثيوسية تقوده بأشعة نيرانها ، وهو يقطع المسافات هابطاً من جبال الآلهة البيضاء والرخيَّة ، نحوٍ هذه السهب المائية المغمورة بالبردي والقصب والغرين ، مسحوراً بارتسامات وتخطيطات تدمير دولة العسكر الكلبية ، وتشييد الهيكل الشيوعي لغوديا القرن العشرين .

* * *

في السادس والعشرين من أيار ، بعد شهرين من التدريب ، اتُخِذَ قرار الهجوم على ربيئتين في هور الغموكه ، وهما مخفران متحركان ، مدربّان تدريباً عسكرياً على مستوى عالٍ ، كما تقرر أن يكون الانسحاب بعد الهجوم إلى هور الحمّار والأبيض . كانت الربيئتان قد استُطلعتا قبل أسبوع . قام بالاستطلاع أبو صبري ومهيار ، ومحيسن نايف أحد لصوص الهور من عشيرة بني سعيد .

هذا الأفَّاق كان معروفاً في تلك الأصقاع باسم سبع الهور . منذ ثلاثين عاماً اختفى في أعماق هذه الأهوار قاتلاً ومتمرداً بعد أن أردى ببندقيته الموزر كبير عشيرة بني زيد المعادية لعشيرته . رماه بطلقتين إحداهما مرقت من أذنه اليسرى فاخترقت جدار المخ ، بينما الطلقة الثانية شرخت شريان القلب . هكذا فرّ محيسن نايف من وجه السلطة وعصى ، فارضاً الخوَّة وحصته من المواسم بسطوة بندقيته التي لاتخطئ هدفها نحو القلب أو الرأس .

وفي السهرة التي ستقام في القاعدة ، سيتحدث سبع الهور ، وهم يكرعون النبيذ ويمزقون لحم الكبش الذي أحضره غبّ استدعائه ، عن حياته القاسية والمعزولة وأمجاده الشخصية ، كسيِّد على هذه البقاع المهجورة ، والعائمة فوق دنيا النسيان والجهل والوحشية ، والتي يعتقد أنه إلهها المسلح . وعندما سيسأله أبو صبري : لماذا رفضت المجيء في البداية . سيقول : أنا محيسن نايف التي ترتعد مني السموات وأهوار العراق أرفض أن أكون دليل أطفال !

لكنهم ، بعد أن يشارف الثمل ، سيفاجئونه بالسرّ الذي اختير من أجله ، فينصعق . لم يصدِّق في البداية ، لكنه وهو يعقد خطوط غضب صدغه مركِّزاً ارتعاشات النبيذ التي بدأت تجتاحه ، سيثب صارخاً بصوت ذئبي مندفعاً نحو معانقة أبو صبري والرفاق بنشوة الرجل الخطير الذي عُرفت قيمته الحقيقية في الأوقات الصعبة .

الساعة التاسعة ليلاً من يوم الخميس ، كانت ساعة الصفر لانطلاقة الهجوم .

خمسة مشاحيف صغيرة ومشحوف كبير ، ستقوم بنقل اثني عشر مقاتلاً نحو الربيئتين المتجاورتين فوق تلال القرية .

سيستغرق الإبحار مع مجرى النهر الواسع حوالي الساعتين تحت ليلة صافية تضيئها نجوم كان انعكاسها في الماء يُرى كالطيور البيضاء الراقصة تحت الصفحة الفضية للنهر .

قبل الوصول إلى القرية سيغادرون الزوارق ويهبطون بين أعشاب الضفاف الطويلة .

تقدمت المجموعة بحذر تحت غلاف من الهدوء والثقة ، كانت توحي بهما أصوات جنادب الليل وهذه السكينة الهابطة نعاساً فوق أهالي القرية .

لقد خيِّل للملازم ظافر ، وهو يتقدَّم منحنياً وراء تلعة من الطين اليابس ، أنه يحلم إذ تراءى له رجل يرتدي ثياباً بيضاء ظهر أمامه بغتة . صاح به فزعاً : قف . من أنت ؟

- قائد الربيئة . مين الرجال ؟ قال الرجل الأبيض مندهشاً .

- دورية تفتيش .

كان الآن يحاذيه ومعه ثلاثة مقاتلين تقدموا فطوَّقوه .

- ماالأمر سيدي ؟ سأل قائد المخفر الملازم ظافر .

بلهجة ضابط حكومي راح يؤنبه لتقصيره وإهماله ، وعندما قال له بأن الشيوعيين احتلوا قضائي الدواية والشطرة وأنت غافل تتسكع بثيابك المدنية ، انصعق قائد المخفر من هول المفاجأة : هيا إلى المخفر . هيا أبا الفوارس . قال العبارة الأخيرة ساخراً منه . كانت ركبتا الرقيب تصطكان تحت موجة باردة من التعرق وزوغان العينين ، وهو يتقدم أمام المسلحين نحو المخفر .

استولوا على المخفر بحركة مسرحية سهلة . ابتُدِعت لحظتها دون أي تحضير مسبق ، بعيداً عن أي إيقاع تراجيدي مختلط بالدم والبارود . وزعت عناصر الحراسة في الخارج تحت إشراف مهيار بينما دخل الملازم ظافر مع المجموعة الثانية إلى داخل المخفر . رحبَّت العناصر العسكرية الحكومية بدورية التفتيش ، فسارعت إلى ذبح الديكة الرومية وتحضير الشاي ، واعتذر رئيس الربيئة للمرة المليون عن إهماله غير المقصود في هذه البقاع الآمنة والتي لم تشهد منذ أعوام طويلة أكثر من شجارات محدودة بين الفلاحين ، أو بعض السرقات التي قام بها اللص الهارب محيسن نايف .

خلال السهرة التي بدت وديَّة تحت بخار الشاي ودخان اللفائف التي افتقدوها زمناً ، انطلق الملازم ظافر يتحدث عن الأوضاع السياسية والانحرافات والخراب الذي حلّ بالوطن والشعب . وفي اللحظة التي وصل فيها إلى ذكر الثورة وصراع الطبقات قائلاً بأن كاسترو وغيفارا غيَّرا وجه التاريخ في أميركا اللاتينية وعلينا أن نفعل ذلك هنا ، انتبه أحد أفراد المخفر . أدرك من خلال تربيته في حزب السلطة أن المصيدة أطبقت عليهم . بخفة وسرعة تناول بندقيته واندفع متسلقاً السور الطيني للمخفر . كان حراس مفرزة مهيار في الخارج يطوِّقون المخفر في وضع متأهب . بغتة رأوا العسكري يثب من أعلى السور ويطلق النار . طلقة

واحدة أصابته في ذراعه فهوى فوق العشب . حاول أن يصرخ فكمّموه بعد أن أخذوا سلاحه وأدخلوه إلى غرفة الاجتماع .

بعد أن ضمّدوا جرحه الطفيف ، بدأ إزاحة الستار عن المسرحية بشرح كثّفه الملازم ظافر حول انطلاقة جبهة الكفاح ، الذراع المسلح للحزب الشيوعي . الجبهة التي بدأت حربها الثورية الآن في كل الأهوار لإنقاذ الشعب من الطغيان والآلام التي قاساها منذ عصور سحيقة .

ـ أنتم لستم أعداءنا ولانريد إيقاع الأذى بكم . سنستولي على الأسلحة والذخيرة . بعد أن ننسحب ستكونون أحراراً . لكن تذكروا جيداً أن آلاف الشيوعيين المسلحين الآن يغطون هذه الأهوار .

حتى تم الاستيلاء على الربيئة الثانية واعتقال عناصرها السبعة ونقل السلاح مع الشرطة إلى المخفر الأول ، سطع الفجر بنفسجياً متهادياً كطفل طائر فوق اخضرار القصب والتلال .

هكذا فاجأهم الصباح وهم قرب الزوارق ومعهم ثمان وعشرون قطعة سلاح مع ذخيرتها بعد أن تركوا الجنود في الربيئة الأولى أحراراً بلا أسلحة .

سيتذكر مهيار الباهلي فيما بعد وقائع ماجرى بقليل من التشويش وكثير من الحزن المستتر ، يوم كان يقود المشحوف الأخير وظافر يقود الوسط بينما أبو صبري الدليل في زورق المقدمة ، كيف هبت الريح الشرقية العاتية بين هور الغموكه والحمّار المكشوفة فصدت المشاحيف وتركتها تدور في مواقعها كالخذاريف التي أطلقتها أذرع أطفال في ساحة عارية . كان ذلك في بداية ضحى اليوم الثاني وبعد أن أدركوا أن العملية استغرقت ثلاثة أضعاف الوقت المقرر لها فما عاد أمامهم سوى مواجهة الزمن الأبيض الوضاء بنهار سيمضونه حتى هبوط الليل في هذا المعبر العاري .

مع أول المساء وبعد أن هدأت الريح الملعونة جذّفوا في النهر الفاصل بين الهورين . بدا العمل السريع لاجتياز المضيق الشبيه بعنق الزجاجة رهاناً مجنوناً للإمساك بحبل النجاة الذي يبدأ طرفه على بعد أقلّ من ميل من عتبة هور الحمّار والأبيض الشاسعين كالسماء .

ـ قف !

بين الحالم والمستيقظ سمع أبو صبري الصرخة فتجاوزها وهو يجذف باندفاعة رجل ابتدأت حربه أخيراً بعد أن خُيِّل إليه ولزمن سحيق

أن هذه الحرب ليست أكثر من أضغاث تنفجر في أعصابه وخلايا رأسه كلما اهتاج وتذكر صرخة ابنه وشقاء لياليه في هذه الأهوار الجحيمية .

لكن الصوت تكرر صارخاً بالزوارق أن تقف . سمعه قائد المجموعة فأوعز بعدم الوقوف .

طلقتان مرتا وفق الزوارق ، ردّ عليهما ظافر برشقة .

كان القمر هلالاً في تلك الليلة يرمي شباكه الماسية على مياه النهر وعلى الزوارق المحاذية للشاطئ فيكشفها ، عندما انهمرت الطلقات من الضفاف العليا باتجاه الزوارق التي اضطرب خط سيرها ، فبدأت تجنح نحو حواف المياه الضحلة .

بعد أن تركوا المشاحيف تحت وهج ومفاجأة النيران ونزلوا إلى ضفة النهر باحثين عن مواقع التلع والحجارة ، جاءهم شعور مباغت أنهم ربما وقعوا في كمين وأنهم الآن . في بدء المعركة .

غير أن انبثاق كشافات الضوء التي بهرت العيون لتعري من أعلى مساحة كبيرة من الضفة والنهر ، بددت الوهم وأيقظتهم من نشوة الحلم والغفلة .

لم يترك الكمين الوقت الكافي لاختيار أفضل المواقع أو الحركة ، وخلال ساعة من الاشتباك انهمرت عليهم مع النيران مظلة من الفوضى والارتباك وفقدان القدرة على قيادة المعركة .

كان حسين وعبود يصرخان : انسحاب .انسحاب . وين نروح . وين نروح . وهما يرتعدان تحت صعقة المفاجأة ودوي الطلقات التي تئز فوق الرؤوس وتدوي في الأعصاب ، في الوقت الذي انهار فيه شلش حامل الدكتريوف فما عاد قادراً على إرجاع مغلاق الرشاش المبتل بالماء والوحل .

ولأن فرصة العودة إلى استخدام الزوارق مرة أخرى أصبحت معدومة وتساوي الموت ، كان اقتراح ظافر المخاطرة لجلب ماتبقى من الأسلحة التي تُركت تحت غمرة المفاجأة داخل الزوارق . كان ذلك بداية الصحوة من هذا الكابوس المباغت . وبسرعة برقية انتُدب لمهمة سحب الأسلحة أبو صبري وسيد درعان وعقيل حبش وجاسم تويج ، في الوقت الذي يغطي فيه الآخرون التقدم والانسحاب بنيرانهم الغزيرة .

ـ آي . قتلت .

هكذا انطلق الصوت من سيد درعان بعد أن وصل مع المجموعة

التي نجحت في سحب الأسلحة . كان حسين ياسين مايزال يصرخ بالانسحاب وهو يشير إلى أعالي النهر حيث التمعت مئات الأنوار فوق تلال القصب ، فبدت في هزيع قلبه المرتعش كأنها كشّافات آلاف السيارات والمدرعات العدوة ، وهكذا في لحظة انبهار وضع يده على زناد بندقيته ورمى باتجاه الأنوار اللامعة فأصاب سيد درعان بطلقة مجنونة حطّمت فكه الأسفل مخترقة الابط الأيسر .

كان لابد من الانتقال في فترة هدأت فيها المعركة وبعد تضميد جرح الجريح بكوفية مهيار ونقله إلى منطقة البردي على ضفاف النهر ، حيث سيجثمون بين الدغلات الخفيفية فوق الوحل والمياه الضحضاحة كفراخ بط ترتعش حتى الفجر من وخز صقيع الليل .

كانوا الآن بعيدين عن موقعهم الأول ، يسمعون بعض الطلقات المتفرقة خلفهم ، وهم لابدون في الطين لايأتون بحركة سوى هذه الحمّى التي أصابت الجريح مع بداية الفجر فراح يهذي في أحضان أبو صبري : اتركوني . كيف أجازيك ياحبيبي أبو صبري ويامهيار وياأهلي . راحت علينا . آني خلصت . اتركوني وانجو بأرواحكم . عيوني آني انتهيت خلاص .

مع اهتلال الفجر اكتشفوا أنهم بلا غطاء . وماتوهّموه تحت ستارة الليل والحصار وبعض أغصان البردي ، لم يكن أكثر من مستنقع صغير معشب لا يبعد عن المكان الأول أكثر من مئتي متر .

ومع ذلك لم يرهم الصيادون الذين عبروا قربهم وبدؤوا يجمعون بخوف شباك صيدهم وهم يتحدثون عن حرب الحكومة والشيوعيين والإغارة على مخافر الشرطة وتشليح الأسلحة من عسكر الحكومة الذين بالوا في سراويلهم عندما داهموهم في الغموكة ونهبوا سلاحهم .

مع أول غسق لليلة الثالثة بلا طعام ، وتحت جيشان الفزع والحصار والبحث عن منفذ ، راحوا يتكهنون بالاتجاهات وهم يسيرون على الضفاف تحت نجوم بدا لمعان نجمة العشاء الغربية أكثرها إشارة إلى احتمال وجهة الهور . كان عبد الجبار هو الذي اقترح الهداية بالنجم . لقد درس هذا الفتى في الكتب القديمة علوم الفلك والنجوم وطوالع المستقبل وقيامة الساعة في مخطوطات صندوق جده الذي أغلقه قبل موته موصياً بهذا الكنز لحفيده كي يحلّ رموزه عندما يصبح عمره ستة عشر عاماً . حكى عبد الجبار هذه الحكاية في القاعدة عشرات المرات مع تحويرات طفيفة لم تكن تثير الانتباه في تلك الوحشة البائسة .

وعندما كان يروي ذلك عن طفولته وشبابه كان يهز رأسه خارجاً من أمواج الحنين الأسطوري باتجاه الحالة الراهنة ليقول : آه . كم يتغير الانسان مع الزمن !

هكذا تقدموا في ذلك الغسق الفضي باسم نجوم عبد الجبار مسراهم ومجراهم ، يتناوبون حمل الجريح ، ويقاومون طوال الليل الجوع والضنى وانهيارات حسين وعبود اللذين صمتا تحت تهديد طلقات أبو صبري ، ومطبات الغرين اللعين الذي يفاجئهم بالحفر .

مع الفجر فوجئوا بالنهر على يسارهم ، كما اكتشفوا أنهم كانوا ينعطفون بانعطاف النهر ، وأن المسافة التي قطعت لم تقربهم من الأهوار ، إنما فتحت أمامهم سهلاً مستوياً كان فيما مضى مسيل ماء جفَّت مياهه ، وعلى مبعدة أقل من خمسمئة متر تناثرت بيوت قرية مجهولة من القصب والطين قامت فوق هضبة .

بهذر مفاجئ ، وسط هذه البليَّة التي سقطوا فريسة شباكها ، سيهمس الباهلي في أذن أبي صبري بأن نجوم الرفيق جبار ومخطوطات جدّه الخَرِف كذبت علينا وقادتنا إلى التهلكة ، وسيرد أبو صبري وهو يمسح العرق بطرف سترته العسكرية بأن الخطأ ليس في النجوم ولا المخطوطات .

سيقول مهيار ذلك في اللحظة التي اتخذ فيها قرار الكمون في هذه الساقية الجرداء المحصبة ، والبدء بتجهيز الحفر الفردية للاختباء داخلها قبل انكشافهم .

ماكانوا يعرفون أين هم الآن . كان النهر وراءهم وفي المواجهة قام جدار انهدامي من الصلصال الرمادي ووراءه كانت تجثم القرية المجهولة التي ترى من خلال أغصان بعض أشجار الصفصاف . حريق من العرق والإنهاك كان يلهب الحلوق والرؤوس والبطون الجوعى ، عندما بدؤوا الحفر في منحدر ماتحت الانهدام الساتر . لقد صدرت الأوامر وتحت التهديد بإطلاق النارعلى كل من يتراجع نحو النهر طلباً للماء . ثمة مطرتان عسكريتان على المجموعة أن تشرب منهما بالقطرات حتى ينسدل ستارالليل .

في أمسيات بونة والمدن التي سيلجأ إليها فيما بعد ، إلى أن يتاح لهم أن يصطادوه بطلقة أو يموت حزناً وتوحداً ، ستلوح على شاشة ذاكرة مهيار البيضاء صورة اندفاعهم إلى ضفة النهر مع أول الليل ، وكيف سبح

وخوّض في عمق النهر ثم نام في الماء حتى أحس مسامه تتفتح كأزهار اللوتس داخل هذه الرطوبة العذبة التي تدفق الكون منها .

على مدى ساعة وهو مستلق على ظهره فوق الضفاف الموحلة والمحصبة يراقب النجوم والفراغ السماوي ، مرًت كالشيفرة ذكريات قديمة وحميمة ، كان يتمرد على قوة جذبها الحنيني ، لم تلبث أن انطفأت في بقاع بعيدة عندما هبطت عليه هذه الحالة الغريبة التائهة التي وجدوا فيها على هذا النحو السريالي الغامض .

ماكان الوقت المرهف والشبيه بحقل ألغام ليسمح بمناقشة الماضي والأخطاء التي ارتكبت ، ذلك لأن اللحظة كانت تساوي دهراً آنذاك فلا تعطي أكثر من اتخاذ أوامر ومبادهات سريعة وخاطفة للخروج من الحصار .

لقد اقترح القائد ثلاثة يقودهم أبو صبري يتسللون إلى القرية لشراء الطعام والبحث مع الفلاحين عن امكانية استئجار زوارق ودليل يقود المجموعة إلى هور الحمَّار .

سيختفي الثلاثة إلى الأبد فلا يعودون فيخيل لظافر ومهيار وبقية الأفراد السبعة أنهم اعتقلوا أو قتلو أو انهزموا ، بعد أن ضاعت آثارهم حتى نهاية المسرحية وإسدال الستار .

أتى المساء الرابع ولم يظهر أبو صبري ورفيقاه فخيَّم على الأفراد احساس ثقيل بالخذلان والحيرة ، وبدا خالد أحمد زكي في تلك الليلة مغموماً كما لم يُرِ في حياته ، وإلى جانب غمه وكآبته ظهر لمهيار يعاني بداية اضطراب عصبي أفرج عنه أخيراً بصرخة : لقد ضعنا نهائياً وهذه مقبرتنا . وشعر مهيار في عبور شفقي حزين بخطأ إرسال أبو صبري الدليل والصديق الذي لم يعد ، وبأن نجوم عبد الجبار الخادعة ليست أكثر استدلالاً للعطشان من سراب في بقيع .

في الربع الأول من تلك الليلة اتخذ مهيار فجأة قرار عبور النهر إلى الضفة الأخرى وسيلة وحيدة ومحاولة أخيرة للبعد عن المنطقة المكشوفة ، لأن الهور لابد أن يكون قريباً من الضفة الثانية .

وهكذا بدؤوا بالسكاكين يصنعون حزماً وشمائل من البردي والبوص ليعبروا النهر مع الأسلحة والذخيرة فوق هذه الطوافات الخضراء تحت ضوء القمر . في منتصف الليل بدوا في عرض النهر الهادئ عائمين فوق هذه الطوافات البدائية ، كأنهم مشهد حكاية من حكايات السندباد

البحري تقودهم بوصلة تكهنات الباهلي بأنهم منسابون الآن مع التيار الهدهاد إلى بوابة الأبيض السحيقة والكثيفة بالقصب حيث يضيع لواء من الجيش في أعماقها الوحشية .

فجراً رست بهم الطوفات فوق ضفاف جديدة معشبة على أطرافها أشجار من الصفصاف النهري ، لكن الهور لم يبد لأبصارهم بعد .

آنذاك أدركوا ، ومن خلال سحب اليأس وضباب الصباح وهذا التيه الخذروفي ، أنهم وقعوا فريسة سهلة لسلسلة من الأخطاء رسمتها مطولات ظافر ومحاضراته في الربيئة وترك الجنود أحراراً ، ونجوم عبد الجبار ، وغياب أبو صبري ، واستبصارات مهيار وتنجيماته الفضائية .

في مساحة ذلك الوقت الضائع تحركت مجموعة من جنود الربيئة التي هوجمت ، إلى قضاء الشطرة ليخبروا السلطة هناك بما جرى . ومن الشطرة طارت البرقيات إلى البصرة فبغداد : عصيان شيوعي مسلح واسع النطاق في أهوار الجنوب . وعلى الفور أعلنت منطقة البصرة والناصرية والعمارة والكوت منطقة عمليات حربية .

اندفع لواء من قوات الصاعقة والمظليين معزَّزاً بالقوات العسكرية السيَّارة وشرطة المحافظة والأقضية ، لمواجهة العصيان والقضاء عليه .

ستهبط على مهيار الباهلي فيما بعد ، موجة من الندم المرير لأنه لم يخالف أوامر الرفيق ظافر ، فيرمي ذلك الرجل الأفَّاق الذي انبثق أمامهم كشبح أسطوري فوق حصانه الأشهب . ففي ضحى اليوم الخامس فاجأهم ذلك المخلوق الغريب بسؤال يضمر شكاً وخديعة : ألستم أنتم الشيوعيين ثوار الأهوار ؟ أنا اسمي عبد عليعل صديق محيسن نايف سبع الهور . منذ عشرة أعوام وأنا مطارد وعاصٍ على الدولة . روحي ودمي مع الشيوعية . أعطوني سلاحاً لأقاتل معكم وأدلكم على منفذ للخروج من هذه الوقيعة .

كان التعب والجوع واليأس قد بدأ يفتك بهؤلاء الأنفار التسعة الذين أمضوا أكثر من مئة ساعة بلا طعام ، طافين على سطح هذه المياه والحوافَ الموحلة بحثاً عن ثغرة نجاة يفتحها لهم الله أو الشيطان داخل هذا الدهليز اللولبي لانهائي الامتداد .

لقد بدا أخيراً ، في لحظة انبثاق هذا الفارس الغريب ، إن الشيطان استجاب لأشواقهم ، فتجلى لهم تجلي النار لموسى التائه .

وليظهر حسن نواياه ، رمح بحصانه كالسهم وغاب ، وبعيد الظهيرة

عاد محملاً بأكياس الخبز والتمر والدجاج ورقائق منّ السما مع جرة مَنٍّ اللبن البارد .

ـ اسمع رفيق ظافر . قلبي خائف من هذا المكّار !

ـ غريب . ماالذي يدعوك للشك ؟

ـ هذه الحركات المسرحية المريبة . كيف عرف أننا الشيوعيون بهذه السرعة ؟

ـ هو تحت رحمتنا . نحتاجه دليلاً .

ـ أنا لاأثق به وأشك أنه ينقل أخبارنا .

جرى الحوار سرياً بين الرجلين في هدأة مابعد الظهيرة بين أشجار الصفصاف الصغيرة المدلاة ذؤاباتها على ضفة النهر .

ومع أن ظافر رمى في روع الباهلي أنه فريسة تصورات ريبية مصدرها هذيانات التعب واهتزازات الجملة العصبية المرهفة التي تلتقط الأشياء فتتراءى مكبرة على شاشتها تحت حمّى هذه الصدمة المفاجئة ، إلا أن الباهلي ظلّ في حقول ريبيته تحدوه فكرة إزالة كل ماهو مفاجئ وغريب عن سطح هذه المتاهة التي قذفوا فيها في هذا الوقت الضائع .

كل هذه الظنون والاختلاطات والحساسيات العصبية ستختزل وتتضح في ذلك النهار عندما سيهرب ذلك الرجل الغريب الذي ظهر فجأة فلا يعود إلا مع القوات الزاحفة التي طوقت المجموعة على شكل قوس مفتوح باتجاه النهر .

كانوا الآن موزعين على الضفاف بين كتل الصلصال وأجمات البوص ، أمامهم المرتفعات الجرفية للنهر تتوزع قوات الأعداء وراءها ، ووراءهم الغرين ثم النهر الموحل .

ـ أنتم مطوقون . لامنجى لكم . الله أكبر . الله أكبر . كلنا اخوان . استسلموا ولكم الأمان .

هكذا انطلقت مكبرات الصوت داخل موج الأشعة الكاوية صادمة أعماق الرجال الحالمين بالنجاة ، فأيقظتهم .

ـ لن تكون هناك زوارق ومشاحيف إذن !

قال سيد درعان الجريح .

الرشقة التي انطلقت من أحد رشاشات المجموعة تحت ضباب الليلة رداً على مكبرات الصوت ، هزت الأرض والصلصال وأطارت قطعة من

حواف الجرف النهري . ومع أنها بدت كقرار للبدء بالمعركة إلا أن صرخة ظافر : ماهذا ! لقد كشفتنا . أعادت الحالة النفسية إلى وضعها الارتباكي الأول .

قال شلش الذي أطلق النار : لماذا هذه الأسلحة للعينة إذن ! هل سنموت كالكلاب وفي أيدينا السلاح ؟

وصرخ القائد بارتجاف عصبي : أي حماقة ! ألا ترى جحافل أولاد القحبة كيف تتقدم كيوم الحشر لإبادتنا !

عندما اختلف أحمد زكي ومهيار الباهلي حول الاستسلام والمساومة بشروط ، أو خوض المعركة غير المتكافئة ، احتكم القائد ومساعده إلى السبعة المقاتلين الذين توزعوا وراء كتل المدر الطينية وجذوع الصفصاف وفي الحفر الصغيرة المتناثرة على حافة النهر .

كانت النجدات تتواصل في الشاحنات والعربات العسكرية على نحو كثيف لمواجهة حرب الأهوار التي يقودها مئات الثوار الذين تغلغلوا كالأفاعي في أعماق الهور . هؤلاء الذين تشكل هذه المفرزة خطهم الدفاعي الأول . ولكشف خطوطهم الخلفية ومواقع نجداتهم حوَّمت الطوافات العسكرية في الجو .

لحظتها وهم في التيه والحصار والبلبلة ، طُرِحَ عليهم اختيار الاستسلام أو القتال فاختاروا الحرب ، وكما تنحى خالد لعبيدة ابن الجراح ليقاتل تحت رايته ، استلم الباهلي القيادة من ظافر ليقود مفرزة تائهة من جند طارق بن زياد ضاعت زوارقها وانقطعت أسباب نجاتها في هذا المضيق الذي بوغتت وحوصرت فيه . على مساحة أكثر من خمسين ميلاً كانت المنطقة تحت المراقبة والحصار والرمي ، تبدأ من ضفاف النهر حتى منافذ الأهوار وحقولها الخضراء البعيدة . ومع أنهم كانوا تحت الرمي والتعب وشهقة الموت بين أنياب الوحش الهاجم ، إلا أن الدفق المشعّ للدم في العروق وهو يتوهج ، كان مايزال ينبض قوياً داخل شبكة أوردة الانهاك والهلع واليأس . وبدا ملمس الأسلحة وهي تحت الأصابع لحظة المواجهة ، يعطي النفوس شعوراً عارماً بدفق الحياة رامياً بالموت إلى الأقصى مادامت الطلقات في المخازن .

التعليمات القتالية أوجزت في أمرين : تحسين المواقع في الأرض كلما أمكن ذلك والاقتصاد في الذخيرة .

في أعماق مهيار كان هناك هاجس المناوشة حتى يهبط الليل للقيام

بمحاولة انسحاب جديدة بعيداً عن الطوق المضروب حولهم ، ومع أن الفكرة بدت مستحيلة كمن يتخيل الإمساك بحبال سماوية والصعود عليها للخروج من هذا الجحيم اللعين ، إلا أن زناد رأس مهيار المؤمن بالخوارق اللاتحد للانسان ، كان يقدح شرارات لاتمتد طويلاً حتى يطفئها النهر والطين الملعون وهذه الطلقات التي تئز فوقهم وحولهم .

الجلبة والدوي وأصوات المكبرات داخل الهجير الشمسي والفضاء الأبيض وصخب المياه ، كانت تزعزع الأعصاب راسمة شبح الموت الأعمى في العيون وداخل الأجساد التي ودَّت في تلك اللحظات لو أنها قادرة على الغوص عميقاً عميقاً في الأرض الصلبة لتحتمي من هذه القوة الوحشية الهاجمة . عندما مرّ ظافر زحفاً يسقي العطاش بهدوء حزين ، رابتاً علىالأكتاف ومشجعاً الرجال الذين داهمهم الموت ، كان يدرك في قرارته كم كان الخطأ فادحاً من البدء حتى هذه اللحظة . وكما يعبر برق في ليل لافجر له ، انفجرت سحابة من الأسى في سماء الرجل مزقت أحلام السييرا مايسترا والهجوم على سانتا كلارا والزحف على معاقل باتيستا وسقوط هافانا .

أصياف محرقة . أصياف محرقة . ابتهالات وولائم أبدية للموت .

آه . نحن الهالكين . . قالها لنفسه وهو يقترب ليسقي جبار الرابض وراء رشاشه والذي انطلق بغتة يغني النشيد الأممي . النشيد الذي كان يغنيه مع كورس المعتقلين في سجن الحلة قبل أن يهرب مع مظفر ورفاقه من النفق الذي استمر الحفر فيه شهراً كاملاً .

ـ السجن ليس للأباة ، السجن للطغاة . لنا الغد . لنا الغد .

* * *

في أواخر المساءات وبونة المنفى والظلال تنوخ كالصخرة فوق الظهر المنكسر ، ستأتي الأطياف عبر تموجات الذكرى وطيور الحنين لتقف فوق صخرة مهيار ناعبة بصوت بومي أصداؤه تصدع القلب ، فتتراءى في الصمت على الشاشة الليلية صورهم واحداً واحداً وهم يتساقطون كطيور البجع فوق سطوح المدر والغرين الرمادية .

ستتقدم هذه الأطياف صورة جبار وهو يندفع نحو القنبلة اليدوية التي قذفت من الأعلى ليمسكها ، ثم يحاول قذفها نحو الجنود ، في اللحظة التي انفجرت فيها بين أصابع كفه اليمنى فبترتها وتطاير الدم نافورة من المعصم الذي ذبح ذبح دجاجة طار عنقها بسكين باترة .

في أعقابها تأتي صورة شلش وهو يقول بحزن تراجيدي مفعم بحياة ماقبل الموت : رفاق . نحن لانكاد نعرف بعضنا . دعونا نتعارف . وابتدأت المفرزة تقدم واحداً واحداً بطاقة تعريف عن حياتها . حدث الأمر ، في لحظة غريبة بين فسحتين من الاشتباك ، وكأنه اعتراف ماقبل الذهاب إلى المقصلة أو ساحة الرمي ، للكاهن الذي سيظل حياً وشاهداً .

وسيتساءل الباهلي وهو يبكي ويرتعد داخل تلك البرهة الخارجة عن نطاق العقل عن مصدر الوحي الذي هبط عليهم وهم يحمّلونه رسائل لأهليهم : لماذا اعتقدوا أنهم سيموتون بينما سيظل هو الحي الوحيد الباقي لحمل هذه الرسائل ؟

ستة قتلى سقط من الأعداء الذين تقدموا إلى حواف النهر وجرح اثنا عشر . في البدء كانوا يهيبون بهم للاستسلام ورمي السلاح وفيما بعد عندما رأوا قتلاهم وجرحاهم ، تراجعوا . لقد خُيِّل إليهم أنهم يواجهون كتيبة من الرماة المهرة الذين لايخطئون الرمي . ولكي تظهر المفرزة ثقتها سمحت للجيش بسحب القتلى والجرحى بعد نداء من مهيار : لسنا قتلة أو قطّاع طرق . تقدموا وخذوا قتلاكم فلن نطلق النار .

مع الأصيل جاءت الطائرات المروحية هادرة فوق الضفاف والنهر بأصوات ترتج منها الأرض والسماء . كانوا الآن يرونها تحت انعكاسات الشمس وهي تشقّ الفضاء الرحب بتشكيل قتالي مالبث أن أنقض كوحوش سماوية وابتدأ يحصد الماء والقصب وحجارة الضفاف .

في غمرة الهجوم الأولي المندفع كالإعصار ، شعر قائد طوَافة القيادة بالاهتزاز واختلال التوازن فحاول الانعطاف لتفادي الطلقات ، لكن خزان الوقود أصدر صوتاً انفجارياً فاندلعت النار . وعبر المدى السماوي الأشهب ، شوهد الانكسار الحاد للطائرة وهي تهوي كصخرة مشتعلة مالبثت أن انفجرت على السطح المائي ، رافعة لدى ارتطامها بالمياه والوحل نثارات الماء الغريني إلى علو أكثر من ثلاثين متراً ، بينما ظلت مخالبها المروحية الشبيهة بمخالب سرطان بحر انقلب على قفاه ، عائمة فوق المستنقع .

أحدث سقوط الطائرة حالة بلبلة في الجدار المعادي ، فتوقف هجوم القوات البرية وانحرفت الطوافات بعيداً .

وفي أعماق المفرزة تعالت صرخات النصر .

كان الموت مؤجلاً الآن .

وبدا هاجس مهيار في تلك اللحظة عن اقتراب الليل والانسحاب تحت أجنحته ، يخرج من حلم الاستحالة إلى حقل الإمكان رغم صرخات الألم التي يصدرها جبار المبتور الكفّ موالياً ضراعاته : اقتلوني . اقتلوني . الموت أحلى من هذا الألم . زحفاً تحرك مهيار وظافر لتفقد الأفراد والجرحى .

كان عقيل حبش في الطرف اليساري للموقع متكئاً على جذع شجرة مجذومة الأغصان بين الوحل ، يرتعش ويهذي بأصوات مذعورة وهو ينظف منظاره ويزيل الوحل عن ثيابه . عندما تحدثنا إليه ضحك عالياً ضحكة بلهاء . هزّه مهيار من كتفه : مابك ؟ فضحك أيضاً وهو يشير إلى السماء . ثم مالبث أن ترك المنظار مرفرفاً بذراعيه كما يخفق طائر يتأهب للطيران : طار . طار . جبار طار وحسين . طارا مع الطيارات . أبو صبري قال لي .

ـ شنو قال لك يامخبل ؟

سأله مهيار وهو يصفعه فهوى ككيس من قش بينما جحظت عيناه محدقة في سماء تراءت له على صفحتها ملايين الطائرات على شكل نوارس تنقض على السمك الطافي .

داهم الألم جسد ظافر . ألم غامض نما في العمود الفقري ثم صعد إلى مؤخرة الرأس واستقر في الصدغ . هو الآخر كان منهكاً ومبلبلاً . ومع أنه كان يحلم لو يمتلك في تلك اللحظة أسلحة فتاكة لتدمير هذه القوات المعادية وإبادتها ليقيم فيما بعد ، على أنقاضها ، يوتوبيا الشيوعية وجناتها الخضراء ، إلا أنه كان مدركاً الآن أكثر من أي وقت مضى أن ذلك الحلم نأى كالنجوم ، وأنه مع رفاقه سقطوا خطأ وقبل الأوان من كوكب غريب يقوم برحلة طائشة فوق هذا العراء القاتل .

أنْهِضَ عقيل وأسند إلى أرومة الجذع . مسح ظافر وجهه بالماء وهزه مهيار ليفيق من نوبته . قال له : أخويا عقيل استفق . نحن في ضيق وأنت رجل شجاع . أسقطنا طائرة والعزائم قوية . أما سمعت نشيد جبار الجريح !

للحظة فتح عينيه وإذ رنّ اسم جبار في ليل لاوعيه صات وهو يرفع رأسه : جبار راح يجيب الطيارات . رفع العلم الأبيض وطار .

كان يترنح بين أيديهم هو يهذي عن الطائرات وامرأته وأولاده وأمه وسائر الأضغاث التي اجتاحت أعماقه : هاي أمي كانت تقول لي

حامل دمك وماشي لموسكو . شنو تقدملك هاي الموسكو ياعقيل . آني رجل مخبَّل . الولاد والمرا راحوا . وأنت غصت في الطين ياعقيل . وينها موسكو وبمباتها . وينها ياخلق الله وينها . مو شايفي حالتنا . وينو أبو صبري والمشاحيف . كان ينده ويضرب رأسه بالجذع وهو يشتم أولاد القحبة الذين تخلوا وهربوا بدءاً من عزيز الحاج وخروتشوف حتى أبو صبري ، وانتهاء بأبيه الذي ولده ليموت كالكلب في هذا الوحل . وهو ينشب أظافره في الطين ويحثو به وجهه ويمزق سترته ، اندفع أبو محيسن واثباً كنمر ليغرس فوهة بندقيته في صدره صارخاً فيه : عقيل . أخو القحبة . خرا بربك . تسكت وإلا أمزق أمعاءك . ملعون الوالدين !

أزاح مهيار سبطانة الكلاشن عن صدره الذي يزفر كحيوان مذبوح ، اصحَ عقيل . عيني اصحَ . ووشوش في أذنه خبر الانسحاب بعد هبوط الليل .

هدأ الرجل وطلب ماء فسقوه . ثم سأل عن سيكارة فأشعلوها له . سعل فتجشأت معدته الخاوية . سال على ذقنه سائل مخاطي أصفر مسحه ظافر بردن سترته .

بعد هذا الطقس الهذياني استجوبوه بهدوء فرفع سبابته نحو مواقع الأعداء : رأيته يخلع سترته ويرفعها . شفتو وكأنني في نومي يطير كفرفور البط الأخضر . رفرف وراح فوق النهر بجناحين في لون السماء . كان حزيناً ومتعباً وجائعاً وجريحاً . قال لي مع السلامة ياعقيل . سلِّم لي على رفاقنا آني رايح خبِّر عن حالتنا . آني أحب الحياة وشرب عرق المسيَّح وخطيبتي ناطرتني . نحنا غلطنا وهاي الوقيعة مصيبة من الشيطان ورب العالمين . وقال لي موسكو ماهي معنا وقيادة حزبنا صحتها زينة وتراها قاعدة في موسكو مرتاحة تاكل الكافيار والسمك وتشرب الفودكا وتشيد بالأممية ونحن نموت في الوحل كالكلاب . وقال لي ياعقيل حسين مو خاين لكن الدنيا والناس كلهم خرا بخرا في هذا الزمن أخو القحبة الخالي من الرجال .

وكما ينشج طفل في أحضان أمه الدافئة ، بكى عقيل حبش الرجل الذي تجاوز سن الأربعين . الصياد البسيط المنظم سراً في خلية أبو صبري ، والذي كلِّف قبل تأسيس القاعدة بتهريب الأسلحة من البصرة داخل مشحوفة بين سلال البيض والمكانس والسمك وكرات الحرير وأكياس السكر والشاي .

كان الهدوء المتوَّجس والسكينة يهبطان من الفضاء على القصب

والمياه والضفاف الموحلة ، ومن لهاث الأرض المختمرة بالشمس وبخار الماء المتصاعد راحت موجات ساخنة لها طعم الغازات الكبريتية ولون الفراش الفضي تحمل أسراباً لامعة ودبقة من البرغش والحشرات المستنقعية اللاسعة ، وتحت هذا الهدوء الملغوم كانت الأجساد الملتهبة الممرغة بالعرق والطين وبقع الدم تتوقع عنف استئناف المعركة من جديد .

كان واضحاً الآن أن المجموعة فقدت حسين ياسين الذي غادرها تحت وطأة الهلع واليأس اللذين هدماه وقذفا به إلى هاوية الألم ، فاستسلم تحت راية العار ، زاحفاً نحو معسكر أعدائه ليلقى مصيراً ربما كان الموت أكثر جلالاً منه في هذا المضيق الشبيه بعنق زجاجة مسدودة .

مع البدايات الأولى للمغيب والشمس معلقة كثمرة برتقال لاتعلو كثيراً عن خط الأفق الغربي ، دوَّت مكبرات الصوت من جديد داعية للاستسلام ورمي السلاح والتقدم بالأذرع المرفوعة خلال نصف ساعة من الوقت الذي يشير إلى الرابعة والنصف . كان الصوت الجهوري الممتد في مسام الفضاء بتجاوزهم إلى ماوراء النهر ، واعداً بمحاكمة عادلة سيصونها القانون لهم إذا مارضخوا وألقوا السلاح قبل أن تقذف المنطقة بقنابل المدفعية ونيران الطائرات .

عندما هرع مهيار ليأخذ موقعه ويقود المعركة من جديد تاركاً عقيل قرب أبو محيسن وتحت رقابته ، داهمته مرارة صعدت إلى حلقه لم تلبث أن تشكلت ضبابة سوداء أغشت عينيه وهجست له : لن يكون هناك ليل آخر .

كانوا الآن على حافة المياه الضحضاحة ، بين المَدَر الترابي والجذوع وحجارة النهر . ثمانية رجال بينهم جريجان ورجل منهار ، في مواجهة أكثر من ألفي جندي معززين بكل صنوف الأسلحة والطيران المروحي .

في ربع الساعة الأخيرة نادوهم بأسمائهم واحداً واحداً كما حددوا المواقع ، وأهابوا بالجريحين أن يغادرا مواقعهما ويتقدما بلا سلاح ، فيكونان تحت ميثاق الأمان قبل انقضاء المهلة .

ـ لاأمل لكم . لا أمل . لماذا تموتون مجاناً ؟

لم تكن المسافة ، بين عسكر الدولة وجحافلها الجرارة والصاخبة وبين القوة الصغيرة المتمردة ، لتزيد عن الألف متر . وفي حقل هذا

الفراغ كانت أشعة الموت والحياة تتلاقى وتتصادم كما في احتفال مسرحي يقام في أرض عراء . كانت قيادة قوة الدولة فيه هي الأقوى ، لكنها بدت مصرة على أسر المتمردين أحياء في الوقت الذي كانت فيه المفرزة المحاصرة تناور حتى يهبط الليل لتبدأ خديعة الانسحاب . في ذلك الوقت الشبيه بقنبلة موقوتة ، تفتّق ذهن مهيار عن اقتراح ارسال جبار الجريح رافعاً علم استسلام مربوطاً بكوفية علّة يغطي الانسحاب إذا ماأقبل الليل .

على شكل موجات من الألم أو صرخات كابوسية ستنبثق هذه الرؤى القديمة ، تارة دامية وتارة ملفعة بالبياض الباهر أو زعفران الشمس ، في ليالي الرجل الذي ظلّ حياً مع نفرين جريحين في الغرين ، وبين ذراعيه رفيقه وصديقه القتيل وحوله دوائر من الدم والجثث المغروسة في الوحل ، ونصف الطافية .

ومع أنه سيظل يحلم بجفنة مقاتلين يزلزلون هيكل التاريخ في العراءات إياها التي شهدت المقتلة ، إلا أنه ظل يعتقد أن بإمكانه تحاشي الأخطاء القاتلة التي ارتكبت فيما مضى . وسيتذكر كيف أطلق أبو محيسن رشقته الرصاصية التي أصابت جبار في ظهره عندما تسلق المنحدر الترابي حاملاً العلم الأبيض ، صارخاً بصوت يبصق دماً وهو يتدحرج ممرغاً بالتراب والدم على مرمى أمتار منهم .

ـ كلاب . كلاب . أبناء العواهر . الشيوعي ينذبح ولايستسلم .

بهذه الصرخات التي توالت إثرها الطلقات ، مزق أبو محيسن لعبة مهيار التي خُيِّل إليه أنه حبكها في لحظة اشراق .

هكذا بدأ نشيد الموت النهائي تحت ضياء أصفر لشمس قيد التواري وراء تلال الأفق .

كانت الحوامات تلوح من الغرب عندما ابتدأ العدو هجومه الجبهي ، فاتحاً جحيم نيرانه الرشاشة ومدفعيته .

تحت غمرة النار أعطيت الأوامر بالتراجع نحو النهر في محاولة يائسة وأخيرة للإنسحاب بعد أن كشف العدو المواقع . وبين الوحل والماء بدؤوا التراجع وهم يشتبكون . ازدادت شراسة الهجوم ، في الوقت الذي كان أزيز الطائرات يصم الآذان ويعمي العيون قاذفاً الأشياء داخل دوامة من الأصوات والانفجارات واللمعان الموحل .

لقد بدا التراجع داخل حقول الطمي يفاقم حسّ الانهاك والشعور

بضيق الحصار . كان الغرين الدبق يزداد لزوجة وكثافة وتحت الأقدام التي تغوص فيصعب انتزاعها .

وفي لحظة عارية ، مفتوحة كسماء من اليأس ، تجلى الرعب المزدوج : الرصاص والغرين .

كانوا الآن يقاتلون وقوفاً وراكعين تحت وطأة هذا الطمي اللعين الذي تحول إلى مايشبه مخاضة اسمنت .

الطلقة التي اخترقت صدر أبو محيسن نفذت إلى الوحل فترنَّح . صاح : آه . ثم هوى كطائر فوق رشاشه الغائص في الطين . حاول أن يمسك بسبطانة الرشاش لينهض لكن طلقات رشاش الطائرة التي عبرت فوقه اخترقت فقراته فأدرك أن النهوض مستحيل آنذاك .

بلغت حدة الهجوم أوجها ، وراحت الطائرات المغيرة تفرغ رصاص رشاشاتها وهي تدور لتعود في تشكيل جديد سادّة عليهم إمكانية الانسحاب إلى أعماق النهر .

تحت سطوة الهجوم تجلّى القتال التراجعي داخل هذا الحقل المغناطيسي ، شبيهاً بالانقذاف داخل دوّارات بحرية . بدوا تحت الشفق الزعفراني المرشوم بالوحل كأنما يدورون ببطء داخل رحم غريني اندفعوا للاحتماء به كأطفال مهددين ، لكنه كان يبتلعهم على مهل كلما أوغلوا في أعماقه . وفي لحظة مفتلة من نطاق الوعي تراءى لهم كأن غولاً سحرياً ممغنطاً تشكل من نداء الحياة والموت والطفولة وجنيات النهر والغابات والضباب ووهدات الأرض ، نهض من أعماق الطمي وراح يسحبهم إلى جوفه .

الآن ، تتساوى الأشياء وتتحد . لكأن ظلاماً دامساً يغطيها ويمزجها : الحياة والموت ، البردي والجسد ، الأقدام والوحل ، الطلقة المبهرة والعيون ، الدم والماء .

كانوا الآن يقاتلون ، وهم يغوصون كالتماثيل المنتصبة ، داخل أطياف الموت واليأس التي اتحدت بهذا الحقل الابليسي الذي غطى ملامحهم البشرية . كانت الساعة تشير إلى الخامسة عندما أطبق الهجوم عليهم وابتدأ الرصاص يمزق الصدور والرؤوس ويخترق الصلصال والوحل . وفوق الدائرة الصغيرة التي حوصروا فيها ، انقضت الطوافات برشاشاتها القريبة جداً . استدار رامي الدكتريوف نحوها ، لكن الغرين الذي وصل سرّته ، خانه . رشقته طائرة بزخات سريعة عمودية فدار

كلولب بطيء حاضناً سلاحه كطفل وفي عمق الطمي نام .

انتهينا . سدى . سدى .

قالها خالد أحمد زكي أو مهيار الباهلي أو كلاهما معاً أو السماء والأرض الملتهبتان .

وفوق السطح الغريني كان خالد الآن يغالب بقوته الروحية . بوحشية صرخة اليأس وهي تكافح لتتخطى انهيار الجسد ، كان يتقدم بعد أن فرغ رشاشه من الذخيرة ، نحو الدكتريوف ، لكن قدميه كانتا تغوصان أبداً في عمق الصلصال المغناطيسي .

وهو يترنح داهمته البروق والشرارات . بروق وشرارات عصية على الوضوح . مِزَقٌ من أزمنة الطفولة والشباب . أطياف مدن بعيدة . فراشات ملونة تسبح في فضاءات زرقاء . أصوات وابتهالات تتراءى على شاشة امتزج فوق بياضها الليل والبحر والدم والوحل والكلاب والرصاص . تأتي وترحل طيوراً أو بروقاً أو دوائر من الصرع الذي داهم الرأس في حميا حلم مبهر يشبه انشقاق الضوء في عيني طفل يصرخ وهو يخرج من رحم أمه . مسح وجهه لترحل الكوابيس فرأى الدماء . كانوا الآن حوله . ذؤابات رؤوسهم وأشلاؤهم . الأذرع النابتة في الطين والعيون المنطفئة وأنين مهيار الجريح .

في لحظة تأنيب أحسّ أنه قاتِلُهم . كانت دماؤهم على أصابعه ووجهه وثيابه . صرخ صرخة الروح الأخيرة : آي . آي . سامحوني . انهضوا . انهضوا ياأحبائي . وحيد . وحيد . آني وحيد .

واحداً واحداً سمّاهم ونطق بأسمائهم وهو يجوس بينهم كممسوس : آي . أي ، يا . . .

في كتفه باغتته الطلقة فانحنى قليلاً ممسكاً بجرحه : مهيار . . . حاول أن يتقدم فشعر بالإعياء .

من مسافات قريبة ، براً وجواً حصدته الرشقات في الرأس والظهر والخاصرة ، فتلوى . حاول أن ينهض ويتوازن لكن الجسد المصاب خذله . اختل التوازن فهبط وئيداً على ظهره في أحضان مهيار المدمّى .

وهو يبترد بالطمي وذراعي رفيقه ، رأى فوق غشاوة العينين ليلاً مديداً نجومه كانت تتساقط وتنطفئ .

ظهــــور اللـــوياثـان

بعد أن يندحروا في أوحال الهور ، فتمتزج دماؤهم بالغرين ومياه المستنقعات ، ثم يتهاوى من يبقى في الشوارع والأزقة والأقبية برصاص كواتم الصوت والبلطات القاطعة وضاغطات الكونكريت التي تهشم الرأس بين مخالبها وسائر مستحدثات القتل المستوردة ، وينجو من ينجو هارباً عبر فجاج الأرض ، ويعترف من يعترف تحت موجات التهديد والجبن طالباً الغفران والتوبة ، ستهب الريح الصفراء قادمة من أفق الصحارى حاملة الغبار والرمل والجراثيم والحشرات السامة وغضب سنوات المحنة التي سيمحل فيها الزرع ويجف الضرع ، فتتوالى أسراب الجراد وتنتشر الأوبئة والأمراض والحروب وحالات الجنون ، ويصير الموت مألوفاً ويومياً مثل شروق الشمس وغروبها .

في ذلك الزمن الغريب ، الخارج بلا معقوليته عن تقاويم الفصول ، سيحدث ذلك الشيء الرهيب ، المخجل للعصور والبشر ، عندما سيسقط من غبار الريح ، وفي سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليه داخل العقل الإهليلجي الذي استوطنته الأساطير والخرافات البدائية ، ذلك المسخ الغريب الذي سيطلق عليه رمزياً عبيدالله بن أبي ضبيعة الكلبي .

سيقال عن ظهوره فيما بعد على ألسنة العامة وشيعته ، أنه نبوءة تستند إلى تقاويم انتظار ظهورات وتحولات المهدي المنتظر الذي توارى في سرداب مظلم في أعقاب سنوات الفتنة والاقتتال الأهلي التي تلت اغتيال أسد الله الغالب ، الخليفة المغدور علي ابن أبي طالب .

كالفطريات سينبت ، بعد أن تقذفه الريح الصفراء الجائحة على سطح الأرض الصالحة كالمزبلة لإنبات كل أنواع الشوكيات والخبازيات

والنفل البري والرزّين والحمّاضيات والقتاد واللويفة والصبّار الوحشي والتيتان والأكّال الحرشفي والقراص والزقوم والحلبلوب السام والدهموج الدرعي .

سيولد ، حاملاً في دمه نسغ هذه النباتات ، على شكل قنطور أو لوياثان . نصفه الأعلى بهيئة ضبع والنصف الأسفل شبيه سرطان رملي زاحف .

لكنه بعد أن يخرج من غبار الصحراء زاحفاً نحو المدن ، سيعبر أطواراً من التحولات العضوية ، كما سيمتلك قدرة خاصة ، ربما كانت خارقة للعامة ، على الإيحاء بأنه من أرقى الخارقين لمألوف الزمن . ومع مرور الوقت ، بعد أن يعتلي عرشه ويوطد ملكَهُ بالقتل والنفي والتجويع فتصبح البلاد تحت سطوته وعيون بصاصيه ، سيُنسى أصله الأول وشكله اللابشري .

وكما حوّل شكله الحيواني إلىالهيئة البشرية ، سيغيّر اسمه واسم سلالته ، وسينشر بين الرعية تاريخاً جديداً لميلاده وفتوته وتمرداته وكفاحه الصلب ضد أعداء الوطن .

وبطاقة تجديد الشرق لأساطيره وحكاياته السحرية بفاعلية أشعة الشمس الحادة ، والامتداد الصحراوي ، وتناسخ الديانات الغيبية ، وهيمنة الخيال الجامح ، ستبدأ أسطورة عبيدالله بالتكوين والتبلور والامتداد على مدى ربع قرن من الزمن ، يتداول الناس خلالها معجزات وخوارق هذه الهبة السماوية التي لاتولد إلا مرة واحدة كل ألف من الأعوام .

وكما كانت تتمجد أسماء الأنبياء في العصور السحيقة ، فيروي الخلف عن السلف معجزات أولئك الرسل وتجلياتهم ، سيُروى عنه في الليالي السحرية وفي أعماق القرى البعيدة والبوادي المنداة بالوحشة وهذيانات الوحدة اللطيفة .

رؤى غريبة خارقة وصلت إلى أن القبائل والقرى والمدن حجبت كل منها عن الأخرى يوم ولادته ، وهي تبشر به بالذبائح والنيران ، زاعمة أنه ولد فيها ليلة القدر ، وأنه واحد من الظهورات الجديدة لقبب الإمام المنتظر التي تتجلى كل خمسمائة عام مرة .

وسيقول الناس ، بعد العام الثاني عشر من ولايته الربّانية ، إن

أعلام ملوك الدنيا نُكست يوم مولده ، كما ستمر وحوش الشرق بوحوش الغرب حاملة البشارات . كما ستبشر به أهل البحار والبوادي والسهوب ، منقذاً ومحرراً للبشرية المعذبة . وفي كل شهر من شهور حكمه ستبدأ النداءات تخرج من شهب السماء وطيور الأرض : أن ابشروا فقد آن للمنتظر أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً .

وسيروى عنه ، كما أسلافه الأنبياء ، أنه بقي في رحم أمه المبارك تسعة أشهر كاملة لم تزد ساعة ولم تنقص ، فما شكت أمه وجعاً ولاريحاً ولامغصاً ، ولا مايُفرض للنساء من ذوات الحمل . كما ستتحدث أمه في الليالي السحرية الغامضة عن يوم مولده . كيف رأت جناح طائر أبيض مسح على فؤادها فأشاح الرعب عنها والوجع ، ثم التفتت فإذا هي بشراب أبيض يشبه اللبن وكانت عطشى ، فشربته فأضاء منها نور عال ، ثم رأت نسوة كالنخل الطوال كأنهن من بنات عبد مناف يُحدّقن بها فصاحت : واغوثاه ، من أين علمن هؤلاء بي ؟

ثم يشتد الأمر عليها وهي تسمع الوجيب في كل دقيقة أعظم وأهول ، فإذا هي بديباج أبيض يُمدّ بين السماء والأرض ، فإذا برعد يأتي من أعماق السماء ليقول : خذوه بعيداً عن أعين الناس . وترى الأم ، وهي تحت المطر الحار وهذيانات مابعد المخاض ، رجالاً يقفون في الهواء يحملون أباريق من فضة ترشح عرقاً يشبه الجُمان والندى ، لها رائحة أطيب من المسك الأدفر والعنبر المعصفر . تحت هذا البخار اللطيف ترف أجنحة من الطير مناقيرها من زمرد وأجنحتها من ياقوت ، تغطي سماء الحجرة . في تلك اللحظة السرمدية سيكشف الله عن بصرها وبصيرتها فترى مشارق الأرض ومغاربها ، وثلاثة أعلام : علم في المشرق وعلم في المغرب وثالث على ظهر الكعبة . وفي لحظة المخاض ستسمع منادياً ينادي : طوفوا به شرق الأرض وغربها ، وأدخلوه البحار كلها ، والكهوف كلها ، والسرادق كلها ، وقاعات الملوك ليعرفوه . ثم أعرضوه على كل روحاني من الأنس والجن والطير والسباع ، ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ، وليعلموا أنه الماحي والمهلك والقادر والغازي والفاتك وآخر الأزمنة . ثم ترى سحابة تعبر بها أعظم من الأولى فإذا نيران متقدة وطيوف أرجوان يسمع داخلها صهيل خيل وخفقان أجنحة وأصوات استغاثات وصراخ الشجر والأطفال وموتى القبور .

ثم ترى ، وهي تحت أمواج الضياء ، علماً من سندس على قضيب

ياقوت وقد انتصب بين السماء والأرض ، فوقه اتقدت نار بلغت عنان السماء ، فإذا بقصور الشام تشتعل ناراً وحرائق ، ثم ترى أسراباً من القطا والنعام والدراج تسجد له ناشرة أجنحتها وهي ترتعد .

ثم ترى رجلاً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً ، يأخذ المولود فيتفل في فمه ومعه طاس من ذهب ، ثم لايلبث أن يشقّ بطنه فيخرج قلبه ليشقه شقاً مخرجاً منه حصاة في حجم حبة خردل ، ثم يمسح على بطنه وهو يردّ قلبه إلى مكانه . آنها يستيقظ المولود وينطق لكن الأم لاتفهم ماذا قال . فيقول الرجل الذي أخرج حبة الخردل من قلبه : أنت خير البشر فطوبى لمن اتبعك والويل لمن تخلف عنك . ثم يضرب الرجل الأرض بقدمه فإذا ماء ينبثق أشد بياضاً من اللبن يغمس فيه المولود ثم يخرجه فإذا وجهه كوهج الشمس وإذ بريقه يقع على قصور الشام وقوع البرق الصاعق . ثم لايلبث الرجل الجميل كالملاك أن يلبس المولود قميصاً من حرير بلون الدم ويقول له : أمرني ربي عز وجل أن أنفخ فيك من روح القدس . هذا القميص أمانك من آفات الدنيا ودواهيها . فكن كما شاءت لك القدرة العلية وقوتك التي لاراد لها ولامحيد عنها ، وريثاً لقوة وسطوة الباري في الأرض إلى أن يقضي الله بك أمراً كان مكتوباً .

سيُشاع ذلك في البدايات الأولى ، قبل أن تأتي الأزمنة المهلكة والسنوات العجاف : سنوات الظلمة والمسوخية والهوان والجوع والجرب والجراد والجنون . سنوات المقتلة .

قبل ذلك ، ومع بداية الثلث الأخير للقرن العشرين ، ستشهد بلاد العرب مهرجانات ومناسبات سعيدة واحتفالات غريبة ، تتوّج ذلك المسخ القنطوري مهدياً طال انتظاره في ظلمات السرداب الذي اختفى فيه السليل الثاني عشر الخارج من ضلع الإمام جعفر الصادق . على مدى سنوات طوال سيكون إمام الزمان أو شبيهه . ستقول ذلك الهتافات التي تطلقها الحناجر كالرعد ، مهللة بمجده الذي ابتدأ بتصفية أعدائه في الداخل قتلاً وسجناً ونفياً .

وكما سيُلقى في روعه ، من خلال أحلام جنونه الوردية ، سيتوهم بأنه وريث الفرسان القدامى الذين انتصروا في القادسية وحطين ودقوا أبواب بواتييه ، آنذاك سيرفع صوته فوق موج الجماهير الزاحفة نحو حلمها صارخاً باقتراب فتوحات التوحيد للإمارات المجزأة ، واعداً بامبراطورية لاتغيب الشمس عنها ، أعظم من الامبراطورية القديمة التي

سقطت على يد هولاكو قبل حوالى ألف عام .

وفي تلك المناسبات والمهرجانات والاحتفالات ، سيرسم للناس في الفراغ خرائط من السعادة وغبطة الأزمنة : بلاد خضراء ، مصانع للعمال ، مدارس وجامعات مجانية . شعب مسلح . جيش لايقهر ، مفاعلات نووية . حدائق وأوتوسترادات وقصور وستادات رياضية . وقوانين ومجالس شعبية . الرجل المناسب في المكان المناسب . لاظلم ، لاطغيان ، لاجوع ، لاقهر بعد اليوم . الوطن للكل والكل وراء القائد الملهم ، الخارق ، الذي وهبته العزّة السماوية ، واصطفته روح الأجداد صرخة مباركة من أعماق أجداثها .

مع بداية العام الثالث لانبعاثه ، سيحدث خلل أو تهدج في نبرة الصوت . نوع من التخلخل الفراغي في الخرائط وتكوينات الفضاء .

لقد هُزِم جيش عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي أمام الأعداء في أول تجربة حرب .

سيعود الجنود الناجون مشتتين ومحطمين ومعفرين بالغبار والدم والعار . لقد قاتلوا وحيدين بلا طائرات ولاصواريخ ولادعم ولا إسناد مدفعي . في العراء وعلى الطرقات وقرب صخور الأودية تعفنت الجثث تحت الشمس . جنود في عمر الشجر الفتي الناهض سقطوا وهم يقاتلون حتى آخر طلقة ، لحظة كان الضباط يفرون كالأرانب ، بينما القائد الملهم ، الخارق ، المطوّب من السماء يتحدث عن مجد الشهداء ودمهم الذي يحيي الأرض والموات فإذا هي بين عشية وضحاها مزهرة كأشجار اللوز في الربيع .

في أكثر من حرب خاسرة سيزج ضباطه وجنوده الذين حوّلهم بالرعب والتصفيات والرشاوي وأكاذيب النصر والتعالي فوق الشعب حماة وسياجاً له ، إلى أدوات مطواعة مستلبة تتحرك طوع بنانه . وفي كل هذه الحروب مع الأعداء سيعود من يعود ممرغاً بوحل الهزيمة ودماء العار ، أما من سيموت مرتاحاً من هذه المهزلة الأبدية فسيسجله في سجل الشهداء الذين ضاقت بهم مدافن الوطن .

وفي فسحة مابين هذه الحروب التمثيلية ، المسربلة بأوشحة قومية وديكورات من تراجيديا الصراع الكوني بين العدو الغاصب وأحلامه التوسعية ، وبين الشعب والوطن ، كان يُطلق لأولئك الجنود اليد الطولى في

طول البلاد وعرضها في النهب وهتك الأعراض واستباحة كل ماهو مقدس وأخلاقي وموروث من التاريخ الوطني لكفاح الأسلاف ومجدهم في تشييد وطن حر ومتحد ، تناقضاته تحل بالسبل الديمقراطية وتعدّد الأحزاب وصراع الثقافة المتشعبة في اتجاهاتها ، لابقوة السيف والجند والبربرية الطائفية ووحوش الاستخبارات .

كانت تلك الفسحة في زاوية من زواياها تبدو تعويضاً خسيساً عن خسائر الحروب وعار الهزيمة ، ونزعة السلطة الاستبدادية الموروثة من قرون طويلة ، كما كانت في أصلها الشخصي لهذا الوحش المعاصر ، تعبيراً سادياً عن نزعة الفرد المأخوذ بوهم جنون العظمة والمنكفئ نحو جذره الحيواني . نحو الطوطم أو زعيم القبيلة المهووس بقطبي شراهة الدم ، ودوار التاريخ الذي يؤرق فرداً من خلال اختبالات أوهام مديدة الظل .

هكذا سيسقط ذلك الكوكب العربي المنبوذ والأرض ، تحت أمواج اجتياحات وأعاصير لاصلة لها البتة بالعصور الحديثة . اجتياحات وأعاصير تعود في أساس انبثاقها إلىالتسوس القديم للجذر الأول وكسوف الشمس فوق الصحراء اللعينة ، وسطوة الزمن البدائي الذي صرخ طغاته قبل ألفي عام : إلى الجحيم العقلاء والشعراء .

وماكان هناك من قوة مادية أو عقلية قادرة على إيقاف انهيار هذا الكوكب المتهاوي في تجليه الكارثي . وكما كان يحدث في العصور القديمة من انبثاقات تشبه الظهور الأسطوري أو الأوبئة التي تقتل قبل معرفة مضاداتها هكذا جاءت الصحراء اللعينة بهذا الوباء الذي حملته الريح الصفراء . حدث الأمر قبل أن تنير الشمس ظلال القارة التي ماتزال تسبح تحت العصر الجليدي ، القارة الواقعة تحت سطوة القانون الدارويني الأول المتشح بالتشوّه السلالي والحنين الجارف لأزمنة البوادي وزئير الغابات .

لقد بدا ذلك الشيء المرعب والمنبئ بما سيأتي من ربيع دموي قادم ، وهو يتلألأ في تقاويم العصور تحت الهزات وتشققات الأرض ، وخراب الوضع البشري ، يوحي بأن هذه الأرض كأنما خضعت للعنة وسمتها في غابر الأزمان لحظة أُهين الأنبياء الذين حطموا الأوثان وتمردوا على الطاغوت وعبادة الحجر الأصم .

الشيء الذي يستعاد الآن ، داخل دورة اللولب للزمان الذي لايتقدم

أبداً ، وهو يركع تحت أقدام طوطمه الجديد الخارج من ضلع الصحارى والمتجلي في البشر على شكل سرطان مدرع .

في غفلة من الزمن وضياع الوعي البشري ، جاءنا ذلك اللوياثان المجنون . داهم القارة العذراء بقوة جنده وظلامنا . بدأ عمليات التطهير داخل البلاد ونشر الرعب بدءاً من عائلته فعشيرته فطائفته فحزبه فالشعب الذي سطا عليه .

وكما كان القياصرة المعتوهون والممسوسون يرتعدون من كوابيس المؤامرات والاغتيال ، كان هو يتخيل في ليالي مجده المؤرقة أن هناك خونة يحيكون ضده مؤامرات اغتيال داخل جهازه الحزبي والعسكري .

لم تكن تمضي أكثر من ستة أشهر على دورة التصفيات الداخلية . كان الأمر يتم على شكل مسرحي للمشبوهين أو الذين لم يعلنوا الولاء المطلق أو الذين ينبسون بانتقادات في الاجتماعات السرية للحزب .

وكان هؤلاء المتهمون يغتالون سراً في منازلهم أو مكاتبهم أو يصدمون بعجلات السيارات في الشوارع ، وفي اليوم الثاني تقام لهم جنازات مهيبة كشهداء للوطن .

لم تكن سنوات المقتلة للمدن والمقابر الجماعية قد أتت بعد . كنا في زمن ازدهار السجون والقتل الفردي والنفي . وكانت حروب مهيار الباهلي الأهلية تتوارى داخل تحولات عصية على الإدراك وهي تندرج في سحب خيباتها .

وخلافاً لتحليلات مهدي جواد واعتراضات مسيو عقل الباهلي حول الشراسة والسطوة والبطش كلي القدرة ، والنقائض التي تختمر ، كان يبدو في الممرات والخلجان المحايدة ، وفي التواءات تلافيف الدماغ وبلازما الدم ، شيء آخر أعظم هولاً ولعنة ، وأوغر هواناً وتسفيلاً يتمدد كالآميب فوق تلك الأرض . شيء اسمه الهوان أو التواطؤ أو الخوف ، كان مايزال يهلل لذلك اللوياثان الدموي الذي سطا بسحره الأرجواني وحركاته الأكروباتية على ملايين ملاثة بأقدارها وشهواتها العضوية .

تلك الملايين كانت ترى في الأغساق والضحى وهي تطير منوّمة ومسحورة فوق أشعة بنفسجية تصعد نحو السماء بأجنحة ملائكة فوق آبار النفط وهي تردد في ترتيل إلهي سعيد : أبانا الذي في الآبار . أبانا

المذهب كنور الشمس . ليتمجد اسمك العظيم وليخلد نور بهائك الخاطف للأبصار . وكالخشخاش السحري لتترسخ بذور سلالتك المقدسة في أعماق الأرض . أيها القدوس الأبدي . آمين .

تحت ظل هذا الدمار العظيم والهيكل الخرع للسلالات التي خبا وميض نجمها فهوت كشظايا شهب في أعماق الأرض ، سيفاجئ عبيدالله الكلبي نفسه حاكماً فرداً ممجداً ومُهاباً بين فسحة الحلم واليقظة . لايجرؤ على اعتراضه أحد في عصر الرعايا والمملوكين والمقتولين والضفادع وتجار السوق السوداء والمثقفين المسفلسين ببخار النفط وحزبيي الخط اللارأسمالي ، فيرتمي في سمعه أنه رسول العناية الالهية لإعادة مجد الأمة المنتهك ، وأنه وريث عظمة الآباء والأجداد الذين يتقمَّصُهُمْ الآن .

وكما أقام الله مملكته الوهمية في فراغ السموات ليدخل في خلود ذاته بذاته ، سيقيم ذلك الجنرال المعتوه مملكته داخل النسيج الأرجواني للأرض التي طوبها باسمه . المملكة التي ستزدهر على مدى السنوات الصفراء ، متمطية في إهاب لحظتها الأبدية بدءاً من زواجاته المقدسة من عذارى القبائل بغية توحيدها إسوة بالرسول الأعظم ، مروراً بخطاباته التي سيعدد فيها سلسلة أكاذيب النصر على الأعداء ، وانتهاء بتحالفاته الاستراتيجية مع أمراء النفط لتنميته الاقتصاد الوطني .

في إطار هذا المسلسل الكابوسي اللانهاية له ، سيسترشد أفقه الرصين بعبارة جده الرهيب معاوية بن أبي سفيان : لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت . كلما شدوا أرخيت وكلما أرخوا شددت . مقيماً من خلال هذه الحكمة الميكيافيلية تحالفات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهو يردد في سره : ربي خذ بيدي في مملكتي لآخذ بيدك في مملكتك . ربي زدني أرصدة في الدنيا والمصارف لأزيدنك ابتهالاً في الآخرة . ربي لتكن منافعنا متبادلة وليتحقق القصد الذي من أجله ولدتني فأكون طفلك البار على هذه الأرض الفانية .

كذلك أو مايشبهه في الرمز الخيالي ، سيحدث في عصور العار .

زمن على حافة الأساطير ، أو هو لبوسها اللامعقول في لحظة انفجارات الفضاء بالأقمار والمحطات الكونية . في ذلك الزمن سيبدأ سليل الآلهة والضباع والسرطانات وإفرازات الحيض الدموي ، من خلال رؤاه الإشراقية ، صياغة التقويم الجديد ، الذي سيدوم أكثر من ربع القرن ، بدءاً من طوطم الأسرة فالعشيرة فالطائفة فالحزب فالجيش

فالاستخبارات : هيكل الدولة القنطورية الحديثة ، ظل الله أو ظله هو على الأرض .

وفي ذلك الزمن السريالي المتخطي لمدارك الدماغ ، والذي يذكر بعصور ماقبل التاريخ ، سيروي المؤرخون والأنتروبولوجيون ومطاردو علم السلالات أن تاريخ الشرق وبلاد شبه الجزيرة العربية ليس أكثر من تاريخ الأساطير الدوارة التي تستعاد الآن فوق شاشة الأزمنة الحديثة على شكل رقائق جلدية وآجرات وعفاريت ولصوص وتجار وأمراء وقتلى وسجون ومؤامرات وتجويع ومهانات ، منبعها ومصبها في نهاية المطاف ، أماسي شهرزاد التي سهر الناس على حكاياتها في بغداد ودمشق ، وقد أدخل عليها في هذا العصر بعض الظلال الروائية غير المبهجة للقلب .

وكما روت العامة نقلاً عن بصاصيه وشيوخه وتجار مدنه ، بشائر عن قرب انبعاثه وظهوراته ومعجزات ولادته أو رؤى أمه التي حملته كالأنبياء في رحمها المقدس ، سيروي الناس من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، حكاية مشروعه التطهيري وتحويل الصحراء القاحلة إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

ففي لحظة خارقة من لحظات التجلي ، وبعد أن يكون قد فرغ من ألعابه اليومية من النساء إلى المقامرة إلى التوقيع على الاعدامات والصفقات التجارية ومنح امتياز البحث عن البترول في البحر للشركات الأميركية ونقل وتسريح عدد من الضباط غير الموالين أو المشتبه بهم ، سيختلي بذاته في غرفة من غرف قصره الذي شيده أحد المقاولين وقدمه له هدية في عيد العرش ، ليرسم الخطة الشمولية لما سيسميه : معسكرات التطهير ، وتخضير الصحراء ، وعزل السلالة القنطورية عن بقية الرعايا بعيداً عن التلوث الغوغائي .

وهكذا ، في اللوغاريتم الجديد لا المتخيل . سيرسم على رقاع من جلود الغزلان البيضاء خريطة مستعادة في الزمن الراهن لزمن قبائل الأجداد آن اندفعوا في موجات غزوهم عبر الصحراء المترامية رافعين رايات الفتح والهمّة العلية والقلب الشجاع وأحلام العروبة الأصيلة والمتعصبة لمواجهة الامبراطورية الرومانية الهرمة التي كانت شمسها تميل نحو الانحدار ، وروح اندفاعها تهوي إلى الشيخوخة والزوال .

ثم يكتب تحتها : الزمن المضيء .

على الجدار الآخر المواجه للأول سيرسم خريطة أخرى مناقضة للأولى ، يظهر فيها قوة العدو الجديد المرابط على أبواب العاصمة ، ويوضح ضعف الأمة التي انهارت في أعقاب أمجادها القديمة وحضاراتها التي أنارت الأكوان يوم كان العالم غارقاً في عصور الظلمة البربرية ، هذه الأمة المجيدة مهددة اليوم بالانقراض والزوال على يد حضارة العدو الناهضة والقوية .

ثم يكتب تحت اللوحة : الزمن المظلم .

في الليل وهو نهب هواجس وأشباح وانبهاقات فوسفورية تنتابه بين الحلم واليقظة سيتساءل كيف ينقذ هذه المملكة المهددة بالسقوط والدمار .

وإذ يوغل في ترهات عوالمه المجنحة ، فيسطو الباطن على الظاهر ، والمجنون على العاقل ، يرتدي قميص طفولته القديم .

يوم كان يحلم بتكوين عالمه الصغير المحيط به على صورته هو . في أزقة القرية الموحلة كان مهووساً بلعبته المفضلة : عسكر وحرامية مع فتيان الحيّ . كانت أشعة الحلم تذكره بالفتى الصلب الصارخ بقوة زعيم من الهنود الحمر يقود رجاله إلى الحرب ضد الجنود البيض .

هوها . هورا

هكذا كان يصرخ وهو يتقدم رافعاً العصا والمدية أمام مجموعة من الفتيان الذين اختارهم من الشطار والزعران والحمقى واللصوص والعاطلين والسفلة والشهوانيين ، للفتك بخصومه في الحي الآخر .

بحنق وهو يغرغر من الضحك والتشفي ، كان يضرب رؤوس الفتيان الأعداء بعصاه المصنوعة من أغصان الزعرور المحروق ذي العقد . كانت الدماء تنفجر من الجباه الغضة ، وإذ يهوي الفتى العاثر على الأرض كان يسحق بهدوء وجهه وأنفه ثم يبصق في عينيه : ياابن المنيوشة . أنا عبيد الله الكلبي . رح أدخل في مؤخرة أبيك ولاتعد إلى هنا بعد اليوم .

على صوت الصرخات وغرغرة الدماء والرعب ، يستيقظ .

آه . ياللزمن المديد . الزمن الباهر !

لقد هجعت الطفولة في مهدها الصغير ، والحي صار بلاداً واسعة .

بلاد تدخل الآن حدادها بعد أن أقبل عليها الموت من كل حدب وصوب ، ولامن يرفع سيفها الملقى في الوحل .

زمن غريب سينشق فيه الابن عن أبيه والعاشق عن عشيقته والصديق عن الصديق ، والموجة عن شاطئها . فلا يكون إلا الانهدام والشقاء اللامحدود . في تلك الليلة الثانية بعد الألف ، ومع الانبهاقات الأولى للفجر ، أثر معاناة كابوسية مريرة ، سيُضاء عقله بشعاع مبهر يخترق السجف السميكة .

سيتراءى له وهو يخطر بين الخرائط المظلمة والمضيئة أن الأمم والممالك القابلة للحياة تحتاج زعيماً متعصباً وحزباً متعصباً .هذا مافعلته ألمانيا الجرمانية في تاريخها يوم اجتاحت العالم وأخضعته لقوتها وجبروتها ، وهذا مافعله بونابرت الذي أنقذ شرف فرنسا ومد فتوحاتها إلى كل أوروبا ، وهو مايفعله الأميركي الذي يقود العالم كسوبرمان قومي متعصب .

وإذ يتذكر جوزيف ستالين وسطوته الدموية ، ينبهر عقله المتأجج بهذا البطل التراجيدي الذي أنهى حياة عشرة ملايين انسان لتنتصر الشيوعية وتخلد قوة الفرد الذي يغير مجرى التاريخ بإرادة الحديد والنار .

من هذه المقدمات سيستنتج عقله المصاغ من شهوة الدم والحقد والطفولة السادية وعصارة النباتات السامة ، أنَّ خلاص مملكته لن يتم بغير هذا التعصب المقدس ، وبما أنه وسلالته يكثِّفون النسغ الصافي والبهاء المشع ، فهم إذن حملة هذه الرسالة المتعصبة التي ستنقذ الأمة من ترديها وتعيد لها كرامتها لتشع على الانسانية نورها الوضاء وتخرجها من ظلماتها .

ففي تلك الليالي المحتدمة فوق شاشة عقله الملتهب كانت تتصاعد من أعماقه كراهية على شكل أبخرة سوداء تتشكل مرتسماً عنكبوتياً يضرى بالسم ، فتتراءى له تلك القطعان البشرية وقد تحولت تحت عدسات ملايين العيون العنكبوتية أسراباً من الذباب العالقة في الشباك اللزجة تختلج في احتضاراتها وضراعاتها الصامتة .

ولأن تلك الحشرات التعسة لم تكن كما ينبغي أن تكون تحت مجاهر عينيه ، كان يتخيل أن بإمكانه امتصاص دمها وهضمها ثم تمثيلها داخل

جهازه الهضمي ليعيد تكوينها من عصارة وبلازما سلالته الطاهرة .

هكذا سيصوّر له خياليه السريالي المتوهج بالدم والروث والقتل والاحتقار والعصاب واحتدام الشوق الإلهي ، أن يقيم مستعمرة عقاب صحراوية مسيجة بالأسلاك الشائكة والمكهربة ، يضع داخلها شعبه المعارض والجامح ليعيد تكوين ذلك القطيع بالشكل الذي يراه بعد خصيه ووشمه .

وفي ذلك الزمن الأسود ، زمن الخنوع والغروب ، ماكانت تلك القطعان قد دمرت آلهتها القديمة ، ولاخرجت من أرحام أجدادها ومقابر طواطمها . كان حبل السرة مايزال موصولاً مع الأزمنة الرعوية وأزمنة عبادة الواحد القهار في السماء والأرض ، ذلك الذي يقول للشيء كن فيكون . ومن خلال تلك الهشاشة الرثة والرسيس العكر المترسبين في أعماق القلب الضعيف والدماغ النحلي ، كان يتبختر أي خنزير أو لواطي أو لص أو قاتل ليتوّج نفسه ملكاً في تلك الأرض الخراب فتتقدم منه الجموع زرافات ووحداناً ومعها ذبائحها وقرابينها وأموالها ونساؤها وماأنبتته أرضها من زرع وضرع ، لتقدمها مسبحة بحمد هذه الهبة المباركة والطوطم المنقذ ، وريث الخلفاء والأئمة ، وظل المعبود على الأرض .

في رواق ظلام ذلك العصر المفلت من سياق التاريخ ، وفي مجرى التفكك الجيولوجي للأرض ، وانتشار موجات من الفطريات على سطح الشمس ، وانبثاق الرعب من الموت الذي داهم المدن والمعتقلات والسكان الآمنين ، سيتوهج عقل قنطور الزمن الأخير عن قانون سادي يطلق عليه : قانون التطهير الوطني .

وحتى لايبدو الأمر روائياً مبالغاً به ، وكأنه مستقى من مخطوطات صناديق الأجداد القدامى ، ثمة حيثيات لاتقبل الدحض بخصوص هذا القانون المؤرخ بالثبت التاريخي ، موجودة بين أوراق مهيار الباهلي السرية المخبأة في سواد العراق وبادية الشام .

ففي العام الثاني عشر من اغتصاب الوطن على يد عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ، وبعد مذبحة الأهوار ، وتشتيت الشيوعيين ، وتدمير اقتصاد الوطن في حروب خاسرة مع الأعداء ، وقتل عشرات الآلاف من الشعب في الحروب الأهلية الدينية ، وإقامة الدولة الطائفية ، سيقترح اللوياثان إقامة معسكرات لكل منحرف ممن يعتنق المبادئ الهدّامة ، في

أعماق البادية . سينصّ التشريع الجديد على ضرورة استبدال المعتقلات بمعسكرات الصحراء . الحزبيون المعارضون واليساريون المتطرفون واليمينيون والليبراليون والهيبيون والسرياليون واللامبالون ، والمثقفون اللاقومويون ، يزجّون في معسكرات تدريبية يشرف عليها ضباط متعصبون من ذوي الكفاءات العضلية والقومية .

في هذه المعسكرات ستلقن القوة والتعصب وافتداء الوطن وحب الزعيم والحزب . وبعد الدروس النظرية سيقوم المدربون برياضة الجري . لاستكشاف الصحراء بغية التعرف على أطلال وذكريات ومستحاثات الأجداد الذين ماكانت الشمس لتغيب عن ممالكهم في الأزمنة الباهرة .

في مابعد استراحة الضحى سيبدأ حفر الأراضي واستصلاحها وزرع الأشجار لتصبح الصحراء واحة خضراء كالجنة .

وعلى مدى عام أو عامين ستُزرع في أذهان هؤلاء المنحرفين والشاذين والمنحرفين عن قوميتهم ، بذور جديدة ، وأقمار قومية شديدة السطوع ، كما ستصحح تربيتهم الخاطئة ، فيشفون من أمراضهم القديمة وأفكارهم المستوردة ، وبعد الامتحانات التي يجتازونها سيحصلون على وثائق التطهير الوطني التي تنص موادها على أن حاملي هذه الوثيقة هم من البشر الأسوياء والمواطنين الصالحين . آنذاك ستفتح أمامهم أبواب الاعتراف والرزق والأمان واتقاء غوائل الجوع .

* * *

هكذا ، كما تبتلي المزروعات والأراضي الخضراء بالأوبئة والجراد والحشرات القارضة وسائر الأمراض التي تهبط من غبار فضاءات السماء ، قادمة مع الرياح السموم ، ابتلينا بذلك اللوياثان القارض للزرع والضرع والبشر .

وفي ذلك الزمن ، العصي على التسمية والوضوح ، بدونا كأنما انقلبنا انقلاب السلاحف على ظهورها . أقدام مشرعة في الهواء فقدت صلابة الأرض ، وعيون ضارعة نحو سماوات فارغة ، وصدور عارية للرياح بلا أمل .

ماكان أحد يعرف متى تنتهي سنوات المحنة وسنوات القتل وسنوات الجوع وسنوات تدمير العقل .

وفي الوقت الذي كان مهدي جواد يتحدث فيه عن دورة اللولب واستعادة زمن الملوك والخلفاء القدامى في العصور الأخيرة من بداية انهيار امبراطورية بلاد العرب مع بداية القرن السابع الهجري ، كان مهيار الباهلي يحاول جاهداً من خلال استبصارات الزمن المقارن ، نفي تلك الدورة المتأبدة ، المنافية لجدل التاريخ .

كان يبدو ، وهو على أبواب حدوسه المنفجرة التي ابتدأت تتجلى في شوارع وحانات بونه ، شبيه مسيح مسلح ينبئ بعصور من الحروب الأهلية القادمة سيقودها المجوعون ويتامى الآباء والأمهات والجنود الفقراء المهزومون في الحروب الخاسرة ، وفلاحو الأهوار والبوادي ، والعمال العاطلون عن العمل ، والناجون من معسكرات التعذيب واستصلاح الأراضي .

الصيف

KMH

كان صيف المدارس يقترب والامتحانات على الأبواب . يزيد ولد الحاج يراهن على نجاح ابنة زوجته . يسأل لالا فضيلة عن تقدم آسيا في العربية . تجيب المرأة الطيبة بوثوق . لكن الرجل المنهمك بتجارته في بونة ، ومزارع أبقاره في بلدة ابن مهيدي يرنح رأسه استهزاء من عقل لالا الصغير : نشوف يافضيلة . نشوف . ديما تهدري بالخير والشر كاين بحومة قريبة منك .

يقول ذلك عابراً الممر إلى الحديقة ثم السوق .

الأم التي ترى في آسيا شجرة سي العربي الخضراء ، تتقدم بصينية القهوة والحليب والحلوى . تقول : يزّي علم . هاو بقالكم ساعتين وانتو تديروا العربية . لازم ترتاحو شويا .

يشربون القهوة تحت أصيل الشمس الأفريقية المنسل من النافذة الجنوبية ، ماراً فوق سطوح القرميد ومن خلال زهر الليمون والستارة البيضاء التي تتموج بالريح الرخاء .

كلمات متناثرة . طقوس هادئة ، مغربية ، تؤدى بانسيال عفوي . احتفاء أهلي بالغريب ليُجلى الفقدان . تقوم به المرأتان في تلك اللحظة ، معاً . المرأة التي تحب وهي تقدم القهوة بأصابع كسنابل القمح ، والمرأة التي تحتفي بضيف العائلة وهي تبوح بالأسرار :

يزيد في ضيق . الدولة تؤمم كل شيء . ومابناه يراه ينهار . ماعاد يثق بأحد حتى بي .

الزمن الكامد وهو يُستعاد لايلبث أن يغمر الوجوه بالكآبة .

زمن يزيد ولد الحاج الذي طغى في ذلك الأصيل ، وكل أصيل .

تحاول آسيا كف الأسى عن وجه أمها الناضح نضارة ، لكن الأم تبدو رازحة تحت كابوس عصيّ على الشفاء . ذلك الرجل يبدو أنه أدخلها في مدار عصابه ، عاكساً على روحها والأطفال ، حميّاً دماره الاقتصادي الوشيك .

وهي تداري شجاها تقول الأم : المهم أن تتعلموا . حياتي راحت . ربي يأخذ بيدكم وتطيرون . ينبغي أن تنجحي ياابنتي حتى لايشمت بنا يزيد .

النسيج الوردي لوجه آسيا تخبو نضارته ، إذ ترى الغم في عيني أمها . وهي تتأهب للنهوض تُتمتم عبارة عن الأيام الصعبة والأوقات الغادرة والبلاد الحزينة .

ـ مسكينة ماما . تقول آسيا آن الألم يندّي الوجه .

بأصابعه يمسح جبهتها الحارة : كوني قوية .

ـ هذا الحلوف سيقتلها بالغمة .

تروي كيف طردته لالا مرات ليعود فيما بعد ذليلاً مستغفراً كقط يموء على العتبة طالباً التوبة : ماما قلبها صاف كالحليب سريعاً ماتغفر وسريعاً ماتنسى الإساءة .

ويزيد ولد الحاج ، كما تعرف بونة ، اتهم بعد عامين من استيلاء بومدين على السلطة ، باشتراكه في محاولة الاغتيال الفاشلة التي جرح فيها بوخروبة ونجا . مقدم في الجيش من أصدقاء يزيد يشترك معه في مزارع الأبقار ، توسط له فخرج بعد أسبوعين من الاعتقال .

ويوم عاد إلى البيت ليلاً ولم يلق لالا فضيلة دار في الغرف صارخاً : وينها الخاينة ! وضع كفيه على الجدار وراح يضرب رأسه بالحائط حتى انفجر الدم وهوى على الأرض .

ـ كانت ماما في بيت جدتي . يومذاك كنا صغاراً . فاجأنا الذعر من صرخاته . رجل مصاب بكابوس الخيانة يصيح كالمجنون : ياأولاد الخاينة . نريد نقتل روحي . يزّيني بوخروبه ، أمكم تخون فيّ وأنا في السجن ! وراح يبكي .

جاءت لالا ورأت المشهد . رجل في خضم الدم والدموع . بوغتت بأطفالها الحزانى والمبهوتين والخائفين يتحلقون حول الرجل الأخرق الذاوي والمنتحب : ماذا جرى ؟ وتروي آسيا باقتضاب . تطوق لالا عنق زوجها وتقبل جرحه كاتمة شجاها : عزيزي يزيد . وعلاه . وعلاه . تدير

في روحك هكذا ! آني معاك روحي . هما الآن ينتحبان في عناق حميم .

الرجل والمرأة .

الرجل الذي مات .

وهذا الرجل الحي الذي لايموت .

بينما تترنح لالا فضيلة وآسيا لخضر . اختلاط الدم والوقت وأشعة الضوء التي تخبو وتتألق . وبين هذا المزج السلالي يهوي رجل غريب آخر يسمى في زمن ضائع ، مهدي جواد .

وفي برهة الاختلاط الغريبة ، المفلتة من عقال العصور ، لايعرف أي منهم كيف حدث هذا الهرج الساخر . كيف استبدل الميت بالحي ، والغريب بالقريب ، وكيف تشهد المدينة أطوارها الجديدة تحت هذه الانشراخات الصادمة للعقل . منذ الطفولة الأولى تربى سي العربي مع لالا ابنة عمته . الحي كان يقول وهما في العاشرة : الأخضر لفضيلة وفضيلة للأخضر . إنهما مكتوبان على اسم بعضهما منذ خلقهما . كانا حكاية الحومة . هكذا تروي آسيا .

ثم تروي عما بعد الموت . تقول شيئاً في أوقات الشجن وهي تناكد الرجل المزور ضد الأسطورة . سي لخضر حي فينا . دمه دمنا وروحه روحنا . هو الذي لايموت . رائحته في الأشياء . ثيابه ساعته ، صورته ، خاتم الزواج ، مفاتيح البيت القديم ، كلها ملفوفة في علم جبهة التحرير التي خاطته ماما قبل استشهاده ومايزال محفوظاً حتى الآن في صندوق عرس ماما .

وفي أوقات مفعمة بالوهج تروي ذكريات عن اقتحام جنود لاكوست للبيت القديم . كيف صعدوا إلى السطح واندفعت مفرزة إلى الداخل بحثاً عن الأخضر . يومذاك لم يكن هناك سوى النساء والأطفال وقد تجمعوا في الزوايا وتحت الأسرة . لقد بالوا في سراويلهم رعباً . ويومذاك لملمت لالا رايات الجبهة التي كانت تخيطها في الغرفة الثانية وخبأتها تحت كرسي جدتي المقعدة .

ببشاشة استقبلت الجنود وفتحت لهم أبواب المطبخ والمرحاض والسقيفة وخزانة الثياب والحقائب وغرفة المؤونة ، وعندما شاهدوا الجدة العجوز استفسروا عنها . قالت ماما بفرنسية محطمة : أمي عاجزة لاتقوى على النهوض . وقالت لنفسها وهي ترتعد : ربي يعميهم عما تحت مؤخرتها ، ثم دعتهم ، وهي تبتسم ، إلى تناول القهوة والحلوى ، لكنهم

رفضوا ، وسألوها عن سي العربي والفلاّقة ، فقالت بأن زوجها ليس مع الجبل والمجاهدين .وهددوها إن هي كذبت واكتشفوا ذلك فيما بعد ، فأقسمت بالرسول والقرآن كذباً أن سي العربي مع شاحنته الصغيرة في وهران منذ أسبوع ، وقالت بدهشة : ولماذا الحرب ! نحن كعائلة محايدون ونريد السلام . وأخيراً خرجوا . وفي المساء حضر رسول من الأخضر وأخذ الرايات التي تبلل بعضها ببول الجدة .

تضحك آسيا من رواية أمها عن الرايات المبتلة فتقول لالا باستغراب طفولي : أليس هذا أفضل من مصادرتها ! إنها تجف في الريح والشمس إذ يرفعونها على الجبل . مبلولة أو غير مبلولة المهم أن ترتفع الراية . وتقول آسيا : أنا لم أضحك على هذا . كنت أرى جدتي من تحت السرير وهي ترتعش ووجهها يتقلص خمنت ذلك خوفاً من الجنود .

ـ كانت خائفة حقاً !

ـ لا . كانت تبول .

ـ يزّي تمسخر . يزي . أعوذ بالله من هذا الجيل الهامل !

زمن مضى تستعاد الآن تفاصيله القديمة . خمسة عشر عاماً من الشقاء والكوابيس وصدمة الدم ، مرّت ، لا على الرمل والحصى ، إنما فوق حقول القلب . عندما تقول آسيا مامعناه عن الجزائري الصلد والكتيم كالحجارة ، يفهم مهدي جواد العبارة الراشحة بالألم العضوي ، ألم التاريخ المضمخ بما فوق المهانة والاستبسال .

لكن الأمر يبدو الآن سرداً للذكرى بعد طول ابتعاد . الذكرى التي اعتادوها في أوقات سريان الماضي عبرالحاضر الجديد المحايث . هذا الرجل الجاثي على الضفة الأخرى من الماضي ، تلتبس عليه الأمور ، وهو يتملى الوجه الأفريقي . الوجه الواضح والمفتوح كسهل من العشب . في ضباب اشتباهاته وهو يراقب العينين العصفورتين بلمعانهما العسلي تحت الأصيل ، يتساءل إن كانت هذه المرأة هي امرأة العصور الجديدة التي تضرب الرأس كبهقة البرق ليستيقظ ماتحت الرماد ، أم أنها صرخة الطفولة ! فتوّة مهدي جواد القديمة تتمطى : حلم المراهقة الأول عن مثال اليقظة ، وصياغات صلصال المرأة المنشودة . امرأة الجنون والنيران والطفولة والموسيقا والأمومة والمنفى الأرض الراكضة والهاربة أبداً تحت جلده وفي وديان روحه .

دائماً كانت تظهر في الليالي وتحت أشعة القمر . نصفها انسان

ونصفها الآخر وعل . تجري فيجري معها أو خلفها في براري الرب الشاسعة والخالية من البشر . وحشان غير أليفين ، أليفان للغابة وشاطئ البحر ، وصخور البازلت اللامعة تحت المطر والصواعق . يحتدمان في أوقات الضيق والملل ووحشة القلب فيتشاجران ويفترقان ، وفي أوقات فصول الحنين ووجع الجسد والصرخة الصادية ، يركض الآخر نحو الآخر . يطير في استدارة الريح ، أو على الغمام ، أو فوق ذؤابات الشجر ، أو طي برق ، لينصهر في الآخر عناق الموجة للموجة ، ويغنيان معاً .

بين الماضي المستعاد ، ماضي الدورة الدموية وحروب الداخل وانشقاقات السلم والحرب ، ماضي الذين لم يمسكوا بالبرق وهو في متناولهم قاب قوسين أو أدنى ، وبين وجه آسيا لخضر ، يترنح الزمن . التباس بين النور والظلمة ، حيث تختلط على الرجل الوجوه والأماكن والأزمنة .

كيوليسيس المرمى على شاطئ غريب ، والمغمى عليه من دوار البحر .

حيث لاأحد في المدى المقفر .

إذ يرفع رأسه فيراها .

امرأة طويلة كشجر الصنوبر والعرعار .

ترتدي الغندورة الشعبية قربه .

أميرة المغرب الأقصى ، المضاءة في تيه الغربة .

يوم جاء الزمن كحد المدية وقطع حبل الأمومة ، ثم قذفه إلى الجحيم ليصحوا من هلاكه القديم . وفي ذلك الزمن الأسود رأى فيما يرى النائم الذراع الأبيض والأصابع الحانية والدافئة وهي تمسح وجهه . الحنان الموقف للوجع . يومها قالت : ارم الكآبة في البحر . أنت وأنا سنعوّض ماضاع في غابر الأيام .

كم كانت دافئة تلك الأصابع ! كما كانت قادرة آنذاك على مسح الرياح الصرصر ! قالت النفس .

ـ إنما أنا رجل هالك ياعزيزتي .

ـ لاتقل شيئاً . أنت بلا حنان ولاأم .

بالذراع الأبيض الحنون طوقته . كالعسل انساب ريقها .

امرأة النار . الوهج ورائحة الغار ، وهدوء البحر .

ـ معاً سنبني الخراب .

في البرهة المفلتة من إعصار الدمار كان يرسم رموزاً وخطوطاً فوق جلدها المضاء . وجوه الأطفال ، والحروب الأهلية ، وصدمة الدم ، والعشب المموّج بالريح .

آسيا الأخضر . آسيا الأخضر .

التي لاتتبدد كالضباب في فجر ممطر تفاجئه شمس .

ـ أنت تبكي ؟

ـ لا . لا . زمن الكلاب جاء والحرقة تبكي .

ـ إذا ماضعفت من أين تأتيني القوة !

ـ أبكي فرحاً . أنا ممتلئ بك . لكنني خائف .

ـ نحن معاً حتى الموت .

سجلت العبارة على هامش دفتر التدريس بالفرنسية . وفي تلك اللحظة لم تكن كاذبة . يومذاك كانت العواطف المراهقة تختزل داخل الهالة القزحية للرجل المخدوع أبداً . الرجل الراغب أن تكون هذه المرأة قيامة انهياره . الرجل الذي رأى فيما يبدو أنها الآن الأكثر رسوخاً وملاذاً .

ـ الزمن حجر المسن . أنت لم تعرفني بعد .

تنهض لتضع أسطوانة فرنسية «حدثني عنه» .

تتحرك وتغني مع الأغنية . المرأة والأم يطوقانه . موجة بحر ينغمر داخلها .

ـ هيا نرقص .

المرأة والرجل ، وحرارة الجسدين في الفسحة الضيقة .

ـ انظر أمامك ، وحدك لن تصلح العالم . حدّق جيداً في الدنيا . ترن الكلمات في غسق سحري أو مهرجان طفولة ، يوم كان يستلقي على الأعشاب ويوغل في عمق الفضاء الأزرق ، مفرود الجناحين كهذه الصقور البرية المحوّمة في الأعالي . يومذاك كان يرصد دوراناتها وحرية حركاتها ثم انقضاضها السريع ، مشدوهاً بهذه القدرة الخارقة للأجنحة والجسد والعيون التي تحدد هدفها ثم تنطلق كالسهم نحو الأرض حيث الفريسة . هكذا كانا يدوران في فسحة البيت كالفراشة والضوء . وفي تلك الفسحة الضيقة مع المرأة التي وهبتها له الآلهة البحرية ، كان يحاول أن يزيح الكابوس القديم . كابوس الظلمة واللعنة التي تحدثت

عنها أمه فيما مضى وأشارت إليها فلّة بوعنّاب يوم قالت : في هذه المدينة سيتدمى قلبك إلى الأبد . إنها مدينة العاهرات المقدسات .

بعد الرقص ناولته الحلوى مرة أخرى : ذُقْ صنيعي . هذا من أجلك !

كانت تتصرف كزوجة وكأم . الطفلة المفعمة بطغيان سعادة موجة حب هي الآن مغمورة طيّها .

ـ فيما بعد يأتي الحزن أو الموت وكل الهراءات الأخرى .

تحكي عن الدنيا الزاخرة بالحرارة . عن الأفارقة أبناء الدم الحار المفعمين بالشمس ورائحة الغابات والبحر . الجسد المشرب بالرغبة والشوق إلى حياة نابضة بما قبل الموت .

ـ بابا مات لأنه كان يريد أن يحيا .

وتستطرد وذراعها تطوق عنقه وعيناها تحدقان كالصقر في الجدار : مئة وثلاثون عاماً من الموت . احفر تحت أية صخرة أو شجرة من وهران إلى عنابة فلن تلقى سوى العظام . ليس من أسرة لم تفقد شهيداً . عشرة ملايين كانوا يحملون أكفانهم ويتجهون إلى المقابر . الآن كفى . كفى ماقُدم من الدم والعظام . لقد انتهت الحرب وبدأت الحياة .

ـ 2 ـ

يعبر بانسيون فلّة بوعنّاب أساتذة الشرق . من رشيد الفلسطيني إلى عبد الله السوري إلى ذو النون العراقي إلى مرسي المصري ، والآن هذا المهيار . أسراب من الطيور المهاجرة والمتعبة ، تحط على شجرة أفريقيا الوارفة . ترتاح وتتفيأ وتفلي ريشها ، وفي الصباح تنقر الثمر المباح ، ثم ترحل ضاربة في عمق سماوات جديدة .

وفلّة شبيهة أنثى العنكبوت . بعد الليلة الأولى تطوقهم بخيوطها ثم تبدأ امتصاص دمهم بتأن إذ يهمدون تحت تأثير الطعنة الأولى للبظر الملتهب . امرأة مصاغة من موران الشمس . صخرة صوّان مؤججة بالحرارة ودفق الدم . إنها تروي عبورهم في الأماسي تحت سطوة الثمل ، كما يروي الشعراء الشعبيون أساطير الزمن القديم . تروي بحيوية دفاقة ، فتبدوا أقوى من الزمن ومن هذا العبور الفضائي لرياح الشرق . جرحتها الضربات لكنها لم تتعب ، لا من الفرنسيين ولامن الجزائريين ولامن هؤلاء المشارقة الجوعى للجنس .

وهي تتوشح بالفضيحة تقول : من بين فخذي مر كل الغزاة . الأغراب والأشقاء وأبناء الدم . جسدي كالصحراء التي أتيت منها . لاالرياح ولاالأمطار محت معالمه . الآن يراها مهيار الباهلي وهي تدخل أحد أطوارها إذ تنجلي دخيلتها صاعدة إلىالأعلى . هي الآن تعتنق جسدها المتفتح . يحاول محاورتها حول العضوية وانتهاكات الوطن المجرح فتمد لسانها مقتاً ثم تخرج من مؤخرتها ريحاً ذات رنين . تضحك عالياً بلا مبالاة ممزوجة بريح كريهة ، وبهذا الألق الصاعد من نبيذ مسكرة الدموي . والآن هي هذه الفلّة الجميلة والمتألقة ، المندمجة بالجسد والنفس واستجابة الدم . لقد أخذوا الوطن وأعطوها البانسيون . بوخروبة والوزراء ومسؤولو الحزب والضباط والمؤتمرات وقيادة النقابات والمنظمات ، تفكر عنها . ترسم الخطة الرباعية والخماسية والسداسية للتعريب والثورة الزراعية والصناعية والرعوية وتعمير الصحارى واستصلاح الأراضي ، أما هي فتفتح ساقيها ثم ترفعهما لتهصر بهما ذكر العنكبوت .

- مادام هناك من يقول لك : استرح أنا أفكر عنك لماذا تتعب نفسك بالتفكير ؟

قرفاً ينفخ مهيار . يتناول قدح الشاي ويرشف . يبحث في جيب بيجامته عن سبحته ويبدأ التسبيح .

- سبح ياخويا يا مهيار . سبّح . هذه هي الدنيا !

تقول العبار الأخيرة بالفرنسية (cest la Vie)

يتأوه مهيار : أنت امرأة ضائعة يافلّة !

تضحك من هذه العبارة التراجيدية الفارغة . وهي في غمرة نشوتها تروي له للمرة الألف كيف بكى مرسي ، الولد المصري ، في فراشها ثم كيف لعق بظرها بطريقة صبيانية تشبه امتصاص الثدي . بعد أن بكى نام بين ساقيها . أنهضته وطوقت رأسه بذراعيها . طوال الليل كان يهذي بأنه انسان ضائع في هذه الدنيا . تافه ومنبوذ ويبحث عن أم . لقد ماتت أمه وهو ابن ثلاث سنوات ، وتزوج أبوه من امرأة سودانية متوحشة كانت أقرب إلى الرجال منها للنساء ، ولأنها لم تنجب كرهته وأجبرت والده على رميه في غرفة واحدة مع الأرانب والدجاج والحمام والقطط . جلّ طفولته قضاها مع رائحة روث الحيوانات والطيور بدلاً من رائحة جسد الأم .

ـ أخذت شيئاً من دمه وأعطيته حناناً . أكيد . إنما لاتسأل عن التعادل ولاعن الخسارة والربح .

ـ أنا مصرّ أنك لاتعرفين الطريق ياعزيزتي . العالم ليس مقايضة وليس سلعة .

ـ اسمع ! أريد أن أقول لك شيئاً غريباً : أنا افريقية من أتباع نبض الدم إلى أي جحيم يقودك الدم اتبعه . أما أنت فبامكانك أن تظل تطارد سرابك الثوري . أنا تعبت ياخويا من الدناءات . فهمت ؟

تراقب موجات اكتئابه من خلال الغضون الشجرية الملتفة على جبهته . تستطرد وهي تترنح بحزنها الرمادي : أمس نزلت إلى السوق وشفت الناس . رأيت الحوانيت الممتدة في شرايين المدينة ورأيت السلع المعروضة من آخر مبتكرات الموضة إلى السيارات الأميركية والفرنسية وأجهزة التلفزيون إلى حوانيت الذهب والماس . لم أسمع ولم أر إلا خذ وهات . إله المال كان يصرخ صراخ وحش جائع في غابة . الإله السماوي . إلههم الذي يصومون له ويركعون من أجله في الجوامع ، كان يداس ويجرجر . كانوا خاشعين أمام الإله الجديد : الدينار . لم يتغير شيء . كل الناس كانوا هناك يبيعون ويشترون بانجذاب مغناطيسي . ضراوة التملك . ضراوة الاستهلاك . ضراوة النهب . صار السوق كل شيء في حياتهم . لقد تحولوا إلى ذرة تدور في مدار خذروف السلعة . كانوا مشدوهين أمام العرض . مسمرين أمام الأشياء التي تسلب لبهم ناسين الرب والثورة والأخلاق . إنهم يشترون ويشترون بحمى وشبق الجنس . كل الشعب كان هناك في سوق المدينة . هذا هو الوطن الآن . تسألني : ماذا فعلت إزاء هذا التحول الأميبي . حقاً ماذا فعلت ! بعت كل ما أملك بدءاً من الشرف وانتهاء بالله والثورة واحتفظت بنفسي . إلى الجحيم . الوطن الذي صار سوقاً ليس وطني ، وأنا لاذنب لي . لقد سجلوه في الدوائر العقارية والمصارف باسمهم : العسكر والوزراء وجهابذة الحزب والمخبرون والتجار ، ثم طوقوه بالأسلاك الشائكة والدبابات ، أما وطني أنا فهذا البانسيون وهذا الجسد .

بعد لحظات سينتهي مهيار الباهلي من احتساء شايه الأخضر . سينهض متأففاً ومبللاً بالأسى ، لامن حالة فلّة بوعنّاب ، إنما من هذه الحالة الجغرافية والنفسية الشبيهة بأذرع اخطبوط بحري . أذرع الحيوان الهلامي السابح في بحار الشرق والغرب ، الذي أمسك به الآن وهو عار في بحر هذه المدينة ، وبدأ بامتصاصه . يذهب إلى فراشه لا

لينام . يتناول كتاب ماالعمل ؟ في رأسه صدوع الزمن . يقرأ ليرمّم هذه التصدعات بحجارة وعيه المتماسك والمحاصر داخل حيزوم الرأس . الوقائع . الحيثيات . الخراب . الهلام الاخطبوطي الدبق . عصر عبيدالله الكلبي المزدهر . كلها مرئية وتحت البصر الثاقب . يقدح الزناد على الصوان المتراص فتنبثق إشعاعات وروائح وألوان لاتلبث أن تختلط في منحنيات الخروج إلى الأرض الصلدة ، وحتى لايبدو مهدماً ومسكونا بعري الفاجعة والقوة التدميرية الأشد هولاً منه ، يخلط هذا المزيج في مختبره العقلي ، مولداً منه مثاله ويوتوبياه المضادة . عالم جميل ، عادل ، نقي ، يشع في رأسه .

إن مسألة فساد الطبيعة التي تحدثت عنها فلّة بوعنّاب ليست أكثر من لوثة ميكيافيلية أو نيتشويه ، راكمتها المراهقة وخيبات الزمن .

لكنه سيدخل فيما بعد مع مهدي جواد في حوار محتدم حول الأسباب البدائية لمنشأ هذا الفساد والخراب الخلوي .

عندما يحاول مهدي شرح هذا الفساد بتراكم عصور التخلف والارهاب وممارسة الدين الغبي ، يقول مهيار بأن هذا ليس فساداً جوهرياً ، إنما هو عرضي . الجوهري يستعصي على التغيير لأنه أزلي أما العرضي فيزال بنقيضه .

يسأله مهدي وهما يحضران السمك وسلطة الخس والطماطم : قل لي . مهيار . حالة فلّة بوعنّاب جوهرية أم عرضية . وهل يمكن تغيير هذه الحالة ؟

ينفخ الرجل الذي يكوّن العالم في رأسه كما كوّن الله الكون في العهد القديم بعد الغمر : بالتأكيد . . . ممكن . إنما في مجتمع كهذا ، لا . حالة فلّة انعكاس خراب عام .

- ألا تعتقد الآن أنك تفكر بالاقتصاد المحض ؟

- لا . الاقتصاد وعلم الاجتماع .

- وعلم النفس البافلوفي .

على المائدة يتخذ الحوار مساراً آخر ، يخرج من مدار الكتلة والخلية الاجتماعية المتجانسة وغير المتجانسة ، للفرد وميراثه واغترابه الداخلي وتكوينه الذري الشعوري واللاشعوري ، إلى مدارات أخرى حول الأدب والسفر والنساء وذكريات البلد البعيد وأمواج الطفولة .

مهدي جواد ، وهو يخرج إلىالمدينة في منتصف الليل ، عابراً

شارع عبان رمضان وأول نوفمبر ، باتجاه غرفته القائمة وراء المسرح البلدي ، يغيب من رأسه مهيار الباهلي منطوياً داخل أطياف يوتوبياه وعوالم سرابه المفصولة عن جسد ونبض العالم ، لتستفيق شفافية المدينة وأسرارها وصمتها الغامض . بونة مدينة البحر والشجر الأفريقي والنساء الشبقات والخلّو البشري في المساءات . المدينة السرية النائمة في هذه الأوقات الحقيقية : الليل . التوق إلىامرأة تطوقها وتطوقك تحت شجر الدردار . على الشواطئ العذراء ، وفي أعماق الغابة . تسمعان هجيج البحر ونداء الطيور الليلية . تستلقيان فوق عشب الحدائق ، زندك تحت رأسها الدافئ الرطب وأنتما تراقبان النجوم في فضاء من الكريستال الأزرق . تنبض الأرض داخل خلايا جسديكما فيدخل الليل والهواء والضوء والأصداء والبحر والشجر والتراب . كل هذا الزمن المتدفق المرئي واللامرئي ، الهلامي والصلب ، البعيد كهذه النجوم والقريب كالجسد . الزمن الهارب والمفقود الذي يجتاحك ويخترقك ، حيث يبقى هو وتتبدد أنت . الزمن الجوهري وأنت العرضي في هذه الملهاة الضارية ، وأنت لاتدري إن كان الليل يسري فيك أم تسري فيه ، متأرجحاً فوق هذه المدينة الغريبة والعذبة والتي ترغب امتصاصها واحتواءها حتى لاتفلت يوماً وتتحول إلى طيف من حنين قديم ، مبدد .

بغتة يحدث ما لن يحدث أبداً .

رغبته التي تكثفت في قطرة لؤلؤ : أن يجتث من ضلوع هذه المدينة ، امرأة الحلم : آسيا الأخضر . يخرجان كالنيزك من مدار سماوات العائلة والوطن والله ، ونصل الزمان الحاد .

يدخلان في نسيج الجلد واللحم والدم . انصهار العناصر الأولى داخل وثبة الدم الجديد ، في الغربة المطلقة ، والعارية ، لحظة يتدفق ذلك الدم الملعون ، موغلاً في الأراضي الصلبة التي لاتفر ولاتترنح ولاتتقوّض .

هي ذي مدن أخرى وشوارع جديدة ، تظهر على الشاشة الدوّارة . ساحات وغرف وأرصفة وخمارات ونساء غريبات ، وشجر أبدي الخضرة ، وحمائم زرقاء . طائر غريب يشبه طائر الرخ يطبق عليه براثنه وهو نائم . يعبر به محيطات صخّابة ويخترقان السحب ولمعان الرعد ثم بغتة ، من شاهق ، يهوي به إلى جزيرة الظلمة الجديدة .

* * *

مشهد البيلفدير الفضّي

قمر فوق بحر . احتفال الليل بعناصره . سماء منارة . لمعان الأشعة على الماء . استيحاش البر والشجر ورطوبة الرمل . أفق مديد ، أخضر ، فضّي ، أسود ، وملايين الجنّ وراء الخليج المظلم تستحم في غمرة الزبد ووحشة الخلجان الصخرية .

الآن أغلقت بونة أبوابها النهارية وانفتحت الممرات السرية للمتعة المنتهبة .

حفل ديونيسيوسي ، في معبد باخوس العراقي .

ومن بابل حتى حافة القبر ، يبدون أوفياء لإلههم القديم أبي نواس الذي ولد في جرن خمر ، ومات محسوراً بعد مغادرته . وفي أول مدينة يرتمون فيها كانوا يسألون عن الخمارات قبل السؤال عن الفنادق .

أية فاجعة عضوية للجسد لو نام واحدهم وهناك قطرة خمر لم تحتس بعد !

لقد انفلتت عصابة المدرسين من رصانة النهار وغبار الصفوف ووحشية المدينة ، واعتمروا هذا الليل البوني عشية عطلة الأحد من النصف الثاني من شهر مايس . ليل بلا نساء . ليلهم الذكوري . الليل المغمور بالنبيذ والبيرة والأشواق النارية ، المتضامة .

على مرمى الأقدام يتكسر الموج المنار ، وينحسر .

داخل رطوبة الرمل غرسوا زجاجاتهم المدخرة لتبترد ، بعد أن فتحت أخرى تحتفظ ببعض برودتها .

شفافية ليلة تنهمر رطوبتها ندى في طيّات ريح بليل ، وصوت البحر . مع الدخول في شغاف الليل تتبدد قسوة الغربة ، لتأتي الطفولة . تأتي من عراء البحر وأشواقهم . تندفع في الصرخات والتعري وقذف الأحذية والقمصان فوق الرمل الرطب . راكعون على ركبهم في برودة الرمل أو منبطحون أو مستلقون على الظهور العارية ، وبين أكفهم زجاجات الخمر .

هكذا بدوا في ليلة الطفولة البحرية تلك عندما سيقول أحدهم من خلال خفقة جناح طائر قطع آلاف الأميال : نحن في معبد باخوس .

يرد آخر : هذا شاطئ شارع أبي نواس البغدادي .

يصدي آخر ووجهه مغمور بالبحر : لو أستطيع نقل هذا البحر

الجميل إلى بغداد ! !

- ها . عيني . دجلة مايعجبك ! يقول صوته ضاحكاً .

- روحي . يامغفل . أنت ماتفهم قصدي .

صوت بحنوّ قصب البردي في الريح ، يدندن . صوت ذو النون الموصلي عاشق فلّة القديم والمخضوب حنيناً إلى تراب الموصل . ذلك الموّال النائح في ليل بونة الغريب ، الموجع ، كان راغباً في نقل البحر . ذو النون الذي هجرته فلّة بوعنّاب فانكفأ إلى كنف مومسات عنابه ليعوّض خيباته داخل فروجهن المقروحة . وفي هذه المدينة ، كما في كل المدن التي شهدت شتاتهم ، كانوا يندفعون نحو رغباتهم اندفاع قطيع خيول عطشى للماء .

لكنهم كانوا مضمخين بالحزن ، والشوق الخفي للموطن الأول . شبيه أسراب الغزلان التي اعتادت مراعيها . الغزلان المذعورة في الأراضي الغريبة . هكذا كانوا يرونهم متضامين ، خائفين ، يرتعدون خوف المداهمة .

وفي بونة كانوا يغطون خوفهم بالثمل . الجزائريون أحبوهم إذ رأوا فيهم مايماثلهم : كيفنا هؤلاء العراقيون يعيشون يومهم وكأنهم سيموتون غداً . عندما سيتقدم سي عزرائيل ليخطف أرواحهم لن يجد في أجسادهم سوى العظام والكؤوس الفارغة ، وحطام العاهرات . ولأن المرأة والحرية بعيدتان كنجوم هذه الليلة المقمرة ، استعيض على شاطئ البيلفدير النائي ، بهذه المسرة الخمرية .

هذا ماقالته الغربة ، في بلاد العرب في ذلك الزمن الغارب .

كالأشباح تناثروا فوق الرمل . يشربون من فوهة زجاجاتهم بشبق أمومي . يروون الأسرار . يفيضون بالحنين ويطلقون الصرخات الضارية ، وإذ يتصدع القلب تحت الصفاء الألوهي لمجرات الأسى ، ينتحبون كالأطفال .

سهرة مفتوحة في عراء أفقه البحر والسماء المضاءة . مهيار الباهلي ومهدي جواد منفصلان ، كل منهما مندمج مع مجموعة . مهدي يتحدث مع ذو النون وداود عن الحب والجنس في بونه ، ومهيار مع آخرين يحكون عن الطفولة البدائية للانسان الأفريقي . ولأن الحديث عن الوطن يثير الشجن ، كانت المجموعات الأخرى تتحدث عن المومسات في مرسيليا والبيكال ومدريد والدار البيضاء .

أثير للقلب وشفاف ، تحت أمواج الخمر والبحر ، أن يفيض الانسان بأشواقه السرية . يطلق طيور أعماقه راسماً في فضاءات لاتحد ، صوراً باهرة وعملاقة للمرأة ـ المثال التي يحبها مندفعاً وراءها كصياد تسحره الغابات والتلال الوعرة والضباب الأزرق . غير أن ذو النون ، هذا الشاعر البودليري الملعون بالحس الجنسي ، سوف يدمر هذه الرسوم السريالية التي يرسمها مهدي ، ثم لايلبث أن يطلق عليها رصاص الشهوة . إنه يتحدث ، وهو يوري إلى قلّة بوعنّاب ، عن النساء العنّابيات اللواتي يشبهن نساء الأمازون .

يشبّههن بالعناكب تارة والأفاعي تارة أخرى ، يلتففن بأعضائهن حول جسد الرجل ثم يبدأن الامتصاص حتى يتحول إلى جثة : هذه هي الحقيقة . حقيقة الرجل والمرأة هنا .

يصرخ داود صديق ذو النون وشريكه في البيت : عيني . ذو النون . لقد بلغت من العمر عتياً ولم يبق فيك مايمتص . يغضب الموصلي : قواد ابن القحبة داود . أنت وش مدريك بهاي المسائل . أنت قاعد تحوّس على غلمان المدرسة . يامعوّد يامنيوش أنت قادر تميّز بين الفرج والمؤخرة . ولد القحبة ! يضحك مهدي بانشراح . داود بوجهه القردي يقهقه . يرفعون زجاجاتهم ويكرعون .

ـ عيني ذو النون لاتزعل . أولاً أنت عجوز حقاً . ثانياً أنت لاترى في أية امرأة تلقاها أكثر من فرج . هذه هي الحقيقة عيوني . اعترف . اعترف بما تبقى لك من رجولة وشهامة . يقول مهدي .

بيد راعشة بالزمن والحنق يشعل الرجل الأربعيني سيجارة هقّار . مع دفقة بيرة تبترد أعماقه . يركز هجوماً تعويضياً على مهدي جواد : الخائب الأبدي . يقول له . وريث ابن الملوّح وابن ذريح وسائر التعساء الخائبين عضوياً . أولاء الذين ضمرت أعضاؤهم التناسلية من قلة الاستعمال .

ـ تصوروا ياناس ، ياهو . ياكائنات . رجل على أبواب القرن الواحد والعشرين في مدينة تعج بآلاف النساء يتعبد في محراب امرأة واحدة منذ عامين . وإذ تسأله : شنو عيني . لم هذه التقوى للرب الواحد الأحد ! يزم شفتيه ثم يعقد غضون الجبهة ويؤدلج : شف . حبيبي ذو النون . آني رجل مخلص . البنت بنت شهيد وأنا وفي لميراث الثورة . ويستطرد هازئاً بتجليه الجميل الساخر : مهدي رجل قضية والقضية لاتخان ! أبداً لاتخان ! ها . ها . مرحباً قضية . مرحباً قضايا وشهداء

وثورات . مرحباً ياسنوات العبث الدموية في سبيل الشيء الذي سيكون ولايكون .

أما أنا ـ يستطرد مبتهجاً وممروراً ـ فأقول : مرحباً يابحر ويانساء الله التعيسات . مرحباً بالوقت الراهن واللحظة العابرة . يصرخ وهو يرفع زجاجته : مرحباً بهذا الرمل الذي يهرب وبالموت القادم . بالأصابع يحتفن الرمل . يعصره ثم يفتح كفه فينهال الرمل من شقوق الأصابع . بين البهجة ودفقة المرارة يشربون . بعضهم يلتقط الجانب الهزلي وآخرون يرون طيف الأسى في شحوب قمر البحر . يقول مهدي وهو يرفع زجاجته : نخبك ذو النون . أنت جوهرة في عالم موحل . صدقني . طيز أم الذي لايحبك .

ـ لاتؤاخذني أخي مهدي . نحن على بساط خيّامي وأنت تعرف كم أحبك . أنت رومانسي حقيقة وحمار في نهب اللذات ، اسمح لي بذلك ، إنما أنا أحبك لأنك ودود ولاتخشى في الحق لومة لائم .

تفيض حالته . يشرب بسرعة . شاعر نقي الروح في ضباب غربة الأفق نقي الخفق إذ يرى سماء مفتوحة بين سرب من الطيور الأنيسة .

تحت غمرة البهجة التي أطلقها مناخ الليل البحري ، يوازي بين حبه لهذه الصحبة العذبة والحميمة وبين فروج النساء التي يعبدها .

هو الشاعر الذي استبدل الشعر بالحس . المنبهر برطوبة الرمل المنهال من فرجات الأصابع . شهوته ودمه المتلاشيان في الزمن .

ـ داود . خويا . ياقواد ياأبو الغلمان . عيني هات لنا بيرة باردة من مطمورات الرمل المصقع .

كالشامبانزي يثب داود باتجاه الشط .

بدت مسرات الآخرين تفيض داخل غلاف الزمن المقمر ، المتشحة به هضاب البيلفدير وشاطئه الذهبي . في تلك الليلة بدا ذو النون نجم القطب .

ومع أنهم اشترطوا من البداية تنحية السياسة وقذفها إلى البحر ، إلا أن فيض الخمرة كسر الاشتراط . ذو النون اللعين تحدث عن ماضيه مع الاخوان المسلمين في المرحلة الثانوية . تلك التجربة التي سماها : خديعة الطفولة والمراهقة .

ـ الآن أنا لست حزبياً ، صدقني أخي مهدي أنني لاأكره الشيوعيين ولا القوميين ، لكنني رأيت ماحل بالعراق من المآسي .

صرخ داود وهو يحفر لينزع الزجاجات من الرمل : ياعجوز . ياسكران . ممنوع الحديث في البوليتيكا المنيوشة .

ـ قوّاد . شنو تفتهم أنت غير في النيشا ! واستمر : عشت وشفت المرارات والدماء . احتراب الماركسية والقومية وضيق أفق الاخوان ولاعقلانيتهم . اقتتال طوائف . هذا مارأيت . قلت الكل باطل وقبض الريح . كما قلت : الجميع أوصلونا إلى حطام الوطن . أنا ماذا أكون ؟ وكيف أعيش ؟ بعد طول تأمل قلت : ياولد . يامعوّد . اتبع الدم . اتبع الجسد . شهوة الدم الأنثوي . رائحة المرأة التي تنسج حول جسد الذكر هالة فيصعد الحنين الأمومي كالبخار أو الضباب في أنساغ الخلايا . آنذاك نقع فريسة الروائح التي سطت عليك من كل جنبات الكون المحيط . ذلك يشبه ماكان يحدث للجد الأول في الغابة أو للفحل وهو ينزو بين القطيع من أنغام الروائح التي تطوقه وترميه في الزوغان الجنسي . الجنون . الجنون العظيم للجسد المتألق في جحيم مجده . الجنون الذي يلغي العقل والإرادة فيضعهما تحت هيمنة دويّ تلك الصرخة البدائية للوحش وهو يندفع محموماً نحو أبهة الأنثى ـ الموت . آه . يا إلهي الشيطاني . لقد جبلت أبا نواس بالخيام بابن أبي ربيعة ثم بنيت منهم هذه الأنا . هذا الذو النون الزاني الزنديق . خاطئ أو مصيب ، وجودي أو سريالي ، واقعي أم مثالي ، هذه التصنيفات لاتعنيني . الكأس والمرأة منجاتك ياولد في هذه الدنيا الفانية . هذه فلسفتي في حياتي . أعجبتك أم لم تعجبك ويلعن أبو اللي مابيحبك وبيحب الناس والدنيا . داود يابو العيورة . وين البيرة ؟

كسلحفاة ارتمى على ظهره ، مشبوحاً فوق الرمل ، رانياً بملء جسده إلى السماء الناصعة .السماء التي يحلم باختراقها .

ـ فلّة بوعنّاب أيتها المومس المقدسة . أيتها النجمة ! آه . . آه .

جاء داود حاملاً ثلاث زجاجات وزعها على العصبة المنفردة عن الآخرين .

كما يجسّ جسد امرأة جسّ زجاجته : الله . الله . ياولد . ياداود . لقد غفرت لك . انكح كل صبيان بونه وأنا شفيعك يوم القيامة . قال ذلك بغبطة مطلقة .

ـ عيني ذو النون . اطلب القمر وآني آتيك به . رضاك فقط هذا ما أبغيه ! غفرانك عيني !

صاح العائد من اختراق السماوات التي لاتخترق : لاقمر ولامن يحزنون . فلّة بوعنّاب الأمازونية وبسّ . آخ ياأمي على أفران أفريقيا الحارة !

في تلك اللحظة سأله مهدي جواد وهو يداعب خاصرته : كم أنت سعيد في زمانك العضوي !

واستيقظ . نهض من استلقاءته . بدا وجهه المضرّج والملفوح بالصحراء شبيه تمثال أسطوري . بغتة قال : أنت لاتريد أن تسألني عن ذلك .

بالرمل أمسك مرة أخرى : أنت تراهن على حصان واحد دائماً . من الشيوعية حتى آسيا وأنت تراهن على هذا الواحد . ماالذي يبقى من الزمن السعيد عندما ينشق الشيوعي على الشيوعي ويسلمه إلى سكين الجزار ؟ أليس هذا ماجرى ؟ الحياة كهذا الرمل انهبها قبل أن تجلس كالعجوز على أطلالها تبكي . أرجو أن تفهمني وأنا أخلط الأشياء في الزمن المجازي .

كتف الشاعر لامستها كف مهدي جواد : لست بعيداً عن الحقيقة ياصديقي . إنني أفهمك لكن الانسان ليس دمه ، وحسب !

* * *

هم الآن في مملكة النشوة . الأبواب فتحت ، تحت القمر قرب البحر ـ الطفل ، على مصاريعها ، وجاءت الريح . نهضت مجموعة ترقص في مواجهة البحر عندما صاح داود بأعلى صوته إلى الجحيم بوليتيكا ذو النون الموصلي .

ـ فيس . فيس . غلمان أبو نواس . هرهر الشاعر الفرح . وراح يغني لهم بصوته الشجي ، الراقص .

كانت الخيول الجميلة ، المحاصرة ، ترقص وتصهل في المراعي ، خارقة حصار الوقت ، والوشل المدمّل تحت الجلد . أذرع ترتفع وسيقان عارية تخترق الرمل . حفل زورباوي تحت الهزيع الأخير من ليل بونه المنسي . الليل المفعم بالمسرة والصرخات . أصوات تتماوج ، متصادمة مع هسيس الموج ، في المساء السري ، الغامض والمضاء .

بغتة قال ذو النون : إلى البحر أيها الملعونون ! إلى المطهر أيها الوحوش ! استجاب داود وحسان وكاظم ومهيار ومهدي . تعرّوا

كالبدائيين . قروداً أو آلهة ، هكذا ظهروا أمام معبد الماء الفضي ، الملألأ تحت القمر .

كان الماء يلسع ببرودته . بعد أن أوغلوا جاء الدفء الحريري . عذوبة الماء امتزجت بحرارة الجسد المخمور . شبيه طيور النورس يطفون ثم ينغمرون . صيحات فرحة ومذعورة وهم يتراشقون ناثرين الرذاذ في الفضاء المضاء . احتفال ديونيسيوسي .

الجسد والبحر . المرأة والرجل داخل الأبهة المجازية ، الشفافة . مهيار قرب ذو النون والماء يغمرهما حتى أعلى البطن .

ـ ها . عيني مهيار . كيف شفت بونه ؟ قال ذو النون وهو يمسح الماء عن شعره الذي تحلل صباغه الجديد .

ـ بلاد طبيعتها ساحرة ، إنما البشر تعساء .

عارياً ، فوق المياه . يرتج ذو النون بضحكته المخمورة : فيما أظن أخي مهيار هم سعداء . مادامت لديهم هذه الطبيعة السحرية وهاته النسوة الجمريات لماذا يكونون تعساء ؟

ابتسم مهيار : عيني ذو النون . أنت على مايبدو رادارك كعباد الشمس لايميل إلا نحو شمس النساء . أنا عنيت شيئاً آخر .

ـ ها . عيني . شنو الغلط في المسألة ؟ التعريب يبدأ بالبنية التحتية أم بالفوقية ؟

كحوت داهمه داود ، منبثقاً من غمرة البحر . حاذاه : ذو النون . عيني . خذ حذرك من الصبغة . هاي بونه مافيها حنة . لاتبلل شعرك . قال العبارة بإغاظة محببة . صرخ الشاعر كمن لسع : ها . ابن العاهرة . أنت ملاحقني بهاي المسائل حتى البحر ! واستطرد : شف الكلب ابن الكلب . نحن نهدر عن المسائل المصيرية والجذرية وهو يهدر عن الحنّة والتفاهات !

كان يوجه الشكوى لمهيار : صدقني أخي مهيار . مادمر العراق إلا هؤلاء . تافهون . أوباش . أولاد شوارع .

كان يهذر صاخباً ، مبتهجاً بجسده والبحر وبهذا الضياء الإلهي الذي أشعل مسامه . لم يكن معنياً باتهام أحد لأنه غير راغب أن يكون معادياً ولا صدامياً في حقبة العمر الخائف . صبوته أن يكون صاحباً للجميع ، مسالماً ، وأن تأتيه امرأة ولو بعد سن الثمانين ليعتكف بين فخذيها المقدسين وداخل صدرها في أخريات الليل .

وهكذا ، كدرفيل معمّر ، انشبح على ظهره فاتحاً فجوة في هلام الماء ، تاركاً لجسده حرية الانغمار داخل شفافية ورطوبة النسيان العميق .

كانوا عراة تماماً في عمق الماء ،وكانت الأمواج تداعب أعضاء الأجساد المنغمرة داخل حرير البحر . أحزان كثيرة كانت منسية وكان الحنين ضامراً ، وتحت غمرة هذا التدفق الحيّ للدم والنشوة ، بدا المنفى رائقاً موشى بالطمأنينة وبهذه اللذة العضوية الخارجة من البحر والرمل وأشعة القمر والكحول والليالي البيضاء .

وإذ قال ذو النون الذي اغتسل في غمرة هذياناته : المرأة وطن الرجل وحيث ترتاح ثمة وطنك . بدت العبارة كأنها بالون طفل صغير قذف به فوق الماء ، تدحرج ثم تبدد . عادوا من البحر يرتجفون . اندفنوا في الرمل الجاف وتمرغوا فوقه . مرت الريح الرخاء ورطوبة البحر فوق الأجساد فارتعشت قليلاً . شربوا نبيذاً وبيرة فاستراح الجسد أكثر . فوقهم كانت النجوم تومض . هبّت النساء وأحلام السفر والمسرات النائمة والشوق إلى حيوات بيضاء كهذه الليلة التي لايكدرها الزمان الأسود .

- 2 -

كانوا يسمونه الإيزرقاوي نسبة إلى قبيلته الزيرق الذين سمعوا عنه ولم يروه ، اعتقدوا أن الاسم محض اختلاق اسطوري أو حركي لرجل موهوم لاوجود له . كانت الاشاعات تنطلق سراً ، شبيه شرارة في هشيم الغابة عن احتمال استلام السلطة بانقلاب عسكري شيوعي ، صامت .

وكانت هذه الشرارة تضيء اسم المقدم عطشان ضيوي مسؤول الخط العسكري ، والذي سيعرف فيما بعد بالإيزرقاوي .

ومع أن حركاته واتصالاته كانت كالخلد الذي يحفر تحت الأض ، منازله ، ومتاهاته ، وحلقات انتقاله ، إلا أن آثار خطاه وأصداء نشاطه ، وظلال خرائطه ، كانت تخرج إلى سطح الأرض في الهمس كان ظلاً شبحياً ، ينتقل بسرعة العاصفة من ثكنة إلى أخرى أو من محافظة إلى محافظة أو من وكر إلى آخر . الذين عرفوه ، وهم قلة من المدنيين ، كانوا مقتنعين أن هذا الرجل الأسطوري لاينام من يومه أكثر من ساعتين . ولايأكل سوى وجبة واحدة . لم يكن يدخن ولايذوق قطرة خمر . ويقرأ خمس ساعات يومياً ويمارس رياضته الصباحية الشاقة من

الخامسة صباحاً حتى السابعة . وقليلاً مايتكلم .

لقد أخضع حياته لنسق منظم ، قاس ، من الدأب والتدريب تحت ضغط من حس المسؤولية والتربية ، سيورثهما فيما بعد لضباطه وجنوده المؤتمرين بقيادته في معسكر الرشيد .

ومع ذلك كان رجلاً عادياً فيما يبدو . شديد الانضباط ، حاد الذكاء ، يتمتع بلياقة بدنية توحي لمن يراه عن بعد بأنه يعد نفسه ليكون أحد أبطال الملاكمة من الوزن الخفيف .

بسرية شبه دينية كان يجهز خلاياه وحلقاته التنظيمية ويرسم خرائطه في بغداد والموصل والبصرة منذ اللحظة التي شعر فيها أن ثورة تموز بدأت تنحرف عن مسارها ، قالبة ظهر المجن للشيوعيين . لقد أدرك بحسّه العسكري ووعيه السياسي ، ومن خلال التنقلات والتصفيات التي بدأها كريم قاسم أن الحزب دخل مدار الارتياب ، وأن الزعيم سيقذف بالحزبيين إلى المحرقة بعد أن أحرق القوميين ليكون رجل التاريخ المعبود ، والمنتصر الوحيد في معركة اقتناص السلطة .

غير أن التاريخ يشبه البحر . ففي لحظة الغضب يلفظ من أحشائه ، الطحالب وبقايا جثث أقراش البحر المقتتلة ، وحطام القراصنة ، إلى شواطئه ، ويظل البحر .

وكالأقراش والقراصنة ، كان العسكريون يلعبون لعبة النار على أرض التاريخ والبحر . ومن الثكنات إلى الإذاعة فالقصر الجمهوري فوزارة الدفاع كانت تتحدد ساحة اللعب ، ومسرح العبث ، وميدان الصراع . كان المشهد في أوج تجليه المسرحي يشبه إلى حدٍ بعيد ستادات صراع الثيران أو الوحوش الكاسرة أو المصارعين في الامبراطورية الرومانية القديمة ، بينما الشعب يتفرج ويصفق ويصرخ من الشرفات .

لكن هذا الرجل الغريب الذي ستوكل إليه مسؤولية التنظيم العسكري ، في أعقاب إعدام الزعيم داخل مبنى وزارة الدفاع ، ونجاح الانقلاب العارفي ، كان يفكر بطريقة أخرى مغايرة للعبة الستاد الروماني .

فعلى مدى عامين ، وفي غمرة الخلاف الحزبي بين الخط السلمي الديمقراطي ، وخط الكفاح المسلح ، سينظم عطشان ضيوي سراً مئات الضباط وضباط الصف من جنوب العراق إلى شماله بشكل محكم وصارم تحت راية الحزب .

كان التنظيم العسكري راسخاً وصلباً في المفاصل الأساسية للقطعات : الطيران . المدرعات . المدفعية الصاروخية . قوات المظليين . مدفعية الميدان . سلاح الهندسة .

وكانت هذه الخلايا جاهزة في أية لحظة للسيطرة على قطعاتها سيطرة كلية دون إراقة نقطة دم .

لكن كان على قيادة الحزب أن تتخذ القرار السياسي وتحدد ساعة الصفر .

هكذا أفهم الإيزرقاوي ضباطه وجنوده : أنتم طليعة جيش العراق الأحمر . جنود الحزب والشعب عندما تأزف ساعةالتاريخ . ولأمر ما ، رغم استعدادهم حتى للموت ، فإن ساعة تاريخهم لم تأزف . ومع أن التاريخ سيزوّر فيما بعد ، وتذهب إلى المقابر والبحر ، الكثير من وقائعه ، إلا أن العصي على الدحض والتزوير ، من خلال شهود المسرح الأحياء ، إن امكانية الأخذ بناصية السلطة ، في أكثر من مناسبة ، كانت بيد الحزب الذي عف وأشاح عنها .

إن اعترافات الندم ، والندب العاشورائي ، فيما سيأتي من دمار الأزمنة ، وصرخات المعذبين ، والشتات عبر دروب الأرض ، والتأنيب ، لن تكون أكثر من باقات من أكاليل الزهر الذابلة فوق الأضرحة التي لن ينهض موتاها ـ الضحايا من قبورهم .

في مقر من المقرات السرية للقيادة سيضع الإيزرقاوي خريطة عسكرية للعراق على منضدة قديمة مغطاة بقماش مربع ، ويتناول قلماً ليشرح للمكتب السياسي الدوائر الحمراء والخضراء والأسهم المشيرة إلى الاتجاهات والمواقع ، والحركة المحتملة للقوات المعادية وكيفية شلها وتطويقها . سيحدد في كل قطعة وفي كل ثكنة قوات التنظيم ، وقوات العدو ، والعناصر المحايدة . كما يرسم خطة الحركة في المدن الرئيسية الثلاث : بغداد ـ الموصل ـ البصرة ، ويشير إلى أن احتلال العاصمة هو اتجاه الضربة الرئيسية في الحركة بسقوطها ستستسلم المدن الأخرى تلقائياً . من أجل ذلك فالسيطرة مؤكدة على بغداد بالطيران والمدفعية والدبابات ، ثم يوضح بخطوط تفصيلية كيفية احتلال المواقع الاستراتيجية وقطع الطرق الرئيسية بين الشمال والجنوب ، واعتقال رؤوس النظام .

بعد أن ينتهي من إيضاحاته ، وسط ذهول القيادة ودهشتها ،

سيسألونه عن ميزان الصراع داخل الجيش ومراكز القوى وفسحة الوقت المناسب للتأجيل .

ـ إما أن نبادر سريعاً أو تفوتنا الفرصة . النظام هش ، والجيش يغلي والبعثيون يجهزون قواتهم فإما نحن أو هم . من يسبق بالضربة الأولى سيفوز .

في أعقاب شرح الخطة ، يتناول لائحة بأسماء الضباط وضباط الصف المنظمين ، وأمام كل منهم كتبت القطعة التي ينتمي إليها والمهمة الموكولة إليه في لحظة التنفيذ . حوالي نصف ضباط الجيش وصف ضباطه ، كانوا على اللائحة . كان الأمر مثيراً للدهشة والفزع والثقة ، في آن . عطشان ضيوي ، الجندي الشيوعي ، مع رفاقه العسكريين ، كانوا واثقين بقدرتهم وبلحظة الضرورة لحسم الصراع ، لافي الستاد الروماني هذه المرة ، إنما في ميدان الشعب . مرة واحدة وإلى الأبد .

* * *

ذات ضحى والشمس وشيعة من الماس فوق حقل البحر ، سيكتشف الإيزرقاوي والباخرة السوفياتية تبحر به من البصرة إلى شواطئ البحر الأسود ، أنه لم يكن أكثر من ضابط مغامر ، محموم الرأس ، مصاب بلوثة الطفولة اليسارية . لوثة مجنونة وعصابية ، تنزع في لحظة الثوران الهستيري إلى الإقدام على انقلاب عسكري مدمر ، يخرب ميثاق التحالف مع البورجوازية الوطنية والديمقراطية الثورية التي تشع شمسها من القاهرة برعاية الأب الأعظم الجاثي في الكرملين . كانت هذه اللوثة الملعونة ، تحلم باستلام حزب شيوعي للسلطة في منطقة حساسة من الشرق الأوسط ، هادفة إلى تدمير سياسة التعايش السلمي والانفراج الدولي . واضعة العالم بين عشية وضحاها على حافة الحرب النووية .

ـ خراب العالم كان على يديك يا الإيزرقاوي . ياالمخبل !

قالت له طيور النورس ، والسحب المتراكمة ، وهواجسه التي قذفت به إلى هضاب وسهوب أوزبكستان النائية ، حيث سيعاد إعداده الحزبي وتثقيفه من جديد ليطهر دماغه الملتاث بمرض الكفاح المسلح ومغامرات البورجوازيين الصغار .

سيقاوم ذلك الطائر الأزرق ، بما تبقى لديه من قوة ، هذه الحالة الغريبة واللامعقولة ، كما سيحاول أن يوضح بكل ماأوتي من إصرار ، أنه شيوعي سوي ومنضبط ، قرأ واستوعب الماركسية وهو مايزال

يافعاً ، وأنه يعرف جيداً تاريخ بلاده ومفاصل الصراع فيه والأزمة التي يواجهها الحزب منذ نشأته حتى الآن .

ـ لماذا يحدث هذا لي ؟

سيتساءل باستغراب .

ـ لقد كنت جندياً وفياً لحزبي ولمسؤوليتي العسكرية فلماذا أنا هنا ؟

يناقش . يسأل . يحتدم . يصرخ احتجاجاً . ثم يقرر التمرد على دروس التطهير .

من مدرسةالاعداد الحزبي إلى مشفى الأمراض العقلية ، مشهد تراجيدي في مسرح من مسارح اللامعقول .

حكاية خرافية ستمر في مسارب عقل الإيزرقاوي على شكل إيماضات لونية ، تشاهدها عينان لجسد يستلقي في سرير أبيض . عينان مفتوحتان أو نصف مغمضتين تحت ستار من الظلمة المضاءة بأشعة اكس أو أشعة التهابات الأعصاب أو بريق الطلقات لقوات تتقدم في شوارع وهمية رسمت تخطيطاتها على ورق .

ـ خراب العالم على يديك ياالإيزرقاوي . ياالمخبل !

ذات فجر سيجمع الرجل المخبول ، ماتبقى من عقله . قدرته التي لم تتبدد كلية . تركيزه الماضي كعسكري منصهر في الصعب والشاق ، ويخطط للهرب من المشفى ، عابراً في مغامرة أسطورية ، السهوب الثلجية والغابات والمدن الغريبة وبوابات الجنون ، مهتدياً بنجم قطبي يلمع في سماوات أعماقه التي لم تنطفئ داخل مختبرات المصل والتطهير .

* * *

سيتحدث خال آسيا فيما بعد عما جرى له في جبال قسنطينة في أعقاب هربه من الثكنة الفرنسية بعد أن سمع بمصرع سي العربي زوج شقيقته لالا .

بسلاحه سيهرب عمر يحياوي ليلتحق بثوار الجبل ، بعد أن تحوّل الجبل إلى منازل وأحياء ومواقع حصينة . استعيض بها عن المدن المحتلة .

من الضحى حتى فجر الساعة الخامسة من اليوم التالي وهم في أعقابه : الحراس والكلاب البوليسية ، ومفرزة من الخونة المدربين على

استقصاء الأثر في الشعاب الوعرة .

في منتصف المسافة بين قسنطينة وبونه ، تشم الكلاب رائحة الأثر فيبدأ هياجها .العواء الوحشي طلباً لفريسة عبقت رائحتها في الريح .

بين صخرتين نتأت مسنناتهما فاحت من شجرة غار نارية الإخضرار رائحة عبقة للبراري حيث توارى الرجل الهارب . كان صوت الكلاب وهي تقترب ، يولد احساساً مدمراً للأعصاب والصدغ الملتهب . وفي هنيهة ، شبيهة بمرآة يوم الدينونة ، رأى عمر يحياوي جسده نهب التمزيق .

وهكذا ليخرج من حالته المضيقية ، ومن الإيقاعات المتواترة لنبض الأعصاب ، أخذ وضعية الرمي بين الصخرتين قرب شجرة الغار وبدأ معركته .

جرحوه في فخذه الأيسر المكشوف فابتدأ الزحف وهو ينزف فوق الشوك والحجارة ومسننات الصخور .

قطع مسافة طويلة في درب ملتوية حاول خلالها إضاعة الأثر . على مطل جرف صخري يشرف على واد التجأ إلى كنف صخرة ليضمد جرحه بقميصه والتراب .

كان منهكاً وعطشاً والألم يأتيه بروقاً تحت سماء عالية جداً في منتهى الصفاء والحيادية .

لكنه سيتذكر وهو في المشفى ، بعد أن تبعوا آثار الدم وهجمت الكلاب ، أنه حلم لو كان طائراً ليرتفع بعيداً نحو تلك السماء الزرقاء البعيدة ، وفي لحظة المواجهة مع الموت ، تناول سبطانة البندقية بقبضتيه صارخاً من فخذه النازف : أبعدوا الكلاب . أولاد العاهرة . أنا جريح وبلا رصاص !

ـ لم يكن ذلك سوى البداية . تقول آسيا .

ـ ها . وماذا جرى ؟

بعد أسبوعين تتحسن حالة عمر يحياوي . على رؤوس أصابعه يتسلل ليلاً من غرفته ومعه مشرط العمليات . يتقدم بهدوء نحو حارس المشفى من الوراء قابضاً على فمه حتى لايصرخ ، وباليد اليمنى يمزق حنجرته ، ثم يطعنه ثلاث طعنات ويستولي على بندقيته ويهرب تاركاً نصل المشرط في قرارة قلبه .

عندما تعبر طيور الحزن خافقة بأجنحتها السود فوق جبين آسيا الوضاء ، تصمت . تهمس : ماما . اشرحي ماتبقى .

تقول لالا فضيلة ، بابتهاج اعتزازي ، بأن عمر قُبض عليه فيما بعد وأودع السجن قيد المحاكمة بالقتل .

خلال التحقيق وُوجه بما فعل . ألقيت الأسئلة فلم يجب . عذبوه بالضرب والكهرباء ومع ذلك لم ينطق . كان صامتاً كالحجر أو كأبله . واجهوه بالقتل إذا لم يتكلم ورأى جنون القتل في عيون المحققين . وفي غروب يوم صيفي في الساعة الرابعة احضروه وقالوا له هذه آخر جلسة . إذا مابقيت صامتاً فأنت ميت . وبدأ الاستجواب والتعذيب . مددوه على ظهره واحكموا وثاقه وبدؤوا يقطرون الزئبق الكبريتي في عينيه . بعد كل قطرة يسألونه . كان الزئبق يكويه ويدخله في مدارات من فقدان الصواب والعمى ، ثم يبدؤون رشق الماء على وجهه ليصحو . بعدها تتواصل حفلات التقطير الهادئة .

كان الجسد يتلوى صامتاً بينما الألم يعبر في المسام فاتحاً ممراته ومجراه شبيه حافة شفرة من الماس المسموم بدأت إيقاع ضرباتها من يد رجل يجري اختباراً على أرنب أو فأر في مشرحة .

تحت هذه الوطأة والإحساس بضباب العمى جاءت الصرخة . صرخة الروح التي تبرق في الظلام المطلق : كفى . كفى . دعوني . سأعترف !

أنهضوه من استلقاءته وفكوا وثاقه . طلب كرسياً ليرتاح من وخز الزئبق في العينين فجاؤوه بالكرسي .

وكما يحدث في الأحلام ، أو اللوحات السريالية ، أو حالات الجنون الصاعق ، بدا الحادث الصادم .

فوق الكرسي وثب عمر يحياوي . كانت هناك نافذة من زجاج . وكمصروع راح يضرب برأسه وكلتا يديه الزجاج حتى هشمه . أمسك بالشظايا - الحراب وابتدأ يطعن صدره وبطنه وهو يصيح : الله أكبر . الله أكبر . اشهدي ياجزائر . اشهدي .

برق . أو جنون . أو صرخة الروح . أو قيامة الوطن .

تدفقت بين راحتيه أمعاء وأحشاء ودم وروائح عشب . كانت الجزائر تتدفق الآن عبر أصابعه وهو يهوي . في المستشفى العسكري بقي شهراً تحت الاسعاف والعناية . وبدأت جراحه تشفى أما عقله فقد

دخلت طيوره غابات الجنون . وفي الليالي كانت صراخاته ترج جدران الردهات والغرف وآذان المرضى .

ـ لم تكن تلك سوى مرحلة في حياة أخي . تقول لالا .

يغادرها الاعتزاز بتحدي أخيها للموت وهي تتذكر آلامه التي فاقت حدود العقل فأودت به ، فيرتدي وجهها غيمة كآبة .

ـ اكملي ياآسيا الحكاية . ماعدت نقدر نكملو . الغصّة في الحلق . حكايا غريبة . الآن صارت قديمة لكن بونه تعرفها وترويها قبل اثني عشر عاماً ، كما تروى في كل البلاد بمرارة واعتزاز حكاية علي لابوانت أو جميلة أو العربي بن مهيدي والأزهر شرايطي .

ستقول آسيا وهي تستعيد تماسكها : كانت الكوابيس تأتيه في غرفته البيضاء المعزولة . كوابيس كلاب وحلاليف وطيور سوداء جارحة تنهشه من رأسه ثم تقتلع عينيه وتجر أمعاءه على الصخور والأشواك . هكذا روى لنا . ثم روى فيما بعد كيف كان يقاتل هذه الكوابيس باليقظة وخداع النوم . كانوا سيحاكمونه بعد شفائه ويحكمون عليه إما بالمؤبد أوالإعدام قبل أن يصل إلى الجبل ويثأر لدم لخضر المغدور .

في أحلام اليقظة ، أو سهوة النوم السريعة ، كان يحكي بأن الفدائيين كانوا يتراؤون له ومعهم بنادقهم وخناجرهم يحيطون به وقد أوثقوه إلى شجرة :

ياالكومي ! ياالخاين ! حلوف لاكوست . هكذا كان يرى محاكمة سريعة سرعة الطلقات أو الخناجر التي تحتز رأسه أو تمزق أمعاءه .

وفي تلك الليلة الربيعية من شهر مارسٍ انفتح في ظلال عقله برق . قال لنفسه : أنت ياالمهبول ماعدت مهبولاً . هذه المرة إما قاتل أو مقتول . عبر خطة غريبة . مفاجئة رسمتها الأحلام والموت وصرخة الروح ، تسلل إلى غرفة الممرضين وسرق السيرنج ثم عاد إلى غرفته . وبهدوء صمت الليل غرس إبرة سحب الدم في وريده وبدأ يشرب دمه ويتقيؤه . قام بالحركة ثلاث مرات ثم أخفى السيرنج وابتدأ يصرخ . عندما هرع الممرضون ورأوا دمه المقاء فوق ثيابه والفراش ، سألوه فأشار إلى بطنه : المعدة . انفجر الدم في البطن . نادوا الطبيب ثم أحضروا عربة الاسعاف ونقلوه إلى مستشفى مدني تحت العناية المشددة .

في الأسبوع الأول رسم خطة الهرب ، وفي عشية عطلة الأسبوع نفذ

الخطة .

المدينة وإدارة المشفى والجبل ، في النصف الأخير من شهر مارس ، كانت تتحدث عن حكاية عمر يحياوي ، الرجل الأهبل ، الذي فر للمرة الثالثة من المشفى بعد أن ذبح خمسة من الحراس وجردهم من أسلحتهم وحملها إلى ثوار الجبل . وفي غابات جبل سرايدي المكلل بالضباب الزاحف كقطيع من اللقالق نحو بحر بونه ، استقبله قائد الولاية بالعناق : أنت بطل حقيقي ياعمر . تستحق لقب ثوري الآن والجزائر تحضنك .

ـ جندي بسيط أنا . لي الشرف أن أكون مجاهداً ياسيدي الكومندان ، في جيش الشعب . هكذا يسرد بعد عناق الكومندان ريزي عمر له . بعد الترحيب تراجع وأدى التحية العسكرية ثم قدم البنادق الخمس وانحنى خاشعاً كمن يصلي وقبّل تراب الأرض .

يسأل مهدي جواد في فسحة الصمت الجليل عن أحوال عمر يحياوي اليوم فيأتي الجواب كبهقة البرق المبهر .

الأحداث خلخلت نصف عقله ، والتعذيب أعمى عينه اليسرى . وهو الآن موظف عادي في مستشفى قسنطينة الذي هرب منه .

تعقّب لالا فضيلة بألم : منذ عام طلق زوجته . والآن لاهم له سوى الانتقال من امرأة إلى امرأة ومن حانة إلى حانة .

آه . آه . لابد أن البلاد تنعم بخير . البلاد المباركة التي ماتزال تهب النساء والحانات .

* * *

بعد شهرين من وصوله إلى مدينة بون قادماً من موسكو ، ينتاب الإيزرقاوي اختلاط كيميائي يلفح الواجهة الشعاعية لاستقامة خط الوعي . اهتزازات وانكسارات للضوء ، لكأنه محمول على متن سحابة رمادية في فضاء ، أو هو مسرنم في غابة ملأى بالأصوات وحركة تبدل الألوان في مدار طيفي دائب التذبذب .

ليلة سحرية ، بيضاء . رجل وحيد في غرفة من فنادق الدرجة الثالثة . كومندان قديم ، وثوري خدع ذات فجر بتقديم ساعة الزمن بعض الدقائق يشرب لأول مرة بهذه الحمى وبانفعال لايساعد كثيراً على التركيز وتسلسل الوقائع .

تنطلق طيور الذكرى في فضاءاتها . يمام ودراج ولقالق وبط وحباري وخطاطيف وورشان ، في عمق سماء متماوجة الأطياف . بغداد ، البصرة ، البحر ، كييف . أوزبكستان مدرسة الإعداد والتثقيف ، المصح . موسكو . بون .

حكاية سنمار القديمة .

يشرب لينسى لكن الأمواج تلطمه فيغوص من جديد في اللج العميق .

ـ ماالذي ارتكبت من حماقات ياالإيزرقاوي حتى تُدّمر في المنفى ! كنت قوياً ، مؤمناً بالحزب والوطن والمستقبل . كما كنت شجاعاً ، نذرت دمك للبلاد الضائعة ولمجد النجمة الحمراء التي كانت ستسطع في طول البلاد وعرضها .

لماذا حدث ذلك . لماذا ؟

وماكان قادراً على استيعاب أو امتصاص الصدمة .

كانت الأمواج عاتية ، والأشعة التي تنعكس على سطح الدماغ راحت تتحول داخل الأعصاب أشباحاً من الجن والعفاريت والثيران المهتاجة ، أصواتها تشرخ ماتبقى من نهوض الروح النقية .

ورأى نفسه كمن يقذف من ارتفاع عشرين ألف متر فوق سطح الأرض من بوابة طائرة ومظلته لم تفتح وهو يتأرجح كاللعبة في العراء السماوي .

لقد قذفوه من ذلك العلو الشاهق وهم يعرفون النتيجة .

لاأحد يذكر صوت الارتطام أو الصرخة أو صدى الطلقة . في تلك الليلة الهادئة ، البيضاء ، داخل الغرفة 231 من الطابق الخامس .

لكن ماسيذكر في الليالي التي أعقبت انتحار أو قتل الإيزرقاوي ، سيدوي صداه قوياً كالزلزال ، كما ستشاهد آثار جذامه في الأزمنة القادمة . أزمنة العيون المذعورة والأطراف التي ترتعد ، والوجوه المعلقة على أشجار المنفى ، والدماء التي ستلطخ الجدران والتراب ، بعد أن تتقدم جحافل الديمقراطي الثوري ، طرح التاريخ وقرش البحر : عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ، جراداً ، وسحالى ، واخطبوطيات وعقارب بحر ، وجعلان صحراوية ، وتماسيح مستنقعات ، وقططاً برية ، وكلاباً مسعورة ، وهيدرا ، وصباريات استوائية ، وكواتم صوت ، مجتاحة الأخضر من الزرع والخصب من الضرع ، معيدة الأرض إلى ماكانت عليه قبل الغمر ، رمالاً ، وأشواكاً ، وهجيراً ، وزماناً يباباً .

- 4 -

حصاد الدم سيأتي فيما بعد .

مع الندم والاستشهاد والانتحارات ، والاعترافات الخسيسة .

فتحت صرخات التعذيب وأزمنة الشتات ، ستأتي المرارات أشد وقعاً من القتل ، لحظة انبثاق عصور الوحش الهابطة من سماوات ماكانت مرئية فيما مضى . من معسكر الرشيد سيبدأ الحصاد الجماعي في أعقاب فشل التمرد الذي انفجر في مدرسة العرفاء العسكرية .

مئات المعتقلين من الضباط وصف الضباط الذين نظمهم عطشان ضيوي ، سيزجون في قطار سيطلق عليه اسم قطار الموت ، ليرسلوا إلى معتقل نقرة السلمان في صحراء السماوة .

قطار محكم الإغلاق ، أرضه طليت بالقار ، مخصص لنقل البضائع والحيوانات . سينطلق من بغداد في رحلة تستغرق خمس ساعات في الظروف العادية ، تحت قيظ الصيف الحارق .

سيُساق المعتقلون سراً ويوزعون مكبلين داخل المقصورات .

كانت التعليمات التي أعطيت للحراس أن يحكموا إغلاق النوافذ والأبواب ، ويتوزعوا في الممرات الخارجية بثياب مدنية ليمنعوا الخروج ، ويكتموا أية صرخة تخرج من الداخل .

كما كانت الأوامر السرية تقضي بأن ينطلق القطار في الضحى بحركة بطيئة . وتمويهاً للأمر جرى في الصباح الباكر نقل أمتعة وأكياس وصناديق فارغة وضعت في المقصورات الخلفية ، كما خصصت بعض المقاصير لجنود غير مسلحين من المخابرات العامة يرتدون سترات مزارعين وعمال ومعهم رزم وحقائب مموهة مليئة بالأسلحة .

على النحو التالي وضعت الخطة : يتحرك القطار في العاشرة نهاراً بعد أن تسطع الشمس ، وبعد ساعتين من الرحلة تحت القيظ والإغلاق المحكم للنوافذ والأبواب وغليان القار وحرارة المعدن ، يختنق المعتقلون داخل المقصورات في جوف هذه المصهر الجحيمي .

هكذا رُسمت خريطة الإعدام الجماعي بأعصاب باردة في مبنى القيادة العامة للمخابرات العسكرية ، عشية التمرد الفاشل للإستيلاء على الإذاعة ووزارة الدفاع . بعد الساعة الأولى لمسيرة قطار الموت ، ظهرت حالات من الاختناق والغثيان وهبوط الضغط الدموي . بدأ الأوكسجين

ينقص والهواء يتسمم ، وراحت الحركات المقيدة والأصوات الخافتة والمكتومة تتردد في المقصورات وكأنها ضجيج حيوانات موثقة ، نبهتها غريزة الحياة إلى أنها مرسلة إلى مسلخ . كانت الأرجل والأيدي والتشنجات العضوية والصرخات تضرب بعنف صفيح القار اللاهب والجدران الكاوية .

لكن المصيدة البشرية المصفحة جيداً ، كانت بلا منفذ . الأبواب وجدران الفولاذ متماسكة ، صلبة ، عصية مسامها وذراتها ومفاصلها على الاختراق . وعلى مهل فوق سهب أخضر ، موشى بالزرع والنخيل الباسق ، تحت سماء باهرة الضياء ، كان القطار الهادئ يتثاقل كالسلحفاة .

بدأ الحشد المساق داخل الجحيم إلى حتفه يتلوى ويترنح ويهوي ويصرخ ويتقيأ . وفي مدار النار المعدنية ورائحة القار والغثيانات التي قذفتها الأحشاء ، سُمع صوت غريب ، غامض ، شبيه بدوي رعد أو خفقة طائر جارح ينقض .

وكما يحدث بعد الصدمة الأولى لموجة بحر فوق جدار صخرة ، ابتدأت المقاومة . كانت الصرخة عميقة ، مشحونة بتلك القوة الخارقة للروح التي تقاوم انهيار الجسد . من الأعماق ولدت الشهب المضيئة للحياة الأقوى من الموت . كانت تضئ أصوات تشجيع وابتسامات ونشيد الأممية . بدا ذلك كأنه اعتراض سريالي مفعم بالضياء والفرح والغبطة ، يتدفق في مسام الأجساد الحارة والناضحة بالعرق ، قذفته روح جماعية ، ملتحمة التحام الفولاذ ليقف سداً لايقهر في مواجهة وحش الموت .

توقف القطار في الديوانية ، المحطة الوسطى بين بغداد والسماوة . كانت أنباء القطار قد تسربت إلى شيوعي المدينة قبل الإنطلاق من العاصمة .

وخلال الاستراحة القصيرة أُخبر سائق القطار بالمؤامرة التي يجهلها : قطارك مليء بالمعتقلين الذين سيموتون خلال ساعتين اختناقاً إذا ماواصلت هذه السرعة البطيئة .

ـ ولكنني أحمل بضائع وركاباً . هذا ماقيل لي !

ـ انظر إلى حركة الحراس حول القطار وفي الممرات الخارجية . سراً دار الحوار بينه وبين رجل غريب لايعرفه .

ـ قطارك يحمل ألف انسان أغلقت عليهم المقصورات ليموتوا في الطريق .

كانت حركة الحراس ونظراتهم مريبة . لم ينزل من القطار أي مسافر كما لم يصعد أحد . داهم السائق ارتياب وباغته شعور قابض للقلب . أيكون مخدوعاً حقاً ؟ وهل غرروا به ليتحمل زهق هذه الأرواح البشرية المحاصرة في قطاره ؟ كان الرجل الذي انفرد به منفعلاً ، يرتعش وهو يرجوه أن يصعد إلى القطار ويسرع قبل أن تحل الكارثة . لقد أقسم له بالله ورسوله وكتابه أنه صادق ، وسيتأكد من الأمر فيما بعد : صدقني . أكثر من ألف روح انسانية بين يديك . بالإمكان أن تنقذهم إذا ماأسرعت . إنها عملية اغتيال جماعية وستحمل وزرها يوم القيامة . تحرك السائق نحو العربات . كان بودّه أن يتأكد إذ يسمع صوتاً أو جلبة داخل المقاصير المغلقة . باغته رجل لايعرفه : ابتعد من هنا . بادره السائق : أنا قائد القطار . أنت من تكون ؟ وقال الرجل : ليس هذا من شأنك .القطار يحمل أسلحة والاقتراب ممنوع .

بين الحلم واليقظة أدرك السائق أن هناك سراً غامضاً ، وأنه واقع في شرك هذا الغموض .

ـ أسلحة أم معتقلون . ياللعنة ! قال لنفسه وهو يندفع بسرعة نحو عربة القيادة .

ـ فيما بعد سينجلي الأمر . هجس وهو يطلق عداد السرعة إلى أقصاه .

كان القطار يخترق السهب مضاعفاً سرعته . سباق الموت والحياة في اللحظة التي هبط فيها على السائق وحي أوحى له بأن قطاره ليس أكثر من تابوت مصفح ، وضع فيه بشر سيسوقهم إلى المقبرة .

كان الآن ، وهو في اندفاع قطاره المتعب ، يراهن بقوة لامرئية توهجت في أعصابه ودمه ، على الوصول قبل ساعتين إلى محطة السماوة .

إلى أن يموت وتطويه الأرض ، سوف لن ينسى سائق قطار الموت ذلك المشهد الشبيه بيوم الحشر والقيامة ، لحظة ماوصل قبل الموعد المحدد وفتحت الأبواب للموتى ، فانهاروا على أرض المحطة خارج أحشاء الجحيم .

كانوا في النزع الأخير ، مبللين بالعرق والقيء والشحوب والغازات

الخانقة والدوار وغياب الوعي وسواد القار .

رآهم يهوون كما تهوي الطيور المهيضة وأكياس القش . يتنهدون ويئنون ويتململون صائحين بأصوات جارحة مكتومة : الماء . الماء . الماء .

ـ مازالوا أحياء . قالها السائق لنفسه وهو يقتعد رصيف المحطة ، مشروخاً بصاعقة المفاجأة التي ستذهب بنصف عقله فيما بعد .

من خلال دموعه التي انهمرت ، رأى الأهالي الذين وصلتهم الأخبار ، كيف اندفعوا بجرار الماء المثلج ليسقوا العطاش المشرفين على الهلاك .

كما رأى تحت ظلال الدمع أطباء وممرضين يهبطون من سيارات الاسعاف ، ويهرعون لاستقبال الموتى . كان هناك عشرة رجال نَفَقوا . حُملوا على المحفات نحو سيارات الاسعاف .

بوغت وهو يرى الطبيب يصرخ بالأهالي : ابعدوا الماء عنهم !

ذعر من هذا الحكيم اللعين الذي يمنع الماء عن الرجال الأحياء . صحا من شرارة الصدمة ثم اندفع كالمجنون نحو الطبيب المشرف . أمسكه بقبضتيه من رقبته وصاح : أنا أنقذتهم من الموت وأنت تريد قتلهم . أهذه انسانيتك ؟

دفع الطبيب قبضتي السائق : اسمع يامخبل ! الماء المثلج يقتلهم . أحضرنا لهم ماء ممزوجاً بالملح لتنضح الأملاح المترسبة في الخلايا . الآن انتهت مهنتك وبدأت مهنتي .

واستطرد الطبيب : صح أنا طبيب أما أنت فتساوي ألف طبيب . لقد تحديت عزرائيل أيها الرجل الطيب وانتصرت عليه .

في أعقاب الانقلاب الجديد ، وقبل أن تتقطع أشلاء سلام عادل السكرتير العام بيدي عبيد الله الكلبي بدءاً من جدع الأنف إلى قطع اللسان بالحرية العسكرية ثم سمل العينين والتمثيل بباقي الجسد ، تحت هدير الضحكات والشماتة بأفول شمس الشيوعية ، وانبثاق قمر الزمان القومي التيّاه كأمير في سماء صحراء التيه ، سيقول السكرتير العام كلمة مأثورة فات أوانها : إن الإنقلاب الحقيقي لم يقع في العام 1963 ولكن في العام 1959، إن عبد الكريم قاسم والبورجوازية العراقية هم الأبطال الحقيقيون للإنقلاب .

وقبل أن تتقدم جحافل اللوياثان ، في أعقاب فشل بؤرة الأهوار ،

سيقول قائد آخر من قادة الكفاح المسلح : إن تسريعنا بالكفاح المسلح غير المجهز جيداً سيقطع الطريق بانقلاب عسكري قادم .

فرانكو أو كورنيلوف جديد ، أحدهما كان الآن في الطريق إلى وزارة الدفاع .

* * *

داخل غرفة معزولة في بونه الواقعة على مشارف المحيط النائي يكتب مهدي جواد في اليوميات : عالم قديم يهوي . أجيال قديمة ملتاثة بجراثيم الصحراء . مخبر تجريبي للزمن . آلاف بل ملايين الكريات تفقد حيويتها وخاصيتها الخلوية مع الدورة الدموية . لكن الدم يجري .

اللوحة البيانية تشير إلى هبوط في النبض . لكن القلب مايزال ينبض

الأسود . الأسود . غازات في الرئة . هواء ملوث والقلب يتنفس بصعوبة . إن الأعضاء المتضامة تتفكك في هذه البرهة المفلتة من عقال الزمن .

متى تغرب هذه الشمس الصحراوية الكاوية عن سماء القلب المنفطر !

ـ 5 ـ

المدينة والمرأة .

في أعقاب اليقظة الضوئية للبحر .

داخل المنفى الجديد القادم .

الزوجة والرحم المفقودان . المفقودان أبداً ، واللذان لن يكونا بعد اليوم .

وفي تلك الأزمنة سيكون الاقتراب من المرأة محفوفاً بالخطر والاستحالة ، وبالتوق الدموي المستبطن الذي لايصل .

ولأن الالتباس سيتضوع أبداً في تلك الأزمنة ، فلا يعرف الرجل ماذا سيكون ، ولاماذا يفعل في تلك المدينة ، ولماذا جاءها ، لذا سيظل واقعاً في مدار ارتباك المدينة والمرأة ، داخل طيف الهجس السري ، الغامض ، والخارج منهما .

مدينة غريبة وقديمة . وامرأة غريبة ، عصية على الامتلاك ، حلم

بهما في الليالي ، ثم ترسبتا في الأعماق كلآلئ البحر ، رآهما أو حكتهما الجدة . سيرة بني هلال وتغريبتهم نحو بلاد المغرب غب داهمتهم المجاعة والجفاف وانحباس المطر ، فاندفعوا عبر الصحارى والمدائن شوقاً إلى أرض آمنة وسماء مطيرة وعشب .

ذلك الحلم القديم ، قرب النار المتقدة ، في البيت العتيق الذي تهدم ، كان يقرأ مجراوية الزير سالم والتغريبة . بلاد الخصب والرعي والحرب والنساء ، تتلون شفقاً في الأصيل فوق بحر مزهر بملايين الألوان ، يأخذ الذي يرى ويقرأ نحو البلاد السعيدة . البلاد الفرحة التي تسافر الشمس نحوها لتختبئ بين الغابات الخضراء وفي مخادع النساء العذراوات .

ولكن كيف امتزجت المدينة بالمرأة التي بوغت بها ذات غسق على أبواب مدرسة القديس أوغسطين !

وبونه هي بونه . هندسة العمارات والشوارع والساحات . المدينة المطوقة بالغابات والسهول والبحر وضوء الشمس الجارح .

وآسيا ، العملاقة ، الرشيقة ، الضاحكة ، عاشقة البحر والسفر ، هذه الضائعة بين الله والشيطان في غمرة فتوتها الأفريقية ، ماالذي مزجها بالمدينة في أعقاب طقس الذبيحة الأبوية . كيف تداخلا موجة وشاطئاً فوقع عارياً بينهما !

وفي تلك الأزمنة ومايتلوها ستكون المدينة مصمتة مغلقة ببكارتها . كذلك المرأة . كأنما تواطأتا في السر . كل منهما أعطت هامشاً ورائحة لكن مهبليهما ظلا محتفظين ببوابة الغشاء العصي على الهتك .

وعبر ماسيأتي من أوقات ستبدو تلك المرأة المعلقة في سقف مدينتها توقاً موسمياً يلون لوحة الطفولة الأولى ، لكنه لايندمج فيها . موج دافئ يغمر الشواطئ ثم ينحسر عائداً إلى أعماق البحر .

وهذه البونه مدينة اسلامية لاترحم . عيون من النار والفولاذ . مدينة بربرية تتمخض ببطء من رحم الصحراء ، زاحفة نحو الشواطئ . آن شمسها الأفريقية الحادة تضرب الرأس كسهم ناري فتتوتر الأعصاب فيصاب العقل بجرثوم الشهوة والقتل . الغيتو الاسلامي المظلم يتمدد كحيوان ديناصوري يتأبى على الانقراض . عندما هبط ثوار حرب التحرير من الجبال المصبوغة بالدم ، كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى . كل مجاهد علق على صدره قرآناً عربياً . كان بمثابة الرقية ضد

رصاص المستعمر الصليبي : الشيطان الذي أكل الزرع والحليب وعناقيد العنب ، والبرتقال ، واغتصب البيوت الجميلة والنساء الجميلات والشواطئ الجميلة . حدث ذلك خلال مئة واثنين وثلاثين عاماً من الذل والعار والاستلاب والإفقار والانتهاك . وآن رَسَت البوارج الحربية في ميناء سيدي فرج ، لم تكن محملة بالكتب والأشعار وقوانين حقوق الانسان وثورة اليعاقبة .

الآن هاهم ينحدرون من الذرى والكهوف والغابات نحو مدنهم المنهكة . المدن التي هُجرت وأضحت خراباً . خلال أسبوع ماقبل الرحيل ، أحرق جنود منظمة الجيش السري O. A. S المدن . اغتصبوا النساء والصبايا العذراوات ، وبالديناميت دمروا المؤسسات التي بنوها . كان ذلك أسبوع الرعب والدم . هكذا بدت أرض البترول والغاز والقمح والبرتقال والزيتون والعنب ، وماسمي آنذاك الإقليم الشرقي لفرنسا الجنرالات ، يبابا .

السنوات السبع العجاف .

وهم الآن يحترقون شوقاً إلى منازلهم . إلى الراحة والدفء والحليب والقهوة . الأجساد التي أُنهكت من صعود الجبال والنوم فوق الأرض الرطبة وأوراق الشجر ، تطلب سريراً وامرأة وخبزاً طازجاً ودفئاً .

الذين حرروا المدن يستحقونها .

المنازل البيضاء والمقاهي والساحات والشوارع .الشمس والتراب والخبز والنساء ، تعود لأبنائها الشرعيين . المحاربون الآن بعد عشر سنوات من الضنى والمطاردة والصراخ وشلالات الدم ، يستريحون تحت شجر بونه ويتمددون في هواء الحلم .

والحرب الآن ذكرى أو طيف .

حكايات أسطورية عامرة بالحنين القديم . حنين بطولي حافز للدم توشيه البروق والغبطة والزمان الصعب . لكنها مريرة مغموسة بالسم . هكذا يستعاد الألق القديم .

وهاهما : الرجل والمرأة ، يعبران ساحة المدينة المحررة ، المشجرة بالدردار الأخضر . يعبرانها وبينهما مسافة خوف .

كخلية نحل يتمور العنابيون تحت شمس الأحد . سعداء ومتدفقون بحيوية يوم صاف . على كراسي مقاهي الأرصفة والمقاعد الرخامية ،

يضوضئون . ضحكات ملعلعة . كلمات بذيئة تطلق على مؤخرات النساء المرتجة : ترمه تكفي طابوراً . لو أطيح فوقها لأخترقها مع الأرض .

إنهم يشربون بيرة الكروننبورغ وقهوة الاكسبريس ويلعقون البوظة الحليبية ويدخنون الهقّار بشبق من يرضع ثدياً .

ـ ها . خويا . بربي نعرفها . لبوة عنابية .

ـ نصيح فيها ؟

ـ دليلة . هيا . هيا يا أختي .الولاد شعلت فيهم النار .

ـ حلوفة . قحبة . هم العرب خير منا ؟

إذ يقتربان ويعبران بين ممر كراسي القش ، تعلو الهمسات . تنقذف الغيرة وأشواق الجنس : ها . شوف أخويا شوف . لبوة بونية مع ذيب شرقي .

ـ بالسلامة .عضو الغريب حلو . وحق ربي كيما العسل الجزائري .

ـ خير الجزائر ينهبه الغرباء . حررناها يادين الرب وعلاه حليبنا يشربوا غيرنا . ديما هكذا . وعلاه !

ـ عنّابية خاينة . عشها مباح . أي طائر غريب يضع فيه بيوضه .

ـ واش . واش . قضيب الجزايري كيما الحديد السخون .

ـ هذه الفحلة الطويلة . قتلتني . آي على ليلة معاها . عمرها لن تنساه !

ـ كل يوم مع هذا الحلوف العراقي ونحنا واش ندير هنا ؟

ـ راح الاستعمار الرومي وهاهو الاستعمار العربي يطيح فينا .

عندما يسأل مهدي مستفزاً عن هذه الغيرة ، تقول آسيا هازئة من الوضع : لماذا خيرهم يروح لغيرهم ! الأفارقة غيورون بطبعهم . رؤوسهم عامرة بالسكس .

ـ لكنني لست محتلاً كما يتوهمون !

ـ خطفت طفلتهم منهم تقول ضاحكة .

تتابع آسيا : فيما مضى أذلهم الفرنسي وحرمهم من كل شيء . كان يختار العذراوات الجميلات . أما الجزائري فكان محرماً عليه النظر إلى فرنسية حتى ولو كانت مومساً . لقد سلبونا كل شيء . هذه المدينة في أعقاب رحيلهم كانت أنقاضاً . لقد دمرها المظليون وجنود لاكوست لأنها

ماعادت لهم . خلال أسبوع فجروا الأبنية بالديناميت . أحرقوا المعامل والمزارع ونهبوا المؤسسات والحوانيت . كانوا يطلقون النار ويرمون القنابل على الأطفال والنساء والشيوخ دون تمييز . الشوارع والساحات كانت تسبح بالدم والجثث . وعندما رحلوا بدت المدن فارغة ، محروقة . أبوابها مخلعة وجدرانها مهدمة وسوداء . أنت لم تر ولم تسمع ماحدث . كل تلك الوحشية مغروسة كما النار في ذاكرتي . عمري كان عشر سنوات آنذاك . تصور أية طفولة جميلة !

فجأة داهمتها كآبة : اغفر لهم . أي غريب يتراءى لهم مستعمراً . لم يشفوا بعد من وباء الحرب .

اجتازا الساحة متسللين عبر الأزقة ، صاعدين الشارع المؤدي إلى الميناء .

عن الجسر المعلق لاح البحر .

وجه المرأة مغموم . انفجرت في الأعماق صور الحرب . هي الآن تضغط على جرح سي الأخضر . الأخضر الذي امتزج بشمس المدينة وهوائها وترابها وشجرها وخيباتها ، ثم أوغل في دم آسيا المحرور .

وهما متكئان على إفريز الجسر الحجري المواجه للبحر ، فكر مهدي جواد : كسكين ستفصلنا هذه المدينة اللعينة يوماً . جاءته الفكرة كبرق .

وكما تغلغلت الأسرة في أنساغ دمها ، هكذا المدينة .

وفي الوقت الذي هوّم في رأسه موت طيور الأهوار ، انفجر شيء آخر وتشظى : الله والوطن والأسرة .

لحظتها داهمه صقر جائع . انقض من قمم عارية ثم مالبث أن اجتث قلبه بمخالبه وعلابه سحيقاً نحو الجبال والغابات . بدا في عراء السماء وحيداً ومنبوذاً ، بلا إله ولاأرض ولارحم . كان مخطوفاً يتأرجح بين السماء والأرض . وكان يرى السماء والأرض مغلفتين بالبخار والسحب ، وهو المحمول خفيفاً وفائضاً في انصعاق الزمن ، وانصعاق المدن ، وانصعاق النساء ، وانصعاق الخليقة ، وانصعاق الآلهة .

انتبه لذراعيه المشتبكين على الإفريز الحجري ، ولرأسه المنكفئ بينهما . بدا الوضع مريحاً في لحظة النشور وحلم اليقظة . ولسبب لعين لايدرك كنهه رغب في تلك اللحظة لو يهوي الجسر إلى قاع البحر . يرتاح الجسد وتدخل الروح جحيمها الأبدي فلا يكون كل هذا الشقاء وكل هذا

الدمار الداوي في رأسه كخلايا النحل .

إلى الجحيم كل هذا الضلال .

ربتت المرأة على كتفه المحنية : أكانت ضلالاً هي الأخرى ؟

- إلى أين وصلت ؟ سألت وهي تمسح شعره .

ورأى ، وهو يرفع رأسه ، عينيها العصفورتين ، وورد خديها .

زنده احتك بزندها الناصع كانت هناك امرأة راسخة في صلابة الجرانيت وشموخ الأميرات ، تشع من بقايا جمرات الحلم القديم .

لفت الريح سحب الضلال فبدت الأرض الخضراء ، الصلبة .

خطفاً قبلها في زاوية شفتيها ، وهي منحنية عليه . دهشت ثم نفرت كطائر مباغت : متوحش . أية فضيحة في عزّ النهار !

- لماذا ولدتك أمك في عذوبة الكرز ودفء الطيور !

- يومًا . أيها الفاسق !

عندما صفعها على ردفيها براحة كفه ، ظهر من منعطف الطريق رجلان نظراتهما تطلق استفزازاً !

- حلوف . ألا ترى الناس ؟

- الرابية تدعو الأصابع .

- لاتختلف عنهم . رأسك بين فخذيك . هيا . هيا نتحرك قبل أن تتوهج النار .

غادرا الجسر ملتفين حول المدينة من جهة الغرب . أخذا كورنيش البحر ، ثم أدغلا تحت شجرة الدردار . على يسارهما الفيلات النظيفة البيضاء المغطاة بسطوح القرميد ، والمسوّرة بعرائش الورد والمصطكي . فيلات المعمرين البورجوازيين . لأول مرة ، في عبورهما النشواني ذلك الغروب ، تثار مسألة العلاقة الأخرى . مهدي هو الذي سأل آسيا إن كانت عرفت جزائرياً من قبل . ضحكت وقالت بفرنسية أنها تعرف أن السؤال كان في سقف الحلق منذ زمن . وسأل الرجل بدهشة : لماذا ؟ وقالت : لتطمئن النفس أن الشرف بخير والنبع لم يلغ فيه آخر .

وضحك الرجل وهو يرمم جثة البدوي فيه : لكنني ملحد كما تعرفين . الشرف والبكارة وأخلاق العربان في مؤخرتي من عشرات الأعوام .

ـ من يسمعك يغشى عليه من الضحك . لماذا كنت تكفهر لدى ذكر كلود الفرنسي ؟

كانت تعيد الآن حادثة المهندس وزوارق البحر الشراعية .

حاول إيضاح الأمر ، والأوهام الملتبسة فاعترضته : من يحب يَغَرْ . هذه غريزة الملكية . إنها كالدم . ثم استطردت بحنق : اسمع . أنا أحبك وأريد أن أمتلكك وأية قحبة تقترب منك سأذبحها . هذا مايقوله لي دمي . أنت لي وحدي ولست لامرأة أخرى .

ـ وإذا ماعشقت عليك سراً ؟ قالها بمزاح .

وردت : ولماذا تعشق تلك العاهرة مادمت أكفيك ؟

تحت شمس بونه البيضاء ، قرب حافة البحر ، كان يطوقها ، ضاغطاً خاصرتها الاسفنجية ، الرطبة . سماء صافية ، وريح حرير تمسح وجهيهما .

امرأة عملاقة . جسد في صلابة جذوع الصنوبر ونداوة العشب .

ومدينة غامضة ، عذبة ، بيضاء ، وخضراء . تدلي ذوائبها في البحر .

* * *

قالت : هنا مكان هادئ ومعزول لايدخله العرب . دعنا نتناول شيئاً فيه . كان المطعم مرمى في الطرف الشرقي للمدينة مواجهاً للبحر . دخلا الممر الرطب المغطى برمال ذهبية ، ثم ولجا الباب الزجاجي . الموائد فارغة ونظيفة . في زواية جلس أوروبيان يشربان البيرة .

كانا الآن خارج طوق المراقبة والعيون التي تطلق الغيرة . وهما يجلسان قرب النافذة البلورية ، همس لها أن تتكلم مع النادل بالفرنسية . كان المطعم خصوصياً ، وأنيقاً ، محرماً على الرعاع العرب . طلبت بالفرنسية بيرة وعصير ليمون . سألها النادل العربي بالفرنسية إن كانا يرغبان طعاماً فأجابت بتهذيب : فيما بعد .

كعادته ، عندما يكونان معاً على انفراد ، أشعل سيجارتين وناولها واحدة . من وراء الزجاج بدا البحر مصقولاً كرداء حريري وفوقه تلمع أشعة أصيل عذب .

موسيقا المطعم خافتة ، مريحة للأعصاب . لعلها كونشرتو لخاتشادوريان تنساب وتضيء ، تعلو وتهبط ، كطائر أبيض يتموج في

سماء مشمسة فوق محيط أزرق .

في هذه اللحظات يأخذ الصمت مع الموسيقا شكل ريح تتموج في حقول حنطة خضراء . حقول مديدة أبعد من مدى النظر . أمواج . أمواج . انحناءات . ارتعاشات وخفقانات تبدأ من النسغ ثم تصعد حتى الذؤابات العالية لشعر السنابل .

آسيا بوجهها الدافق المنحوت ، وشعرها الأصهب ، وهذا النهوض المتلع لعنقها ، وفمها الطفلي ، لكأنها معبودة قديمة نسيتها الآلهة وانحسر الموت عنها .

وهما يشربان على مهل ويدخنان ، انهمر عليهما الأمان .

ظللتهما سحابة من الغبطة ربما ولدها المكان النائي .

في استنادها إلى الجدار ، ونظراتها التي ابتعدت ، تبدو هذه الطفلة معشوقة أكثر من أي وقت مضى . إنها حقيقية كهذا البحر وهذا اللمعان المبهج للأشياء .

المرأة ـ الملاذ في لحظة اضطراب الأرض واهتزاز الكواكب .

وكما قالت له يوماً : دائماً سأكون معك حتى تملني . هاهي الآن . لاتغيب إلا لتشرق . نضرة أبداً وحيوية كالبحر .

لم تشوّه بقتل أبيها ولابفقدان اللغة ولابدمارات الحرب والتعذيب ، تبدو له الآن .

لكم تُرى جميلة ، هذه الطفلة المشاكسة ، وهي تنهض من حطامها بذاكرة مضيئة وأمل متوهج . يراها من خلال غلاف البحر وعشقه المجنون .

تتذكر كل الإهانات القديمة والأسى ، لكنها تنظر إلى الأمام بثقة غير عادية ، وعندما يسألها عن هذا اليومي والراهن ، هذا العفن الساري ، تقول بأنه عارض وبالإمكان تخطيه : انظر إلى الأمام . أحد مافي هذه الدنيا ماكان يصدق أن فرنسا ستخرج من هذه الأرض ،لكنها خرجت مرغمة ، لاشيء يبقى على حاله .الدنيا جميلة رغم الشقاء .

ـ أنت متفائلة . وهذا حسن .

ـ أكيد . أرضنا عذراء وغنية وشعبنا مايزال في فجر فتوّته . عندما يقولون عنا أننا صعاب وعنيدون فهذا يعني التصميم والإرادة ودحر الموت .

ـ ولكنك ترين إلامَ انتهت إليه الحرب ومن الذي خطف النصر !

ـ أعرف . أعرف ولكنني أعرف وتعرف أن هذا لن يدوم . ليس أبدياً .

ـ هل تعتقدين أن حرباً أخرى ستأتي ؟

ـ أية حرب ؟

ـ حرب داخلية مثلاً . حرب طبقات أو حرب أهلية !

ـ قد تأتي وربما لا . أنا أهدر عن التطور نحو الأفضل ، عن إمكانيات الشعب وإيمانه بالمستقبل .

ـ أتذكر أنك حدثتني مرة عما حدث عشية انقلاب بومدين على بن بيللا كيف خرج الشعب يهتف باسم بن بيللا وكيف تصدى العسكر للشعب بالرشاشات في شوارع بونه وساحاتها .

ـ بلى . بلى . لقد كتبوا بالدم اسم بن بيللا والجزائر على الجدران .

ـ لكن الجيش قهر الشعب بالرصاص !

ـ يومذاك كان الشعب أعزل . لم يكن بيده سلاح .

واستطردت وهي تطفئ لفافتها وتسحقها في المنفضة : اسمع . أنت قدتني إلى نقطة أخرى . أنا لم أكن أعني العراك والقتال الأهلي بقدر ماكنت أعني التقدم والتطور . العلم والعقل وتشييد جزائر جديدة غير هذه الجزائر الخامجة .

لابد أن ندل المطعم ومن خلال الحوار خمنوا أنهما من الرعاع الذين لايسمح لهم بالدخول إلى هذه الأماكن الخاصة والمعزولة .

بنظرات مريبة ممزوجة باحتقار ضمني ، كانوا يمسحونهما .

وقال مهدي هامساً : أرى أن نطلب شيئاً للأكل يبدو أننا أثقلنا عليهم لقد كشفونا مارأيك ؟

ـ ليس ضرورياً ، طيز أمهم خليّهم يولّوا . قالت العبارة بنزق .

ـ لا . نطلب همبرغر وبطاطا مقلية .

ـ كيما تريد .

ـ نادي النادل واطلبي مع الطعام نبيذاً . قرعة صغيرة .

خلال تسجيل الطلب ، راحت آسيا تسأل النادل بالفرنسية عن أحوال المطعم ومن يملكه وروّاده ، وهل هو مخصص للأجانب فقط ، وماهي

أوقات افتتاحه وإغلاقه . ورد عليها بتهذيب واقتضاب وانشراح باد ثم انتقل بحركة تمثيلية مفتعلة باتجاه المطبخ .

ـ أعتقد أننا تصرفنا كجنتلمانين . قال مهدي هازئاً .

افترت آسيا : صاحب المطعم جزائري يعيش في فرنسا . الإدارة هنا فرنسية ـ جزائرية . والمطعم خاص بالمهندسين والخبراء الذين يعملون في مصنع الحديد والصلب . يأتونه في العشاء مع صديقاتهم أو زوجاتهم .

ـ منزعجون من وجودنا ؟

غمزت ببوزها امتعاضاً : إلى الشيطان . دعك منهم . المهم أننا طلبنا وسندفع .

ـ ولكن أنت يبدو أنك تعرفين المكان ؟

ـ بلى . لكن لم يخطر لي أن أسأل من قبل عن مثل هذه الأمور .

ـ أيام كلود . قال لنفسه .

ولكنه زمن مضى . وأنت لست حارساً أخلاقياً ولامتعهداً للعفاف والشرف . وحتى لو كان فرنسياً أو يهودياً أو شيطاناً ، أنت ماعلاقتك بالتاريخ الشخصي . لكنها أوحت إليك أنها لم تحب فيما مضى . وها أنت تكتشف أنها والمهندس الفرنسي كانا يأتيان سراً إلى هنا . ياللعنة أبداً يكذبن في هذه الأمور !

فاجأ نفسه متلبساً داخل مقبرة الأسلاف ، يتقرى الشواهد ، باحثاً عن عظام النقاء والعفة والوضوء . البقايا التي خيل إليه أنه دفنها في الصحراء وبال على ترابها .

«أوقف هذا الهراء القديم . أوقفه يامهدي بن عبد المطلب الديناصوري الحميري» . قال لنفسه وهو يرى زجاجة النبيذ الأحمر محمولة فوق صينية من الفضة البراقة . صب النادل في قدحه رشفة التذوق . أثنى على جودة النبيذ . ثم صب لهما نصف كأسين . لاح مرأى النبيذ شفافاً كوردة حمراء تلمع طافية داخل كأس كريستال . رفعا كأسيهما ثم قارباهما بنبل تمثيلي يختزن سخرية . صدر رنين خافت من حواف القدحين : في صحة حبنا ! ثم شربا من الحافة برشف عصفوري يليق بنظافة المكان والرقابة المسلطة على رعاع الدرجة الثالثة .

ابتسم مهدي وهو يمص شفتيه .

ـ ها . غمزت آسيا . ماهنالك ؟

ـ تذكرت ، وأنا أشرب الآن كأنني أشم رائحة وردة ، كيف كنا نشرب النبيذ فيما مضى . وروى لها كيف كانوا يخرجون إلى البراري وضفاف الأنهار ومعهم جرار النبيذ ، واللحم ، والسمك ، والخضار . فوق العشب ينشرون مؤونتهم . جماعة مختصة للإشراف على وليمة شي اللحم والسمك ، وأخرى للخضار والسلطة . هو مع جماعة ثالثة لتحضير النبيذ داخل زير كبير من الفخار يوضع حتى يبترد في جوف الرمل النهري ، وعندما تبدأ الوليمة يتناول كل كأسه وينضح به من القدر على الطريقة السبارطية : كنا نعبّ النبيذ كما تعب الخيول الماء . ومن يسكر يقذف بجسده أو يُقذف به إلى النهر حتى يصحو ويعود من جديد . كانت احتفالات بدائية لوحوش جميلة تحب الحياة الآن انظري كيف نشم رائحة النبيذ كأنه طوق ياسمين !

ـ العراقيون والجزائريون يتماثلون . شهوة عارمة للمرأة والخمر والشجار دونما حساب للربح أو الخسارة أو الموت . عصبة مهابيل .قالت آسيا .

جاء النادل بالهمبرغر والبطاطا المقلية وسلطة الخس .

طلبت آسيا مايونيز وخردلاً وزجاجة ماء . كان واضحاً لهما أنهما مُهملان ، ينبغي الخلاص منهما كغريبين من الصنف المنحط الطارئ .

وليثبتا أن بإمكان الرعاع ألا يكونوا رعاعاً ، كما تشير اللائحة الطبقية ، بدآ يأكلان بتقنية مدنية ذات إيقاع فيزيولوجي كاتم للحساسية والصوت . كانا يمثلان دوراً هزلياً صامتاً في حركات اليدين وقطع اللحم والمضغ واحتساء النبيذ المهذب .

لكن آسيا ، خلال انحسار المراقبة وابتعاد الندل عنهما ، راحت تطلق شتائم بذيئة صامتة ، مصحوبة بحركات إيمائية ـ جنسية موجهة نحو الندل ومدير المطعم الجاثم كالكردن وراء مكتبه الأنيق . بصعوبة كان مهدي يكتم قهقهات على أبواب الانفجار .

بعد الكأس الثالثة ، تراءت لها وجوههم شبيهة بوجوه القردة تارة ، أو الحرباوات ،والسراطين تارة أخرى .

ـ انظر إلى أنوفهم وأصابعهم وذقونهم المهدلة كقضبان عاجزة عن الجنس . إنها تنتظر رنين الدراهم لتنتصب إلى الأعلى . عيون مليئة ببيرقات الأفاعي وروث الخيول . قل لي ماالفرق بينهم وبين بهلوانيي

السيرك . حقاً قل لي !

إنها تتحدث برشقات شبه مسموعة . رشقات متواصلة أطلقها بخار النبيذ .

بين كتم الضحك الصاعد إلى الحنجرة ،ورائحة الفضيحة ، غص مهدي فانفجر بالسعال . سعال خرج من أسفل البطن ، نثر على المائدة شظايا طعام ونبيذ . هرول النادل قاذفاً منديله البيض عن ذراعه وراح يمسح بعصبية واشمئزاز النثار المختلط .

ـ بامكاننا مساعدة أنفسنا . هل تستطيع أن تبتعد . قالت للنادل . انكفأ متراجعاً .

ـ أووه . ولكن هذا لايليق .

ـ كن مهذباً . آ . لسنا سكارى . قالت بالفرنسية ثم عقبت بالعربية : حلوف . انصرف إلى زريبتك في حديقة الخنازير .

كانت ترى من مكانها وجوه الندل والمدير المتجهمة وقد اكتست بوحل الاشمئزاز . بغتة أخرجت لسانها باتجاههم وراحت تبربر بخليط من البربرية والمحلية والفرنسية .

ـ خذ ماء مهدي . ولكن قل ماذا جرى ؟

ـ هل يمكن أن تكفيّ قليلاً عن هذه الحركات ؟ لقد أخرجتني عن طوري . قال ذلك بعد أن شرب الماء ومسح فمه .

ـ كانت اللقمة في البلعوم عندما بدأت تلك الحركات اللعينة . لماذا لانخرج ؟

ـ لم تنته المسرحية . مادمنا سندفع لأولاد العاهرة هؤلاء اللقطاء ونحن لانعجبهم فلماذا لانمسخرهم ؟

ـ ولكن هناك إنذار فضيحة . لقد أثبتنا رعاعيتنا ولم ننجح في تمثيل الدور الآخر . كان مايزال يسعل بجلجلة أخفّ والمنديل على فمه .

ـ انظر . .

وقاطعها : آسيا يرحم والديك . . إذا عدت إلى التمثيل فسوف أنفجر . دعينا نكمل المسرحية في الخارج قبل طردنا .

كان رشيقاً . كأنما على أهبة الطيران . ماكان منزعجاً ولامضغوناً من حركاتها . إنما ولدت في الأعماق رغبة عامرة في الصياح والضحك . الصياح والضحك المعتوهان .

كالطفلة الراغبة في اللعب ، هكذا كانت تبدو . من زمن بعيد غادرت حديقة اللعب . كان وجهها يكتسي شفقاً ذهبياً منارا بأضواء طفولة أشعلها النبيذ الشفاف الذي لاعهد لها به .

ـ آه . كم أنا فرحة !

بعد اجتياز ممر الرمل الخارجي ، وثب مهدي في الفضاء . تناثر الضحك المكبوت كطائرة ورق حملتها الريح فجأة .

استدارت آسيا نحو المطعم ، وبحركة جنسية قذفت زندها : خذوا . هذا لكم جميعاً يالقطاء لاكوست .

رنت جلجلات الضحك صنوجاً نحاسية فوق كورنيش ومياه البحر . تلاقى جسداهما في نصف دورة تحت الغروب الشمسي وهما مطوقان ، ثم اندفعا يجريان على حافة البحر .

النبيذ والهبوب الناعم للريح وماحدث في المطعم ، كانت تتغلغل أمواجاً من الغبطة . النشوة التي تهبط فجأة من فضاءات غامضة لتكتسح ضباب الأسى والشقاءات القديمة .

ماأبهج الحياة في ظلال امرأة عاشقة ! تسرّ النشوة الهابطة كموجة بحر في ضحى الأصياف القائظة .

أحدهما كان يغني والآخر يرشق حقول البحر بالحصى .

كانت التلال الخضراء المواجهة للبحر تتلألأ بنجوم الزهر الأصفر والبنفسجي ، وفوق خط الأفق البحري خفقت أسراب من البط المهاجرة على شكل مثلثات مضّلعاتها مفتوحة من الوراء .

خلال لحظة ، شعرا بالشرود . بغتة كأنما سهم سرّي هبط من أفق غامض ، رشقهما انضما كطفلين مذعورين في غابة .

ـ لنظل معاً .

ـ أنت خائف ؟

ـ مضطرب . هذا الذي نحن فيه في عذوبة شيء لايسمى .

ـ كيف لايسمى ؟

ـ حالة مابين خفقه الجنس والموت . أرغب أن أحتفظ بك هنا . إنني أخفق بك كجنين . هذا ماإسمه ؟

ـ يا . . كنزي . ياطفلي الضائع . سأتبعك كهذه الطيور الراحلة نحو البحيرات المتجمدة .

بدا الجسدان المتماسان مائلين تحت اشتباك الزندين المطوقين للظهر والخاصرة ، بينما كانت الأصابع متوهجة على حواف الصدر . توأمان في انحناءة الرحم أمام المداخل الخضراء للبحر .

آنذاك أو فيما بعد ، سيستعصي عليهما معرفة المواطن أو الكهوف التي انطلقت منها تلك الطيور الغريبة التي تشبه الخفافيش أو الغربان ، أصيل ذلك اليوم الذي بدا خارقاً في عذوبته .

كانت تلك هي المرة الأولى بعد عامين من علاقتهما ، تحكي فيها آسيا عن شخص آخر في حياتها .

ستكون الدهشة ـ الصدمة أن الأمر حدث في ذلك الأصيل وهما في قمة الغبطة .

بدأت الذكرى من اخضرار عينيه الصافيتين كهذا الماء .

مجيد بلقاسم . شاب جزائري ناضر الوجه ، أشقر الشعر يدرس الطب في باريس . تعرفت عليه على شاطئ شطايبي ذات صيف ثم اصطحبها إلى المطعم اللاكوستي ـ هكذا بدأت تسمي المطعم الذي خرجا منه للتو ـ في المطعم وعلى الشاطئ تحدثا طويلاً عن باريس والجزائر . عن العرب والأوروبيين . الأرض والظلام والشمس ، كما عبرت على لسانه .

ـ لهذه الأسباب أعتقد أنني كرهته فيما بعد .

ـ أية أسباب ؟

ـ الاغتراب . كان مستلباً يكره بلاد العرب . كان يسميها بلاد الظلمات .

هل كان النبيذ الطيفي هو الذي راوغ الذكرى وباح السر القديم ؟ أم أنها ألعاب الغيرة للطفلات الصغيرات اللواتي يحلو لهن العبث والمراوغة ؟ أم هو الحنين المغناطيسي لأصيل عذب يشق زهرة الروح ؟

في ملامح وجهها المندى برطوبة المساء ، لم يلمح المكر أو استثارة الغيرة . لابد أنه البحر وظلال الغروب والمكان ، هيجت الذكرى ـ الرائحة على شكل موجة عابرة مالبثت أن تبخرت !

هبط الصمت من فضاءات غامضة في ذلك المساء المنعش . صوت الأمواج وهي تلطم الصخور وترتد ، وحده كان يخرق الصمت .

بغتة ذعرت الطيور في الغابة . انحلّ الطوق تحت تأثير الأصوات

الغريبة وهذا الهيجان العميق للأرض والبحر معاً . اهتزا برعشة سرّية فصلت الأصابع ومسام الجسدين .

المرأة والرجل الغريب ، وبينهما المدينة .

وكما يرى رجل منوّم رأى في ذلك الزمن القديم أرضاً مخددة شققتها حرارة الشمس . أرض العبور والحرائق والشهداء والشهوة والزلازل والصلصال القاتم .

وهو يعبرها في هذا الغسق الأسي ، كان يتساءل : لماذا هو هنا ؟ ماالذي جاء به إليها ؟ بدت آسيا لخضر مضيئة وبعيدة كنجمة المساء في ذلك السهب الأغبر .

ـ لاجدوى . لاجدوى . الضلال أيضاً أيها الذئب التائه !

تشير المرأة المفصولة نحو حديقة مسورة سمقت أشجارها قرب البحر : المقبرة . إنه يسكن هناك .

ينفض رأسه ليخرج من ضلاله اللعين ، فيرى الصنوبر والسرو والعرعار أشجار الجبل جاءت إلى المقبرة . أشجار باسقة في فضاء بارد تظلل القبور تتراءى الغابة الصغيرة مدثرة بالريح والظلام داخل سلام خاص يجللها والأضرحة .

ـ لقد أعطوا الشهداء مقبرة وأعطوهم الأشجار .

ـ وأخذوا الوطن !

ينبثق شهاب لامع في بهمة الليل ثم يترمد في قاع الأرض .

ذلك الحوار الخاطف المنوّم ، اكتسى أساه من الانعطافة المباغتة نحو مجيد بلقاسم وسي الأخضر ومدينة الحرائق .

* * *

يكتب بشير حاج علي : في اللحظة التي كان فيها العربي بن مهيدي وموريس أودان وعلي بومنجل يلفظون أنفاسهم تحت التنكيل ، كان بعض ممن ينتسبون لجبهة التحرير الوطني يعذّبون في السراديب الباريسية ، وفي حي القصبة الجزائري ، بعض المناهضين للثورة من أتباع مصالي الحاج والحركيين . كذلك كان العكس يحدث : بعض الثوريين والمثقفين والشيوعيين كانوا يُذبحون في بعض ولايات جيش التحرير . كان ذنبهم الوحيد أنهم مثقفون أو شيوعيون ، وفي ذلك الوقت كانت أنوف بعض القرويين تجدع لأسباب تافهة» .

وفي ذلك الزمن ، زمن الموت والاضطراب . ذُبح الكومندان لزهر شرايطي على الحدود التونسية بأيدي رجال الكولونيل محمد بوخروبة . لزهر الذي ضاع قبره في العراء ضياع قبور الحرس القديم ، يوم حلم في أقاصي الأوراس بتشييد كومونة فلاحين وجنود . كومونة مشاعية تعمل وتقاتل لاأحد فيها يملك أو يستغل أو يضطهد .

- 6 -

من المدرسة إلى البيت . ومن البيت إلى المقهى . ومن المقهى إلى زوغان الشوارع . ومن الشوارع إلى شطآن البحر . ومن الشطآن إلى المنازل . ومن المنازل إلى أحلام التعويض ، حياة تدور حول ذاتها كما يدور خذروف .

عشر الزمن في العمل . والتسعة الأعشار ، تتبدد . استرخاء ، ثرثرة ، كحول ، بيع وشراء ، أكاذيب يومية ، تلفزيون ، رياضة ، مضاجعات ، أكل ، نوم ، وحماقات أخرى سرية يرتكبها الآخر - الهو في أعماق ليل الشخص المعتم .

مدن عربية نموذجية يكتنفها التناثر والضجر واللاجدوى والدورة الواحدة للكوكب الدائر فوق شواطئ المتوسط . يحضَر مهدي جواد الدرس الذي تكرر عبر حياته تكرار شروق وغروب الشمس . يخرج من الغرفة التابوتية ورائحته فيها . يلتقي بمهيار ثم يلتقي بآسيا ثم بالمدرسين في ساحة بونه الظليلة ثم ينعطف نحو حانة المغرب ليكرع زجاجات البيرة مع الفول السوداني وتدخين سجائر الهقار المقيتة بين ضوضاء السكارى ، ويغيب .

تحت غمرة الضباب العابق بالروائح والحموضة والصخب ، تنطلق طيور الحنين . الأرض القديمة والطفولة والأصدقاء القدامى . ازدهار متوهج في حدائق الحزن وحدائق الخدر والموت . ينغمر العالم بأشباح الطمأنينة الكاذبة . سلام عابر يخترق العاصفة . يتوهم أنه خارج الاعصار ، وأنه ناج تحت هذا الكنيف النائي . لقد رموا جمراتهم وأنت رميت لكن الغابة لم تحترق . بدد . بدد . ثلاثون عاماً في حروب الريح . ثلاثون عاماً من الشوق إلى بلاد جديدة وأصدقاء جدد ونساء جديدات وعيش جديد . لكنها الحرب الدائرة رحاها أبداً ولاجديد سوى هذا الصقر البرّي الذي ينهش الأحشاء فوق الصخرة القديمة والأرض الخراب . الأرض التي لم تحن قيامتها بعد .

في ثنايا الضباب الداخلي للحانة وغبش الروح المكللة بالحنين ، تتراءى الوجوه الكابية والمخمورة .

وجوه غريبة وأليفة احتوتها حميمية الحانة ، اليوم خمر وغداً الجحيم . الدورة اللولبية للكوكب المنجذب في حلقة هؤلاء الدراويش .

إيقاع حركة النادل بين الطاولات المتجاورة ، طقس ميكانيكي ـ يفتح الزجاجات المملوءة ويرفع الفارغة . دمية تنتقل من البار إلى طاولات الزبائن وبالعكس . تأتيه الصرخات فيهز رأسه استجابة يسمع الشتائم فيهرب إلى واجهة البار متظاهراً بتلبية الطلبات .

مهدي جواد مرمى في جزيرة حي بن يقظان ، يرى ويحلل ويستعيد اكتشاف بداية الأشياء التي اختلطت وتشابكت .الولادة ، الطفولة ، الثورة ، صدمة الوعي ، الموت ، الضلال ، الملاذ .

ـ الحياة ! هذا الفخ الفولاذي

يأتي النادل ويضع على الطاولة زجاجة بيرة ، مهدي لم يطلبها . يخرج من أمواج هراءات الطفولة ليسأل بوجهه .

ـ صديق . يقول الكلمة ويشير إلى الزاوية المقابلة .

رجل وحيد لايعرفه . يشرب ويدخن . لكنه يرى ماحوله بصمت . صمت بارد .

ياللغرابة !

الغريبان يتبادلان تقديم البيرة بالتناوب .

اعتكرت الجزيرة بهذا الارتباك الجديد . قال لنفسه : أي اقتحام لعين هذا الذي لم تكن محصناً في وجهه !

بين الخوف واللامبالاة ينهض إلى المغسلة . يبول ثم يرشق وجهه بالماء البارد .

صاحٍ الآن . يرى الأشياء واضحة وتعيسة تحت نهار ساطع .

الطاولات ، الزجاجات الفارغة ونصف المليئة ، المنافض الطافحة بالأعقاب ، العيون الزائغة والمحرورة ، الأصوات المترنحة ، هو العربي المشع بأسراره الكهفية .

ـ مرحباً . أتسمح ؟

ـ مرحباً بك .

ـ اسمي مهدي جواد . هل التقينا سابقاً ؟

ـ لا .

ـ لاأعرف كيف أسأل : لماذا احتفيت بي !

صفَق للنادل وطلب زجاجتين

قدَّم مهدي جواد للرجل الغريب سيجارة وأشعلها له .

تحت ضوء الثقاب بان وجه أسمر ، كئيب . وجه طفل حزين معتكر العينين .

وجهاً لوجه . الغريبان في الحانة التي يسمع خارجها صوت أمواج البحر .

ـ أنت لست جزائرياً

ـ كيف ؟

ـ الجزائريُ لايجلس وحيداً . إنه يخاف الوحدة رغم مايبدو عليه من أنانية وتوحش . تحت مظلة الدخان والضوضاء قال وهو يمسح جبهته ، أنا مثلك عشت الزمان الغريب والناس الشبيهين بالحجارة . أنا جزائريٌ من ولاية بجاية عشت في فرنسا خمس سنوات . عندما كنت أنتهي من عملي أذهب ليلاً إلى البارات أجلس وحيداً بين الناس . كم اشتهيت أن يحدثني انسان . أن يصافحني . أن يقدِّم لي كأساً لأقدم له زجاجة . لم يحدث هذا يوماً في غمرات الحنين والشوق الحار (اسمح لي ياخويا نقول : هم شيء بارد ونحن شيء حار . هم حجر ونحن دم) .

كنت كالطفل المرمى في غابة أصرخ : بجاية . بجاية . التراب والشجر والطفولة ورمل البحر ورائحة الناس . المهبط الأول للدم والأم والألعاب وصراخ الفتيات العاريات على الشاطئ . شجارات المقاهي والأعراس . كنت أتذكر كل التفاصيل والوقائع الصغيرة ، التافهة ، والخرقاء ، لكنها كانت تبدو لي ساحة لعب تحت ضوء قمر . جديدة . مضاءة ،مفعمة بروائح المصطكي وزهر الليمون وحليب الأمهات .

ـ نخبك أيها الغريب .

مهدي جواد يستمع ويرى من خلال ضباب رأسه مايمكنه أن يرى . ممرور أو منغمر بالحنين أو سائب فوق الغمر . آنذاك ربما تساوت المشاعر والأزمنة والبلدان . لكن الرجل الآخر يريد أن يفصح عن وقائع ماجرى له في بلاد كان ملقى فيها ـ كما عبّر ـ كحجر أو سلة قمامة . كنت

أراهم كالوحوش أو الصناديق المقفلة . صناديق من الحديد أو الاسمنت . كيف أقول : الغرب لايحب العرب ! اسمح لي : أنا عامل ميكانيكي أعمل في التوربيدات البحرية لكنني متعلم قليلاً وأقرأ الصحف . قد تكون مثقفاً تفهم أكثر مني ، إنما أقول ، وأنا متأكد من ذلك ، أنهم يحقدون علينا . حرب الجزائر التي خسروها واحدة من أسباب الحقد . الجزائري يعامل هناك كالكلب . لماذا ؟

السؤال الذي استعيد : لماذا احتفيت بي ؟ أجاب عليه داخل مدار الهذيان المملّ : رأيت نفسي فيك وحيداً في هذه الحانة . سعيدٌ أنا بمعرفتك .

- هل لي أن أعرف الاسم ؟

ابتسم الرجل الثمل : الأسماء ليست مهمة . الآن التقينا وفيما بعد قد لانلتقي . المهم أننا شربنا وتحدثنا بحرارة أذابت حاجز الغربة . الأسماء تنسى أما هذا اللقاء فلا ينسى . الدنيا حلم .

وكما يحدث في السينما أو على المسرح ، نهض . صافح بابتسامة مترنحة : غداً سأعود إلى مدينتي . قد ألقى عملاً أو لاألقى ليس هذا مهماً . المهم أن أعود إلى بلادي . الآن أنا سعيد بمعرفتك وسكران سامحني ياخويا .طيز أم الغربة .

بين الطاولات وحشد السكارى والضباب والضوضاء ، انسل كالشبح ، ثم اندفع خارج الباب الحديدي الأسود اندفاعة السهم في الليل الحالك .

الرجل الذي بقي وحيداً في ضباب الدخان والجلبة وفراغ الصدى ، اتكأ على إفريز النافذة ، وشرد .

هبط في ليلة من ليالي بونه العجيبة والعامرة بالأسرار ، في جزيرة حي بن يقظان ، وتلألأت الشهب .

- بيرة باردة من فضلك !

الغرباء . المنفيون . الملعونون ،التائهون في بلاد العرب كالكلاب الضالة . والذين يموتون شوقاً لأوطانهم بينما القلب ينفطر كأفق الشفق .

ليل بونه .

الشجر - الساحات - الفضاء الرحب - رائحة الأرض في أعقاب المطر .

ثم خطوات الباحث عن الألفة والاندماج في العالم الهارب كوميض البرق .

رائحة النساء في الشجر والفضاء ، وفي ماهو حي تحت هذا الليل الساجي .

تحت هذا الإله الحي . النابض بالمرارة والفقدان ، ولمعان أوراق الشجر ، وبريق الحجارة المنُساة . المساء . المساء . أصداء الخطوات التي عبرت في عصر ما تحت موسيقا البحر .

ثم الرجل المهجور كأرصفة الشتاء .

ـ 7 ـ

أسرة يزيد ولد الحاج شبه السجينة .

عائلة سي العربي سابقاً .

في الليل العابق بالشهوة والنسيان والظلال ، تهمس لالا فضيلة في أذن يزيد بعد أن يرتوي من جسدها الريّان : واش راك حبيبي نخرج غدوة للبحر ؟

ينتبر : البحر ! والناس وولاد الحرام هناك كيفاش يافضيلة ؟

ـ نروح شطايبي . شاطئ بعيد وحلو . نأخذ الدراري معانا . نشم ريحة الدنيا ونشوف الشمس .زهقت أرواحنا من حبس البيت .

تطوقه بشغف ابتزازي . ثم تنهمر حوله كأغصان شجرة متدلية .

ـ ربي يعيشك ياحنّان .

يتراخى : نشوف . غدوة نشوف . كل صباح وله ربُه .

يفكر يزيد ولد الحاج بالعطلة البحرية . نفقات الرحلة : بنزين السيارة . الأطعمة وإيجار الشاليه وابتعاده عن رقابة شغيلة المقهى والحانوت . أية حماقات ترسمها مخيلة النساء المهذارات ! ماذا هناك على تلك الشواطئ المهجورة والتي لايرتادها إلا المراهقون والعابثون والمبذرون . ماء وشمس ورمل وضياع وقت . هكذا العرب يبددون أوقاتهم . في الأمور التافهة والخامجة . أسبوع سيمضي بلا فائدة . الأم والدراري سيسبحون ويصرخون ويفرحون على حساب القهوة والدكان . العائلة الثانية وذلك الطفل اللعين المجنون بالسيارات والنساء ، هم أيضاً يأخذون ولايشبعون . عائلتان ياولد الحاج . امرأتان وسبعة دراري

ينهبونك . وفي المقهى والحانوت ، العمال أيضاً يمتصون دمك . مزيد من المال . مزيد من المال . مزيد من عرق الجبين . مزيد من الدم . حياة ضائعة ومهدورة من أجل الآخرين وأنت كيما الشجرة تعطي ولاتأخذ شيئاً ومع هذا يهددك الحلوف بوخروبه بالتأميم والاشتراكية . ليأت هو واشتراكيته القحبة ويريحوني من هذه الغوائل وأولاد الأفاعي .

يغفو بين أحضان لالا فضيلة الحارة ، العطرة ، اللدنة ، متعوذاً من شياطين النساء ومشروعاتهن التدميرية ، مستجيراً بأرصدة أرباحه التي ستأتيه من صفقة شريكه الفرنسي في مدينة مرسيليا .

في الغداة قبل الضحى رحلوا إلى مسبح شطايبي البعيد . سيارة البيجو الزرقاء حملت الأمتعة والأطعمة ولالا فضيلة وآسيا ومنار ورابح ، والسائق يزيد ولد الحاج .

وهما في سرير البحر تحت السقف الحجري الناتئ ، تروي آسيا الزمن الماضي . زمن العشق الخاطف والرومانسي . العشق الشبيه بانخطاف لون البحر في ظهيرة صيف .

كعادتهما في ضحى الآحاد ، يلتقيان في البيت ثم ينطلقان إلى السوق يشتريان الخضار والسندويتش والبيرة والفواكه . بعد أن تمتلئ الحقيبة يتجهان إلى موقف الباص .

يتوقف الباص على بعد كيلومتر من رأس الحمرا . نحو الجرف الصخري سيغذّان السير على الأقدام . ينعطفان يساراً ثم ينحدران بين الحصى وأعشاب التلال ورائحة البراري التي اشتعلت تحت النور الشمسي . هناك على حافة البحر بين الصخور الغرانيتية المجوفة ، سيلبدان كحيوانين طردتهما المدينة .

يلوح شاطئ شطايبي الساحر ، قطعة ماس هبطت من القمر سراً في ليلة ربيعية . مدى مهجور ، وموحش ، ولامع تحت الضوء .

ـ بحر آخر تراه هناك . مختلف يامهدي عن لون بحر الحمرا . ياربي . عالم غريب في ألوانه .

وهي مغمضة العينين تحت السماء الزرقاء ، ترى سماء أخرى معصفرة الطيف المزجي يتراءى خلف جفنيها ، آخذاً شكل طيور وأزهار بنفسج وعباد شمس وغزلان وفراشات هناك على المساحة الأرجوانية المنسكبة من طيف الشمس .

حالة طيران خرجت من جاذبية الأرض .

ـ انظر . انظر . وردة عائمة .

يصطدم حلمها الطائر بحاجز صوت . صوت يصدي بين الحلم واليقظة بعيداً عن المدار البشري .

كانت تسبح بعيداً عن الأسرة بين الصخور الصغيرة ، في المضائق الوحشية النائية .

عندما فتحت عيني ، فرّت الطيور والأزهار والفراشات والوعول ، وجاءت أشجار الصنوبر الباسقة والصخور وبرودة البحر والضوء ، وهذا الرجل .

على الصخور المواجهة كانت هناك قامة شاب نحيل ، طويل ، برونزي .

تراءى كجني أخرجته الأرض ولد للتوّ من زبد البحر . كان يتهيأ للغطس عن قمة الصخرة ، وقريباً منه كان هناك رجل آخر ممدد على الصخرة يقرأ في كتاب .

قبل أن أستوعب المشهد ، وأخرج من الحلم إلى الصحوة ، قمس الفتى في الماء ، وغاب . وفي اللحظة التي بدأت أجمع فيها شتات نفسي ، انبثق الرجل على حافة جسدي .

أول مارأيت منه شعره السنجابي ولحيته وعينيه الزرقاوين ، ثم صدره العاري من الشعر .

حيا بالفرنسية : سالي . أنت تعومين جيداً . هل أنت جزائرية ؟

باقتضاب وباستغراب أجبت : بلى . رنوت إلى عينيه ووجهه الرقيق الهش ، الجميل ، ثم نفرت مسافة ذراعين عنه : خفت . قال الجني . واتجه نحوها وهو يضرب الماء كسمكة : ها . أنا لست من أولئك خمنت خطأ .

ونحن عائمان في الدفء الحريري للماء قدَّم الرجل نفسه . جزائري يدرس الطب في فرنسا . ويعمل هناك والآن يقضي عطلة الصيف هنا . اسمه مجيد بلقاسم . أصدقاؤه وصديقاته يدللونه باسم ميمو .

كانت عيناه في لون وصفاء البحر . هكذا قالت وهي ترنو من حافة رأس الحمرا باتجاه المحيط الصاخب .

في البعيد ، الضباب والنوارس وصدى اصطخاب الموج داخل الخلجان ، وقربها مهدي جواد يتكئ برأسه على جدار الكهف المفتوح .

ـ أحبك كما أحببته ؟

كم بدا السؤال رديئاً ، وأخرق ، ومستفزاً !

لم تجب . استشفت ماوراء جوابها لو ردت . دفنت رغبتها في الشجار مواصلة حنينها أمام أبواب البحر .

أقدامنا كانت تلامس الرمل . منغمران بالبحر حتى الرقبة . تحت ضوء الشمس واخضرار الماء ، توضح الرجل وسيماً يزخر بالحيوية . كان يطوف حولي وهو يضرب الماء بذراعين قويتين وأنا أبتعد عنه : لماذا تهربين ؟ لست غولاً . يضحك فتبدو أسنانه ناصعة : لم تقولي ما اسمك ؟

آسيا . وماذا تدرسين ؟ محاسبة . وأين ؟ في الليسيه تكنيك . جيد . اختصاصانا علميان . الجزائر تتقدم . هذا أفضل من الاختصاصات الأدبية . المستقبل للعلم . في فرنسا يتهموننا بالقصور العلمي . كان يتحدث كالطلقات .

نقترب من الشاطئ وهو لايزال يبربر عن فرنسا . كولومبوس الذي اكتشف قارة مجهولة يحاول أن يبهر قروية من بونه الصغيرة . الفرنسيون المطهرون من عقد الكبت . حرية الرجل والمرأة . صديقاته الفرنسيات الطليقات . اختلاف جوهر الحياة العربية عن الحياة الغربية . الحرية المطلقة للإنسان . الازدراء العنصري والاشتباكات بين العرب والفرنسيين . ضرورة الاندماج في المجتمع هناك وخلع الجلد المتخلف البالي الذي خاطه الاسلام فوق جلودنا القديمة .

تغطس آسيا في الماء الملون ، الشفاف . أصابع يديها تلامس الرمل . تسير زاحفة فوق الرمل وفوقها الفقاعات . توغل أكثر في هذا الرحم البار والحميم . بحرها الذي قالت عنه لالا فضيلة : لن تموتي إلا فيه . هو مقبرتك . وفي الممر الذي تشقه داخل البحر تحلم ببلاد بعيدة . أسفار وهجرات وقطارات ومراكب ومدن . بعيداً عن هذه الصَدَفة المغلقة المسماة بونه ، وبعيداً أكثر عن سطوة يزيد ولد الحاج .

كالريح في ليلة صيف عابقة برائحة زهر البرتقال ، يعبر مهدي جواد .

عندما تنبثق كالطائر المبتل ، تواجهها الصخور الرمادية والطحالب . جسد برونزي ، ناهض كأنثى الوعل يتلألأ تحت سطع الشمس . آسيا الأخضر مهبط شهوة الرجال الشبقين والنذير السري لتوق الأرض العطشى للمطر . هذا الانبهار الشمسي المضيء لحلكة الليل .

وريثة أعراس الدم ، البهية ، الصلبة ، الناضحة بالبهاء والصحة ، والثقة ، واللامبالاة ، والقتل ، والجنون سليلة آلهة معابد الأزمنة المقدسة ، تختال كالأميرة فوق الحصى البراق تحت وشاح الضحى .

يخرج مجيد بلقاسم من البحر ، يرفع شعره السنجابي الذي يقطر ثم يمسحه بدلال الشاب الواثق من فتوته ووسامته . يخطو حيوياً بين الحصى والرمل الدافئ .

باطن كفيها على الرمل . الصدر ناهد إلى أعلى والعنق والوجه متلعان ، يصعدان مع الشمس ، ثم الفخذان الزهريان السائبان بانتعاش داخل الوهج الخدر لحرارة الأرض والرمل . يعبر الشعب الضيق بين الصخور ثم يثب فوق إحداها . هو هناك بقامته السامقة ونحولته . أكثر وضوحاً واستعراضاً تحت هذا العراء . أكثر لمعاناً تحت هذا الهدوء الفسيح . ابتعد الآن عن صديقه الجاثي هناك على مرمى حجر .

ـ شواطئنا أجمل . شواطئ بدائية .

قال وهو يهبط بغتة قربها .

سمعته وأنا أصعد في تيارات الأشعة . فتحت عيني قليلاً كان ملقى على بعد نصف متر ، يراقبني .

ـ الحي الوحيد هو الطبيعة أما الانسان فيشبه الجثة . بربرية أنت أم عربية ؟

ـ أووه . أيُ سؤال ؟

ـ البربر أكثر تقدماً .

ـ كيفاش ؟

ـ أقل تعصباً ضد فرنسا واقتراباً من حضارة الغرب . العرب منغلقون كالسلاحف .

ـ والفرنسيون متسامحون وانسانيون ؟ سألت باستهزاء .

ـ أحرار من الداخل . بلا عقد .

ـ ومافعلوه هنا ؟

ـ أنا غير مهتم بالماضي . الأساسي نحن . الأجيال الجديدة .

ـ في الحرب ماذا كنت تعمل ؟

ـ طالب في السوربون .

- ومع من كنت أيام الحرب ؟
- أنا أكره الحروب . كنت ضد الحرب والموت .
- أووه . ياللحياد الانساني الشريف ! هي كانت حرباً بين الهند والباكستان أم بين العدو والوطن ؟
- كل الحروب قذرة .
- لابد أنك كنت مع الحب ! في فرنسا الحب كالماء والهواء !
- أنت ضد الحب ؟
- أنا ! أبداً . فيفا الحب والحرية . فيفا الحضارة الغربية الساطعة كالشمس .

قلت الجملة الأخيرة بامتعاض وحنق . وليسوّغ هو موقفه انطلق يتحدث عن تقدمهم وتخلفنا ، عن حريتهم واستبدادنا ، عن منطقهم وانفعالاتنا ، عن مدنيتهم وبداوتنا . كان يحكي بكراهية واشمئزاز عن الفوضى البدائية والقصور العقلي والذهن الخرافي ، وعندما قلت له بأنك تردد مايقولونه هم عنا ، وأنهم سمموك بالكراهية ، انتفض قائلاً بأن العرب ليسوا شيئاً في حساب العالم . وقلت مادمنا كالأصفار ولسنا شيئاً فلماذا استعمرونا وحاربناهم على مدى أكثر من سبع سنوات هنا . وسأل عما تكون الجزائر بعد الحرب : هل هي أكثر من مزرعة للبيروقراطيين والضباط والبورجوازيين ؟ وقلت بأن عمر الاستقلال عشر سنوات فقط . الاستعمار ترك البلاد أنقاضاً وهانحن ننهض من الموت في المصانع والمزارع والمدارس والجامعات والمشافي وحقول البترول والغاز . كل هذا لنا . بلادنا تشيّد وتنمو من العدم . هذه هي الجزائر الآن . ولكن أنتم عدتم غرباء تأتون إلى بلادكم كسوّاح . كانت آسيا لخضر ، وهي تتحدث ، ترسم أشكالاً شبه هندسية على الرمل . رسمت شكل مصنع وصورة إنسان وشكل رغيف ثم خطّت دائرة كتبت داخلها 13 مليوناً . ورسمت بعيداً عن تلك المساحة صورة رجل شبه عار مالبثت أن مسحت رأسه .

وكان مجيد بلقاسم المسمى ميمو تدليلاً يرى ماترسمه المرأة ويضحك .

- أنت تعتقدين أن الخبز يأتي أولاً ؟
- الحرية لاتؤكل . شعبنا جائع . قرن وثلث من الجوع والموت والمنفى . نريد أن نعيش بالخبز لنفكر .

الحوار تجاوز الوقت المسموح به بعيداً عن الأسرة . عن بعد لاحت منار قادمة . نهضت آسيا . سألها إلى أين فقالت بأنها تأخرت وأنهم يريدونها للغداء .

ـ أنت هنا حتى متى ؟ قال الشاب الجنيّ

ـ مع أسرتي نمضي هنا أسبوعاً أو أكثر . لاأدري !

ـ لقاؤنا اليوم كان عدوانياً . هل أراك غداً لنتصالح ؟

ـ ليس مؤكداً .

لوّحت بيدها مودعة . ارتقت صخرة . مدت ذراعين وكفقمة ألفت البحر واشتاقته بعد شمس ، اخترقت البقعة الزرقاء العميقة .

ستقول آسيا لمنار وهما تعومان باتجاه الشاليه التي استأجرها يزيد ولد الحاج : الجزائري ضائع .

تقول ذلك بعد أن تروي لمنار ماحدث لها مع مجيد بلقاسم .

ومعاً ستتحدثان عن التوق الجميل للرجل والحياة السعيدة والأسفار البعيدة خارج هذه المدينة التي لايحبانها .

التسار الذي يحتفظ به البحر والفضاء ، الآن ، وفيما مضى الغرف السرية ، سيطلق الأشواق الشبيهة بطيور سجينة .

تسأل منار عما تريده أختها : العربي أم الجزائري أم الفرنسي ؟ وتقول آسيا لأختها بأنها ماتزال حائرة ولاتعرف ماتريد ، وإذ تحاول أن تشرح ميزات مهدي ، تستدرك بأنها ماتزال صغيرة ، وتائهة . في الرأس رغبات وأشواق ملونة ومتداخلة عن الدنيا الواسعة التي لم تتعرف إليها :

الحق أنا أحب مهدي من أعماق قلبي . لكنني خائفة من المستقبل . خائفة منه . يبدو لي أحياناً رجلاً بلا مستقبل . السياسة في بلادنا محرقة .المنفى أو السجن أو القبر . هذا كريه . ألا يكفينا ماجرى لبابا وويلات الحرب !

منار اللاأبالية سوى بما ترغب ، تقول : عيشي حياتك الآن وكفى ، يوماً ما سنسافر معاً ونخرج من هذه القوقعة

ـ ولكني أحب الجزائر ياأختي . لماذا الجزائري فظ ؟ أوه . هذا الميمو المفرنس أصابني بالدوار . مرة واحدة التقينا ويرغب أن ينام معي . هزئ مني لأنني مازلت عذراء . قال : الفرنسية تخجل من عبء الغشاء .ترى فيه رمز غبائها . وقال بأنها تقدمه بنشوة وفرح لأول

صديق ينام معها . سمّاني طفلة خرقاء ماتزال تغتسل بحليب أمها وتنام بين ذراعيها الحميمين .

تقهقه منار . ضحكتها تتموج مزقزقة في فضاء أبيض :

آه . يايوما . لاالذي سافر ولاالذي هنا يفهم الحياة .

تبتلع قليلاً من ماء البحر لاتلبث أن ترشقه رذاذاً فوق السطح الأزرق : طيز أمهم . طيز أم الحرب . المهم أن نخرج يوماً من حظيرة الحلاليف . الحرية . الحرية . هذا هو ربي !

الطفلتان البهيتان تحت الشمس خرجتا من حقل البحر إلى الشاطئ . إحداهما تقوست وتناولت حصاة ثم قذفت بها بعيداً في عمق المياه ، بينما الأخرى بدأت تغني بالفرنسية : حدثني عنه .

وفي سرير البحر بعد أن تفيض الأعماق بجيشاناتها ، يبدأ الطقس الراغب للجسد . البحر والشمس والبيرة تختمر وتتوهج في الخلايا فتنطلق الطيور . في الزوايا الخلفية والمنسية ينام مجيد باقاسم طي أفكاره اللاوطنية والجنسية ، بينما ينطوي مهدي جواد في السفح المقابل . ويتقدم الجسد .

الجسدان المحتدمان فوق التراب والعشب ، في غمرة النار ، داخل الدوران الصاعق ، والصرخة المتواشجة مع الحجر والأرض واللحم . الجسد الحي ، الدموي ، الواحد ، وهو ينصهر بجحيمه .

يسجل مهدي في اليوميات . سماء سحيقة بلا نجوم . أرض مجللة بالعتم . أرض الوحل والدم . آسيا نجم يهدي في هذه البرهة المفلتة مع زوغان وسقوط الشهب . سأسند رأسي المتعب إلى بازلت هذه الصخرة الناهضة على مداخل البحر بانتظار السفن . لاشيء مضيء الآن للرجل المخذول سوى هذه النجمة .

- 8 -

في معهد المعلمين القائم على تلة مشرفة على البحر ، يخرج مهيار الباهلي عن سياق الدرس التربوي ، ليتحدث عن سفر التكوين النموذجي للعربي المنتظر كما يتراءى له في لوائح صبواته .

ترمح خيوله في الغابات والحقول ، فيرسم بوثباتها الهوائية زماناً أخضر وبلاداً سعيدة ترفل بالنعمى والمسرات والضوء . يشتبك العقل المأخوذ بعصور التنوير ، مع الاصلاح اللوثري وتوما الإكويني والقديس

أوغسطين ومونتسكيو والثورة الفرنسية ، عابراً إلى ابن خلدون وابن رشد الذي أحرقت كتبه في ساحات قرطبة . يروي ماحدث لغيلان الدمشقي المعتزلي والسهروردي والحلاج وابن الروandي الملحد .

ـ القرامطة كانوا تجسيد السلطة للاشتراكية المشاعية . لقد بلوروا كل التمرد والخروج الذي سبقهم في كومونة الشعب .

وفي لحظة إشراق نزقة ، يسخر من اشتراكية الزكاة التي أقيمت على أنقاض مليون ونصف مليون شهيد .

ـ لماذا جرت سيول الدم هنا إذن !

باحتدام ، مفعم بمرارة ، يقول ذلك . كان يبدو كالنمر بحركاته الجسدية وسط الطلاب وهو يزرع القسم من أقصاه إلى أقصاه ، مدوّياً بصوت يسمع كضربة إزميل في صخر .

دون أن يدرك ، وهو في غمرة تشييداته لرايات الزمن المضيء ، كان يدحرج كرة محشوة بقنبلة بلاستيك نزع صمامها الداخلي . وهكذا عندما سئل إن كان ضد اشتراكية الاسلام ، واصل قناعاته : الاسلام . الاسلام وحد العرب لكنه لم يُشِد الاشتراكية . واستطرد محتمياً خلف متراسه : حتى الرق مانص الاسلام على محوه . أوصى فقط بالرفق بالعبيد وأبقى على الجواري .

ـ ولكن الشيوعيين ماذا فعلوا ؟

هكذا قذف أحد الطلبة بالكرة البلاستيكية في وجه الباهلي ، الذي بوغت بعد صمت قصير ، ممض ، يتحدث محايداً عن السؤال ، عن الماركسية الثورية ، مؤكداً على ضرورتها التاريخية للعرب : الوحدة شرط جوهري ، لكن الاشتراكية هي صخرة الوحدة . ينتبه في اللحظة الأخيرة للورطة التي استجرَّ إليها من خلال جموح جياد الدماغ .

الذي جرى فيما بعد داخل القاعة ماكان في الحسبان . لقد ابتدأ الهرج والغليان في القسم على شكل موجات أو فقاعات انطلقت من طالب متدين نقل عدواه إلى آخرين . كانت الأصوات تتعالى ، هادئة ، ثم حادة ، ثم مسعورة ، ضد الإلحاد .

ـ الشيوعيون إباحيون وكفرة .

ـ لانريد الشيوعية في بلادنا .

وبدؤوا يهمّون بالخروج احتجاجاً .

ـ درس فلسفة وتربية لادرس سياسة خامجة .

كانت الأصداء ترن على الجدران والسقف وفي أعصاب مهيار التي التهبت .

عندما انطلقت بعض الأصوات المضادة لتواجه المجموعة الدينية ، تحلل جدار الحصار والوحدة حول مدرس التربية الفلسفية ، لكن الضوضاء والصرخات ارتفعت أكثر .

ـ الأستاذ حر في درسه . أنتم فوضويون .

ـ إنه درسنا . وقتنا . وقت ضائع في الخماج .

ـ الجزائر اختارت الاشتراكية .

ـ اشتراكية الاسلام لا الإلحاد !

ـ لاهذه ولاهذه .

ماكان بامكان المدرس المرتبك إيقاف هذه الفوضى الهوجاء . كانت الجلبة تخرج من القاعة إلى ساحة المعهد والاقسام المجاورة . عندما حضر المراقب العام ، ورأى مدرس التربية القصير مغموراً بين حزمة من الطلاب وهو يلوح بذراعيه ليفضّ اشتباكات القبضات والرؤوس والتراشق بالكتب والكراسات وماتخلّع من خشب المقاعد .

نذر القيامة قامت في قسم مهيار الباهلي في بداية ذلك الصيف .

ـ فيفا التثوير . قال مهدي جواد ساخراً .

كانا في مقهى الشرق ، ومهيار يروي ماحدث في يوم القيامة الماركسية . وعندما قال مهيار ببرود ، شيئاً عن ضرورة تثوير الأجيال الجديدة وهزّ الناس ، سأله مهدي : ماذا ستهز فيهم ؟

انتفض بيقين شبه نبوي : الطمأنينة . المستنقع . الزمان الميت . ينبغي زلزلة الجذور القديمة التي تعفنت .

نفخ مهدي في الهواء دخاناً أو غباراً أو بخار ضباب . لافائدة من استعادة حوار اللاجدوى حول الممكن والمستحيل ، الواقع والحلم ، الخراب الشامل وجنة عدن . فقط كان بالامكان التنفس بهدوء في زاوية أو إطلاق صرخة موت مديدة ، مديدة ، أو طعن الجسد بالزجاج كما حدث لعمر يحياوي الذي تحوّل بقدرة مغناطيسية إلى بهلول نساء وحانات .

هكذا خاتل عن هذا كله وسأل مهيار عن راحته الشخصية في البيت والاهتزازات الليليلة لفلّة بوعنّاب .

دخول الشرقيين إلى المقهى على شكل عاصفة غبارية ، كتم الجواب . هبطوا كالذباب حولهما . دارت الأسطوانة إياها . الغثاء الأحوى . الرنين السرمدي لمتاعب التدريس . والأطعمة . ومشاريع العطلة والسيارات . واستبدال العملة من السوق السوداء . والمومسات . والأشواق المنوية لنساء البيكال في باريس إبان العطلة . آي . آي . آي .

بونه . بونه . انشطار النيزك عن شهابه ثم دخوله في قاع الأرض ملايين السنوات المنطفئة .

لكنها المدينة . فضاء رطب . شجر يشتغل بالأخضر والندى ، مخترقاً فضاءه السماوي . وهما الغريبان ، المتلاصقان في بونه المنطفئة ـ الخضراء . كل منهما يلوذ بالآخر ، حماية ودفئاً ، وهما المفترقان .

وهذه البونه الملعونة . سادوم الزمن العربي المشظى ، شجو الغرباء في الليالي الرطبة ، المصدية بالأحزان حيث تعبر مجرات الطفولة القديمة ، متدلية من سمائها مناديل ورايات شهداء صعدوا إلى سماوات الحلم الذي تناثر ، لاتحنو أبداً ، شجوهما وحده الحميم كالرحم ، في غلاف هذه الرطوبة الهابطة .

الصديقان اللدودان ، في مدينة الاسمنت والقتل المباغت .

هاهما يفران من المقهى هرباً من خنازير السوق السوداء وأحلام البيكال ووجوه البلاستيك والرماد .

ـ مارأيك ببيرة باردة في الموروك ؟

يقول مهيار : أنت شهاب . لنشرب السم بعيداً عن أولاد العواهر .

هنا ينزوي الغرباء .

مع احتساء البيرة الباردة ينتعش الجسد . يأتي بائع الفستق السوداني . غلام في سن العاشرة يؤرجح قفة من القش أكبر منه تحتوي في قاعها نصف كيلو من حبات الفستق . يسأله الباهلي لماذا يبيع الفستق في البارات ، فيرد الطفل بأن أسرته في الريف فقيرة ، وهو ينزل ليلاً إلى المدينة ويعود صباحاً ومعه الخبز والتمر والكوشا . ثم يسأله عن المدرسة وعدد أفراد الأسرة والأحوال الاجتماعية للقرية ، فيجيب الغلام ويده ممسكه بكأسه استعداداً للبيع . إذ يضجر الغلام من الأسئلة والاستجوابات يغطس كأسه في كيسه وينثر حقي فستق ثم يطلب دينارين وسيجارة . يشعلها ثم يمج دخانها عميقاً كرجل مدمن . وهو يهم

بالابتعاد يتناول زجاجة البيرة من أمام مهيار : تسمح لي ياخويا ؟ يكرع ماتبقى من الزجاجة ثم يرفع يده بالتحية ويستدير مترنحاً كفراشة نشوى بين الطاولات .

تحت ضباب البار بدأ الجوّ يدوي بالصخب والثرثرة .

ـ لو لم تكن البارات لطق الجزائري غماً . كان العالم السفلي يصعد من قيعان ارهاقاته منتشراً على شكل أبخرة بركانية . طيور سئمت ظلام الغابات كانت الخمرة تفرد أجنحتها وتطلقها أسراباً في هذه السماوات الرحبة . هنا كانوا خارج الجحيم النهاري ، يبحرون في هذا الزورق النشوان ، بعيداً عن الموت وقسوة المدينة والبشر . حكى مهدي حكاية الرجل الغريب الذي قدم له البيرة في الزاوية الغربية ، وكيف رحل كما ترحل الريح . كانا في مدارات الغبطة والأسى والشفافية . غير أن الكآبة أطلت من وجه مهيار : متى تنتهي هذه الغربة اللعينة ! وبدأ حديثاً عن اللاجدوى : يبدو أننا ننحت جبلاً من الغرانيت بإبرة .

عندما يهاجمه الحنين يربد وجهه كجدار محترق . كانت تجربة الأهوار تدوم في أعماقه كدوامات الأنهار . لقد نسيها زمناً وأغلق عليها برتاج فولاذي ثم قذف بجراحه الرفاق والأخطاء والمرارات إلى أعماق البركان المنطفئ . لكن ذلك العالم المنسي كان ينقذف في أوقات الاضطراب كما تنقذف الجزر المغمورة فجأة من أعماق المحيط . تحت شجر المدينة والليل الساجي ، وهما في الساحة ، قال مهدي جواد شيئاً عن موت الزمن القديم والأحلام القديمة ، والمرأة الملاذ .

على نحو مباغت انفجر مهيار . كبا بوجهه على جذع شجرة دردار واندفع شهيقه . كان يضرب الجذع المخرّش ، الصلب بقبضتيه وهو يهذي عن الدمار والغربة والتوحد والأطفال والثورات المغدورة .

ـ لاأمل . لاأمل . الوحل والموت . الحروب الأهلية . الحروب الأهلية . آه . آه . ياأمي . أين أنت ! أين النار !

أسبوع صيف شطايبي مضى بين البحر وكثبان الرمال الذهبية وأشعة الشمس وهذا الفتى الجميل : ميمو .

ـ ذلك الذي مضى يبدو الآن كأنه ضربة شمس قديمة . تقول آسيا بالفرنسية .

ـ أين هو الآن ؟

ـ في باريس . منذ شهرين كتب لي كي آتي إلى فرنسا . كان سعيداً

بلقائنا وبشواطئ الجزائر الساحرة .

ـ كامو ، أنت تعرفين ذلك ، كان هو الآخر مسحوراً بطبيعة تيبازا وجميلة . .

ـ ولكن لماذا حدث ذلك ؟ سألت باستغراب طفولي .

ـ ماهو ؟

ـ الحياد .

ـ حياد من ؟

ـ حيادهم . قبل الحرب وبعدها كانوا ضد أنفسهم . لماذا وحدها أزمنة الحرب وحدتهم ! كانوا مع أنفسهم في الخطر وعندما زال عادوا إلى الشقاق .

ـ ولكن من الذي انشق عمن ؟

ـ ألا ترى كيف نحن ممزقون وضائعون بعد الحريق ؟

كان الرجل المنسي في أعماق مهدي جواد يهذي بخفوت حول الانشقاق ـ الجذر . انشقاق الوهم المتوهج الذي لاث عقل الباهلي وأفقده صوابه حول صراع الطبقات في أعقاب الحرب الوطنية التي خلطت الحابل بالنابل وأودت إلى هذا الدمار الأهلي .

ولاحت الموجة التي حملت بوخروبه وعبيد الله الكلبي ، تتهاوى في قرارة اللاوعي القديم على شكل وساوس كابوسية تهجم في الساعات الأخيرة من هجوع البحر .

وفي ذلك الزمن الهلامي ، لما انقذفت الروح البشرية بملايين النوترونات المفجرة للخلايا ، فتشردت الذرات في كل اتجاه ، وابتدأت النيازك تتساقط ، اصطدمت آسيا الأخضر ، الطالعة كالنرجس من أحشاء الأرض الخراب ، والرانية إلى الشمس ، بمهدي جواد المحطم كسفينة يوليسيس . إنها تندفع بشفاعة الجسد والنفس ليكون سي العربي الذي مازال حياً في نسغها الصاعد .

بجسد افريقي عارم ، وروح فتية فتوّة البحر ، تعدو صوبه فتغطيه كغابة استوائية ، فلا يعود يرى سوى الأغصان المدلاة فوقه ، ولايشم غير روائح عشب الجسد الغضّ . إذ ذاك تدخل الأسئلة والفواجع في فجوات الجسد الذي كان غائباً ومشتهى فيما مضى من العصور القديمة . الرجل الحي ـ الميت ، البديل ـ المزيف الذي ضيّع هو الآخر أباه في صحارى

ومستنقعات الشرق ، هو ذا ينكفئ محطماً على البرّ الافريقي ، لايسمع سوى عزيف الجنّ يأتي على شكل ايقاعات سحرية صادرة من كوكبين شاردين يقتربان من مركز الانفجار .

رجل وامرأة ، غريبان في الأزمنة والمدن ، هاهما يصطدمان على غير ميعاد في ليل عذب على حافة الموت .

- 9 -

في تلك الأيام التائهة والصيف هاجم كلفح الحريق ، بدأت أطوار غريبة تظهر في مجرى حياة مهيار الباهلي من خلال سلوكه العدواني مع البشر . وفي الأماسي والنهارات كانت تذمراته تتراءى على شكل شكاوى واشمئزازات وسوداوية . ففي أيام العطل كان يغلق غرفته أحياناً فلا يخرج حتى الصباح التالي منبهاً فلّة ألّا تفتح لأحد يسأل عنه . وعندما تحاول أن تسأله عن حالته كان يصرخ في وجهها مستخدماً أحط النعوت من البلاهة إلى العهر إلى المسوخية العقلية . كانت المدينة بارتجاجاتها البدائية تبدو كأنما مسته بروح شيطانية لوّثت عقله المتوازن . شجارات لأتفه الأسباب مع الآخرين . دوران ليلي وحيداً على شطآن البحر . أحاسيس مختلطة عن متآمرين يتربصون به لاغتياله في المنعطفات ، وفي منتصف الليالي كانت فلّة تفيق هلعة على أصواته وصراخاته المحمومة فتوقظه من كوابيسه . تجلس قربه لتمسح عرقه ودوائر الزبد الرمادية عن حواف شفتيه .

في فسحة الهدوء بعد أن يصحو من هذه النوبات يستعيد بحره المضطرب حالته الزرقاء القديمة .

ماجرى في مطالع ذلك الصيف بدا عاصفة فوق بحر الرجل المصنوع من اسمنت المنطق . الرجل الذي ربّى نفسه ونذرها لتكون أمثولة عصر اجتاحته الأوبئة والخراب الذي لاحدود لدماره . ومع أنه كان رجلاً صلباً في أعماقه يقوم بوثبات طويلة تتجاوز قدرته على الوصول إلى هدفه ، إلا أنه كان يرى بوضوح تلك الأرض الخراب بهوّاتها وبراكينها وغاباتها وأمداء حياتها وموتها .

ورغم إحباطاته ومشروعاته الفاشلة التي خاضت حرباً رومانسية في مستنقعات الهور ، فخرج منها حياً بأعجوبة ، حاملاً وشم طلقتين إحداهما في عضلة عرقوبه الأيمن والأخرى في عجيزته اليسرى ، إلا أنه

ظل صلباً ومتميزاً ، قادراً أن يفعل مايشبه السحر التنويمي وهو يتحدث مع من يلتقيه لأول وهلة .

فلّة التي هوت أكثر من مرة فريسة نوبات عصبية جراء انعكاس هذه الحالات الباهلية عليها ، كانت تقول بأن الشمس الاستوائية خلطت عقل مهيار . الشمس التي تلتهب أشعتها العمودية مع بداية الصيف فلا يحتمل حدّتها سوى الأفارقة من السكان الأصليين الذين يبدؤون حجيجهم إلى كعبة البحر منذ الأسبوع الأول من مايس ، هرباً من هذا السعير الصاهر للحجارة .

وبعيداً عن اكتناهات فلّه وهرطقاتها البدائية المحتملة ، كانت الأشياء تُرى تحت الظهيرة البونية كأنها مرايا لامعة تتوقد وهجاً بملايين الأشعة المبهرة للبصر : البحر وسهوب القمح الصفراء المشتعلة والجدران البيضاء وذرى الأشجار وحجارة الشوارع السوداء .

غير أن العاصفة كانت تهدأ في رأس مهيار في أعقاب العودة من البحر ، أصيل يوم الأحد ، تتبختر الأشعة الشمسية ليهبط على بونه سلام بارد ، عذب عذوبة الندى ، من سماء هاجمتها السحب فجأة منطلقة من قمم جبل سرايدي المغطى بالغابات . آنها ، وبعيداً عن احتدامات المشارقة والمغاربة ، وصدمة الجرح القديم تشف روح الباهلي ويعود لها وميضها الأخاذ . تنطلق إشراقاته مغلفة بأشرعة من الحبور والسخرية الطفولية ، العاقلة . تندهش فلّة من هذه الحالة الجديدة فتشفى هي الأخرى من وباء كآبتها وتندفع كأم غمرها الحنان لتطوق مهيار بذراعيها وجسدها النحيل : ياطفلي الجميل الضائع !

في ذلك المساء وهم على مائدة العشاء يفصح مهيار الباهلي لأول مرة عن أسرار حلمه القديم . لايروي الوقائع بقدر مايصوّر الحنين إلى عالم جديد ارتسم في رأسه ربما قبل أن يقرأ أي كتاب ثوري عن حرب العصابات . كان يستعيد الشوق الأول للمغامرة الطفولية : أن تبدأ الأشياء دائماً كالخلق الأول نظيفة وعادلة وأن نرسم رسومنا على بياض بلا رقابة أو توجيه .

إذ تلتبس الأمور على شاشة عقل المرأة الساذجة ، يحاول أن يوضح لها بأن في كل مغامرة ثورية استرجاعاً طفولياً للنقاء الأول الذي اعتكر . ويضيف : الكبار دائماً يلوثون العالم . لهذا ينبغي الخروج عليهم بين فترة وأخرى لتجديد الحياة . هل فهمت ؟

ـ ولكن ماذا تعني بالكبار ؟

ـ الآباء والحاكمون وقادة الحزب .

ـ مارأيك ياسي مهدي ؟

يهز مهدي جواد رأسه موافقاً . لقد أخرجته فلّة من مدار ارتساماته التشكيلية . كان يرسم هذه العنابية امرأة أخرى . نصف آسيا الآخر يلتجئ إليه في الليالي تعويضاً عن آسيا التي لايراها سوى في النهارات . وفي ذلك المساء أدركت فلّة مذهولة أن رجلاً ليس عادياً يعيش معها . رجل يتساوى جرحه وخذلانه مع انكساراتها القديمة ، يوم كانت مثله ممتلئة بالرعد الذي تصورته يزلزل أساسات العالم .

ـ لماذا حدث ذلك على هذا النحو الفاجع ؟

كاد الطعام يتحول إلى غصّة في حلق كل منهم . همدر مهدي وهو يتراجع قليلاً : أوه . فلّة . ياللعنة . دعينا من هذه . . وانتبر الباهلي مقاطعاً : مهدي . أنت ماتزال على ستالينيتك لماذا تقمعها ؟

ـ نخبك أخي مهيار . قال مهدي منديّاً الفضاء .

مهدي وفلّة شربا النخب . الباهلي اكتأب . وجهه اغتم ثم أربد حتى صار في لون الرماد .

بدأ الصمت ينذر بقذائف مدلاة من خيط واه .

أول قذيفة انطلقت ، اخترقت الخندق الستاليني والمتمترسين فيه من الأحزاب العربية القادمة من جبهة السفارات السوفياتية .

القذيفة الثانية دمّرت الخط اللارأسمالي والنضال السلمي وجبهة البورجوازية القومية ـ العسكرية .

الثالثة وجهت من مدفع 155 ملم نحو خط التحريفية والوعي الاقتصادي الميكانيكي .

أما الرابعة فقد تناثرت شظاياها باتجاه الشعب الرجعي ، الخامل ، الاتكالي ، المعادي للعقل والماركسية .

قبل انسحاب مهيار العصبي نحو غرفته ، دفع دمه المحرور طلقتي رحمة نحو صدر ورأس العنابية ومهدي : هه . يالكما من صديقين متآمرين . بالامكان أن تفهمي الآن يامدام فلّة المحترمة سبب فاجعية ماحدث .

في تلك الليلة ، بعد أن غادر بيت فلّة مغموراً بالأسى ، استعصى على

مهدي جواد استبدال المعادلة الوضعية : أن تكون فلّة بوعنّاب الدميمة والشهوانية والمبذولة والثرثارة ، امرأة أحلامه الليلية . كما استعصى أن يكون مهيار الباهلي سوى طبيعته المقذوفة فوق فوهة براكينه التي تثور لحظة انفجار الحمم .

إقبلْ العالم كما هو أو غُصْ كالصدفة في أعماق المحيط . هكذا فكّر وهو مستلق في سريره قبل أن يدخل في نفق النوم . لكنه في الليلة الثانية بعد الألف ، وهومبحر فوق طوف موغل في البحر العاري ، اصطدم بالصور والأحلام والرغبات المستيقظة من كهوف البحر . هوّمت نساء بونه الشهويات بظلالهن ، وصرخاتهن ، وحشد أجسادهن المضاءة بالعري والتسبيح الديونيسيوسي ، لهذا البخار الخارج من تعرّق الأرض وشمس البحر ودماء الأعضاء ورسوخ الشجر وانتصابات الجذوع ، وآهات الموت .

كنّ في المعبد . معبد عراء البحر الرحب ، يصلين لإله ينبثق للتو من فجوات الصخر ـ الجسد ، يدخلهن الزبد الحميم الحار المذاب بقطرات الشمس فيرفعن الأذرع ـ الأغصان مهلّلات لهذا الإنهمار العذب المتدفق من الشفاه والصدور والأفخاذ وهي تعبر مفازة جحيمها الطفولي ، افترقت آسيا الأخضر مودعة فلّة بوعنّاب في تلك الليلة . كانت المرأة ـ الطفلة تنام بوداعة بين ذراع أمها لالا ، تحلم برجل طويل ، أشقر ، عيناه بلون البحر ، يولدها أطفالاً بغزارة الأطفال ـ الأرانب ، ويحملها على كتفيه عبر العالم خارج بونه الأضأل من حبة بندق .

وإذ قالت فلّة : أنا كل نساء بونه التي تشتهي .

تذكر الذي أصابته السياسة بالعنّة . الرجل الطهراني المصاب برصاصتين إحداهما دخلت من الإلية وشرخت الصفن . هكذا استدار عنها وعن نساء بونه الألِقات كالبحر .

استبدل النساء بالوفاء العائلي ، ونقاء المدرس الغريب ، المنتدب لمهمة مقدسة تنزع نحو وهم تغيير التاريخ وتربية الأجيال الصاعدة .

ـ إننا نعبر ليلاً حالكاً في عصور منحطة لاتسمح لنا بإضاعة الوقت في اللذاذات التافهة .

مستر لوجيك أو السيد عقل ، حيّ أبداً كالله . قاض وديّان يحاسب الحماقات وكأنه نبي هبطت به مظلة العزة الالهية ذات غسق في هذه السادوم المعلونة .

- أغوتك النساء فبعث الثورة . قل لي ماالفرق بينك وبين الأسخريوطي !

ولكن لماذا ينقذف هذا الرجل المجنون على شاشة هذا الليل ! يقف على منعطف بين المرأتين وبينك . كموسى يشق البحر مستوهماً أنه يقود قوماً موهومين بعيداً عن الموت . لقد رأى الموت يأكل رفاقه واحداً واحداً ، وجاءه الموت وهو يغوص في وحول المستنقعات ، ويعرف ، من خلال الهمود الضوئي للتاريخ في عصره ، إن الموت هو السيمفونية الحزينة التي يعزفها الزمن الخائب .

- كالماس سنظل نشع ونحن في الوحل . يقول مكابراً . من أقواس الدائرة السوداء : قلبك المفطور ، والمدينة التي تحاصر كالمشنقة ، وآسيا - الرئة التي تتنفس بها ، تنهمر عليك اختلاطات وحماقات . حقائق وأضاليل . شموس وظلال . أسى وصرخات . وأنت تحايد عن الهدف المركزي المشعل لرأسك : الصاعقة التي لاتبقي ولاتذر . الفيضان الذي يسوّي الدنيا غمراً . الحياة المجيدة تولد من موت لائق . حروب أهلية تشق الأخ على أخيه وتفصل البنين عن الآباء فلا يكون سوى الموت الزؤام ، سوى الذهول وصحوة القلب الذي غفا طويلاً على أنغام الرعاة والفتح القديم والدوران الأبله حول الحجر الأسود .

النفاية أو طرح البحر . هذا هو أنت في برهة ماقبل العاصفة .

لكنك تسأل تحت رهج الهلاك : لماذا لايكون العالم كما ينبغي أن يكون : متسقاً وعادلاً ، ومتماسكاً وصحياً ؟

والعالم لايكون .

الإنهيار وعصور الانحطاط وخراب الدم وعبيد الله الكلبي ، هو الذي يكون . وبين ماينبغي وهذا الإنهيار الشامل ، يتقدم هذا الباهلي الجريح - المنعطب . هذا الصارخ : الوحل والموت أو الجنون الذي نؤول إليه في النهاية .

هوذا مايزال يضرب في مندل الرمل بحثاً عن أشباح أنبيائه . الأنبياء الأسطوريون القابعون في تلافيف الدماغ .

يراهن على عصور التنوير تارة ، وعلى حروبه الأهلية تارة أخرى ، حيث تميد الأرض بجبالها وغاباتها وبحارها فتبدأ الحرائق والدمارات . كومونة العمال والفلاحين الناهضة من الوحل والمستنقعات التي ستقوّض العروش وسلالات بني ضبيعة الكلبيين الوالغة في النهب

والدم . سلالات ملوك الطوائف التي أعادت الزمن إلى ظلام الكهوف ورعب الغابة والقتل الضاحك . القيامة . القيامة .

النيران . انهيارات المدن . اشتعال القرى . الهلع يسري حتى أبواب القلب . الجوع والعطش ومقاصل الإعدام وقسوة الفتك الجميل من أقصى مشارق الشمس إلى مغاربها تتقدم تحت الرايات الحمراء . تنهض قبور المقتولين غيلة وغدراً . المنهوبون والذين قهروا بالسيف والنطع والتجويع إذ الثارات العادلة والقصاص العادل والقتل العادل اقتصاصاً من الكلاب والخنازير والجنرالات وأبناء العواهر وسَدَنة الكعبة .

بهاء الفزع تحت الأشعة الخاطفة للبصر والروح .

يوتوبيا .

يوتوبيا .

حلم الإشراق في العقل الصوفي المصاب بلوثة المستقبل الوضاء وهو يدخل تحت أمواج تحولاته . انهدام كلي للعالم القديم وبناؤه أرضياً على شكل الله السماوي بدءاً من بشر جوهرهم جوهر ملائكي أما أجسادهم فمن لحم ودم يرتقون فوق رغباتهم وصغائرهم العضوية ليكونوا الحالة الجديدة الخارجة من الزمان القديم البالي والزمان الراهن الخرع . الزمان الصارخ : لاإله إلا الله . إلى الزمان الصارخ : لاإله إلا الانسان . في وقت فَسَد فيه كل شيء من الدم إلى الهواء المستنشق . وقت الاستعادة الطبيعية للحياة الأولى والهيولى الأولى بعد أن فتت ذراتها عبيدالله بن ابي ضبيعة الكلبي ظل الآلهة الممسوخة فوق الأرض فكوَّنها على صورته الحيوانية ماحياً جوهرها الالهي الذي يقول للأشياء كوني فتكون .

غير أنك ماتزال هنا في مواجهة الطاعون . ترفع ذراعيك في مواجهة العاصفة . تزيح الأمواج الهاجمة موغلاً في عمق الماء بين الزبد وكريستال البحر باحثاً عن الصخور الصلبة واللآلئ وجنيات الماء ولمعان الضوء .

الحي ـ الميت الذي دُفن قبل أعوام في سجن الحلة بين خمسمائة سجين ضربوا وأهينوا وعُذبوا ، بدءاً من تحطيم الأضلاع والرأس بالأحذية العسكرية عبوراً بالصدمات الكهربية على أعضاء التناسل . خلع الأظافر بالكلابات وإدخال زجاجات البيبسي كولا في الإست وممارسة اللواط إلى حرق الجسد بأعقاب السجائر .

طقوس عذبة للجلادين . احتفاءات جنسية لآلهة الليل . الضعفاء ماتوا تحت العذاب ، وآخرون فتحوا نفقاً بمفك براغي ومدية مطبخ خلال شهر من الإصرار وتوهج الروح فخرجوا إلى حرب المدن وحرب الأهوار وبقية الحروب الخاسرة .

آخرون أمضوا عقوبتهم أو جزءاً منها ليخرجوا حطاماً أو خونة .

تُهم واعترافات وشتات وانشقاقات ومحاولات لتأسيس جديد مناقض لما مضى .

الذي تأسس وترسَّخ بعد الإنهيار ، وصراخ عواصف الدم والموت : العودة إلى المؤّال القديم . إلتحاق ذيلي بعربة كاليغولا عبيدالله الكلبي الحاكم بأمر الله وأمر السيف . الحجاج الثقفي المقعي على العرش . رب السموات والأرضين الذي يقول للشيء كن فيكون .

وماكان يمكن أن يكون في ذلك الزمن سوى الخيار بين المقبرة أو الانصياع . الهلاك أو المنفى . فأما من خضع وخاف وانصاع فقد ابتلع الموسى . وأما من خرج صارخاً في براري الروح الناهضة هائماً لايدري تحت أي سماء أو في أي أرض يموت ، فقد اختار الزمان الغامض . الزمان الأقسى .

يوتوبيا . يوتوبيا .

القيامة . القيامة .

أما أنا يامسيو عقل ويامتعهد الثورات . الرجل المدعو مهدي جواد والخارج من سجل الحطام وأنقاض الخراب . فسأحني رأسي منغمراً في عمق هذا البحر تاركاً لقيامتك أن تقوم بدوني .

هاأنذا أضمحل صَدَفة في قاع رمل بحرك الثوري العارم . أغوص بعيداً . بعيداً . لا لأن حروبي حطمتني ولا لأن الروح تهفو لاستراحة أبدية ، ولكنني متعب الآن من هذه الأوهام والضلالات وتخطيطات الهواء ومرتسمات مندل الرمل .

إنني يائس الآن ومزعزع من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ولاأرى سوى الأسود والوحل والموت .

متعب من الاسخريوطيين . من شتاتهم وانتهازيتهم وتهريجاتهم وانخذاليتهم وتاريخهم الذي لايليق إلا باحتفال كرنفالي من الأقنعة والمسوخ فوق مسرح للدمى .

لاأنشد غفراناً أو تعزية من أحد ولست في المطهر . إنني في الشتات والغدر والخديعة والانحطاط وعلى حواف الإيغال في الدم وتحطيم العقل والجسد والروح ، ولست في منجى من صدمة العاصفة .

إنما وأنا أرى الآن اهتزاز الهياكل القديمة وتشقق الأعمدة ، الأراضي القديمة وهي تتفسخ ناشرة عفونتها وفسادها وروائحها الكريهة وأفاعيها وزواحفها وشجرها المنخور وثمارها الفاسدة ، داخل نسيج الهواء والماء والتراب والدم ، ماعدت راغباً في الظهور على خشبة المسرح .

بدءاً من هذه اللحظة سأحاول أن أكون خارج هذه الجوقة التهريجية وهذا اللغو .

سأكون مسيو آسيا لخضر أو مسيو فلّة أو مسيو بحر أو مسيو سفر ، أو مسيو تفاهة أو مسيو لاشيء .

طفو هامشي خارج الخضم التاريخي . سفينة جانحة في ميناء مهجور على شواطئ بونه أو غيرها من المدن التي لاأعرفها وأحلم بها .

صفر . أو نقطة . أو سحابة . أو طائر أسود في فضاء .

ولتتقدم قيامتك العظيمة أو عاصفتك الدموية التي تهلع القلوب منها أيها السيد العظيم .

ليشعَ مستقبلك الألاَق بملايين الشموس . لتنهض ورودك الحمراء من أعماق هذا التحلل والفساد ، فأنا لا اعتراض لي على هذا الإنبثاق . وإذا ماتدفقت سيولك يوماً وجرفتني في مجراها وأنا نائم كذرة غبار أو حشرة أو حصاة أو ورقة ذابلة فسوف لن أكون تعيساً وأنا أتدهدى متلاشياً في غمرة طوفانك الجميل القادم .

على أبواب الفجر أيقظته الصرخة .

غرفة مسربلة بالظلمة والفراغ ووجيف الخوف والرجل يرتجف تحت ندى العرق الحار الذي بلّله . كانت هناك أصوات يطلقها رجل كأنما يُذبح . وكان يفتح عينيه ويغمضهما وهو يحاول الإفلات من براثن القطط الوحشية التي قيدت يديه ورجليه .

في أعلى سقيفة البيت ، فوق سريره ، جثا على حافة السقيفة رجل محروق الوجه يشبه الغجر وقد دلّى قطاً برياً كان يمسكه من ذيله مهدداً بإفلاته على الرجل النائم ـ المستيقظ . ورأى الغجري ذا الوجه الصلب المحروق يقهقه كاشفاً عن أسنانه الناصعة وهو يلوِّح بهرِّه الأرقط الشبيه

بنمر صارخاً : أن مجرى بولك مسدود وهذا القطّ سيدخل في مجرى البول .

وداخل الكابوس ، قبل قدوم القطط ، حلم بالذهاب إلى الصيد في الغابة المجاورة للبيت والمطوقة بالأنهار ، ليصطاد البط البرّي .

في البيت الواسع رأى أباه الميت يتحرك على شكل طيف ممحو المعالم يرتدي ثياباً بيضاء كأنما عصب رأسه المجروح بعمامة . كان قد طلب منه قبل ذلك بزمن أن يوقظه باكراً بعد أن جهَّز البندقية والخرطوش وسائر معدات الصيد . وإذ توجه نحو سريره لينام فوجئ برجل غريب ينام فيه . رجل تذكر أنه يشبه حارس زنزانته في سجن الحلة . وهو تحت موجة الإندهاش من قدوم هذا الرجل الذي ينام في سريره ، رأى البيت الواسع نصف المظلم يعجّ بأناس غرباء لايعرفهم ، خُيِّل إليه أنه لمح بينهم أمه مرتدية ثوبها الريفي المزركش الواسع ، وبدا رأسها معصوباً بمنديل أسود . وقبل أن يذهب إلى النوم تذكر أنه كان يحكي ، قرب الموقد الأرضي ، حكاية مشوِّقة وغريبة لايذكر كل تفاصيلها . إنه يرويها للأب والأم والأخوات . حكاية عن السفر وجمال الطيور والأنهار والبحَّارة ومغامراتهم والبلدان التي زارها والجزر الخضراء العائمة والنساء العاريات فوق الصخور المغطاة بالطحالب الملساء .

وتذكر ، وهو يروي الحكاية ، عبارة غريبة انفلتت منه حول عدم ضرر تناول الحشيشة والنوم مع ابنة الجيران الدميمة التي رأى مابين فخذيها وهي تصعد الشجرة المجاورة للبيت ، وقال أن هذا أفضل من اللعب بالأعضاء وممارسة العادة السرية الضارة بالصحة ، وآنذاك نهره أبوه لأنه أفسد الحكاية برؤى رديئة ومنحطة لاتليق بقوم أتقياء يخشون الله . وإذ تحرك لينام منهوراً ومكتئباً رأى جميع الأسِرَّة والفرش الملقاة على الأرض مليئة بناس غرباء استلقوا في حالة فوضى . ونادته الأم لتصالحه مع الأب لكن الرجل الأبيض نهر الأم : دعيه . غداً نصالحه فتذهب كآبته . إنك تفسدينه بالدلال .

كالطيف رأى الأب يجهز له فراشاً لينام فوق أرض عارية في زاوية من البيت بدت منحدرة ومغطاة بالحصى والأوتاد التي تعرقل مدّ الفراش .

في تلك اللحظة المختلطة نهض الرجل الذي احتل سريره وتوجه إلى المغسلة ، لكنه بدا خائفاً من كثافة الظلام وانهمار المطر الغزير خارج البيت .

من جدار مفتوح في المنزل لاحت له الغابة . رابية معشبة تطوقها المياه حتى لتكاد تبلغ حوافها ، ووسط الرابية الخضراء لمعت كؤوس من الكريستال الأبيض . وقال الأب للابن بأن الصيد مستحيل في هذا الجو الممطر والخطير ، وإن عليه أن ينام حتى يهدأ هطول المطر ، لكن الولد الممتلئ برغبة عارمة للصيد قال بأن رجلاً ينتظره في الغابة ليوصل إليه الخرطوش وعليه أن يأتي بالكؤوس الكريستالية الموجودة بين الأعشاب . وبدا الأب خائفاً في سرّه من أن الولد لو خرج في هذا الجو المكفهرّ فقد لايعود ، من أجل ذلك طلب منه متابعة سرد الحكاية الجميلة لأنه سعيد بها وفي الصباح ربما تحسَّن الطقس وآنذاك يذهب إلى الرجل الذي ينتظره ويأتي بكؤوس الكريستال . وتساءل الولد وهو يرى الناس نائمين في البيت منذ وقت طويل ، أين ينام ، ثم سأل أمه وأباه لماذا لايوقظ هؤلاء ليخرجوا إلى الطبيعة بعيداً عن هذا الظلام حيث بدوا له كأنهم يتعفّنون تحت الأغطية .

فجأة بدا البيت مقفراً . كان الآن وحده تحت الفراش الثقيل وتحت ضغط الكابوس . عندما تحرك وصرخ ، رأى قطاً وحشياً ضخماً مدلى فوق قدمية وصدره . ورأى القط يفتح فمه ويزأر كالنمر . وجاءت قطط أخرى فجثمت على يديه ورقبته ، وامتلأ البيت بآلاف الهررة البرّية واثبة ، زائرة ، ومن حافة السقيفة رأى الغجري المحروق الوجه يؤرجح نمره الأرقط ويقذفه فصاح مستنجداً بأبيه لينقذه لكن أحداً لم يكن في البيت آنذاك .

- 10 -

في أصيل اليوم التالي لليلة القطط الكابوسية شُجّ رأس مهيار الباهلي بزجاجة كوكاكولا قذفها نحو صدغه عبد الحسين مسؤول البعثة العراقية في بونه .

كان الأصيل فوق شجر الساحة يتراخى كسلاً ، وفي الفضاء بدت أسراب الخطاطيف المنطلقة كالسهام كأنما تقيم مهرجان ماقبل النوم بطيرانها الرشيق وانقضاضاتها فوق الشجر وسطوح القرميد . وكانوا كعادتهم ، يتحلقون حول الطاولات المتناثرة تحت شجرة الدردار . يثرثرون عن هواجس السفر وتبديل النقود الجزائرية بالفرنك أو الدولار أو الاسترليني ، وبيع وشراء السيارات ، وآخر الفضائح والرشاوى ، والنميمة على الغائبين من زملائهم .

كان روتينياً ذلك بين هؤلاء المهاجرين والمنفيين والمقذوفين خارج بلدانهم ، في مدينة صغيرة مغلقة لاتقدم أية مسرة حقيقية تمتص الوقت المضاع .

عندما انطلق عبد الحسين ونصر الطويل ينمَّان على مهدي جواد الغائب ، استُفِزّ الباهلي وبدأ يتململ .

طَفِقا يتهكمان على الرجل الهارب من بلاده ، والذي يدّعي الثورية في الوقت الذي لايُرى فيه إلا مع هذه الطفلة الجميلة المخدوعة بصعلوك لايساوي فلساً في بلاده .

في البداية جرى الحديث عادياً ، تدخل خلاله ذو النون معلقاً : يامعوّدين قد تكون آسيا أحلى من مهدي لكنه عراقي أصيل في الفراش وهذا مايهم المرأة .

وعلّق داود الذي ينصب أبداً الكمائن لذي النون : ها . عيني ذو النون أنت جربت مهدي في الفراش حتى تقول أنه أصيل !

وصرخ الشاعر مستفزاً ضاحكاً : أبو العيورة . اسكت أنت ياكرخنجي . عندما أطلق عبد الحسين عبارة : لكن مهدي جواد ليس أكثر من طبل أجوف يتستر بالكلمات الرنانة والتعالي الثقافي والهجوم على بلاده تحت ستار النقد الديمقراطي ، تدخل الباهلي مستاء : أي افتراء ! مهدي يهاجم روح الاستبداد والطغيان في العراق وهذه حقيقة ساطعة .

بعصبية سحق مسؤول البعثة سيجارته تحت قدمه . نظر إلى مهيار بعينين تقدحان شرراً : اسمع عيني مهيار . مهدي جواد وأنت وسائر الحاقدين لاهمّ لكم سوى التشنيع على بلادكم هنا . الشعب في العراق عارفكم زين . زمرة منبوذين معادية تشوّه المسيرة القومية بالكلمات الحاقدة اللامجدية . شنو هاي عيني الماركسية المستوردة التحكون عنها ! أصلاً أنتم في واد والشعب في واد . أنتم غرباء في بلادكم . من أجل ذلك لفظكم الشعب لفظ النواة .

واستطرد وهو يضرب على الطاولة بقبضته : انظر سيد مهيار . أنت والثوري مهدي لاشيء . قيادة الحزب الآن في الجبهة الوطنية تحت راية حزبنا وقد وقّعت على عدم النشاط الحزبي بين صفوف الجيش والطلاب والمدرِّسين . قل لي . اسمع . باسم من تزاودون وتدّعون المعارضة ؟ من تمثّلون هنا في الخارج حتى تقومون بتنظيم خلايا سرية ؟ هذه أمور نحن

نعرفها ويجب أن تعرفها السلطة الجزائرية أيضاً !

- أي افتراء . أي تزوير ! نحن لسنا من الحزب الرسمي .

كان مهيار الباهلي يتلوَّن وتتقلص عضلات وجهه وهو يلطم برأس حذائه عارضة الطاولة .

تدخل ذو النون بحياده الحكيم . قال لعبد الحسين بأن الإتهامات تؤرث الأحقاد والصراعات : نحن هنا أسرة تدريس عيني عبد . كلامك مردود بخصوص مهدي . لأنك مسؤول عليك أن تكون حيادياً . أنت تتهم مهدي ومهيار بتهمة قد تؤدي إلى السجن أو الطرد . لا . لا . هذا لايجوز أبداً . نحن في بلاد ليست بلادنا ومحرَّم فيها القيام بنشاط سياسي .

ولأن هؤلاء المهاجرين حول موائد صغيرة لم يكونوا كتلة متجانسة لا في السياسة ولا في الحياة اليومية الخاصة فلم يكن غريباً أن يقول حسان يحيى : خرا برب السياسة ومشاكلها . ويهمس داود في أذن ذو النون : عش امرأة أفضل من كل الثورات . عصفور باليد ولاعشرة عالشجرة .

كان كثيرون قد خرجوا - وهم غير مصدقين - من تلك الصحراء الحارة والجائفة ، وفي رؤوسهم الجزائر المتاخمة لباريس التي سمعوا أو قرؤوا عنها . باريس الحي اللاتيني والبيكال وأفلام العري وأسطوانات الجنس .

كانت الإتهامات تتعالى الآن على شكل صياحات بين مسؤول البعثة ومهيار حول خرق القانون المحلي والدعوة إلى تنظيمات سرية ، وحول بونه التي تحولت على يد المدرِّسين الأشاوس إلى بنك وخمارة وماخور وكاراج سيارات وسوق سوداء ، وأورد مهيار حوادث متلاحقة كاغتصاب طفلتين في مدرسة عبان رمضان وقتل طفلة بسيارة عراقي مخمور ، واشتباكات الليل بالمدى مع الجزائريين ، وعلاقة بعض المدرِّسين بالشرطة السرية المحلية .

واستطرد : مهدي جواد خارج هذا العفن ولم يفعل مايشينه أو يشين هذا البلد . من أجل ذلك قلت بأنه ليس سافلاً .

سدى كانت تتبدد جهود ذو النون ليهدّئ هذه الانفجارات التي أثارت العابرين وشدت أبصارهم .

لقد بدأت الأمور تأخذ اتجاهاً آخر ، عندما اتهم مهيار عضوين من أعضاء البعثة بتقديم تقارير أمنية للسلطة الجزائرية وإرسال نسخ منها

إلىالعراق : هل هناك ماهو أكثر خزياً من هذا البلد ؟ لماذا هذه النذالة ؟

كان الآن يوجه عينين تنضحان ازدراء نحو وجه المسؤول . وعندما وصمه المسؤول بالكذب والتواطؤ السياسي مع مهدي ، بصق الباهلي في وجهه .

تلقى مهيار زجاجة الكولا المقذوفة إلى رأسه بأصابعه فشجَّت جبهته ورضّت أصابعه ، كان عبد الحسين الذي نهض الآن يشتم ببذاءة متوعداً مهيار ومهدي ومن معهما بدفع الثمن الغالي . وقف الآخرون يصرخون بالعيب والشماتة والولدنة مندِّدين بهذه الحماقة والمهزلة اللامعنى لها . تأبَّط ذو النون مهيار واتجه به نحو الصيدلية وتحلق آخرون حول مسؤول البعثة يهدئونه .

في تلك الليلة والأيام التي تلت ، كالنار في الهشيم ، انتشر اللغط بين أبناء البلدة عن اشتباك العرب في ساحة بونه الرئيسية ، وبولغ بالأخبار على لسان المارة والمقاهي الأخرى بأن العرب تعاركوا بالسكاكين وزجاجات البيرة ، وأن عشرات الجرحى هم الآن في مشافي بونه ، وعلّق البعض على الدم السخون وأن العراقيين والجزائريين ، كيف . . كيف . لايختلفون عن بعضهم في خفة العقل وجنون الدم .

مساء جاءت فلّة وأخبرت مهدي بالحادث فخرجا معاً إلى بيتها . كان مهيار ملصق الجبهة بصليبين من الشاش ومعصوب الأصابع . سلّم باليسرى وهو يبتسم قائلاً : نحن ندافع عنك ونجرح وأنت تعانق آسيا الأخضر على البحر .

وضحك مهدي : هم أخوات القحبة تركوا لنا غير البراري ! قل لي الأمر بتفاصيله ؟

بعد أن شرح ماجرى قال : أعتقد أنهم سيركلون مؤخراتنا قريباً ليرموا بنا خارج هذا البلد .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ شيوعيون هدّامون معادون لمسيرة القومية في المشرق والاسلام في المغرب ، هل هناك أسهل من هذه التهمة ؟ ثم استطرد : حاذر في لقاءاتك مع آسيا . ربما لفّقوا لك تهمة مزدوجة !

اغتبن مهدي . سأل عن الجرح إن كان بليغاً وقال مهيار بأنه طفيف حمته الأصابع . فكّر : يزيد ولد الحاج وعيونه المبثوثة عليهما وهؤلاء الكلاب أولاد الزواني . يبدو أنك في الفخ والحياد مستحيل . وجاءت فلّة

بقهوة وصحن كاتو . مهدي جواد وهو يحدق إلى جرح مهيار رأى الرجل يصعد من مرتقاه الأول في نفسه . الرجل الذي يفكر ويقاتل في اللحظة الحاسمة . كان مهيار الباهلي الآن يعلو في عيني مهدي ، لا لأنه دافع عنه على نحو شخصي وجُرح ، بل لأنه أثبت أنه يملك قوة الفعل مع قوة الكلمات ، ومافعله قلب المعادلة الأحادية عنه ، في الآن ذاته بدأت أفكار مهدي الهروبية تترنح ، كما بدا قراره في الجنوح نحو سفينة أو ملاذ أو إمرأة بعيداً عن العواصف ، هروباً أخرق لاينجيه من الأعاصير . كان وسط العفن والوحل والموت والانحطاط والعار والتخاذل والاسخريوطية ، كما كان في النار والرهانات ونجوم القيامة والحروب الأهلية والشقاء والمجاعات والقتل وجروح أهله .

وسأله مهيار : ها . أين وصلت ؟

وقال مهدي : أنا طاف ومزعزع وأحبك أيها الجريح أبداً !

ـ ولكن كيف نجابههم ؟

ـ من

ـ هؤلاء السفلة الوشاة !

وتنَّهد مهدي : السفلة . السفلة . إنهم يحاصروننا وهم الأقوى . صبَّت فلّة القهوة . ثرثرت حول الحادث . بدت حزينة ومجروحة وفي مؤقيها عبرات تلمع . على وجه مهدي لاح غضب ممتزج باشمئزاز : أن تفعل شيئاً ضد المهانة وأنت أعزل ! كلاهما أحسا بالحصار الخانق في تلك اللحظة ، وبالعزلة . كزّ على أسنانه وسحجها :

ـ لاتوجد أسلحة كما ترى . تلك المسألة دائماً .

ـ كما لايوجد بشر ياصديقي . بشرنا مازالوا يسبحون في رمال الله والعصور المنحطة . كل شيء يجري في حياتنا باسم الله مجراه ومرساه واسم الحاكم بأمر الله .

ـ ها . عدنا إلى الاسطوانة إياها ! بربك دعنا من هذا . خلينا بحالتنا وجرحك وكيف نعمل .

ـ سيشون بنا .

تدخّلت فلّة قائلة بأنها تعرف كوميسار الشرطة ويمكن أن تشرح له الأمر بكل ملابساته ليحميهما .

وسأل مهدي غامزاً : صديق أصلي . أصلي . قولي الحق فلّة ؟

ابتسمت : نعم . ياأستاذ . من النوع السريري .

ـ وإذا مابدأ استجواباً حول صلتك بنا وحماستك للدفاع عنا ؟

ـ أووه . دعك من هذا ياشيخِ !

ورد مهيار : لا . عيني فلّة . خليك من هذه المتاعب . حدا بيعلَم الدب على رمي الحجر . مجرد التلميح السياسي لكوميسارك كافٍ لوضعنا في دائرة سوداء يبدأ بعدها التحقيق .

وقال مهدي بأن الأمر تافه ولايستحق كل هذه اللهوجة ، فهؤلاء الكلاب سيصفون حساباتهم في العراق فيما بعد . وما حدث هنا عابر لاقيمة له .

انفتح ذهن مهيار حول فكرة إعلام مدير المعهد بما جرى ، فهو عضو قيادي في قسمة الحزب وكمسؤول إداري ينبغي أن يدافع عن احتمال النيل منه كمدرِّس له حصانته .

ـ زين . فكرة معقولة . غداً تأخذ تقريراً وتقابل المدير .

قال مهدي .

وهو يودعهما : شدّ عزمك أخي مهيار . نحن أقوى منهم مادام الدم يسيل .

غمز فلّة : فوله ياالحنّانة . حنَي الليلة على صديقنا الحلاج الجريح . ضحك مهيار بجلجلة : ياحلوف . هاقد بدأت تعتنق ديانة الفاسق ذو النون .

وفي المدينة بث يزيد ولد الحاج عيون مخبريه .

سراً كانوا يطاردون آسيا ويتعقبونها بعد خروجها من المدرسة ، وهي تتجه إلى بيت مهدي ، أو تنزل إلى سوق المدينة لتبتاع ، أو تتجول في الشوارع مع صديقاتها .

حتى ولد الحاج كان يقوم أحياناً في أوقات فراغه بأعمال الدورية . كانت آسيا متوجسة تشعر بما يحدث . لقد أوحت لالا فضيلة من طرف خفي لابنتها بالأمر : عليك أن تعودي باكراً إلى البيت ياابنتي . تأخرك يسبب بعض المتاعب وأنت تعرفين يزيد وعقليته الجزائرية الصعبة .

كما استطردت لالا بأن مهدي رجل عاقل وشريف ويستحق كل خير ، وهو مختلف عن الشرقيين ، وأنها تحبه كولدها رابح .

ـ إنه منّا وليس غريباً . لكن يزيد في هذه الأيام مهتاج وعصبي أكثر من أي وقت آخر . يزيد قوي يا آسيا ولانقدر على مقاومته . قادر على ايذائنا وايذاء مهدي .

على قلب آسيا يضغط الحزن والمقت ، وحبّ لالا فضيلة . تدرك أن ولد الحاج يقف بينها وبين مهدي كالسيف المسموم .

ـ ماما . دعيه يكلمني . أنا أعرف كيف أجيبه .

ـ أنت تعرفين كيف يحملني المسؤولية .

ـ أنا ماعدت طفلة يا يوما . لماذا يتدخل في أموري الخاصة ؟ !

وعندما تسأل الأم إن كان مهدي جواد حقاً شيوعياً ويميل لابن بيللا ضد بومدين ، تستنتج آسيا أن يزيد هو الذي أوحى للالا بذلك .

تسأل البنت أمها عن جلية الأمر ، فترد لالا بأن يزيد يقول عن الشيوعيين بأنهم لايؤمنون بالله ، ولايفرّقون بين الحلال والحرام ، يزوّجون الأخ من أخته ويساوون بين الأمير والفقير ، وأنهم سيغتصبون الأملاك والأموال ويعطونها للفقراء واللصوص والعاطلين عن العمل .

ـ يوما . أتصدقين ذلك حقاً ؟

ـ يا ابنتي أنا أمية لاأقرأ ولاأكتب لأنني لم أدخل المدرسة . هكذا يحكي لي يزيد .

ـ لأنه يكره مهدي يقول ذلك .

ـ ولكن أنا لاأصدق أبداً أن مهدي منهم . أعوذ بالله . مهدي أعقل رجل شفته في حياتي .

ـ عمي . قولي لماذا يكرهه اذن ؟

ـ يزيد لايكره مهدي . يخشى أن تتعلمي الشيوعية وهذا حرام ومخالف لدين نبيّنا محمد .

ـ بلى . بلى . عيناه على مهدي كيما النار . يوما . ورحمة تربة بابا مهدي غير مايفتري عليه يزيد . أنت تثقين بي أليس كذلك ؟

ـ أكيد .

ـ عمي لايطيق مهدي ويكره العرب . يرى فيهم غرباء قدموا الجزائر ليفسدوها وينهبوها . هذا هو الحق كما أقول لك .

ـ تُباغت لالا فضيلة : كيف تصدق أن يزيد يحقد على العرب . ألسنا

جميعاً مسلمين ؟

وتوضح آسيا بأن يزيد بربري متعصب ، يرى في البربر الرقي والتحضر في حين ينظر للعرب كبدو متخلفين ، ولولا السيف لما دخل البربر الاسلام . إنه يعتز بتاريخ الكاهنة وكسيلة اللذين قاوما الاسلام مع الروم أكثر مما يعتز بتاريخ الاسلام .

تتشوَّش الأم فتختلط عليها الأمور . تقول : مادام الدين قد وحدَّنا فما الفرق بيننا الآن ؟

- لافرق . لافرق الآن يا يوما . الجزائر للجميع . كل الجزائريين اشتركوا في الثورة وطردوا الاستعمار . المتعصبون من أمثال عمي هم الذين يفرِّقون . عمي مايزال يوالي فرنسا من خلال مصالحه التجارية وأنت تعرفين أنه بدأ يهرِّب أمواله إلى مرسيليا وتونس . غبَّ الحوار يرتبك عقل لالا . قناعاتها تهتز بما يوسوس به يزيد في فراش الليل في اذن هذه المرأة الطيبة التي لاتعرف السياسة ولا الحقد ولا التاريخ .

لابد أن آسيا الذكية . طفلتها البكر ، بدأت تعرف كثيراً من الأمور المعقّدة .

- 11 -

الليلة الليلاء .

الليلة الثانية بعد الألف .

سمتها فلّة أو مهيار أو كليهما .

ليلة الضجعة الأولى التي تواصل حبها حتى الصباح .

فلّة المعطَّرة ، الحزينة لجرح مهيار والساهرة عليه بحنان أمومي . ومهيار المحطمة أحلامه والملقى غريباً جريحاً في وطن الثورات المغدورة .

وهي التي جاءته في الهزيع الأخير . المرأة الخارجة من حمام دافئ والعابقة بالعطر في ثوب شفاف . خصبة ومتوهجة ، وهو المتعب من كل ماجرى ويجري . حصان المسافات الطويلة الذي يُنهك قبل نهاية الرهان . وهي الجاثية قربه توشوش عن الزمان الصعب والأحزان وموت الحلم ، واللاشيء ، والتزوير ، والعصور الخنزيرية التي عاشتها . تمد أصابعها المعروقة إلى جرحه ثم تمسح وجهه وشعره . أصابع حنونة

وحارة لامرأة غدرها الزمان الأسود . وليل بونه سديم مغلق ، كئيب ومفزع للقلب الغريب ، ووحدها المرأة ربما كانت العزاء من الجنون والليالي المستوحشة . ومهيار الباهلي الذي كان يتوجس فيما مضى ، ويتصوَّف توقاً إلى ماهو أبعد من صرخة الجسد ، يهبط عليه الآن دفء وعذوبة هذه المرأة التي ساكنها أكثر من نصف عام ولم يمسسها .

لكنه التوق أيضاً إلى امرأة بعد غياب طويل . هذا النداء الطبيعي للجذر المشتاق للري . إنه يغمض عينيه تحت نقزات الجرح ، واستيحاشه العضوي فيرتمي ستار شفاف بينه وبين المرأة البعيدة .

بغتة تأتي الحمى ويبدأ الجسد نوبات البرد والحرارة . أمطار من الصقيع تهطل على الجسد النحيل فتبدأ الرعشات ورقصات الأسنان ورجفان الأطراف . لكأن القلب يثب من مكانه صاعداً خارج الأضلاع . أصوات :

الدفء . الدفء . النار . النار . مع الثلج المتهاطل على مسام الجسد المرتعش ، يقبل شبح الموت . مهيار تحت سطوة العراء البارد وأمواج الهلاك .

تأتي المرأة بالألحفة والبطانيات بينما الرجل يتململ صارخاً :

آه . سأموت . ماما . ماما . أين أنت . ماما !

تفزع فلّة بوعنّاب . صقيع البرد الذي راح يهمي على مهيار يختطفه ويرحل به إلى التلال الثلجية . نحو العراءات المكشوفة والريح الصرصر . أسنانه لاتتوقف عن الاصطكاك هذياناته تأخذ مدارها الموتيّ . يتذكر أهله وبلاده وأصدقاءه القدامى الذين ماتوا ، وطفولته يهذي ثم يبكي ثم يضرب الفراش دافعاً الأشباح التي تهاجمه .

كانت صرخات الآلام والطفولة والموت تترامى في أرجاء البيت كأنها أصداء نعي لرجل يحتضر . أحست فلّة بأنها تتهاوى من ذروة جبل ، غير قادرة على فعل شيء أمام هذه الحالة المباغتة . فكرت للحظة أن تأتي بطبيب لكنها تذكّرت أنها ستترك مهيار وحيداً بعد منتصف الليل وهو تحت صقيع الموت .

بهدوء تسللت قربه . طوَّقته بحنان ضاغطة بلطف كلية جسدها بجسده الراعش الملتهب . بدا الليل طويلاً ومقلقاً ، والحمى الصقيعية مديدة كهذا الليل ، ومع أن فلّة كانت تدرك أن ماينتابه ليس إلا حمى عابرة جاء بها الجرح والغربة وأحزان مهيار المختزنة ، إلا أن الرجل بدا

مذعوراً وهاوياً تحت وطأتها ، مستسلماً لغياب سطا على وعيه وهبط به إلى هاوية الموت . كانت المرأة مربكة وخائفة ، راغبة في إدخاله بين أضلاعها لتعيد له حرارته واتزان جسده الهلع . اشتبكت به بذراعيها وفخذيها وبطنها وصدرها وهي تشتمله تحت كتل من الأغطية والبطانيات . هو الآخر راح يتشبث بها كرضيع . كلاهما كان يتضرع ويوغل ويحتمي ويصدّ موجات الصقيع والموت والعزلة الروحية .

لاهي دَرَت ولا هو ، متى انجلت ريح الثلج ، وكيف هبطت حرارة ليل بونه عليهما في ذلك الصباح الجهم ، فبدأ التعرُّق والوهج لجسدين عاريين طال توقهما . كم بدت الحمى مريحة في أعقاب الثلج ، وكم كان الجسدان دافئين وحميمين وقادرين على عزل الموت ونفيه في لحظة التجاسد الحريرية الوهَّاجة !

سيقول مهيار الباهلي لمهدي في اليوم الثاني بأنه نجا من الموت بأعجوبة ، وإذ يفلسف الحالة شاطحاً بها من مدارها الواقعي يؤكد بأنه نجا بجسد فلّة : لقد افتدتني كما افتدى اللهُ اسماعيل بالكبش .

باغتباط ذاهل يروي ماحدث فيضحك مهدي جواد : إنها المرأة وكفى . مليون مرة وصفناها لك كتميمة لكن لاحياة لمن تنادي يامسيو طهارة .

ـ خرا بربك . دعك من الانحطاط العضوي . ماحدث كان خارقاً . ثمة أمور خارجة عن نطاق المعقول . بعدما حدث لي صرت من جماعة اللامعقول . أنت مفصول . أعني الجسد والنفس . الجسد مغمور بالثلج وهو يموت . النفس طائرة ونائية تريد أن تعود إلى جسدها ولاتستطيع . ألوان . ذكريات . طفولة الزمن الأول . الموت يأتيك على شكل موجات وأطياف زرقاء وصفراء . تصرخ : أمي . أهلي . أحبابي . لا أحد . عراءات بيضاء وصقيعية وليل مجوّف . تهوي ولاتهوي . حي وميت . لا الجسد جسدك ولا النفس نفسك . غريب ! من أين يأتي هذا التدمير المخيف لتماسك الروح والأعضاء ؟ أية هشاشة وأي خراب يسكن فينا ونحن لاندري ! نحن المأخوذين بهذه العظمة المتباهية للإنسان . الارادة . الوعي . العقل . المنطق . كل هذا تحول إلى نثارات . في تلك الليلة اكتشفت رثاثة الإنسان وخرابه . خراب جسده الجاهز للدمار في أية لحظة . حتى الأشجار والصخور تبدو أكثر ديمومة وخلوداً منا . عنيت أقل فساداً من هذا الجسد المخلوط من اللحم والعظم والبلغم والأمعاء الجائفة .

ـ لا إله إلا الله الحي القيوم الدائم الباقي والذي لاتأخذه سنة ولا

نوم . ها . عيني !

ينتفض مهيار من هذا الاستخفاف فيتحدث عن فلّة التي أشعلت النيران في العراءات تحت الزمهرير . فلّة المساوية لروح الله الجامعة هبطت كالروح القدس فجمعت الجسد إلى النفس وأعادت تناسق التكوين الأول بعد اختلاله .

ـ هكذا هن يامعلم . إما يجمعنك كالجنين في الرحم وإما يبددنك كالإعصار في كل اتجاه فلا تتعرف بعد على ذراتك التي تناثرت .

وفي تلك الأيام الأخيرة ، بدا مهيار الباهلي ، رغم يأسه العام ودمار أحلام ثوراته كأنما اتقّد جسده وتوهَّجت روحه الخاصة بنار اسمها : فلّة بوعنَّاب .

كانت ناراً شخصية تراءت له بغتة في وقت الضيق كما تراءت العليقة الملتهبة لموسى في الوادي المقدس طوى . خاطبته : أنت في الوادي المقدس فاخلع ثيابك وتقدم . بغتة خلع أستاره كلها وتعرى . اندفع في اللهب فاكتشف الله في جسد فلّة بوعنَّاب : العاهرة المقدسة التي وطئها الثوريون والمنفيون والسفلة والخنازير ، ثم لفظوها لفظ النواة بعد امتصاص الثمرة .

وكما تأتي كل الأشياء الجميلة متأخرة ، هكذا جاءته تلك المرأة المنبوذة والتعيسة . وفي تلك الأيام القليلة المتبقية من حياته في مدينة بونه ، سيكتشف أنه كان شبه أعمى عن الأمور الصغيرة التي تستحق الانتباه حتى في عصور الدراما الثورية .

لقد غمرته المرأة بالدفء والحنو واللذة . أعطته في لحظة الصقيع وتوقف جريان الدم ، نبضها وحرارة دمها . اندفعت داخله كحبل سري أمومي لتغذيه وتعيد له حرارة جسده الميت .

وعلى مدى الشهر الذي تبقى من عمر العام الدراسي ، سيظل الباهلي مسحوراً بتلك اللحظة الأسطورية التي استيقظ عليها بغتة عقله . فالذهول الذي داهم جسده المنسي ذلك المساء سيبقى متوهجاً أبداً وهو يسير في ساحة المدينة يودع شروق الشمس واخضرار البحر ولمعان أوراق الدردار وصرخات البشر على الشواطئ ، وكأنه يكتشف هذه الأسرار للوهلة الأولى بعد فوات الأوان . وعندما سأل صديقه في أصيل من أصائل بونه إن كان سيبقى في المدينة ، كان يعرف ماهو جواب مهدي جواد . لكن مهيار الذي انقذف بذرات العنَّابية فتشظى ، كان يسأل نفسه

في اللحظة التي اهتزت فيها قناعاته .

في تلك الأيام التي يبتدئ فيها التحضير والاستعداد للرحلة الصيفية ، حيث المدرسون يبدون كطيور على أهبة الطيران والرحيل ، وهم مفعمون بالأشواق لبلدانهم ، كان مهيار الباهلي ومهدي جواد متلازمين معاً كأخوين .

كانت حادثة المقهى والتهديدات والاتهامات التي أطلقت حول قيامهما بتنظيم شيوعي ، وامكانية استعداء السلطة والبوليس ضدهما ، تثير نذراً قاتمة حولهما .

ورغم قسوة المدينة وفظاظة سكانها والكراهية المستبطنة للغريب حتى ولو كان عربياً ، فإن مهدي جواد بدا مصمماً على البقاء قرب آسيا .

فيما قبل صدمة فلّة بوعنّاب بمهيار الباهلي ، الصاعقة ، كان مهيار يتحدث مع صديقه حول ضرورة التحرر من استعباد الجسد . وفي المساءات التي مضت ، طفق يحلل بطريقة فظة ومثالية ، تلك العبودية الإمتثالية للمرأة : عبودية الشهوة .

الرجل المأخوذ باليوتوبيا الثورية والمتوهم إنه منذور لأمور عظمى ستنقل قطب التاريخ من جنوبه إلى شماله ، كان يرى في اعتناق المرأة هبوطاً نحو صغائر الأمور وانحداراً نحو السفح .

وليلة تحاورا حول الفشل واليأس ، حول الدمار الراهن ونيران المستقبل ، أفصح مهدي جواد عن صورة الخراب التي يراها الآن ، قال في جلسة سرية : أرغب أن أنزوي الآن عن العالم لأنني عاجز ووحيد . لقد فسد كل شيء حتى الهواء ياعزيزي مهيار . سئمت وضجرت من دور دونكيشوت وحروب الفراغ والوحل . إلى الجحيم عرب هذا الزمان ! في تلك الجلسة تحدث مهيار الباهلي عن الاستدارة نحو الرحم الشهوي كاستعاضة عن الفشل .

ـ ولكن المرأة مسألة هامة في حياة الإنسان !

ـ مسألة هامة . لكنها ليست كل شيء . المرأة في هذه البلاد تنزع لأن تكون مركز العالم بالنسبة للرجل . عليك أن تنسى حتى حليب الطفولة وتدخل فيها . إن رائحتها تغري بالالتصاق الأبدي . المرأة والحب الجسدي تساوي الموت والفناء . وهي تعطيك رحمها الحار تأخذ دمك وبذرة روحك . هناك تستوطن . عليك أن تسكن في ذلك الجحيم لأنك

تناثرت هناك . ذلك يشبه دخول الجذور في الأرض العميقة . أنت ماعدت قادراً على سحب الجذور من الأعماق الحميمة . الاشتباك والصرخات البدائية والندى الدافئ وحريرية البشرة تتقمص أعضاءك وتصعد إلى رأسك لتستوطن الخلايا . تلك هي العبودية . عبودية الهلاك . السطوة التي تستولي عليك فلا تكون إلا صرخة ونداء الجسد . الوحش هو السيد أما الإنسان فعبد . كم بدا في تلك الجلسة أخرق مكبوتاً ومصاباً بما يشبه العنة وسموم الأخلاق . هذا الثوري وهو يشنّع ويحتقر الانصهار العضوي ، وفي برهة خاطفة تراءى لمهدي بؤس عالم يهيمن عليه مهيار الباهلي . هذا العقل المحض الذي خطب يوماً فتاة جميلة عندما كان طالباً في جامعة بغداد . وفي ليلة مقمرة كانا يسيران على ضفاف دجلة في شارع أبي نواس والريح رخاء ، وبدلاً عن الحب والليل الشفاف ، انطلق يثرثر لها عن المادية التاريخية ناسياً نفسه وجسده والليل والخطيئة . هكذا استمر يهلوس وحيداً بين الشجر والصمت بعد أن تركته الفتاة الجميلة عائدة إلى بيتها . يومها لم يلعن السياسة والفلسفة ، إنما صب جام غضبه على تفاهة النساء وغبائهن اللامحدود .

- 12 -

كل شيء على أبواب الصيف العنّابي يبدو كأنه يغادر طبيعته الأولى : البشر والحركة وحسّ الوداع والشمس وسطوع البحر .

الباهلي والعنّابية .

مهدي وآسيا .

آسيا ويزيد ولد الحاج .

لكأن شيطاناً أو ريحاً عاصفة اجتاحت المدينة ، بغتة .

وبدأت المفاجآت تتتالى كما في مسرحية شكسبيرية . في الشارع كان يتبعهما بسيارته البيجو الخضراء ، وعندما انتبها لصدمة الحادث ، شاهدا يزيد ينزل من سيارته التي اصطدمت بمؤخرة سيارة أخرى . لقد رآهما معاً على الرصيف . كان هذا كافياً لفقدان الصواب واندفاع الدم في الأعصاب . غير أنهما وهما يلتفتان على صوت الحادث ويريانه يزمجر مع السائق الآخر ، لم يباليا بالأمر . تابعا سيرهما باتجاه البيت . قالت آسيا : عندما يصل سيشعل عرساً نارياً في البيت .

وقال مهدي : ليذهب إلى الجحيم !

سبقها إلى المنزل . وفي غرفة لالا فضيلة أشعل نيرانه الأخلاقية متهماً آسيا بالعهر . وتلطيخ سمعته في الوحل : شوفي بناتك لالا . لاحديث لبونه إلا عن بنتك وهذا الشيوعي الحلوف . تمشي معه في عز النهار وكأنه حليلها .

تصل آسيا إلى البيت . جو مكهرب تبدو علاماته في وجه لالا ومنار ورابح . أصوات يزيد تعلو وهو ينتقل في أرجاء البيت كثور هائج . تدخل آسيا . تقذف محفظة كتبها في الصالون وتتوجه إلى غرفة النوم وتستلقي على السرير . الأصوات تصدعها . الهيجان يتمدد في الأعصاب صاعداً إلى الرأس ، ويزيد ولد الحاج ، هذا الوباء المقذوف على جناح الريح السوداء ، يحيل بيت الأسرة الوديعة إلى جحيم . هو الآن يتحدث في الرواق عن الشرف والفسق والعهر تحت الشمس ، ولالا فضيلة تحاول تهدئته ، كما يحكي وهو يزبد ويرغي عن حادثة السيارة وآسيا تتفرج عليه غير مبالية بما حدث .

مع دوي أصواته الوحشية في أرجاء البيت ، واتهاماته اللا أخلاقية للأسرة التي فسدت وخرجت عن طاعته ، كان الألم يصعد في أعصاب آسيا وأعماقها على شكل زفرات وورود دموية .

الرجل الذي اغتصب الأم والبيت ، هذا السيد بسطوة ماله ، كان الآن يدمِّر أعماق آسيا مكتسحاً ميراث سي العربي ودمه الذي راح هدراً . ولأنهم صغار في هشاشة أغصان القصب ، كانوا يترنحون تحت هذه الريح الصرصر ، وينكسرون .

لكن آسيا الأخضر ، الحزينة ، والمتوحدة ، وصديقة مهدي كانت تنزع للمقاومة ومواجهة هذا الخراب . إن روح والدها تهبط عليها الآن في لحظات الضيق والاختناق لتهبها الصرخة . عندما كانت تعاتب سي العربي في أحلامها لموته وترك الأسرة وحيدة كان يبكي الأب فتبكي آسيا . تضغط على الفراش بجسدها غامرة وجهها في المخدة فتأتيها الأصوات البربرية : بناتك القحاب . شوفيهم . شوفي . لالا .

ـ يالقحب . ياالحلوف . يايهودي . أيا بيوع ! يا الكومي .

كالرعد يأتي الصوت فترتج جدران المنزل . صوت منبثق من جحيم اللاوعي . تندفع آسيا من تحت الكابوس واثبة عن الفراش .

ـ خنزير . ياهاتك الأعراض . طيز أمك . وين هو ولد الزنا ! نحنا قحاب ياتاجر المارشيه نوار ! خماجنا أشرف من وجوه والديك . غير

نقتلك ياالقحب يافطّار رمضان .

بوغتوا بها ، وباندفاعتها ، وبهذه الصرخة الانتحارية . كانت الآن تندفع كالعاصفة في الرواق الطويل رافعة ذراعيها الطويلين وهي تمزق شعرها وتضرب الجدران : غير نقتلك . غير نذبحك ياكومي . يانهّاب . من المطبخ تناولت سكيناً وهجمت نحو غرفة أمها حيث هرب يزيد واختبأ وراء الباب الموصد : صبرت عليك ياسر يا ولد القحبة .

اعترضوها أمام الباب . جاهدوا لتهدئة ثورتها . كانت تدق الباب وتطعنه بالسكين صارخة بالرجل المختبئ كفأر وهي تهدده بالذبح . ابتدأت أعصابها وجسدها وروحها الداخلية تنطلق من عقالها متحولة إلى عاصفة مجنونة فقدت وعيها وصوابها الهادئ .

طوقوها بين الحنان والبكاء ونزعوا منها السكين ثم أعادوها بصعوبة إلى الفراش تحت الرجاء والشفاعة واحتمال الفضيحة وقدوم الجيران . وهي ملقاة على فراشها جاءتها الحمى والرجفة العصبية والبكاء المرير . بدأت تهذي وترتعش وتضرب حواف الفراش والجدار وتصرخ كملسوعة .

جُرح ظاهر معصمها فسال الدم . أحسَّت بالجرح وشمَّت رائحة الدماء فهدأت قليلاً ، أتوها بالضماد وسمعتهم يبكون قربها ولالا فضيلة تندب : آي . يوما . ياروحي . بنتي ستموت . ياولد الحاج قتلت آسيا الحنّانة . ربي ياخدك من هالدار ويهنينا منك .

بعد أن ضمدوها استيقظت ورأتهم حولها . بدت هادئة لكنها زائغة البصر ، وشاردة . عانقت أمها وإخوتها . وبكوا . طلبت قهوة ثم صمتت . كان رأسها يؤلمها في المنطقة الخلفية .

وهي تصعد من دوارها والهالة المطوقة للحواس والجسد ، تذكرت أنها لابد فعلت شيئاً قبيحاً وصفيقاً لايمكن أن تفعله وهي في حالة الصحو الطبيعي . لبرهة داهمتها شفقة مشوبة باحتقار ، للرجل الذي اختبأ وأوصد الباب خوفاً ثم مالبث أن ولّى الأدبار في لحظة الخطر . جاءت منار بالقهوة وفي وجهها إشراقة نشوة . لقد كسرت آسيا سطوة الفوهرر المصنوع من القش والأصوات الزاعقة والفِسَاء ، بعد أن حوّلته إلى أرنب مذعور وهارب : ربي يعيشك ياآسيا . يابونديا الأخضر . قالتها في السر .

بهدوء شربت القهوة فانتعشت . سألتها لالا عن حالتها فقالت أنها

جيدة . نهضت من الفراش واتجهت نحو المغسلة . رشقت وجهها بالماء البارد . كان معصمها ينقز . نادت منار طالبة منها أن تساعدها في تسريح شعرها . تهامستا حول مافعلت آسيا : أنت راجل ياآسيا . رفعت رأسنا للسما . قالت منار .

سألتها آسيا عن يزيد فقالت : هرب . ولّى كيما الفار . واستطردت منار : ننجم أنه بال في سرواله . نظن . هاه ! وضحكتا بشماتة . كانت منار تسرح شعر آسيا وهي ترسم لها صورة يزيد ولد الحاج راكضاً في الشوارع وبوله وراءه يرسم خطوطاً متعرجة على الأرض والأطفال يهزؤون منه بينما يهرول ملتفتاً بذعر فيما إذا كان البوندي آسيا الأخضر يجري وراءه شاهراً سكينه ، حتى إذا ماوصل دار زوجته الأولى اندفع إلى الحمام ليغتسل ويعود هتلراً جديداً يسترد هيبته بالأصوات والعبوس وإعطاء الأوامر واحتقار الناس .

ـ الحلوف . البوَّال . يظن أنه الرب !

كانتا تهتزان بالضحك من خيال منار الكاريكاتوري .

وقالت آسيا : أنا خارجة إلى بيت مهدي .

في غرفة الجلوس فوجئوا بها وهي تسترد حالتها الطبيعية ، وكأن ماجرى ليس أكثر من كابوس عابر . كم بدت الأم سعيدة بابنتها الجميلة والقوية . سياج الأسرة ودرعها الفولاذي .

* * *

في غرفة مهدي جواد ، بعد أن يحضرا طعام الغداء من البفتيك المشوي والخس والخيار والطماطم ، ويجلسان إلى المائدة ، تروي آسيا الحادث وهما يأكلان ويسمعان الموسيقا .

ـ مؤكد أنه سيتربص بنا ويؤذينا . تقول بمرارة .

ولايقول الرجل شيئاً . يقطع شرائح اللحم ويمضغها مع السَّلَطَة ثم يجرع جرعة نبيذ . يرمق آسيا خطفاً فيشعر بالاعتزاز . يقول في سره : ياللمرأة الرائعة ! يأتيه المستقبل على شكل بيت في الغابات أو أعماق المدن . هو وهذه المرأة ينشئان حياة جديدة تنهض فوق رماد الأزمنة ودمار الروح . معاً في البيت الجديد يضحكان ويعملان ويختصمان ويتضاجعان . معاً في العمل وعلى الشواطئ وفي مقاهي المدينة والسينما والمسارح وقاعات الرقص . ومعاً في ساحات القتال عندما تقرع طبول

الحرب . المرأة التي تقول للرجل : أنت لباسي وأنا لباسك . أنت كنزي وأنا كنزك . الرجل الذي يقول للمرأة : أنت شمسي وجزيرتي وصرخة الدم .

لكن الحلم يرحل . ينشرخ . لالا فضيلة أو يزيد ولد الحاج أو سي الأخضر ، يزلزلون أساسات الأحلام ، فتنهار أعمدة الطفولة ، والحلم الذي لايصل .

ـ ليس مهماً مايفعله يزيد . نحن الأساس . يقول العبارة ضارباً عرض الحائط بكل الايذاءات وخسارات الأزمنة ، مدركاً بلا ندم أنه لن يخسر بعد أكثر مما خسر . ويستدرك كأنما يهجس لنفسه : ماعاد هناك شيء يُخسر غيرك .

وتقول : لن أكون عبدة في بيت ذلك الوحش ولو قطعوني . وفي ذلك الوقت كانت الأحزان والأفراح ، اللامبالاة والآمال ، تتقاطع وتتبدد ، وماكان هناك على الأرض أو الأفق أي شيء صلب أو راسخ أو مضيء . جميع الأشياء والرهانات وعلاقات البشر ، كانت تبدو تحت بصره محكومة بسطوة لا عقلانية ، وبقدرة لامثيل لها على الانزلاق الزئبقي والفرار . وفي اللحظة التي بدأ يراهن فيها على آسيا الأخضر ، كان هناك خفقان سري ، رمادي الملامح ، ينبئ بخسران قادم . كان الخفقان شبيهاً برعشة الزلزال تحت القشرة الظاهرية ، في المناطق العميقة والنائية من أرضه الخراب . أرض الوحوش والمستنقعات وأجداث الآلهة والدم الخثر والعلامات الخائنة والهياكل العظمية وأرحام الطوطم الأول المصابة بالزهري والسفلس وصرعات العصاب والكسوف الدوري للقمر .

وتحت هذه الرعشة كان حزيناً ومنقبضاً لتوريطه هذه الطفلة ودفعها نحو المضائق . وهجس عرضاً : إذا سُجنت أو طردت ياسي مهدي ما الذي سيحدث للفتاة ؟

تناول تفاحة . مسحها بكم قميصه ونهش منها . آسيا أخذت حبة فريز وردية .

وسألت آسيا سؤالاً مباغتاً عن المستقبل : مستقبلهما .

ورآها طي السؤال شفافة ، باسلة ، لكنها خائفة ومرتبكة وقابلة للانكسار بفاجعية طفل يتيم ، أعماقه كالينابيع .

ـ اسمعي . أنت معي أم معهم ؟

وفوجئت : من تعني بـ «هم» ؟

ـ جميع الآخرين . هذه المدينة اللعينة وبشرها وأسرتك والله ويزيد ولد الحاج ، والأوطان ، والسلالات ، والأزمنة العفنة .

ـ لماذا هذا السؤال . هل تشك في حبي لك بعد كل ماحدث ؟

وضع بقايا التفاحة في الصحن . تناول سيجارة وأشعلها .

ـ لا . لا أشك في حبك إنما علاقتك بهم أقوى . لو قلت لك الآن اتركيهم لنتزوج ونرحل عنهم ماتقولين ؟

ـ مايزال ثمة وقت . بعد نجاحي نبحث كل شيء بهدوء .

ـ لماذا السؤال عن المستقبل الآن اذن ؟

ابتسمت وهي تقطع تفاحة : ليطمئن قلبي أننا لن نفترق .

وهزّ رأسه ناخراً بأنفه : قلبك أم قلبي ؟ يا للمعادلة المقلوبة !

ـ هل أنت غير مطمئن ؟

ـ أعرف أنني أحبك وكفي . دعينا من الاستجوابات . كل ما أستطيع قوله أنني خائف أن نفترق يوماً في لحظة الخطر والضعف . هذا مايحدث غالباً لأول حب .

ـ كم أنت مزعزع ياعزيزي !

ـ أعمق مما تصورين .

لملما الصحون والملاعق والشوك وبقايا المائدة ونقلاها إلى المطبخ . انهمكت آسيا بالتنظيف وبدأ مهدي يحضر الشاي .

في غرفة النوم شربا الشاي ودخنا وتحدثا باختزال حول الأمور الصغيرة : المدرسة وضرورة نجاحها وسفالة الذين جرحوا مهيار والعشق الجديد للعنّابية والباهلي . وهما عاريان تحت الملاءة الخضراء ، ومطوقان جسداً لجسد ، حدثها عن ليلة مهيار وفلّة ، وكيف أغمي على الباهلي تحت وطأة الحرارة العنّابية . حرارة جسد فلّة التي اغتصبت الرجل الجريح وهو فاقد الوعي .

وقالت وهي تمصّ ريقه : أخيراً ذاق صاحبنا طعم العسل العنّابي .

ـ فاض حتى أغمي عليه .

ـ قل الحق . نمت مع فلّة ؟ كانت تعابثه .

ـ من لديه هذه النعم الآسيوية الخصبة لماذا يشتهي الصحراء ؟

كان يداعب تلال المؤخرة الحريرية وحلمة الثدي .

- للتنويع . الأمان لكم أنتم الرجال كالأمان للخَنَش الأرقط .

ضحك وهو يجمعها إلى جسده : صحّ . والله صحّ . خلق الرجل للمبيت في أكثر من عش . تلك رغبة ربنا وأنبيائنا المرسلين .

كان يناكدها وهما على أبواب هبوب الجسد .

- أي عشّ يفضل وريث الأنبياء ؟

- الدافئ والضيق والذي يغطيه بالأعشاب الندية في أوقات الحمى وهبوط الوحي .

انزلقا تحت الملاءة ، ودخلا في هالة اللهب الأزرق والوردي . في ايقاعات الرقص الافريقي العاري وصرخات الدم والتآكل الجرثومي ووثبة الروح التي راحت تصعد داخل أمواج إعصاراتها وصفير الرياح ودورة الطفولة البدائية ، والموت .

الجسدان العارمان ، المزهران كالليل الربيعي ، المصطدمان والألاّقان كحد المدية ، يرتفعان وينخفضان ويتماوجان ثم يتعانقان كأفعوانين بين الحشائش الندية ، واقعين تحت السطوة البربرية للدم وهو يندفع من الرأس والعمود الفقري وفجوات الجسم التي اجتيحت بالنار ، خائفين تحت دفعات اللذة من اقتراب صرخة الموت القادمة .

* * *

في تلك الليلة جاءه رجل غريب بثوب أبيض وعمامة خضراء وقال له انهض من سباتك وغوايتك . وقال للرجل الغريب لست بناهض . وهجس الرجل بأنك في الظلمة والوحل والناس في التيه والقتل ، وقال أريد أن أظل هنا في هذا الظلام السحيق . ؟ وصرخ الرجل بأن الأرض مزهرة وتصطخب بالينابيع وأصوات الطيور وأنت بعيد في الكهوف المغلقة . وقال للرجل الهابط والملّفع بابيضاض ريش الطيور البحرية : أنا خارج البياض ودفق الينابيع ، ومأرغب به الآن هو الموت .

ومن إزاره انتضى الرجل خنجراً لامعاً ، لوح به في الفضاء وهدد به باتجاه القلب المظلم .

وكان هناك أفق معتم يضيئه برق فضي يضيء بحراً والرجل الأبيض يتربع الأفق . يخاطب رجلاً وراء نافذة : ألا ترى البروق ؟ فيضحك الوجه الملصق بالنافذة . يضاء بالبرق للحظة ثم ينطفئ . ويقول رجل الآفاق : هي ذي رعودي . وفي أعقاب الوميض تهتز الدنيا بالرعد .

يقول تحت السطوة وموجات الكابوس : تلك المرأة تلك المرأة لاتضيعها إذا ضيَّعتها ضاعت حياتك .

مطر على النافذة . مطر على شط البحر . رجل وامرأة عاشقان على حافة الموج والمطر ينهمر . مقوسان . هو في صدرها وبين فخذيها وهي منطوية فوقه تحميه من البلل وبرد الليل . يوسوس للظلمة المطيرة أن أدخليني في الرحم الحار ، ويصرخ رجل البروق من أقاصي البحر : انتبه للكنز الذي وُهِبته . يوسوس للمرأة الدافئة والمفعمة بالحنان : أنت مقبرتي . افتحي صدرك . افتحي أبواب البحر .

ومرة أخرى يقذف رجل البرق مدية باتجاه القلب المظلم . ويقول الرجل الضعيف والمهزوم والذي لم تجرحه المدية :

أنت أيتها المرأة مأواي .

وبدا له الرأس مفصولاً عن باقي الجسد . الجسد الغارق في العتم والرأس المطل من وراء البلور على البحر المرصع بالبرق . وعلى الرمل كان القلب المشغوف .

ثلاثة أجزاء كانت موزعة ، والرجل يرمي سكاكينه إلى مدارات القلب المظلم . وفلّة بوعنّاب تقول بضراعة عارية : نم معي مرة واحدة . وخالد أحمد زكي يطفو فوق الوحل ويسأله إن كان الدم قد تحول إلى طين . والرحم الحميم لآسيا الأخضر يطوقه على الشواطئ البليلة ، تحت شجرة الصنوبر فوق العشب الغضّ على مداخل الأصيل ، ويصرخان . هو وهي والأرض يصرخون تحت الهزيم الرعدي للجسد والأرض : أنت كنزي وبرق ظلامي . ادخل فيَّ . ولايأتي شيء سوى الفراغ والظلمة وهذا البريق الكاذب لرعد سماوي يتألق بتشكيله الجمالي والسريالي في ليالي الطبيعة المحايدة .

ثم تأتي الأشياء وتمضي . طيور الحجل والدراج والكروان واللقالق والدرغل والسمان والبط تعبر السهب الزرقاء ، والبندقية لاتطلق . إنها تمر فوقه على شكل أسراب ملونة وسريعة خافقة بضوضائها وخفقان أجنحتها ، وهو مرتبك باستحالة صيدها وعبورها الحرّ ، وحسراته ، والبندقية التي تتحول إلى عصا أو قصبة في لحظة الإطلاق . ويرى أنه تائه في هذه البراري بين العوسج وحقول القمح ، والطيور تفرّ وتفزع وهو لايصطاد شيئاً ، ويتغير الحلم فتأتي النساء اللواتي يشبهن الطيور تارة وتارة يشبهن الأرانب وأحياناً يرتدين جلود الأفاعي أو أثواب طفلات

المدارس الزرقاء . يقبلن عليه فيخشى مسّهن ، ينهض في أعماقه النائمة إحساس بأن المرأة هي الموت ، وهي البحار العميقة التي تجرفه بتياراتها المظلمة والسحيقة ، والفضاء الذي يرفعه إلى الجحيم الملون في أعالي السماء ، ولأنه كان ملحداً ومجوفاً كان يتصور أن الله يتقمص المرأة ويغويه ليدخله في جسدها ثم يختطف روحه ليعاقبه في عرش مملكته . وهكذا كنّ يأتين معطّرات بالندّ والصندل والعنبر والبخور وفي أيديهن باقات من الآس الأخضر أو زنابق القبور البنفسجية أو مباخر من الفخار الأحمر ، يرتدين أثواباً حريرية شفافة تشبه أثواب الملائكة في الصور والتزيينات ، يغرقنه بالروائح وملاسة الحرير وانصقال الجسد والتأوهات الحارة ، لكنه كان يرتعد في لحظة ولوجهن وهو تحت السطوة البرقية للجسدين اللذين سيباغتهما الله وهما مشتبكان .

وحده الذي يُرى الآن محمولاً على محفة أو جرف صخري أو تابوت المقبرة . حي وميت وحوله الحشد .

أصوات : مولاي صلّ وسلَم على حبيبك خير الخلق كلهم .

صوت : مولاي . مولاه . مولاكم . بارينا ، ومنشؤنا ، وفانينا . فاطر السموات والأرض ومابينهما . ربّ الأولين والآخرين . رب البشر والشجر والحيوان والماء والصخر والسحاب والطير أجمعين . أنقذنا في هذا الزمان الخطير .

أصوات : انهض وقل : بل ربي وربك . رب المشرقين والمغربين . وقل : سبحانك يافالق السموات وفاطر الأرض . آمين .

صوت : هو القابض على الرعد والصواعق وموازين العدل . العارف ما في أرحام الأمهات وفي أي أرض كل نفس ستموت . الحيّ الذي أوقف الشمس في أفلاكها وردها عن المغيب .

أصوات : بل قل بقوة إمام الزمان : مولاي فيك استفتحت وبذكرك أفوز وعليك توكلت . أنت المبتدأ وأنت المنتهى وإليك يعود جوهر الروح .

صوت : يامن لاهو إلا هو . يامن أنت منه كشعاع الشمس من الشمس والبصر من العين والبرق من السحاب والموجة من البحر .

أصوات : بل قل : هو امام الزمان وكل زمان . آمين .

صوت : هو القادم من عين الشمس . الممسوح بهالات النور . مالئ

الدنيا عدلاً بعد أن مُلئت جوراً . سيد المنبوذين والمنفيين والمقتولين غدراً والذين نهبت بيوتهم وهُتكت أعراضهم فتاهوا في براري الرب بلا مأوى وهم جياع .

أصوات : بل قل : اللهم الموت حق والجوع حق والمنفى حق والحساب حق وهذا العبد الحقير الجاثي بين يديك مذنب فاغفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ياأرحم الراحمين .

صوت : ياإمام الزمان وكل زمان . نحو الموتى والجوعى والتائهين والمسلوبين . تعال واغمرنا بغفرانك وعدلك ياأرحم الراحمين .

مواكب . مواكب . لبشر موشحين بالبياض . ملامحهم شبه ضائعة يرتلون آيات وسوراً وأدعية مقدسة قرب جنازته .

وماكان راغباً في الموت آن رأى جنازته على حافة القبر . كانوا يتلون عليه آيات وهو على حافة الحياة والموت . لكنه ماكان ميتاً . كان في الغيبوبة التي تشبه الموت أثر سهوته قرب المرأة الحميمة .

قرب بوابة البيت وهو يودِّع آسيا الأخضر في غروب ذلك اليوم ستسأله لماذا كان يصرخ في نومه ، فيقول بأن الأشباح جاءته فقاتلها . بخبث أو استهزاء سألت : كيف لي أن أعيش مع رجل تتقمصه الأشباح ؟ وهو يغادرها منكفئاً باتجاه منزله يهجس : أيتها المرأة الضائعة لكم أنت بائسة !

- 13 -

لقد حطمت آسيا كبرياء يزيد ولد الحاج ومرغت هيبته في الرغام غروب ذلك اليوم الفاصل في تاريخ العائلة .

فالرجل الذي كان يتباهى مختالاً كالطاووس في بيت سي العربي ، آمراً وناهياً ، غامراً برحمته من يشاء ، ولاعناً بغضبه من يشاء ، تحول الآن إلى قط منهور يتسلل في أواخر الليل ، بعد أن ينام الأولاد ، نحو غرفة لالا فضيلة ليتكور ذليلاً بين فخذيها .

لم يعد هو ما كان عليه من رب ممجّد ، مُطاع .

فيما مضى بعد أن يوقف سيارته البيجو الخضراء قرب فيلا دولّلي في شارع الكولونيل لطفي ، كان يدلف كأمير إلى المنزل . لقد أغلق المتجر والمقهى وأحصى أرباح اليوم ، وحاسب العمال ، وأكدّ على

ضرورة الانضباط في العمل ناخراً بأنفه امتعاضاً من فوضى بعض العمال ولامبالاتهم واقتدائهم بعمال القطاع العام المستهترين . إنه يتوجه من ساحة أفريقيا عابراً شارع عبد الناصر منعطفاً نحو حديقة العشاق حيث في زنقة اللاكولون يقيم صديقه الفرنسي روبير بائع الخمور .

بعد حديث خاطف يطلقه بفرنسيته المهشمة بربرياً حول الصحة وأحوال التجارة والكساد في عصر الاشتراكية الزائفة ، وضرورة الهجرة من هذا البلد إذا مااستمرت الحال على هذا النحو ، يناوله مسيو روبير زجاجة سكوتش ويسكي في كيس بلاستيك . وهو يهم بالخروج يتأفف من الخراب الاقتصادي وفساد البلد . يضحك مسيو روبير الذي جاوز الخمسين واختار الجزائر على فرنسا بعد الاستقلال : إنها لحالة حقاً . كما ترى .

وهو يخطو خارجاً ببطء ، يقف ملتفتاً إلى صديقه : لاشيء يدوم يامسيو روبير لاشيء . الفرنك الفرنسي هو الأقوى .

يبتسم تحت شارب بدا الشيب يخطه ببياض فضي .

ـ نحن هنا في الحالين . ها . مسيو تذكر ذلك . تذكره يامون آمي .

يهز الخمَّار رأسه ببلادة رجل لم يفقه حرفاً واحداً من العبارة الأخيرة التي ألقاها يزيد ولد الحاج بانتفاج جزائري مفعم بالخراقة .

لقد سبقته اللحوم والأسماك والفواكه والحلوى والخضار إلى الفيللا . جاء بها عاملان من المقهى يدخلان المنزل بثقة مجرَّبة .

هاهم الأولاد والأم ، خدم الأمير ، يقفون على الباب كحراس الملك ، ليؤدوا التحية مرحبين بسيد البيت .

لالا فضيلة في أجمل ثوب حرير ، مبرجة ، ومزنرة بطوق الذهب الغالي المحلق بالليرات العثمانية ، وفي معصميها تلمع أساور الذهب . كورد الربيع تزهر ضحكتها في أرجاء الغرف .

ابتدأت ورشة العمل المسائي .

منار تجهز الحمَّام الساخن . آسيا تقلي اللحم والسمك وتفرم السَّلَطَة . لالا فضيلة منهمكة بترتيب الطنافس والفرش وجلود الغنم التي ستمدها على الأرض في غرفة الجلوس والتلفزيون .

رابح الولد المشرف على التاسعة عشرة ، يتهيأ للصمت والموافقة على ما سيدلي به السيد من حكم وفلسفة وضعية خارقة . إنه بيت سي

العربي . يحتفل بوليّ النعمة ، منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد في أعقاب استقلال الوطن .

الرجل الأمي ، تاجر المارشي نوار ، المالك عشرين مليوناً من الدنانير ، يتحرك ويفكر بمستوى ملكيته .

بأبهة ملك ، بعد الحمام الساخن ، مجللاً بالروب دي شامبر الأخضر ، يستلقي فوق الفراش الزهري الناعم ، وحوله طنافس الساتان الوردي .

في البدء تقدم له منار كوباً من عصير البرتقال .

بعد دقائق يطلب حساء السمك ليسهل الهضم .

بإيماءة ، وهو يتفرج على مسلسل «الهارب» في التلفزيون ، يومئ ببدء العشاء .

بهدوء تأتي آسيا بالطبق الفضي الواسع لتضعه على السجادة بين الفرش الممدودة .

مع اكتمال المائدة ، تكون زجاجة الويسكي تحت يديه قرب إناء الثلج .

يرفع الكأس إلى أعلى ليتأكد من صفائه . وبحركة خفيفة يفتح الزجاجة ثم يصب قدحاً صغيراً يغمره بالثلج ثم يضيف له بعض الصودا . الحاشية تهيء الجيدور والكولا وماء سعيدة . لقد حدد لهم مطارح الجلوس حوله .

لالا عن يمينه قربها آسيا وإلى اليسار منار فرابح .

هو الآن في بداية فرحه وتجلي سعادته .

يتناول بسمكة بلا خبز ، فهو لايحب اللحم المقلي ، لكنه يلتهم سَلَطة الخس والطماطم والبصل ، المفلفلة بالهريسة الحمراء .

بعد جرعتين عميقتين من الويسكي ، تبدأ ملاحظاته حول الطعام غير الناضج الذي يزيد في الحموضة والأملاح . خلال العشاء يتجشأ أكثر من مرة . يطلب ماء فتقدم لالا كأساً من المياه المعقمة ، مرتبكة وخائفة من مزاجه الناري .

يأكل الأولاد بصمت وتوجس ، لكن منار ، هذه الفوضوية اللعينة ، تخرق الصمت الطقوسي ساخرة من آسيا التي تعرَّبت وطبَّقت تعريبها على الطعام .

يضحك يزيد بجلجلة : يعطيك الصحة يامنار . صحّ . وربي صحّ . شوفي . شوفي كيف خربت بونه بالتعريب الخامج .

تعلق آسيا ممتعضة من منار بعبارة : ياالكحلة الفرنسية علاه تشعلي النار علاه يا مهبولة !

يزيح ولد الحاج قناع الإله الممتعض . يأخذ جرعة من الكأس الثانية ، ويلبس قناع الحبور . لابد للالا فضيلة أن تمنحه في آخر السهرة جسدها الغضّ الشهي .

يسترخي السيد قليلاً ، متكئاً على الطنافس والحائط وملكه .

هاقد بدأ ضباب الويسكي المتقد يصعد في خلايا الجسد نحو الرأس الخفيف .

تُزاح المائدة لتمد أطباق الفواكه والحلوى . البرتقال والموز والمشمش الهندي ، والكنافة وفطائر التمر .

بعد انتهاء الوليمة العضوية التي سخا بها ولد الحاج ، تبدأ وليمة الثقافة والتربية .

ومن يعتقد أن التاجر العنَّابي أهوج وأحمق في حياته التجارية كما هو في حياته النفسية ، لابد له أن يقع في خطأ فادح مرده إلى الخلط الميكانيكي بين المسألتين .

فيزيد ، في حياته اليومية ، الاقتصادية ، عملي ودقيق . يعرف جيداً كيف يفكر ويعمل ويدير مصالحه .

هاهو ، بعد الكأس الثالثة ، والحاشية تشرب القهوة ، يشرح ماذا حدث له في يومه التاريخي .

لالا فضيلة مبهوتة برجلها الفهلوي ومعلوماته الدقيقة ورحاب أفكاره التي تستعصي أحياناً على وزير اقتصاد أو مالية .

بعد أن يسهب في متاعب نهاره مع الناس وعمال المقهى ، ينتقل إلى الوضع الاقتصادي العام . إنه يشرح بمزيج من فرنسية ركيكة مع لهجة عربية وبربرية ، الفلسفة الميركانتيلية التي ستُنهض الجزائر من مأزقها الاقتصادي المنهار .

ها هوذا يعبر على اصلاحات بومدين الاشتراكية والثورة الزراعية والتعريب فيقول بأنها ستجر الخراب على البلاد . وإذ يرى هذه الرعية الوديعة حوله صامتة ومدهوشة ، يتوهم أنه نطق بالحق ، فيبدأ اتهاماته

لموظفي الدولة بالجهل والرشوة والنهب . يسم الفلاحين والعمال بالحمير الذين يدورون حول الجبّ وهم مغلقو العيون : لقد دمروا الاقتصاد والبلد بالتسيير الذاتي . هؤلاء البغال .

لقد أطلق رقماً قياسياً ووهمياً عن خسارة القطاع العام : مئة وعشرون مليون دينار خسرتها الدولة في التسيير الذاتي منذ السنة الأولى بعد انقلاب بوخروبه . تصوروا بلداً كهذا . كل عام تتفاقم خسائره إلى أضعافها . بلد لا هو اشتراكي ولا هو بورجوازي ، أين يقع ؟ من ينقذه وهو يتدهور ؟ أغنى بلد في الدنيا في البترول والغاز والمناجم والمزروعات واقع في العجز والديون ! لماذا كان الاستقلال اذن ! ها قد أرسى أسس انتقاداته على أساس رياضي وعقلاني ، ومن هذه الأسس سينطلق إلى نقطة الهجوم الثانية على اشتراكية بومدين الروسية واليوغسلافية والصينية التي ستقود البلاد إلى الإفلاس : أنا ضد فرنسا الاستعمارية . لكن الفرنك الفرنسي أقوى من الدولار . الجنرال ديغول رفض تبعية الاقتصاد الفرنسي لأمريكا . لكن بومدين على ماذا يستند ؟ الدينار الجزائري يهبط والمهاجرون يرفضون المجيء إلى جزائر الجوع والاشتراكية كما يرفضون تحويل أموالهم من فرنسا .

سوف لن يكون حظ التعريب بأقل من نصيب الاشتراكية والتسيير الذاتي . فيزيد ولد الحاج ، الضليع بالأرقام ، سيقذف رقماً خيالياً عن خسارة التعريب يتجاوز المليار دينار سنوياً .

ـ هؤلاء الذين جاؤونا تحت اسم التعريب لاهمّ لهم غير التجارة في المارشي نوار وتبديل السيارات والسطو على الأعراض .

ويضيف : يادين الرب . ماصدقنا نتخلصوا من الأحمر بن بيللا حتى بلونا بهذا البوخروبة خرَّاب البلاد .

كان يعتقد أنه ينال من بومدين وهو يعيد تسميته باسمه الأول في بلدته العنَّابية هليوبوليس التي ولد فيها .

هكذا كانوا ينعمون بهذه السمفونية الممتعة في ليلة شهريار لدى الملكة شهرزاد . الفارق البسيط أن شهرزاد صامتة ومدهوشة من حكايات شهريارها فيلسوف العصر الذي يحكي للرعية ويبهر شهرزاده الجميلة .

يتثاءب فيتثاءبون . يتململ فيهرعون ناهضين باتجاه مراقدهم . لقد انتهت حفلة السيرك المسائي للأطفال ، وبدأ الطقس الآخر ليزيد ولد الحاج . طقس الخليفة في مخدعه الزوجي المقدس بين أحضان الجارية

الثانية لالا فضيلة صاحبة الحظ السعيد في هذه الليلة .

كان هذا الطقس الروتيني ، مع بعض التنويعات الطفيفة ، يجري في منزل الأسرة ، قبل المعركة التي شنتها آسيا في وجه عمها ، هادمة كبرياءه بتلك الصرخة التي استمدتها من روح أبيها الحي في دمها ، ومن ازدهار علاقتها بذلك الغريب الذي اقتحم حياتها اقتحام العاصفة .

* * *

يبدو أن هناك عرساً .

البيت مشتعل بالفرح والهرج .

في رواق المدخل اندفعوا إليه يغمرونه بالقبلات والعيون المشعة .

لالا فضيلة أطلقت زغرودة اجتاحت الرواق وخرجت مرفرفة فوق بيوت الحي .

مهدي جواد مبهوت ، مرتبك بفرحهم المتدفق .

ـ نجحت آسيا . نجحت في الباك . ربي يعيشك ياولدي ! هكذا صرخت الأم في غمرة من النشوة .

التقت عيناه بوجه آسيا الربيعي . كتما خفقاناً كالينابيع .

ـ مبروك . تلجلج بها صوت مبحوح .

وهو يتعثر بفرحه الداخلي ، ولج الصالون . قذف محفظته على الطاولة واستند إلى الجدار .

في الدم كانت موجات السعادة تغمره بزبدها الأبيض . موجة انتصار صغيرة اندفعت إلى عينيه فترقرقتا .

على وجوههم وفي عيونهم لمح الإشعاعات .

الأسرة السعيدة بنجاح آسيا التي رسبت عامين بسبب اللغة العربية .

عندما خرجوا ليجهزوا مراسيم الاحتفال ، اندفعت آسيا تطوقه . انغمرا برهة بصمت . قالت الأذرع والأصابع والصدران والوجهان والشفاه والدم أشياء غامضة ، حميمة ودافئة ، وقالت الروحان ماتقوله الريح للشجر .

طارت آسيا كعصفور ووضعت أسطوانة فيروز : عمق البحر بحبك . وسع السما .

جلسا معاً على الأرض بعد أن أغلقت الباب . تحت غمرة العناق

الدافع للدم في الأعصاب ، كان الموت يُهاض ويندحر ، بينما كان البيت يعلو ويطير مع فيروز نحو الأدغال وتلال البحر . هما الآن موغلان داخل المياه والحقول الخضراء والشموس التي سطعت . طائران يرحلان فوق العالم في فضاء رحب .

ـ نرقص ؟

ـ نرقص .

بالجسدين كانا يتكلمان . لم تُقلْ كلمة واحدة أخرى في تلك اللحظة . الموسيقا والأرض التي صارت فضاء . الأطراف تحوَّلت إلى أجنحة واندفاعات الدم في الدم تحت هذا الخفقان المصطفق بملايين الرايات .

وجه باشٍ يتلألأ عذوبة وقامة خصبة ناهضة ، بعد أن قرعت الباب ، هكذا أطلّت لالا فضيلة حاملة القهوة والحليب والكاتو والفواكه .

في لحظة الدخول فاجأتهما في الرقص فابتسمت . فيما مضى كانت تشك في علاقتهما ، وفي أعماقها كانت تتوجس ، لا رفضاً للرجل الغريب ، إنما خوفاً من افتقاد آسيا ورحيلها عنها إلى البلاد البعيدة .

كانت لالا ترى في آسيا صورة الأخضر ، الذي كسرته الريح وهو مايزال غضاً ، وكانت البنت البكر بمثابة البرعم الذي نبت في مركز الكسر .

الآن ، في غمرة النجاح ، باغتها اليقين أن ابنتها عاشقة . لكنها كتمت السر وورارته في قرارتها .

دخلت منار بثوب فاضح يبرز نهديها الواثبين الشرسين .

كراقصة غجرية بدت جميلة ووحشية ومبتهجة . غيَّرت الأسطوانة العربية ووضعت أخرى فرنسية . جلست تدندن وترقص بحركات طفلية عابقة بالاثارة وشهوة الانطلاق المراهق .

مهدي وآسيا شبه متلاصقين ، ومنار وأمها في المواجهة ، والجميع يتناولون القهوة والحليب .

تحت الدندنة الخارجة من شفتيها الشهوتين ، وحركات جسدها الراقص ، تحدق منار إلى آسيا ومهدي . تراهما متعانقين ، متدثرين وراحلين معاً . إنها فرحة حتى الأقصى ، لكنها تتساءل من خلال عينيها السنجابيتين إن كانا عاشقين حقاً . لكن آسيا العزيزة ، الجميلة ، الذكية ، خلقت لتكون زوجة فتى فرنسي طويل ، أشقر الشعر ، أزرق العينين .

شاب معاصر يعرف الحياة الحديثة . يحب الموسيقا والرقص والحفلات والرياضة والسفر والمغامرات . في أعماقها تشك أن يكون هذا العراقي هو البديل رغم مايبدو عليه من اختلاف وفهم . ولعلها تتساءل : كيف يكون العربي إلا جزائرياً . يشتهي بلا حب . يتزوج ويغلق الدار على أنثاه خوف الخيانة . يرى في المرأة طاهية ومنجبة وفاردة ساقين في آخر المساء . ينتقل من أنثى إلى أخرى ومن حانة إلى حانة ، وعندما يمل امرأته يطلقها حسب الشريعة الاسلامية ويتزوج أخرى . وإذا ماشتبه بها يذبحها كالنعجة .

كانت تسمي بلاد العرب : حظيرة الخنازير .

أكثر من مرة اصطدمت مع أختها . كانت آسيا تقول لمنار : أنت لستِ عربية . في دمك يسيل الدم الأزرق . دم جدتك الفرنسية .

ـ شكل عربي بتفكير أوروبي . محال ! تقول منار .

وترد آسيا : لا شكل عربي بتفكير عربي جديد ليس أوروبياً . لماذا لا ؟

ـ أوهام !

ـ مهدي . مثلاً !

ـ لا . لا . لا أعتقد . أنت مخبولة . محال ! العربي عربي والفرنسي فرنسي . وبينهما مسافة . مهدي حالة غريبة ملتبسة . كانتا تتحدثان سراً في الفراش قبل هجعة النوم . وعندما كانت آسيا تحتدم : لماذا يكون الفرنسي من جنس الملائكة والعربي من جنس الشياطين ؟ كانت منار ترد بثقة : لأن الأمور هكذا في الواقع . ألا ترين الجزائريين الحلاليف كيف يفكرون ويعيشون ؟ العرب . كلهم خمَّاج رؤوسهم بين أفخاذهم .

احتفاءً تقدم لالا فضيلة قطع الحلوى والفواكه لمهدي جواد : كيف نشكرك لانعرف . نجاح آسيا من الله ومنك ياولدي . أنت واحد منا . ربي يعطيك الصحة وينصر العرب .

يقول مهدي للمرأة الفرحة كلمات مفككة عن جهد آسيا وذكائها وتصميمها على النجاح . في غمرة الارتباك تسعفه التي يرغبها زوجة وحمامة حلم ، بافتراءات طفولية حول قدرته الخارقة على التدريس .

وفي عثرات المجاملة والخجل تستدرك آسيا : أنا نجحت في العربية لكن هذه ستظل رومية . مشيرة إلى منار .

تتموج ضحكة منار الفاسقة : أنا والعربية كيما النار والماء . لا نلتقي أبداً العربية وعرة .

وتقول لالا : وعلاه ! آسيا حصلتها في أقل من عام ؟

حصلتها من أجل الشهادة . بعد شهر ستنسى العربية . ها . قولي الحق آسيا وإلا نقول ! تغمز آسيا .

في مهرجان الفرح تضحكان : لا . لا . أنا أحب العرب والعربية حقيقة . أنت واحدة رومية طالعة لجدتك .

تقول ذلك وهي تدق سطح الطاولة مؤكدة .

وترنح منار : هاو ، دوّرت الهدرة ، أنا أعرف كلّش . والله غير نقول الحقيقة . هانقول ! والله غير نقولها يا العراقية ! كانتا الآن تتغامزان ، وتبتسمان ، مازجتين اللغة العربية بالفرنسية في تراشق طفولي غامر بالبهجة والنكد .

ـ أوه . ياللأطفال ! من يسمعهم يظن أن بينهم أسراراً هامة ! تعلق لالا فضيلة التي اختلطت عليها الألغاز بالبهجة .

ينعزل مهدي للحظة . يتأمل من النافذة ذؤابات الشجر وفسحة السماء الزرقاء .

آسيا تقرص بأصابع قدميها العاريتين قدمه . تمد تحت الطاولة كفها اليسرى وتضغط على الفخذ .

فجأة تسأله عن الدراسة الجامعية إن كانت أفضل في الجزائر العاصمة أم في فرنسا ، فيباغت . يرفع كتفيه ويزم شفتيه ولايجيب .

من النافذة تأتي موجة ريح صيفية عليلة . ينتفض طائر الفقدان من عشه ، يرفرف ثم يحلق في سماوات سحيقة .

الأم تفضل الجزائر ، ومنار تختار فرنسا .

وهو يرشف بقايا القهوة ويدخن ، يلمح في لوحة البحر سفينة تتقاذفها أمواج فوقها نوارس تفرد أجنحتها . سماء مموجة بغيوم رمادية والأفق ممحو .

تخرق لالا الصمت : أنت مدعو يوم الخميس إلى العشاء .

ينتبه من شروده : أوه . شكراً . نحن لسنا غرباء .

ينهض ، يتناول محفظة الكتب . وهو ينهي مراسيم الخروج يلمح لوحة البحر مرة أخرى .

- 14 -

في الحادية عشرة وصلا تلال رأس الحمرا .

المرأة والرجل المغموران بوشاح المسرة .

المندمجان الآن في الضحى ، والمشتملان بهوس البحر .

يحتفيان آسيا في أقصى البر البوني .

بين صخور البحر الناتئة ، في منأى موحش ، اختارا هذا الاعتزال .

هبطا إلى وهدة ، تاركين خلفهما جدران الصخور الغرانتية ، وأمامهما البحر ولمعان الشمس .

هاربان كالمعتاد من المدينة ، ومن شهر رمضان والصيام الاجباري .

من الحقيبة يخرج مهدي البيرة والساندويش والفواكه والراديو ، وتفرش آسيا حصير النزهة والصحف القديمة . يفتح الراديو . ينضو ثيابه . هي الأخرى تتعرى . أحدهما يسبق الآخر إلى البحر . صرخة أو شتيمة ثم يصطفق البحر وينخفض تحت انغمار الجسدين ، ثم تسطع الشمس .

- هنا نحن بعيدان كالكواكب عن الأرض .

- وهنا نرتوي كطيور الماء .

مسرات صغيرة ، ممنوعة . تبدأ من الفرح بخضرة البحر وشفافيته الطلقة ، ولاتنتهي بالتماس الحريري للجسدين ، ولكنهما هنا يلعبان لعبة الطفولة في غياب الأبوين . الطفلان يخلعان القماط الأول للمهد . إنهما يتطهران من دنس التربية المقدسة والعائلة المقدسة في أملاح البحر .

عندما تأتيهما سطوعات الشمس ، وهما طافيان ، ينفرد الجسد الصلب البرونزي للمرأة العارية وهي توغل تحت كريستال البحر مهاداً من أزهار اللوتس المشعة .

على الصخور المسننة يتحرك مهدي جواد باتجاه المائدة . وهو يقطر ماء بفتح زجاجة بيرة ويكرع من فوهتها الباردة . يجلس على الحصير مستنداً إلى صخرة منخورة ، ويستقبل الأشعة مغمضاً .

أضواء حمراء فأرجوانية فخضراء ، تتخللها أطياف على شكل

دوائر بنفسجية راقصة ، معلقة بخيوط لامرئية ترقص في الحقل الأرجواني . مسرة . الطفولة الوردية القديمة على ضفاف الأنهار والمراعي وسفوح الصيد .

صوت آسيا ينهمر كالظلال : إلى أين جنحت السفينة ؟

فوقه . سامقة ، مشعة ، تقطر ماء . وهي تضحك .

يناولها البيرة فتقول : اشعل لي لفافة .

- يااللنعمة الالهية التي هبطت عليك !

صوت رجل يخترقه زهو عبادة امرأة في غمرة ضحى متفجر .

تجلس مادة ساقين مغسولتين بملح البحر والقطرات .

ثرثرة جميلة عن البحر والنساء والأيام القادمة . هراءات مخترعة ومغيظة عن السفر والوداع والدنيا الواسعة والأزمان المفتوحة . أشواقها للمدن التي لم ترها . حكايا ممضة عن بونه الضيقة كالخاتم أو رحم الأم . انفساح النفس تحت هذه البراري وقرب أبواب البحر ، يكسر الغشاء .

- كيف نبقى معاً ؟

- ماهو مستقبلنا ؟

وخارج نطاق الأشعة واخضرار البحر ، ماكان هناك من شيء واضح . لاهو يعرف إلى أين تسير هذه السفينة ، ولا هي . تحت السطوة العذبة للجسد ، كانت التواطؤات تنسرب في الخلايا والمسام ، لتقيم احتفالاتها ، غافلة في تيار تدفق الدم عن الصرخة الجاثمة في الظلام .

هي وهو والبحر ، وهذا السلام الهابط على الصخور والماء المتراقص كقطع الماس .

وبغتة قدموا . حطموا مرايا البحر والطفولة وهجعة البراري .

ذئاب عارية اندفعت من الصحارى والمدن .

هاهم يملؤون تخوم البحر بضوضائهم الوحشية .

عذرية العالم ، عبر أصواتهم وهديرهم ، افتُضّت بكارته . ملايين من الجن والأبالسة ، هبطت من كوكب غامض . من أين أتوا ؟ وكيف اكتشفوا هذه البقاع المنسية ؟ لقد حدث خلل مباغت للهواء والشمس والعراء والصمت . واندفعت النوارس تزقو مذعورة نحو الآفاق البعيدة .

آنذاك كانت آسيا في الماء . وكانت هناك فراشة بيضاء تاهت عن حقولها إذ التبس عليها البحر والحقل . آسيا تطاردها ، لكنها إذ تعيا عن إمساكها تنادي : تعال . تعال . ومهدي ملقى على جنبه يحترق بالشمس ولسع الصخر وهو يراقب المرأة التي تنأى وهي تقمس وتبتعد . اندفع إلى البحر غاطساً عن قمة صخرة ، وإذ خرج زفر الماء في وجهها .

ـ تسبح جيداً تحت الماء .

ـ الصخور اللعينة .

ـ تخافها ! لماذا ؟

ـ مركّب طفولي قديم . تصوُّر لاأعرف منشأه يوحي لي بأن بطني سيُشق يوماً بصخرة جارحة .

ـ اسمع . دعك من أوهامك . سنلعب الآن لعبة الطائرة . امسكني من قدمي واتبعني . سأقطرك ورائي .

اندفعت ، وهو ممسك بمعصمي قدميها ، تضرب صدر البحر بثقة ورشاقة سمكة . يوغلان ثم ينكفئان ثم ينفلتان ويستلقي كل منهما على ظهره طافياً تحت الشمس .

آنذاك قدموا .

معهم سلال وشصوص ومِدى مدلاة من خصورهم .

كانوا عراة وهم يندفعون إلى البحر .

وقالت آسيا : لنخرج . هيا . ياللحلاليف ماالذي جاء بهم إلى هنا !

كانوا يتناسلون كالفطر من وراء الصخور صارخين صرخات وحشية ، هابطين كالقردة من المنحدر وأذرعهم مفرودة وجامحة شوقاً للبحر .

عندما عادا إلى الشاطئ الصخري وجلسا متقابلين ، كانوا منتشرين حولهما كالذئاب وعلى وجه البحر .

ـ حتى إلى هذه الأقاصي النائية يتبعوننا !

ـ أوه . يادين الرب . إنه هناك .

لمح مهدي الزنجي الذي اعترضهما يوماً في الشارع . كان يحمل قصبة طويلة من الزان ، ومن إزاره تدلى خنجر . لقد استند إلى جدار صخرة مرتفعة ثم لوَّح خيط الشص وقذف به بعيداً إلى الماء . كان آخرون يعبرون جوارهما بحركات عدوانية ونظرات وقحة . وعلى جسد آسيا

اللامع بالأشعة والقطرات صُوِّبت عيون كعيون القطط المفترسة . تناولت منشفة البحر وغطّت ساقيها . كان التوجس يتموج بخفقانات فزعة ، وابتدأ البحر يضرب الصخور ناثراً زبده في الفضاء .

أقبل فتى أبيض الملامح عاري نصف الصدر يتحدث مع الزنجي وهما يرمقانهما .

الحركة الثانية التي بدرت من آسيا بعد تغطية ساقيها ، كانت اخفاء البيرة بين شقوق الصخر . وبحركة خاطفة تناول مهدي مديته ذات المقبض الأسود ، فتحها ووضعها تحت متناول يده .

ثمانية شباب مفعمون بالحيوية والضوضاء والإيقاع المعادي ، فاجأهم البحر برجل وفتاة وحيدين تحت هذا العراء البحري .

عبر بريق لحظة ، تسلل الخوف إلى أعماقهما . ظهر في ارتعاشة اللقمة التي تمضغ ، ثم انتقل إلى الدم والبحر ، والموسيقا التي صمتت .

كانت الصخور تنبض بأصدائهم ، ارتجاجات تخلخل التوازن الطبيعي . انعكس الوضع على وجه آسيا وهو يكتسي بهوتاً في لون الشمع .

لقد لمحته أخيراً . كان هناك على بعد عشرين خطوة ، مستنداً إلى جسد الصخرة ، يحدق بنظرات شريرة ، وهو يمضغ علكة بحركة سوقية مبتذلة .

فجأة نظر إلى صاحبه وقهقه ثم بصق في البحر .

كان هو والشمس يشعان غضباً .

في انهمار برقي ، ابتدأت خفقانات غريبة في صدر آسيا ومهدي .

الخفقة الأولى فصلتهما .

كانت هناك روائح كريهة تفتّت الذرات وتعكّر الهواء .

الخفقة الثانية صهرتهما .

إيماضات سريعة خاطفة كإيماضات هذه الأشعة فوق حقل الماء .

في الشوارع كانت الجثث وعلى ضفاف دجلة . جثث مثقوبة بالرصاص في مؤخرة الجمجمة ومركز القلب .

والأبواب تحطمها أقدام القتلة .

الذعر والحصار والقتل المجاني .

وهم الآن بين الفرار والمقاومة البائسة والاستسلام . وفي أعقاب فشل بؤرة الأهوار ، دوهم وكر مهدي جواد ورفيقيه .

كانت المعركة خاطفة ، استشهد فيها الرفيقان وشق مهدي الحصار برشاشه . كان جريحاً في كتفه وفي اليوم الخامس اعتقل في بيت أخته .

الآن . وحيد هو بين هذا القطيع من الذئاب ، وبدل الرشاش هذه المدية .

لو هوجمت تطعن واحداً أو اثنين ثم تسقط فوق الصخور .

أوه . ياللتفاهة . دائماً هذا الحصار اللعين ! ضغط قبضتيه على الصخر وكزّ أسنانه . كان رأسه يتصدع وكأنه عالق في شق صخرة .

أحس نبض الدم يتسارع .

الخوف والصمت يتناميان . وبينهما فاصل .

هذه الأصوات العكرة ، وذلك الرجل الأسود .

عراء يعودان داخله غريبين .

ـ آسيا . ألا تعرفين القتال ؟ كان يحتمي بجسدها العملاق .

ـ بلى . أعرف الجيدو .

ـ أنا بالمدية وأنت بالجيدو .

ـ أأنت خائف ؟

ـ ليس الخوف إنما الحصار !

كالبرق كانت تلمع الآن صورة مهيار الباهلي في أعماق الهور الغريني . خالد أحمد زكي يموت على ركبتيه وهو ينزف من كتفه الأيمن وعجزه الأيسر وأمامه سد من الجنود وفوهات البنادق المسدّدة . وحده كان الحي والألم يصعد من الجرح نامياً نحو أقصاه وهو يفكر لو يستطيع أن يطال الدكتريوف ويركزه بين اليدين الواهنتين . لو يستطيع الضغط على الزناد ليفتح فجة في السد فينهار باب واسع من هؤلاء الذين يحجبون السماء عن باصرته . آنذاك سترى روحه النور وهي تصعد بارتياح طائر يرتفع ويرتفع نحو الفضاء الرحب .

جرى الحوار سرياً وغامضاً وسريالياً ، بين فاصل الخوف والصمت .

وعبرت لحظة غريبة . مشعة وضارية .

وكانت عيونهم وخطواتهم تتقدم .

كانوا الآن يعبرون ذهاباً وإياباً ، قربهما .

وماكان واضحاً ماذا يريدون من خلال هذه الحركات المهتاجة . تركزت عينا مهدي جواد على المدية . نصلها كان يلمع .

وفي اللحظة الضارية شعر بأنه قادر على القتال بالمدية كما قاتل برشاشه في شوارع الكاظمية .

ـ لن تتخاذل أيها الشيوعي القديم . هجس الزمن القديم الذي انتفض الآن في رأسه كالإعصار .

مسحت آسيا شعرها نصف المبتل ونفضت رأسها . وبحركة غريزية رفعت منديل البحر لتغطي بطنها الأبيض العاري . كانت الأمواج عاتية ، وهي تصدم الصخور ناثرة الرذاذ المثير للأعصاب .

تلك القوة الغريبة التي ولدت في داخله ، حطمت كوة في الحصار الأبله .

سألها عن الخوف والرجلين اللذين يقتربان .

قالت بأن الأبيض صديق مجيد الذي التقته على شاطئ شطايبي .

وسألها إن كانت تعتقد أن في الأمر شراً ، فردَّت بهدوء : لاأعتقد . كل مافي الأمر أنهم غيورون ولايرغبون أن يروا الجزائرية مع غريب .

كانا يتحدثان همساً بالفرنسية .

ـ يمكن أن ننهض ونرحل .

وقال مهدي : لا . لا .

أمسك بمقبض المدية ورفعها في مواجهة عينيه . كانت شفرتها تومض . بغتة غرس النصل في تفاحة .

ـ كن هادئاً .

بدت منقبضة . في عينيه رأت الغضب ، وعلى جبهته تشنّجت خطوط العصاب .

وفي كريات الدم ، تحت نبض القلب المتسارع ، شعّت شمس الصحراء القديمة .

وقالت آسيا : لنكن لامباليين . ظاهرهم شرس لكنهم جبناء من الداخل . اهدأ قليلاً .

فتحت الراديو . ثم تناولت قطعة خيار وقضمتها .

اقترب الأبيض ووراءه الزنجي . كانا عاريين إلا من ثياب البحر . نزع مهدي المدية من التفاحة وراح ينكت حواف الصخرة . كان الآن يرسم في خياله الحركة الأولى للوثوب والمباغتة والضربات السريعة المركزة للعينين والأعضاء التناسلية ومراكز القلب . وهو يقوم بحركات داخلية خاصة وتمرينات وهمية ، كان يشعر بقوى غريبة تتركز في العضلات والأصابع القابضة على السكين ووهج الدم الصاعد من الجبهة والصدغين والصدر .

على بعد مترين توقفا . الأبيض نحيل ، سنجابي الشعر منبسط الأسارير ، وإلى يساره الزنجي . هذا الآخر كان متحفز الوجه فوق صدر كثيف الشعر وقدمين كقدمي قرد .

فكّر مهدي : لو خطا أحدهما خطوة عليه أن يباغتهما معاً . حيا الأبيض آسيا بالفرنسية فردت باقتضاب .

ابتدآ حواراً عادياً حول الطقس والدراسة والعمل والأسرة . كانت آسيا تجيب ببرود وثقة .

تناول مهدي برتقالة وراح يقشرها بهدوء .

وانتقل الحوار إلى صيف الجزائر وشاطئ شطايبي الجميل ، وإذ سأل الأبيض عن مجيد ردت آسيا بأنها لاتعرف عنه شيئاً منذ أكثر من عام . وسألها إن كانا يتراسلان فأجابت بأنها منهمكة بالدراسة .

في انقطاعات الصمت ، كان يأتي صوت البحر وأصوات الآخرين ، وموجات التوجس التي خفتت حدتها .

وتابع الرجل مداخلاته عن الأسرة ويزيد ولد الحاج وتجارته الكاسدة ، وتخرج مجيد وعودته هذا العام من فرنسا إلى بونه .

وهو يفترّ افترارة خرقاء سألها همساً عن مهدي فقالت بأنه صديق الأسرة ومدرِّسها .

- عربي ؟ سأل

وقالت : بلى . عربي .

- مصري ؟

- لا . عراقي .

- خمَّنته مصري . العراقيون كيفنا . دمهم سخون . ناس ملاح .

ودخلا في ثرثرة حول الأعراب وتمايزات حياتهم اليومية وعاداتهم . العرب الذين جاؤوا الجزائر طلباً للدراهم والسيارات والنساء . المصريون البخلاء الذين يعشون على الفول . يجمعون الدينار فوق الدينار ليشتروا السيارات ، والعراقيون والسوريون الذين يشبهون الجزائريين في حب النساء والخمر والغضب وتبديد الأموال . بغتة قال الأسود بفظاظة : كلهم عرب . نحن البربر لادخل لنا بهؤلاء . واعترضه الأبيض بالفرنسية : أغلق فمك . أي أحمق ! لكن الأسود استطرد : العرب سرقونا . رزقنا طاح لغيرنا . قال ذلك بسخرية لئيمة ثم بصق باتجاه البحر .

من آسيا ندَّت عبارة : اسمع . كن مهذباً ولاتتدخل في شؤون الآخرين . فهمت . كل انسان حر بروحه ، أوه ، ياللخراء ! وتحفزت محطمة عنق زجاجة بيرة . كانت تمسك وسط الزجاجة وتدقها بتهديد مباشر .

بحركة لاشعورية نفض مهدي جواد رأسه إلى أعلى . حطّ بصره على جسده الأسود . تذكر أنه كان عليه أن يطعنه يوم تبعهما في شارع عبَّان رمضان . وقال لنفسه الخائفة أشياء غامضة حول الرجولة والجبن والموت . وهو ينهض والمدية تلمع ، تراقصت على شاشة العين الحمراء نافورات من الدم . ورأى الجسد نازفاً وملطخاً وممدداً فوق الصخور الرمادية .

صرخت آسيا ضارعة : مهدي . مهدي . . .

بينهما وقف صاحب مجيد : ياخويا يرحم والديك . . بالعقل . نحن أهل . هذا أبله . مجنون !

ـ باباك . ولد القحبة . صرخ مهدي والمدية في يده .

اندفعت آسيا تصده بينما انعطف الأبيض يدفع الزنجي بعيداً وهو يبربر هائجاً كثور .

تخلخل التناسق الطبيعي . البحر والضياء والكتل الصخرية وجمال آسيا ونبض الدم . كان العالم يرتجف ويتداخل ثم يتناثر تحت إيقاع البصر المهتز والجسد الذي فقد توازنه .

داخل هذا الصخب ، بغتة ظهرت ثلاث فتيات على التلال المجاورة . كنّ في ثياب البحر ، وجاءت أصوات الفتية من الماء : هاي . هاي . ثم رفعت الأذرع باتجاههن . بأصوات أعلى وهتافات صرخن وهن يلوِّحن

بأذرعهنّ ثم ابتدأن الهبوط باتجاه ذئاب البحر . عبرن الصخور قرب آسيا ومهدي والأبيض والزنجي غير مباليات ولا منتبهات لجو المعركة ، وباندفاعة فقمات البحر وثبن عن حافة الصخور نحو لجّ الماء . إذ رآهن الزنجي اندفع وراءهن صارخاً : هاو . هاو ، ياالحلوفات . وعلاه . وعلاه حتى دُركه ياالقحبات . وهوى بينهن .

حدث الأمر كمشهد مسرحي لامعقول خارج توقعات العقل والمنطق .

على الصخرة المستدقة التي وثبت عنها الفتيات ظهر رجلان أجنبيان يحملان سلالاً وشصوصاً ومعهما امرأة وطفلان .

وابتدأ عالم البحر يستعيد توازنه الطبيعي في أعقاب اهتياج كان ينذر بكارثة .

استند مهدي إلى مسننات الصخرة المنحنية . وضع ظاهر يده اليسرى على صدغه الملتهب فرأى في وسط السماء زهرة . طفق الخفقان الداخلي يهبط مترسباً نحو القاع . انتبه إلى المدية بين أصابعه المشدودة . تراخت الأصابع فسقطت المدية فوق الصخر برنين مصمت : أوه . ياللتفاهة ! ماذا كان يمكن أن يحدث !

وغمرته موجة باردة . هل كان ذلك بسبب الشمس ؟ أم أنها الأحزان القديمة والعزلة ووحدة القلب المنقبض ! المرارة والجنون الدوري للغيرة وهذه السطوة الوحشية للجسد في وهدة العقل الغافي ؟ كم يبدو الأمر طفولياً ، ضالعاً في بدائيته وانفصامه : ياللبلاد المسكونة بالجنون !

أحس بأصابع تمسح شعره . استيقظ . قالت المرأة : ماذا ؟

ـ لاشيء .

ـ نرحل ؟

ـ بلى . هيا .

ارتديا ثيابهما . لملما المائدة وغادرا .

من الوهدة الصخرية صعدا إلى التلال المعشبة . سارا بين الأجمات صامتين . بعد أن نأيا عن اليأس والشواطئ الصخرية ، هبطا على الحشائش .

ـ متعبة . دعنا نسترح هنا قليلاً .

ماكان قادراً على الكلام . في الحلق صخرة تجثم على الصدر .

تمددت آسيا على العشب واستلقى جوارها بين الأجم المشتعل بالزهور الصفراء والبنفسجية .

في عمق السماء كان يراقب الضياء الساطع المنسكب على العالم ، وفي ذلك الفراغ الأزرق راح شريط الحدث الغريب يستعاد ثم يُمحى . في عمق الضياء شاهد حدأة بحرية سوداء تدور كطائرة ورق . اقتربت من الصخور وسطح البحر وفجأة ضمت جناحيها وانقضت مخترقة سطوح الماء ثم شالت وفي منقارها سمكة .

تحت ارتجاعات الصور الكابوسية للحادث ، سألته آسيا إن كان مايزال مغبوناً فلم يجب . كان يراقب صقر البحر وهو ينقل أشلاء السمكة بين مخالبه وينهشها بمنقاره . جسَّت جبهته ماسحة الصدغ برؤوس أناملها . كانت الحدأة تختال فوق سهب البحر منهمكة في تفتيت فريستها ، وإذ عبر ظلها الأسود فوقهما سدد بإبهامه والسبابة إلى السماء وصرخ : طاق . طاق .

ارتبكت آسيا : أأنت محموم ياعزيزي ؟

ـ لا . لا .

ـ بلى .جبينك ملتهب .

وقال وهو يغوص في عمق السماء : إنني حزين ومع ذلك فأنا أعبدك أكثر من أي وقت مضى .

ـ لماذا تقول هذا ياصغيري ؟

ـ انظري إلى السماء كم هي شاحبة وسوداء !

كان يرى السماء مغطاة بأشباح ملايين الطيور السود .

ـ أوه . ماالذي جرى ؟

ـ ألا ترين الأشباح ؟

وطوَّقته : أنت تهذي . دعك منهم .

ـ لا . بل أرى ما وراء الأفق .

ـ وماذا وراء الأفق ؟

ـ أشباح . أشباح الطيور السود .

ـ واه . ياإلهي !

وهزته : ما بك ؟ قل . هيا . ماذا ؟

نهضت ورفعت رأسه عن العشب . فتواجها .

عيناه مبتلتان .

وصرخت : لماذا ؟ لماذا ؟

بحنان أم طوقته ضامة رأسه إلى صدرها . كان يشهق ويهذي عن الطيور والخوف والموت ، وهو يرتعد على صدرها .

ـ أنت قوي وشجاع ياحبيبي .

ـ لا . جبان . أنا جبان ومهزوم وساقط . أنت امرأة جميلة وعظيمة وأنا لاأستحقك .

اصطدم وجهاهما داخل انغمار منتحب وضارع .

ـ لاتقل هذا . لاتقل . أنت شجاعتي وعظمتي وحياتي . بدونك أنا لا شيء . أوه . يا للوحوش ! أمر تافه كهذا يجرحك ؟

ـ بلى . بلى . شيء صغير لكنه جارح . كنت مطوقاً وراغباً أن أدافع حتى الموت ، لقد شعرت بالمهانة وأنت منعتني . لماذا لم تدعيني أكسر مهانتي ؟

كان جسده يتقصف تحت نوبات من الصقيع والحمى . أحس أنه عار فوق قمة جبل ثلجي والريح تخترق عظامه .

ورأى آسيا تنأى وهو يزحف نحوها فوق بياض الصقيع وهي تبتعد متلاشية داخل الضباب والبرودة .

كانوا يأخذونها منه .

ـ لماذا تبتعدين ؟ لماذا الأشياء الجميلة ترحل ولايكون سوى هذا القبح !

ـ معك . معك . حتى الموت . أنت كنزي وضيائي !

كالطفل انضم بين أحضانها . قريباً من رائحتها ونبضها وتنفسها ، والحرارة التي تتدفق من جسدها فوق العشب .

- 15 -

الصيف .

بونه . الشوارع ومنازل القرميد والشجر والسيارات الهادرة ومقاهي الأرصفة ، ثم الضوضاء .

زمن الشمس الصاخب ، وهذا الشجى .

والشجو في بهوت جدران المدينة ، والحركة ، وما سيغادَر ويترك

من علامات الأقدام والعيون والنبضات الخافقة في مسامات المدينة الباقية داخل الذين سيهاجرون قريباً إلى أوطانهم الأولى والذين سيظلون هنا وحيدين في عراءات المدينة المستوحشة تحت القيظ والملل والفقدان .

الكل سيسافر . هاهم يندفعون نحو المصارف وشركات الطيران ليهيئوا البطاقات ، في ساحة المدينة يوشوشون حول صفقات السوق السوداء واحتياز العملة الصعبة عن طريق المهربين والمضاربين .

وفي غياب آسيا تلوح هذه البونه صحراء من الرمل والهجير والانقباضات اللعينة والخرائب .

لقد سافرت بالأمس لتحضر أوراق الجامعة في الجزائر العاصمة .

كم تبدو المدينة كئيبة وخاوية وبلا معنى في حيادها .

يجلس مهدي جواد في مقهى الأوريان ، في الزاوية المطلة على الشارع . يراقب حركة البشر وعبور السيارات وذؤابات الشجر . سيلان مجاني ، بطيء ، سوداوي ، قابض للنفس .

في غياب هذه المرأة يكتشف مدى غربته وحياده عن تلك المدينة . عبر لحظة انبثقت من الشارع ، أو نفذت من صوت ، أو من ورقة من أوارق الدردار المرئية من الزجاج ، بوغت بانفصال غريب عن المدينة وعن كل مايجري فوق سطحها من حركات وإيقاعات وأصوات هو الآن بمنأى عنها .

ماكان يوماً هنا فيما مضى . وهذا الذي يراه الآن ويسمعه ويطوقه ، يبدو خارجاً وبعيداً ومفصولاً . كان على كرسي المقهى متضاماً كتويج الزهرة الوحشية . ليس هنا ولا في هذا الآن . وما كان معنياً بشيء خارج الجسد والكرسي ووحدة الذئب التي اقتنصته في غفلة غياب آسيا . تلك المرأة بدت في هذه الوحشة اللئيمة حبله السرّي يصله بالأشياء والمدينة والعالم .

ضوء عتمة الأيام للقلب المظلم والناضب .

كان الشجي يتصاعد ضباباً نحو مضائق الحلق . وزادته الضوضاء والجلبة ضغطاً . تحت هذه الأوجاع والوخز الروحي انقشعت في الضفة الأخرى ، وراء ستار الزجاج ، مدينة كريهة ، رتيبة ، تصدأت تحت حوافر الأيام ، وحوافر البشر التافهين ، والأصوات والبذاءات ، والحيض والبول والجنس المنوي وحوانيت الثياب والمقاهي وسيارات الشرطة الزرقاء وتهليلات صلوات الجمعة والأسماء الحسنى والعاهرات الرخيصات

والشهداء المنسيين والمؤامرات الدنيئة والصفقات والقتل المستتر .

سفينة قديمة راسية من العصر الفينيقي أكلها حتّ أمواج البحر والطحالب والرياح . هنا أبداً لاتريم ولاتبحر ولاتتجدد .

كان الآن عائماً ، فائضاً عن الحاجة وعن الزمن .

آه . أين الهواء ؟ من أين جاء هذا الاختناق ! كيف انقلبت مدينة الحب والبحر إلى جثة عالقة في سقف الحنجرة ! وجاءته رغبة الجري . ركضاً . ركضاً . مخترقاً الشوارع والجلبة ونفسه والبشر والحجارة باتجاه روابي البحر . بعيداً عن هذه المدينة الملعونة ، الخاوية . إلا من روائح البواليع وصديد القضبان والفروج الملتهبة ، وهذه الأصوات الفاشية والهلاك اليومي . وماكان يائساً في تلك اللحظة بقدر ما كان ممروراً . ممرور لأنه عاجز عن توجيه الضربة العظمى التي تعيد التوازن لهذه الخليقة الضائعة بين الله والشهوة وبين الموت والسطوة .

علا صوت مغن ، صافياً ، رناناً كصخور الجبل : ارجعوا يا هاجرين الدار .

دندن مهدي من المطبخ : آه . آه . ياوديع . يا إله الحزن .

هرهر الباهلي : رندح عيني . رندح . عما قريب ستقذف كقملة خارج هذه البونه غير مأسوف على رحيلك .

ـ القومية العربية حنونة في قصر النهاية .

ـ هناك تتجرد من أقوى موهبة تتميز بها .

ـ أي موهبة مسيو عقل ؟

ـ موهبة القضيب وبكارة الإست .

ـ ها . ها . ها . لاعيني . لا . كلّش ولا هذا . نعترف ثم نوقع صك براءة ونتخلى عن الشيوعية . أما الخصي واللواط فلا . آني حريص جداً على مداخل ومخارج الشرف العربي .

نخر مهيار : لايسلم الشرف الرفيع من الأذى . . .

وأتم مهدي : ما لم يُراق على طيوزهم الدم .

وهو يأتي بالشاي قال : شف سيد مهيار . بالعربي المشرمح أنا انسان تعبان . يائس ! قل ذلك . ساقط على دروب النضال . قل أكثر . غاوي زواج واستقرار وغربة . ممكن . أعوض بآسيا خسارات واندحارات . ليس الأمر بعيداً عن الصواب . لكنني لن ألدغ من تلك

الجحور اللعينة مرة أخرى . السم دخل في الدم ويكفي استشهاداً وتضحية عن الآخرين . اسمع . هم يريدون أبداً ضحية ليتاجروا بها . وأنت أعرف الناس بهم كيف يبحثون عن سيزيف أو بروميثيوس ليكون رمزاً أو قميص عثمان يمسكون به ويرفعونه كالراية أمام زحفهم الذي لايزحف أبداً . أما هم فلا يفعلون شيئاً سوى الاتهامات .

اكتئاب مهيار الباهلي وهو يرشف الشاي . كان يفكر الآن بهذا السقوط العضوي واستعباد الجسد . بهذا الاستبدال الأخرق للمبادئ الكبرى بعضو امرأة .

وقال مهدي جواد بأن المرأة ليست شيئاً هامشياً وفائضاً عن الحاجة كما توحي طهرانية العقيدة ، وأنه سيبحث مع آسيا موضوع الزواج بعد عودتها من العاصمة .

ـ أنت ضد هذا وترى فيه هزيمة . أعرف ذلك !

أشعل الباهلي سيجارته الثالثة . أطفأ عود الثقاب بحركة مسرحية ، ثم نفخ : لماذا تؤولني خطأ . مهدي ؟

ـ اكتناه شخصي مستنبط من ماهية العقل المحض . ربما !

ـ تصورات . تصورات . يا للأحادية العربية !

واستطرد : ربما كنت مخطئاً . إنني أفهم حالتك وأسوّغها . مرارات وخيبات وآفاق معتمة على مدى عمر الإنسان . لكن الحياة بما هي نبض عضوي تستحق أن تعاش وأنا لست ضد هذا . قل لي : لماذا يتعنكب في رأسك اختلاطات وخيوط توحي لك أنني ضد علاقتكما ؟

حركة مهيار ذهاباً وإياباً في الغرفة ثم من الغرفة إلى الشرفة بدت كأنها تحقق له نوعاً من التوازن النفسي . أبداً كان يوحي للآخرين أنه كتلة متراصة من الاسمنت المسلح بالوعي والارادة . لقد رسم عبر حياته التي تدرب عليها حتى فقدت عفوية طفولتها ، أن يكون رجل الملمات إذ انتدب نفسه للتنظيم والزعامة عندما تأتي اللحظة الحاسمة . لحظة بدء صناعة التاريخ من جديد .

ولأمر ما ، خارج عن طواعية مهيار ورغبته واندفاعه وبراءته وصدقه اللامحدود ونبله ، كان التاريخ ينأى عن متناول يديه ويتشكل كالأباريق على أيدي خزافين آخرين يصنعون التاريخ بشكل مغلوط ومشوّه يدعو للرثاء . وفي غضون جبهته وخطوطها الخمسة ، كان يتجلى الألم والغضب معاً . هناك كنت تقرأ أن الأشياء ليست هي الأشياء التي

يبغيها ، وأن هذه التغضنات والتموجات الصدغية تشكلت من هذه الخيانة الواقعية للتاريخ الملعون الذي صدم تهيؤات النفس بما لم تكن تتوقع . غير أن تمايزه عن مهدي والكثيرين كان يعلن عن ذاته بالمكابرة وبهذا الرهان البروميثيوسي أو السيزيفي للحشا المنهوش والصخرة التي يعاند ليرفعها كلما هوت نحو السفح .

وفي تلك الليلة لم يتشاجرا . بمودة كان العتاب حزيناً . أحدهما قال شيئاً عن المرارة والآخر قال شيئاً عن نضج التاريخ .

رجل كان يتحدث عن الغربة الأعمق والعزلة السرية والخصام مع الحياة في كون مسدود الخلايا ، مسمم ، بينما الآخر كان يتحدث عن الصرخة المدمرة والدامية والخيانة الجماعية للكتلة وهي تتفتت في لحظة الاحتدام .

كل منهما كان مدركاً أنه مكسور الجناح تحت الريح الزعزع . واحد يهرب إلى أعماق حرارة فخذيّ امرأة ، وآخر يهرب إلى الخلجان الوهمية والأهوار السحيقة التي رؤيت ذات ليلة حلماً أبيض في المستنقعات السومرية الوضاءة ، الفسيحة ، الأسطورية ، والتي ينام فيها البردي والوحشة والبراءة وأصوات الليل وابتهالات الطفولة ، وصرخة الزنج .

وهما ، التاعسان ، لكن أحداً منهما لايريد أن يعترف بشقائه وبؤس العقل والعضوية . لا يريد أن يرى الانهيار كيلا تسقط الهالة الفروسية للتاريخ . التاريخ الشخصي بما هو اقتحام ذكري ، غاصب للأنثى ، والتاريخ السياسي بما هو اغتصاب لمنبر الخطابة الأنثوية ، والولوج فيه إلى رحم السلطة .

وهما ، النازعان إلى أزمنة أخرى وبلاد جديدة ، ارتسمت على الخرائط الدماغية في لحظات المرارة والأشواق الحارة ، العاجزان في هذه اللحظة التي تهرب منهما ، كانا يشبهان خلدان الحقول التي تراكم كتل ترابها فوق سطح الأرض وهي مستترة في أعماق دهاليزها الرطبة . وفي العتم المطلق لمجرات الأرض وجيولوجيتها الطبقية كانت تتراءى الهواجس والمسرات وحروب التحرير الحمراء وساحات الإعدام للأعداء الطبقيين والجنرالات ورجال الدين والتجار والمخبرين والشرطة والمثقفين الأنذال . جميع هؤلاء كانوا يشكلون كومات التراب الفائضة عن حاجة الأرض والملقاة على السطح .

كانا اثنين ، وكانا معهما ، كتضامن معنوي ، فلّة بوعنّاب وآسيا

الأخضر ، وبدت ساحة المدينة في ذلك الصيف العنّابي شبيهة بخلية نحل مهتاجة ، ولأن قضية اشتباك العراقيين انتشرت في أوساط المدينة الصغيرة ، فقد بدا كأن العنابيين يتوقعون صداماً أعنف بالمدى بين العرب في ساحة البلدة .

كالنار في الهشيم انتشرت الأخبار والشائعات غذاها المخبرون ، حول معركة قادمة بين الشيوعيين والقوميين ، وزاد في القناعة ذلك الانقسام الواضح بين الفريقين في الساحة والمقهى ، والوشوشات واحتدام الحوارات والأصوات في قهوة الأوريان والمغرب وأمام شركات الطيران والبريد .

وفي الوقت الذي كان الجو فيه ينذر بوقوع صدام ، كانت فلّة تظهر مع مهيار علناً أمام الآخرين في غياب مهدي ، وإلى جانب حبها المشبوب لهذا الرجل الغريب والمفعم بالنبل ، كانت تنزع إلى حمايته من أي اعتداء يقع عليه . عندما كانت تسأله وهي تسير قربه تحت شجر الساحة إن كان خائفاً ، كان يضحك بجلجلة . كانت تشجعه على نحو أمومي وهي تطوقه بتحدّ سافر : تقولك . أنا الآن معك وكأنني في الجبل . عند الحاجة أنا فدائية . أنا وجميلة بوعزة زرعنا القنابل في البارات كما قلت لك . لاتخف من هؤلاء الحلاليف . ويقول مبتسماً بأنه ليس خائفاً لكنه ممرور .

وهو يقرع حجارة الساحة ويرى ذؤابات الشجر والندى على الأوراق يحسّ بتماس جسد فلّة . يتذكر بلاده وأطفاله فيهفو إلى العودة .

لقد شرخته المدينة وتبددت الأحلام ، ومن كل الرؤى والأخيلة عن أوهام الثورة دُوهم بهذه المرارة والرماد .

كان صوت الضوضاء يطغى على صوت البحر ، وفي الفضاء كانت الخطاطيف تتموج كأسراب طائرات من ورق بينما أصوات الآذان تدوي من المآذن : حيّ على الصلاة .

بغتة يخترق فضاء المدينة صفير حزين لباخرة وشيكة الاقلاع .

* * *

على السرير في مواجهة جدار أزرق كان مهدي جواد مستلقياً يقرأ كتاب «المسيح يصلب من جديد» ، منتشياً بعالم كازنتزاكي ورائحة الأرض اليونانية التي تعيد إلى روحه رائحة الشرق ومآسيه المستعادة أبداً عبر العصور . رائحة الزمن الذي يدور حول محور فلا يتجدد إلا وهو يستعاد ويتأصل ويدوم ديمومة الآلهة .

ريح رخاء مضمخة بالشمس اللزجة . الوقت أصيل وبونه مهجورة في الخارج . من النافذة تتمايل أشجار الدردار تحت بهوت رمادي وغبوق حار .

لقد تأخرت عودة آسيا .

عندما طُرق الباب على ذلك النحو الشبيه بالطلقات ، تذكر طرقات الحاج محمد في البيت القديم . كان الباب يتزعزع تحت القبضات : افتح ، افتح .

وتحت الطرقات هدرت أصوات وجلبة ، رجَّت العمارة والشارع . نهض مهلوعاً وفتح الباب . فاجأه رجل أصلع ، ضخم ، جسده كأجساد المصارعين وجهه ينضح غضباً .

كان مهدي جواد مايزال على وصيد العتبة : نعم ! قالها راعشاً ! : وين هنّ القحاب ؟

اندفع الأصلع داخل الغرفة كثور هائج .

في الممر كان هناك رجل آخر يراقب درج البناية .

حتى استُوعبت المباغتة ، كان عليه أن يخفف من رعشات الهلع التي صدمت القلب . طفق الأصلع السبارطي يدور في الغرفة وينتقل نحو المطبخ والحمام باحثاً عن النساء العاهرات اللواتي يخبئهن مهدي جواد في ذلك الأصيل الرومانسي الهادئ داخل ثنايا البيت الصغير الذي لاتتجاوز مساحته خمسة عشر متراً مربعاً .

مهدي جواد مايزال مبهوتاً أمام عتبة البيت ، شابكاً يديه وراء ظهره يوزع نظره بين حارس الممر الخارجي ، وبين الأصلع الأكرش وهو يقلب البيت ناثراً الفراش والكتب والدفاتر ، زاحفاً تحت السرير ، منحنياً تحت طاولة الطعام والكتابة بحثاً عن المومسات المختبئات هناك .

مضت عشر دقائق على المسرحية الصاخبة ، خلالها كان جمهور الشارع والمقهى القائم في الطابق الأول ، يترقب أمام البناية مفاجأة فضيحة الشرقيين الذين قدموا من أقاصي بلادهم لهتك الأعراض وتفريغ الشهوة بدلاً عن تربية الأجيال الصاعدة .

بعد هدوء رعشات الهلع ، واستيعاب المسرحية الهزلية ، والادراك الحدسي السريع للحادثة ، ومصادفة غياب آسيا ، قرر مهدي جواد ، باستجابة خاطفة ، أن يكون لامبالياً وساخراً ، جلس على العتبة ومدّ

رجليه على مداهما . كان يري إلى مفتش البوليس بعينين هازئتين وهو يدور كالثور الأهوج مصطنعاً دوراً بائساً في مسرحية هزلية مغرقة في الانحطاط .

عندما سأله مهدي إن كان لم يتعب من هذا الدوران الأبله ، ارتد المفتش صارخاً بعربية محطمة فحواها أن العرب جاؤوا البلاد للعمل لا للتقحيب . ضحك العربي القحب من رجل البوليس وخاطبه بالفصحى التي لايفهم بها : الحب مسرة للجسد والنفس وبه تشف الروح ويتفتح الجسد .

وقال رجل البوليس بعصبية وفرنسية معرَّبة إيلُ فو احترام القانون . ها ؟ كيفاش هكذا الليبرتي مع الطفلات وانتو لستم في بلادكم ؟ هيا . هيا «دي موا» اسلام ولا روم هادي البلاد . هيا قل ! وعلاه «ترافيي» هكذا وعلاه ! وكما كان المفتش يخلط أثاث البيت ويبعثره في كل اتجاه هكذا كان يخلط الجزائرية بالفرنسية وهو يتحدث . شعر مهدي جواد ، في ضباب اختلاط وإبهام اللغة ، أن بإمكانه الاستمرار في لا مبالاته وسخريته . ماعاد خائفاً من هذا الخنزير البليد ، فواصل سخريته داخل الدهليز المعتم للغة ، وقال مستفصحاً ، معمياً كلامه الساخر بأن الدخول بلا إذن إلى بيوت المسلمين رجس من عمل الشيطان يعاقب عليه المقتحم بالقذف إلى بوابات جهنم . وقد نهى رسول الله عن ذلك قائلاً : لاتدخلوا المنازل إن لم يؤذن لكم . وأنت اقتحمت بيت مسلم بلا إذن ولذا حقت عليك لعنة الله واستحققت جهنم وساءت مصيراً . كان مهدي جواد يتحدث بسرعة فائقة وصوت واثق ، مدركاً أن هذا الأحمق لايفقه مما يقول حرفاً واحداً .

وصرخ البوليسي الذي هشَّم البيت وقلب عاليه سافله : يزَي . يزَي . كيفاش . واش تقول ! هاي البلاد تاعنا . فهمت ! حررناها من الكولون . العرب عملوها بورديل يقحبوا فيها . سيارات . بوليتيكا . فوا . واش دخلك بالبوليتيكا يادين الرب هاه . دي موا !

هي البولتيك اذن وليس القحاب !

قال مهدي لنفسه ساخراً .

كانت الدقائق تتك تحت ايقاع البلاهات ومظلة هذه الميلودراما التي تمثلها شرطة المدينة ، في الحي الشعبي المجاور لمحطة سكة الحديد .

وللخروج من الفشل ومهزلة التفتيش ، قرر رجل البوليس وهو يرى التمدد الأحمق للرجل الغريب على الأرض ، ويستمع إلى لغته الغريبة ، أنْ

يصطحبه إلى مركز البوليس .

ـ هيا . هيا . نوض . يرحم والديك . يزّينا تمنييك . نوض . نوض . هيا .

أمسك مهدي جواد من ذراعه وأنهضه فنهض . صاح بالحارس وطلب منه أن يقذفه إلى السيارة .

في الطريق إلى السيارة الزرقاء ذات الشبك المعدني الأسود المفتول : لاحظ الجمهور المحتشد رجلاً نحيلاً ، صامتاً ، وحيداً ، يُقاد من إبطه ويدفع به إلى مؤخرة سيارة الشرطة .

لم يكن هناك مايدعو إلى الدهشة أو الغرابة سوى أن العاهرات المنتظرات لم يصعدن إلى السيارة . بدا الحدث عادياً ومألوفاً في حياة المدينة اليومية ، وفي مجرى هذا المألوف ، اعتبر الأمر عرضياً يدخل في إطار الخرق اليومي للقوانين السائدة .

داخل السيارة لم يكن مهدي جواد مرتبكاً أو خائفاً . موجة مرارة كانت في الحلق غطّاها زبد من العزلة والابتذال .

لقد أتوا أخيراً

على المقعد الخلفي كان هناك رجلان يرتديان الثياب الرسمية الزرقاء ومن إزاريهما تدلى مسدسان .

ولأمر لم يدرك كنهه ، كان الشرطيان جهمين ، غارقين في الصمت . من خلال النافذة الشبكية كانت ترى بونه : جدران منازلها ومقاهيها وشجرها وعبور خاطف للحمائم والبشر وساحة المدينة وبواخر البحر الراسية . كالومض تعبر تحت باصرتيه .

المدينة التي دخلت فيما مضى نبض الدم من خلال آسيا ، والمدينة التي تجرح الآن كالمدية .

من خلال الشاشة المعدنية تراءت المرأة البعيدة . المرأة التي أشرقت يوماً في ظلام حياته . الآن تنأى .

في المركز الرئيسي لبوليس المدينة . مثّل الضابط دوراً بعيداً عن الفظاظة . بعد الترحيب وتقديم السجائر ، انطلقت الأسئلة حول الحياة الشخصية ، والتدريس ، والمصاعب ، والغربة عن البلاد والأهل .

المقدمات بدت مريحة ، استسلم مهدي جواد لها واسترخى في طمأنينتها . وعندما تحدث للمحقق عن اقتحام المنزل على ذلك النحو

الفظ ، استنكر الضابط الأمر ونعت المخبرين بالجهل وقلة الذوق ، واعتذر عنهم . ثم أوضح بأن العمارة مشبوهة أخلاقياً واقتحام داره أتى عرضاً دونما قصد . حتى استوعبت مقدمة المسرحية واندمج مهدي جواد في الدور ، كان الزمن قد تقدم أكثر مما ينبغي في عملية التخدير . بدا الأمر شبيهاً باسترخاء على سرير في غرفة هادئة بعيدة عن الضوضاء .

داخل الهدوء المتسق مع جو غرفة الاستجواب ، راح الحديث يجري حول أمور أخرى ، لاصلة لها بالمقدمة المسرحية والأحزان الخاصة ومتاعب العرب ، والأخلاق المنتهكة .

كان الرجلان ، دونما صراخ ، يستوعبان المسألة من خلال الأسئلة والأجوبة ، كما كانت الإشارات والرموز واضحة بما فيه الكفاية . وفي ربع الساعة الأخير ، أُفهم الرجل المستجوب أنه ارتكب خطأ يصعب غفرانه والسماح به في بلاد أخطأ أنها بلاد هو حرٌّ فيها بالشكل الذي استوهمه .

عندما خرج من مركز البوليس ، واستقبل الشارع ، تنفس الهواء بقوة . هواء المدينة المسائي في هذا الصيف الأخير .

كان المساء عذباً وأسيًّا كما لم يكن فيما مضى . بدت الشوارع شبه خاوية . ومن خلال أغصان شجر الدردار في ساحة المدينة لمح نجمة المساء في سماء صحو . نجمة وحيدة تشعّ .

في طريقه إلى البيت أحسّ أنه متعب وراغب في النوم . وإذ داهمته ذكرى المرأة البعيدة ، وغيابها ، شعر بالصداع ، والاسترخاء ، وفراغ المفاصل .

كان وحيداً الآن ، وعارياً ، يعوم على سطح مدينة حتى شجرها وحجارتها كانت أكثر رسوخاً منه . المدينة التي تفرّ منه ويرمى خارجها نفاية فائضة عن الحاجة .

ككيس محشو بالقش سقط على السرير المبعثر بكامل ثيابه ، ونام .

فوق حقل نومه تراءت صور ووقائع وأطياف غريبة في أماكن يعرفها ولايعرفها . سواق صغيرة ، ضحلة الماء وأطفال عرايا تحت غروب الشمس ينغمرون في الماء ويحاولون صيد أسماك برّاقة براحة اليد . إذ يصيد أحدهم سمكة زرقاء فيرفعها من ذيلها ويصرخ ليهرع الأطفال ويحاولون اقتناصها وهي مدلاة بين أصابعه ، يهرب وهو يخوض في الساقية نحو الأراضي المعشبة .

تأتي طيور تشبه اللقالق حيناً وحيناً البط . ممدودة في أفق بنفسجي . رجل يرتدي سترة عسكرية ومعه بندقية صيد يقف على الضفاف . يطلق النار فتخرج الطلقات سريعة ثاقبة ، تتهاوى طيور كالحمام وتختلج فوق المياه . الرجل يطلق والحمائم تتهاوى وهو لايهرع إليها . ليلاً يدخل الرجل إلى بيت طيني فيه امرأة وصبيان صغيران يندفعان إليه : بابا . بابا . لماذا غبت طويلاً ؟ يخرج الرجل من حقيبةٍ شبكية طائراً ملوناً يشبه الصقر أحد جوانحه مكتوف . يفلته على أرض البيت . الطائر الجميل المكتّف يعرج في مشيته لكن عينيه الخضراوين ورأسه المرفوع يشعّان زهواً واغتراباً وحزناً . أحد الصبية يحاول الامساك به فينقره بمنقاره الحاد ويصرخ الطفل .

كانت الصور تمر خاطفة والأحداث لا مترابطة . شيء شبيه بالبرق يتسارع ويومض في السماء الطيفية الملونة حيناً والباهتة أحياناً . داخل تلك المدارات والأمواج التي تتراءى عليها الكائنات . والأنهار والطيور والشجر ، كان يرى انشطاراً آخر يشبه روحه أو جسده ، ينفصل عنه ويرحل مع هذه الأطياف مندمجاً فيها تارة ومفصولاً عنها في أحيان ، مأخوذاً بقوانينها السرية وبهذا الرحيل السحري لامرأة أتته على شكل نورس مائي ، حطّت على صخرة ثم بدأت تنزع ريشها فإذا هي من حوريات الماء ، تقدمت منه وقالت بأنها آتية من الجزر السعيدة لترحل معه . ورغب أن يطير معها لكنه أحس أنه غير قادر على الطيران فتعثر وانكب على وجهه . وقالت المرأة ـ الطائر لماذا تبكي . سآخذك إلى بلاد الطيور ، لكن الانهمارات التي تدفقت من أفق لامرئي على شكل جنازات مرفوعة أو سابحة في الفضاء ، والتي ما لبثت أن تحولت إلى زوارق وسيارات زرقاء مليئة بالقتلى والأصوات ، قطعت طيوف الرحيل السعيد والمرأة التي غابت .

لم يغف طويلاً . الكوابيس . الحزن الذي سدّ الأفق وهذه المرارة التي صعدت كالجثة إلى حافة الحلق .

اندفع تحت العرق والفزع والاشمئزاز والكراهية إلى الحمام . حاول أن يتقيأ فاستعصى عليه . فتح الصنبور واضعاً رأسه تحت المياه المتدفقة . لو يتحول هذا الصنبور إلى بحر . رغبة مجنونة ولدت تحت تدفق المياه . أن يهوي عميقاً في الطبقات السفلى . بعيداً . بعيداً . خارج هذه الأرض . موغلاً في النسيج الأخضر الجميل والقاتل . بعيداً أيضاً نحو الأعماق وغابات المرجان ومراعي الحيتان . بعيداً أكثر نحو الغابات

المائية والأشكال الأسطورية لمخلوقات البحر . مستتراً بهذا الغلاف الشفاف والكتيم والذي لاتصل قاعه هزات الأرض وزلازلها . حيث يتحول إلى شجرة أو سمكة أو ذرة رمل أو طحلب ، أو لاشيء له معنى .

عندما استيقظ من حلم اليقظة ، الموتي ، سمع الباب يُقرع .

ياللعنة !

بوغت بها .

كان مبللاً مايزال ، والماء يتقاطر على ثيابه والأرض .

ـ أوه . غير معقول !

ـ واش بيك مثل الطير المبلول ؟

ـ حبيبتي ! آي . .

ـ آه . ياالحلوف واش راك ؟ اشتقت لك .

كان يطوقها من خصرها وهما يدخلان البيت : بالعقل . بالعقل !

هات الحقيبة عن الباب .

كلمات . حركات مرتبكة . أشواق امرأة لرجل وحنين رجل لامرأة غائبة . لكأن دهراً مضى على افتراقهما . حملها ودار بها الغرفة ثم هويا على السرير المبعثر وانغمرا في القبل والعناق والتوق الناري لجسدين ابتعدا طويلاً ها هما كالنار والهشيم في لحظة اندلاع .

حلم . يلتصقان . لو تتحطم هذه الأضلاع فيتداخلان لحماً ودماً وصرخة روح . مهدي جواد ينغمر داخل آسيا ليحتمي من الخارج والرياح . كان يصرخ بصمت ، صراخ حشرة تبحث عن جحر . صرخة طفل يتكوَّر في رحم أم .

يتشمم رائحتها من الشعر إلى الجبهة عابراً بشفتيه فوق العينين والخدين وماوراء الأذنين والذقن والرقبة ومسرى النهدين .

هي كانت تضغط الظهر والصدرين بصعوبة تحت هذا الانسحاق العذب للجسدين المتشابكين كالأغصان .

ـ يا الهي . من أي نجم هبطت !

ـ اشتقت إليك . موت . كنت أموت في غيابك .

هما الآن يريان بعضهما وجهاً لوجه لأول مرة . ذراعه ممدودة على كتفيها وكفاهما متشابكتا الأصابع .

هائلة وعملاقة وصلبة ، هذه الطفلة التي انبثقت جواره كشجرة في صيف حارق . ليس الحنان والدفء ما يُمنح الآن . الأمان وصخرة الارتكاز ، امكانية الحرب وأنت تستند إلى جبل يحميك من غارات وغدر الأعداء . واشتبكا في النكد العاشق .

ـ مؤكد كان هناك رجل . جرَّبت الجزائري ؟

ـ عطّاي . هيا . قل . كم قحبة جاءت في غيابي !

ـ قلت أسبوعاً وبقيت اثني عشر يوماً . الأوراق تنتهي في يومين .

ـ اسمع . اسمع هاو البيت مشتت . قل الحق . نمت مع فلّة أم لا ؟ قل الحق ؟

ـ لا . مهيار غطس في البير تاعها .

ـ وأنت كيفاش دبرت راسك ؟

ـ مع طفلات المدرسة .

نسفته صفعة زاغ منها . أردف مغيظاً : هو لازم أتصوَّف في غيابك ! بعد أسبوع غلى الدم . قلت : الطفلة دبَّرت راسها مع الجزائريين . وأنت ياولد دبِّر راسك . واحدة بواحدة وربي ينوب على الخاسر .

لم يستطع المضي أكثر فاندفعت الضحكات . اغتاظت وصدقت . كان يضحك على شكل موجات لاشعورية لاصلة لها بهذه التخرصات التي يبتدعها للنكد . كان بإمكان الرجل الخنزيري الذي داهم المنزل أن يغتصبه بسهولة قانونية عندما هزئ منه واستلقى على مدخل البيت على ذلك النحو الكاريكاتوري .

وهو الآن يستلقي من الضحك . نهب نجاته من اغتصاب البوليس ونهب سعادته المطلقة بقدوم آسيا في هذه اللحظة اللعينة . هدرت آسيا أشياء عن أقاربها الحمقى في العاصمة . كيف كانوا يراقبونها ويرسلون معها الحراس وكأنها بومدين . وروت عن اكتظاظ الجزائر بالبشر وكراهيتها وتحرش الرجال بالمرأة . عالم آخر غريب عن بونه لكأنك في باريس أو لندن . عالم حر وسائب في الجامعة والمقاهي والخمَّارات والشوارع . ألف راجل طاردوني . هيا ياطفلة . هاو باين عليك سخونة . وعلاه شايفة روحك . هيا ننامو سوية . نموت في العنّابيات . تاعهم سخون كيما الفرن . أوه . أوه . يايوما . الخماج . العطايين !

ثم روت كيف كرهت المدينة ورغبت العودة ، لكن ابن عمتها الضابط

في الجيش قال : لو جاء ربي لن تعودي قبل أسبوعين . كل عام أو عامين نشوفك مرة . واش فيها هادي البونه الفارغة يادين الرب ؟ وضحكت . شدَّت شعر مهدي : في بونه ربي . واش لي في العاصمة القحبة ! وأردفت : محال أن أسافر بعد اليوم . روحي خرجت . صرخت : ياربي . وعلاه نحبك هكذا . وعلاه ؟

كان يختنق بالغبطة . الغبطة التي تنهمر عليه في لحظة ماقبل الإعدام .

هل ينبغي أن يتحدث لآسيا عما جرى المداهمة وتحقيق البوليس وتهمة الشيوعية وموالاة بن بيللا وقرار مغادرة الجزائر خلال أسبوع !

تحت غمرة الغبطة القاتلة جاءت موجة عاتية . وكانا عاريين . وحاول صدّ الأشباح والغمرة . وكانا في الليل الأخير والعشاء الأخير . مسموح لهما بالوداع قبل انبثاق الفجر .

كان العالم يرتج بضوضاء وحشية .

وقال لنفسه : كن متوازناً أيها الرجل المطرود في ليلتك الأخيرة . وخرج من حالته . سألها عن الهدايا فنهضت إلى الحقيبة والأكياس . نثرت هدايا الأم ثم منار ورابح . هدايا بسيطة . غندورة للالا فضيلة من الساتان الأزرق بلوزة وردية لمنار وبنطلون رمادي لرابح وقالت : اغمض عينيك . جاءته وهو مغمض وقبّلته : افتح عينيك . بين أصابع ذراعيها نشرت قميصاً نيلياً : مارأيك .

ـ هذا لي ؟

ـ بلى !

ـ ياله من قميص ينّم عن ذوق في منتهى الرداءة !

ـ وعلاه ؟

ـ لأنني لاأحب النيلي . ألف مرة قلت لك هذا .

ـ فلاح . كم أنت متخلف . أي لون تحب ؟

ـ الرمادي أو البني .

صاحت : قلبك معتم . منذ الآن ستلبس على ذوقي ياالهمجي . فهمت . هيا نوض وقِسْهُ .

ـ من بعد . من بعد . هذا كل ماجئت به ؟

واندفع يبعثر الثياب ومحتويات الأكياس والحقيبة .

لم يصدق عينيه وهو يمسك بزجاجة الكونياك .

ضمَّها إلى صدره : أنت أجمل عاشقة في العالم . هذه أجمل هدية .

ـ أهدانيها ابن عمتي ليزيد .

ـ من أجل هذه الخمرة المقدسة أنا الليلة اسمي يزيد ولد الحاج . فتح الزجاجة وجرع منها . ضحكت عالياً :

ـ اسمعي . رتبي الكتب والغرفة وأنا سأجهز الحمَّام . ستنامين الليلة هنا فهم لاينتظرونك . أكيد .

ـ أتيت مباشرة من محطة القطار إليك .

ـ عظيم . أنت امرأة ذكية حقاً وأنا أطلب يدك الليلة .

ـ مامعنى ذلك ؟

ـ هل تقبلينني زوجاًلك ؟

ـ ياللمصيبة ! واش ندير بيك . يزيني مصايب . خويا . يرحم والديك. أشعلا سيجارتين تحت المسرّة والنكد والعشق النازف . تناول جرعة سريعة من فم القنينة . قال مهدي جواد بين الهزل والجد : إذا تزوجتني صدقيني لن تندمي . من الشقاء والتشرد وحبي المجنون سأبني لك أيكة من التصوف والعبادة . قالت آسيا الاخضر مغيظة : إنما أنت رجل هالك ودمك مباح . وقال مهدي جواد بين الجد والهزل : أنا رجل عاشق ياعزيزتي قبل أن أكون سياسياً . الحبّ في دمي ككريات الدم .

وقالت آسيا الأخضر : ستطويني كما يطوي الغجري الراحل خيمته فلا يكون لي قرار ولا بيت . هذا أنت .

وقال الذي نبذته الأرض : سأحملك في حقول دمي أينما رحلت . ستكونين مسرتي وأكون نجمك الذي لاينطفئ .

وقالت آسيا : لاأمان للغجر الرحّل والرجال القساة . أنت رجل وعر ياعزيزي ومجروح .

وقال المغمور بالشقاء بين الوعي والعاطفة : آه . لماذا كنت أبحث عن الشخص الثاني فلا أصطدم إلا بالواحد !

هو ذا جسد آسيا يلمع تحت الماء . بياض مصقول ينفذ من الغرفة الكتيمة ، الضيقة ، مشعاًعبر فضاء العالم . صدرها الفسيح ونهوض نهديها ، وهذا التكوين المتناسق لجذعها مع فخذيها ، لكأنها ديانا آلهة الصيد .

لأول مرة يستحمان معاً بعريهما الكلي . هي ترى تفاصيل جسده وهو يرى .

المحارم المغطاة بالثياب والشراشف ومايوهات البحر ، انزاحت فبدا الجسدان ، الصلبان المشعران ، الهابطان من الرحم وهما يضحكان تحت الماء ويتراشقان ويمسدان الأعضاء المحرمة . القضيب وشعر العانة المثلث والمؤخرة .

بدت بعد الوهلة الأولى لاتختلف عن الذراع والفم والجبهة ، ولعلها وهي تتجلى تحت البصر الآن فاقدة قداستها وحرمتها الدينية ، أكثر جمالاً وطفولة وتناسقاً وتطهيراً للنفس .

من رقبتها حتى منحدر الفخذين ، فرك ظهرها وصدرها بالإسفنج والصابون . الجسد الناعم ، الطفل ، الصقيل . هي أيضاً غسلته كطفل استسلم لذراعي أمه . وكما لم يحدث في عصورهما الشابة ومسار حبهما ، اغتبطا كطفلين في غدير كأنما يستعيدان أزمنة بدائية قديمة دمّرت طقوسها وشعائرها سطوة القوانين والشرائع واستعباد الجسد .

بين الضحك ورشق الماء والبذاءات المقدسة والتضام العاري ، والصيحات البدائية ، كانت النشوة الصاعدة في مسام الجسدين تأخذ شكل العشب الأول وهو يكسر القشرة الخارجية للأرض ليصعد نامياً نحو فضاءات الشمس ، متفتحاً بنضارته .

في السرير وهما ملفوفان بالمناشف تحت الشرشف ، قبّلته بدفء . من جسديهما كانت تفوح رائحة مابعد الاغتسال . رائحة البخار الدافئ . رائحة طفولة الجسد ، العبقة بالغار . هو ارتدى منامته وهي لبست غندورتها الزهرية وشرعاً يحضران العشاء .

انهمكت آسيا بتقشير البطاطا وراح مهدي يغسل الخضار لتهيئة سلطة البندورة والبصل والخسّ . بعد أن أنهت البطاطا تناولت شرائح البفتيك وراحت تملحها . كانا يثرثران عن الغياب والشوق والسفر واستنفارات يزيد ولد الحاج على لالا فضيلة .

- سيقول لها بأن ابنتك لم تذهب إلىالعاصمة لتهيئة أوراق الجامعة . العاصمة يالالا شيء آخر مختلف عن بونه . هناك ستضيع الطفلة . ماكانش أخلاق ولادين في البلاد لمخلطة . آسيا طفلة حلوة وبسيطة وأي حلّوف ينجّم يضحك عليها ويطيح بها . أنا خايف عليها يا لالا تهمل روحها وتتوه في الزحمة .

آسيا تنطق باسم أغوار سي يزيد الشفوق ، وهي تسخر من غيرته الخرقاء . تتساءل باستغراب : وعلاه يشوف فينا جزءاً من أملاكه ! كرسي أو بقرة أو بورمه . كأننا مازلنا في سن الخامسة . تتهكم وهي ترمي البطاطا في المقلاة : لالا . وينها آسيا ؟ لالا . وينو رابح . لالا وعلاه تأخرت منار في التنس الخامج ! لالا . عيونك على بناتك من الذيبان . غريب ! العالم في رأسه غنم وذيبان . والمرأة وجبة طعام للرجل .

كان يستمع وهو يفرم البندورة في صحن البلاستيك ويراكم فوقها الخس والبصل . وإذ سألته كيف أمضى أيامه في غيابها تحدث عن فلّة وعشق مهيار لها والامتحانات الطلابية ، وساحة المدينة التي كانت خاوية في غيابها ، وشرب البيرة في قهوة المغرب وحده حالماً بعودتها .

لم يقترب من حادثة البوليس . لابد أن تكون هذه الليلة عذبة واحتفالية . وعندما يدرك شهرزاد الصباح تكون الحكاية الأخيرة قد انتهت ، ولن يكون هناك مايُروى في ختام هذا الكابوس الطويل .

ستظل المدينة راسخة رسوخ الزمن فوق أساساتها الصلبة . أبداً هنا في هذا المكان . تسمع الحكايات وتستقبل العشاق والمجانين والبحارة واللصوص والزناة والمعربين والهاربين من أوطانهم واللواطيين . مدينة القديس أوغسطين وهواري بومدين وريزي عمر وسي العربي ، ومدينة آسيا الأخضر ، ولاتريم . ستكون هناك مدينة أخرى . ستسمى مدينة الصدمة التي سقطت فيها بيضة رخ فكان في داخلها طفل وبعد أن انكسرت خرج منها فرأى نفسه على شاطئ غريب ، وجميل ، وفي غمرة تيهه وشروده وخوفه رأى فيما رأى : المدن البيضاء والشوارع المنارة ، وأشجار الدردار دائمة الخضرة ، والسماء المليئة بالخطاطيف ، وخفقان موج البحر ، والصدى الليلي فوق نتوءات الصخر ، ودبيب الصراصير والنمال وهي تتسلق العشب ، ولمعان المطر فوق الأرصفة .

ثم فجأة لاحت امرأة .

هذه المرأة .

كانا يأكلان ويشربان بغبطة ، وفي أعماقهما توق مؤجل لمسرَّة جسدين مشتاقين ، يصرخان بعد هجر .

هذا البراندي اللعين حاد ، سريع الفعالية ، وهذه المرأة النادرة هنا الآن ، ومهدي جواد رجل مسافر فوق عباب هذا البحر يطارد سحابة أو لمعة موجة أو طائراً داخل الليل والموت والهواجس السرية .

لقد ابتدأ الدوي والبروق ، وراحت طبقات الليل تُشطَر . وهما متعانقان ، روى شيئاً عما حدث . شيئاً موجزاً .

من أين جاءه الحزن ،هو ينشد الحبور ؟

تساءل بعد همود رجيب القلبين واستراحة النحيب .

عندما صرخت : آه . يوما ! وهوت فوق صدره أحس الهشاشة تحت رأسها .

لم يكن يعرف من هو في هذه اللحظة الحرجة ، ولاما إذا كان يستطيع أن يشيل هذا الثقل الملقى . وتذكر برقاً كلمة أمه : آه . ياجمل المحامل ! وسمع المرأة تحت بريق الخمرة ، تتحدث عن يزيد ولد الحاج الذي استجار أخيراً بالبوليس ووصمته بالخنزير .

نفض رأسه خارجاً من ضباب البحر . أمسك بأعمدة الكذب والليالي السوداء فهزها . قال للغبطة النائمة تحت أعشاب البحر : أنت سفينتي . أنقذيني من صخب هذا الغمر !

عن وجه المرأة مسح الدموع بشفتيه . داعب الشعر والوجنتين والأذنين واحتضن الرقبة المتلعة : كيف أقول لك أنت حلمي وملاذي !

لكنها رؤيت ترشح بالمرارة وهي تسأل : ماذا علينا أن نفعل اذن ؟

وفاجأها : ننهض إلى الرقص .

بحركة مسرحية نهض إلى المسجلة فوضع شريطاً راقصاً . وبحركة أخرى عاد ليتناولها من خصرها : هيا . هيا . إلى الجحيم كل شراميط الأرض .

نحن معاً وهذا هو الحقيقي .

بدت الإيقاعات الأولى للرقص وجلة . للمرة الثانية يجرب الرقص بعد تلك الليلة التي سهراها معاً في بيت السوري . كان رقص آسيا بطيئاًمرتبكاً بمرارتها . وكان هو يضرب ويدور تحت المدار الطيفي المنسوج من الخمرة والغضب والقصور .

الغرفة تدور . شال شوق للخروج من الأطواق المغلقة باتجاه الطفولة وعضوية الجسد والحنين السري للغابات العذراء . حالة هروب .

واستحثها لتخرج من حالتها : ها . وين الأفريقية تاعك ! سلبوها في العاصمة ! ياجبل الثلج اسخن شويا .

مع ارتفاع صخب الموسيقا تنامت حيوية آسيا . ابتدأ ايقاع قدميها

يتناغم رشيقاً مع تلويح ذراعيها وهما يختلجان حول محور الصدر النافر . كانت الرقصة تنمو نمو اشتعال النار في حزمة حطب . بحركتين سريعتين نصف دائريتين متعارضتين ، رسم نصفها الأسفل المدخل البدائي لرقصة الجيرك .

ومع الصخب الموسيقي والرغبة الداخلية التي اتقدت ، التهب الجسد الأفريقي مخترقاً وقار العالم وحزنه .

من وجه آسيا ، وهي تحت سطوة الجسد ، شعَ ألق سحري ضرَّج وجهها فأنضح قطرات من العرق . قدماها ثم فخذاها فالحوض انطلقت ترسم بالحركة فرح طيور غابة اشتاقت الطيران بعد سجن .

كانت الآن تتلوى في فضاء الغرفة نصف المضاءة كموجات النار الزرقاء تحت هبوب الريح .

وابتدأ العرق يتفصد نابذاً معه صديد الألم .

وهو يرقص معها باهتزاز بطئ كان يرى الحبور الطفلي لهذا الجسد العذب وهو يغني .

هل كان هذا هو العشاء الأخير ؟ وهل كانت المرأة تعزف لحنها الوداعي في هذا الليل الأفريقي الغريب ؟ وهل كانا معاً الآن حقاً ؟ تخاصرا . أخذته بين راحتيها وابتدآ يدوران كطيف . الجسدان ينضوان الشقاء ، والطفولة المنسوجة من حلم الطيران هي ذي تستعيد زمنها البدائي وتخفق بعيداً .

لم تكن هناك حدود ولاقسوة ، في لحظة امتزاج الخمرة بالعرق بالتوق العضوي المنفلت .

وراحت الغرفة تنبسط وتمتد وتطير ، بينما الجسدان يرسمان في الفضاء الطائر حقولاً وبحاراً وطيوراً وأفراحاً لاتُحدّ .

في حميًا الرقص قالت آسيا : لم أكن أعرف أنك تجيد الرقص .

وضحك مستمتعاً .

ـ أنت علمتني .

لم يكن رقصه منتظماً . نوع من الهياج أو انبثاق عفوي يكسر حالة حصار لتحقيق التوازن .

لو لم يرقص على ذلك النحو الأهوج لكان عليه أن يكسر شيئاً أو يطعن . كان على أبواب الصرخة عندما أتى الرقص فجأة .

ـ آي . تعبت . استمري وأنا أصفق لك .

الغرفة تدور وهي ماتزال تطير في سماء غريبة . زهرة عباد شمس تدور وتنأى وتتطاير أوراقها .

وماكان هناك من شيء يُحسّ أو يُلمس . عالم من الأطياف والشظايا والنثارات . ألوان خضراء وصفراء وبنفسجية وحمراء تأتي وترحل داخل مدارات اهليلجية أو مربعات أو أقواس . رسوم تنبثق ثم تُمحى ثم تتخذ أشكالاً سريعة الإنطفاء والوميض . كون غريب سطا عليه اللاوعي وخداع البصر والحواس والرغبة والجنون والشبق والمسرات المنطوية والحزن والفقدان والطاقة الروحية التي كسرت احتمال الجسد وحدوده القصوى .

وماكان مدركاً إن كان في النشوة القصوى أو الألم الأقصى ، أم أنه في النزع الأخير وصرخة الدم .

كطوف كان يجرفه تيار . مفلتاً على سطح الغمر ، وماكان محمياً في تلك اللحظة من السحر .

عار في الزمان العاري . والعالم مفتوح بلا مدى . ومن كل الجهات كان الصقيع يشع .

ـ أوه . لماذا تبكي ؟

غمرته بحنان أصابعها ودفء الجسد .

ـ لمثلي البكاء ياعزيزي .

ـ لاتبتعدي . أنا بحاجة إليك .

وانغمرا .

ـ ياطفلي الصغير . ياطفلي الخائف !

ـ 16 ـ

جميلة بونه وحزينة تحت هذا الضحى . اليكترا جلاها الأسى ، تقف على شاطئ المتوسط مزدهرة بوجدها وأسرارها الغامضة ، تتراءى كأنما تودع عاشقاً يرحل أو أباً محمولاً إلى مدفن .

كذلك بدت في صباح ماسيّ يلمع كموج الماء تحت أشعة صيف . أنها الشمس هذه التي تتوهج فوق ذرى الجبال وعلى العشب ، منحلّة في مياه البحر .

وهو ، المندفع في أعماق المدينة ، يلمح خطفاً الوجوه والجدران البيضاء والباهتة وواجهات الحوانيت والسطوح القرميدية والخطاطيف المذعورة في فضاء أبيض .

سفينة على وشك الإقلاع .

يقطع شارع أول نوفمبر ثم الساحة وينعطف إلى زنقة ابن باديس فمحطة أوتوبيسات القالة وسوق أهراس ، يصعد تسع درجات وثباً ويقرع الجرس . تفتح فلّة بوعنّاب الباب المرتج . وجهها مربد مسحوب الدم : أهلاً سي مهدي . ادخل . على العتبة يسأل عن مهيار تقول فلّة : أخذوه في المساء الفائت . تقول ذلك وهي على أبواب الانهيار ثم تقول أشياء غاضبة وبذيئة عن الكلاب والحلاليف وسهرها الليلي بانتظار عودته .

يغادر فلّة وينحدر مسرعاً على الدرج . يسير بخطوات سريعة ، يفتش في المقاهي وبيوت الأصدقاء سائلاً عن الباهلي .

الأرصفة مبللة بمياه البالوعات . عاصفة غبار ورمل تلف المدينة ومن المرفأ يرتفع صفير باخرة .

لاأثر للباهلي .

يسير مهدي جواد . يسرع ويتباطأ تائهاً تحت سقف السماء . جدران العمارات صلبة وراسخة ومتجاورة كأنياب حوت ضخم يسدّ منافذ البحر . والرجل يخترق الشوارع مفلتاً كسهم بين أنياب الحوت . تحت هذا الانهدام الكابوسي لمدينة ترتج بزلزال وعما قريب ستتساقط . مدينة الروائح الكريهة والجراثيم والأحماض والبالوعات والنفايات الصاعدة من براميل القمامة . المدينة المزدحمة بالأجساد والعرق والسيارات والغيظ والملل والزمن الملتصق بجدران المنازل ومطاعم الكسكسي والعدس واللوبياء العامرة بالذباب الأزرق والفنادق التي بناها الفرنسيون ليسكنها القمل والبدو والبقّ الأحمر والسفلس وعاهرات الدرجة الرابعة والمخبرون السرّيون والسكارى ولصوص الليل بعيداً عن العمارات والفيلات البيضاء المحروسة بالحرس الأزرق وسيارات البوليس الزرقاء حيث يتبختر الشّرط بستراتهم الأنيقة ومسدسات الماغنوم الأميركية والهراوات المدلاة من الخصور داخل أحزمة من الجلد الأسود بعيداًجداً عن مدافن الشهداء والنصب التذكارية التي سالت على جذرانها دماء

الصارخين : بن بيللا . بن بيللا . ليبرتي . ليبرتي . بوخرّوبه ياسفاح ! ظهيرة اقتحم ذلك الكولونيل الصعب المراس خشن الطباع والذي لايبتسم حتى لحليب أمه وزارة الدفاع والإذاعة ليعلن أن حكم الفوضى والتسيُّب قد انتهى وبدأ حكم النظام والسلطة والقانون لأن البلاد التي كانت سائبة آن لها أن تعود إلى رشدها ومرافئ أمانها بالرعب والسطوة والضرب بيد من حديد على رؤوس المشاغبين والفوضويين ودعاة الثورية المزيَّفة يوم خرج الشعب في بونه معقل الكولونيل بوخروبه ومسقط رأسه صارخاً : لا للعسكر . لا للديكتاتورية . نعم لبن بيللا . نعم للحرية . في ذلك اليوم العاصف ـ التاسع عشر من شهر جوان ـ حزيران تلقى الجند الأوامر بمواجهة الشعب الغاضب فنزلت البزات الكاكية إلى شوارع المدينة وابتدأت حصادها الدموي في شارع أول نوفمبر وعبَّان رمضان وريزي عمر وساحة أفريقيا والأسواق الشعبية حيث اختلطت الدماء بأوراق الشجر وأشعة الشمس وعربات الباعة والخضار والفواكه فصعد الهلع إلى عنان السماء ، آن كان الجنود يتقدمون صفاً صفاً وينبثقون من المنعطفات على شكل مفارز قتال شوارع والرشاشات في وضعية الرمي الغريزي تبهق رصاصها ضد العدو الأعزل إلا من الصرخات في تلك الظهيرة الساطعة بينما كانت الأجساد تُثقب وتتهاوى والولايات الأخرى تشهد المداهمات والاعتقالات والتصفيات كانت الدورة القمرية للكوكب العربي تدخل في حقبة المحاق مواصلة انهيار الزمن عبر شلالات الدم والانشقاقات الثأرية التي ابتدأت مع خلافة عثمان بن عفان ومعاوية والعباس السفاح والتي لم تنته بعد بعصر عبيد الله الكلبي ومحمد بوخروبه وسائر السلالة المنحطة التي جاءت بها الصحراء الكاوية وحروب القبائل والرجع الديني وغريزة الوحش الضاري في أعماق الفرد ـ الله التوَّاق لأن يقول للبشر ـ الأشياء كوني فتكون ، بعيداً أكثر عن أكواخ الصفيح وأحزمة البؤس والمستنقعات الدودية والموت غير الهادئ بالبلهارسيا والتيفوئيد والملاريا والجوع والقتل الدوري .

فجأة هذه الموسيقى ومهدي جواد مايزال يركض في شوارع المدينة وأغنية «حدثني عنه» تخرج من مخزن لبيع الاسطوانات . وجيب احتفالي مدرع بالشقاء والخيال المراهق . تتويج امرأة في طرف قصيّ ومهجور من العالم مكان مجلل بالثلج . بياض يحاكي بياض أشرعة تقلع أو أكفان في مقابر أو طيور بيضاء تنتفض في شبكة .

تلوح المدينة العظيمة ، البيضاء . مدينة القديس أوغسطين وريزي عمر ومحمد بوخروبه وسي العربي وعمر يحياوي وآسيا لخضر ويزيد ولد الحاج راسخة رسوخ الآلهة تحت هذه السطوة الأبدية لشروق وغروب شمس الراعي الصالح الذي يفتح المدينة لرعيته في الصباح لترعى ثم يغلقها مع أول المساء لتنام .

مهدي جواد مايزال يسير أو يعدو وتحت قدميه ترن الأرصفة وترن المدينة .على الشبكية تفرّ بونه بقاماتها الشاهقة والمنحنية والمكسورة هاوية على مهل نحو قاع الذاكرة .

وهمْ . وهمْ . حكاية يرويها أبله بعد ضربة كابوس .

وماقبل ذلك كانت تُلمس وتحسّ . صلبة كانت المدينة والبشر . المدينة البيضاء التي كانت تُرى برجالها ونسائها وأطفالها . بحجارتها وشجرها الأفريقي العارم والسامق ، كانت في العين وتحت الأصابع وعلى حواف الأنف والجلد وفي مجرى الدم .

آه . ياللخديعة ويالسراب الحواس !

مدينة المنفى والحب والملاذ والطبيعة الوهاجة تتناثر الآن ذرات هلامية ممحوة المعالم كبقايا سفينة تغرق في أعماق محيط . على سطح البحر المختلج تعوم منها ندبة .

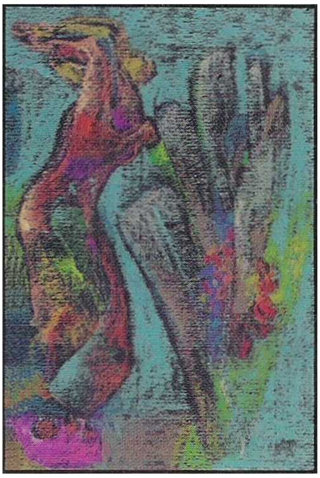
آسيا .

ها قد ظهرت الحدائق ومقابر الشهداء وأبواب البحر أخيراً . من سياج حديقة يقطف الرجل وردة حمراء ثم يلج المقبرة المتاخمة لفاصل البحر .

نصب تذكاري يرتفع على بوابة المقبرة . رمح من الرخام علاه غبار . على قاعدة النصب ينحني الرجل ويضع الوردة الحمراء ثم يخطو نحو البحر . على الرمل يتعرى ثم يصعد صخرة . يتنفس بعمق ، الهواء الرطب ، وباندفاعة طائر يقذف جسده إلى البحر .

الجزائر ـ بيروت ـ قبرص

1983 - 1974



وليمة لأعشاب البحر

وكانت بلاداً جميلة.

إنها لتتألق أبداً بالبحار والغابات والسموات الزرقاء كما تتألق بنساء جميلات وشهيّات كالكرز.

البلاد العذراء التي تختزن المعادن والحبوب والبترول والغاز والمستقبل الغامض، وهذا الذي يُسبِّح ليلاً ونهاراً باسم الله مجراه ومرساه.

لكنها كانت تلوح بلاداً جارحة كحدّ المدية.

فكما تختزن الجمال وعذوبة الطبيعة والمواد الخام، كانت تختزن الزلازل والأعاصير ونُذُر الحرب ومقاصل الإعدام. وفيما مضى في عصور سحيقة في القدم، يوم كانت قارّة من الصحراء المُموجة تحمل على ظهرها النوق والخيل والخيام الراحلة. كانوا يسمونها: مهابط وأرض الأنبياء.

غير أنها مع تقدم الأزمنة، عندما ستمزّق مسامها لتتفجر بالدم الأسود، ستُسمّى مهبط ومرقى فرق الكوماندوس، وحَمَلَة بنادق الناتو، والبحارة اليانكيين، ومِخْبراً لصنوف تجارب التعذيب.